طبع بمساهمة كريمة من معالي الدكتور مانع سعيد العتيبة
المستشار الخاص لصاحب السمو رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة

الفتح بن عبيد الله القيسي الإشبيلي
(ابن خاقان)

السيرة والآثار

د. عبد المالك الشامي

الكتاب: الفتح بن عبيد الله القيسي الإشبيلي (ابن خاقان) السيرة والآثار
المؤلف: د. عبد المالك الشامي
منشورات: المركز الأكاديمي للثقافة والدراسات المغاربية والشرق أوسطية والخليجية / كلية الآداب والعلوم الإنسانية /ظهر المهراز /فاس
سنة الطبع: 2018
* رقم الإيداع القانوني: 2018MO4239
* ردمك:978-9920-36-393-8
* جميع حقوق الطبع محفوظة
* طبع وتصميم: مطبعة آنفو–برانت، 12 شارع القادسية – الليدو – فاس
* الهاتف: 06.61.20.16.41/05.35.64.17.26/ الفاكس 05.35.65.72.47
*البريد الإلكتروني: infoprintfes@gmail.com

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة على النبي الكريم

تقديـــم:

وبعد، فهذا جهد متواضع في ميدان الدراسات الأدبية أقدمه بين يدي البحث العلمي، يتناول بالدراسة شخصية أدبية اعتبرت من أشهر رجالات الكتابة في الغرب الإسلامي هي شخصية **الفتح بن عبيد الله القيسي الإشبيلي المعروف بابن خاقان**، ودراسة حياتها وآثارها. وقد اقتَرح علي إنجاز هاته الدراسة في نهاية سبعينات القرن الماضي الأستاذ المشرف (المرحوم) الدكتور **عبد السلام الهراس**، بعد أن عرضت عليه جملة من الاقتراحات التي كانت تصب في مجال دراسة التراث الأدبي الأندلسي، ومجال التحقيق منه خاصة، - وذلك في إطار تحضير رسالة جامعية قصد الحصول على شهادة الدراسات العليا في الأدب العربي -. وقد قبلت اقتراحه لعلمي وقناعتي بما يمكن أن يكون لمثل هذه الدراسة من فائدة على مجال الدراسات الأدبية عامة، والأندلسية منها بصورة أخص، باعتبار أن المغاربة هم الأجدر بالاهتمام برجال المنطقة وتاريخها، لقربهم منها أولا، - وأهل الدار أعرف بما فيها كما قال ابن الخطيب -، ولمشاركة أجدادهم في صنع ماضيها المشرق ثانيا، ولكون مكتباتهم ما تزال تزخر بالكثير من الذخائر التي نحن في أشد الحاجة إلى من نستأمنه على إخراجها الإخراج العلمي المطلوب ثالثا.

وهكذا، فقد قيض الله لي في رحلة البحث هاته من شروط التوفيق أستاذا مشرفا متميزا بخلق العلماء، ومعاشرة الباحثين وتيسير ما قد يصعب عليهم، هو الدكتور (المرحوم) عبد السلام الهراس، الذي وثق في حماستي واهتماماتي، - بعد ما اطلع عليه من كل ما قدمته بين يديه في مشروع البحث -، فأمن على ذلك، وقوم ما احتاج إلى تقويم، وجعل مكتبته تحت تصرفي، جازاه الله عن العلم وطلبته أفضل الجزاء، وأحسن إليه بما قدمه لي ولغيري من المساعدات، والله لا يضيع أجر المحسنين.

كما قيض الله لي أيضا رفقة طيبة من الزملاء الإخوة الذين كنت أتقاسم معهم رحلة البحث، وتعب الرحلة إلى مدينة وجدة للقيام بمهمة التدريس، إذ لم تسمح لنا ظروفنا الشخصية آنذاك بالانتقال والسكن إلى مدينة العمل، فكنا ننتقل أسبوعيا لنقضي يوما أو يومين، ثم نعود إلى فاس بلد السكن. وقد وفرت هذه الرفقة الطيبة المكونة من المرحوم

الدكتور محمد الدناي، والدكتور عبدالله بنصر العلوي والدكتور أحمد زكي كنون، وفرت لكل منا ما كان ينقصه مما تجود به المناقشات المعمقة لقضايا كل منا في مجال بحثه، كما حظيتُ من خلالها بنسخة فريدة من طبعات كتاب قلائد العقيان تكرم بها علي أخي ورفيقي عبد الله بنصر العلوي.

وقد انتهت رحلة هذا البحث إلى الحصول على التقدير المرغوب فيه مع التوصية بطبعه ومبادلته مع الكليات والشعب ذات الاختصاص، وذلك من قبل لجنة المناقشة المشكلة آنذاك من الأستاذ المشرف الدكتور عبد السلام الهراس وعضوية الدكتورين محمد الكتاني، والمرحوم عبد الله الطيب.

وأريد أن أنبه في هذه المقدمة إلى أمر جدير بالاعتبار ومتعلق بتاريخ إنجاز هذه الدراسة، إذ تعود إلى السنة الأولي من ثمانين القرن الماضي، بما يعنيه هذا التاريخ من انعكاس على مصادر هذه الدراسة.

فكتاب قلائد العقيان مثلا لم تكن قد حظي بالتحقيق العلمي، وه اليوم قد حقق مرتين بتحقيقين جيدين أحدهما مغاربي والثاني مشرقي، وكتاب مطمح الأنفس كذلك لم يكن محققا أيضا، وهو اليوم قد حظي بتحقيقين هامين، أحدهما عراقي والثاني سعودي. ورسالة ابن خاقان حول ابن السيد التي تضمنها القسم الخامس من أزهار الرياض لم تحظ أيضا بالتحقيق ضمن الأجزاء الأخيرة من أزهار الرياض. وكثير من المصادر المعتمدة في تراجم الشخصيات الأندلسية كانت في حكم المفقود، أو طبعت طبعات تجارية مستعجلة.

وقد تعمدت أن أنبه إلى مثل هذا الوضح لأدلل على واقع الصعوبات التي صادفتها وأنا أشتغل في هذا البحث. لذلك وجدت نفسي مضطرا إلى اعتماد نسخة العنابي من القلائد المطبوعة مثلا، ونسخة اسطنبول من المطمح المطبوع، وأن أجتهد في مسح ما تتضمنه المكتبات العامة المغربية وصفا ومقارنة وتقييما من مختلف المخطوطات التي توجد بها لكل من القلائد والمطمح. وأن أعود مراجعا ومدققا في مختلف المعلومات التي تضمنتها كتب التراجم والطبقات المغربية والأندلسية والمشرقية، لينتهي البحث إلى الإجابة عن مختلف الأسئلة التي تلاحق رجلا أديبا وكاتبا متميزا خلق لنفسه عالمه وأخلص لما كان يرجو تحقيقه من أهدافه وأحلامه، حتى لقي ربه كما أراد له.

والله ولي التوفيق

تصدير تاريخي

ينتمي الفتح بن محمد بن عبيد الله القيسي الإشبيلي (ابن خاقان) من الناحية التاريخية إلى عصر المرابطين، ذلك لأنه ولد في أواخر عصر الطوائف، أي في نهاية العقد السابع من القرن الخامس وتوفي في أواخر عصر المرابطين. ففترة حياته تمتد إذن، امتداد الوجود المرابطي في الأندلس، وامتداد التأثير الذي خلفه وجودهم على ساحة الفكر والأدب والسياسة والحرب.

ولما كان الوجود المرابطي في الأندلس عنصرا سياسيا طارئا مرتبطا بأحداث معينة. فإن من الضروري الإشارة إلى ظهوره في الأندلس، وما كان له من انعكاسات على الصعيد السياسي والاجتماعي والفكري.

* **فعلى الصعيد السياسي**: ظهر المرابطون في الأندلس إثر استدعاء ملوك الطوائف لأمير المرابطين يوسف بن تاشفين وجيشه، ليساعدهم على دفع التكالب المسيحي على أرضهم وممالكهم. وقد فكروا كثيرا قبل أن يستدعوه، بل لقد اشترطوا عليه قبل أن يسمحوا له بالانتقال من العدوة، وكان من شروطهم أن لا يمس أحدهم بسوء، وأن يبقي على ممالكهم ويرعاها. وفي مقابل ذلك يبذلون له الطاعة والاحترام، ويساعدونه في أداء رسالة الجهاد. وقد بدا هذا واضحا في الرسالة التي أرسلوها إليه باسمهم، والتي قالوا فيها[1]. (...أما بعد فإنك إن أعرضت عنا نسبت إلى كرم ولم تنسب إلى عجز، وأن أجبنا داعيك نسبنا إلى عقل ولم ننسب إلى وهن، وقد اخترنا لأنفسنا أجمل نسبتنا، فاختر لنفسك أكرم نسبتك فإنك بالمحل الذي لا يجوز أن تسبق فيه إلى مكرمة، وإن في استبقائك لذوي البيوت ما شئت من دوام لأمرك وثبوت. والسلام).

غير أنهم لم يحافظوا على ما تعهدوا له به بعد معركة الزلاقة، ذلك لأنهم عندما عاد إلى الأندلس في المرة الثانية بدعوة من المعتمد بن عباد، لمساعدته على مناجزة العدو في حسن لييط، وكان قد كاتبهم في اللقاء عند ذلك الحصن، لم يلقه منهم إلا المعتمد وابن رشيق، بل بلغ التنكر له حدا بابن باديس صاحب غرناطة إن مالأ العدو ضده، فصالحه وساعده بالمال[2]. فكان تنكرهم هذا سببا من الأسباب التي تذرع بها يوسف بن تاشفين في

[1] - الاستقصا: 36/2.

[2] - القرطاس: 153.

البطش هم، تحقيقا للشرط الذي اشترطه عليهم في رسالته التي أجاهم ها على رسالتهم السابقة والتي قال فيها[1].

(بسم الله الرحمان الرحيم من يوسف بن تاشفين، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته تحية من سالمكم وسلم إليك، وحكمه التأييد والنصر فيمن حكم عليكم، وإنكم مما في أيديكم من الملك في أوسع إباحة، مخصوصون منا بأكرم إيثار وسماحة. فاستديموا وفاءنا بوفائكم، واستصلحوا إخاءنا بإصلاح إخائكم، والله ولي التوفيق لنا ولكم والسلام).

فقد اشترط عليهم أن يستديموا وفاءه بوفائهم، فلم يفوا له، وتنكروا لعهده ومالأ بعضهم العدو عليه. واشترط عليهم أن يستصلحوا إخاءه بإصلاح إخائهم. فأصبح كل واحد منهم يسعى بالآخر لديه، وكل منهم يتحايل في مرضاته بين يديه، فإذا ابتعد عنه وقع فيه وفي خروجه إلى الأندلس، ونظر إلى جهاده نظرة طمع، مع أن المشهور عنه ومن خلال ما عاينوه من سلوكه أنه خلال رحلته لنجدهم لم يعرج على مدينة، ولم يدخل قرية سواء في صدره أو ورده ولم يأخذ فيئا، بل اعتبر خروجه للجهاد أداء للواجب وكفى.

وهكذا أمر يوسف قواده باستئصال هؤلاء الأمراء واحدا إثر الآخر حتى لم يبق منهم إلا ابن هود صاحب سرقسطة، الذي رأى في بقائه حماية لظهر الدولة بعد أن علم من اتصاله بملوك الإفرنج وثقتهم به، وثقته فيهم، ما يدفع عنه أذى ذلك الثغر، ولذلك أوصى بأن لا يمس ابن هود حتى بعد موته[2].

وقد صفا أمر الأندلس بعد هذه التدابير للمرابطين، فأخذوا يسوسونها بقلب مطمئن، وكان قواد الجيش في عهد يوسف، والأمراء أعضاء الأسرة الحاكمة في عهد ابنه علي، هم الذين يتولون أمر هذا التسيير. وقد ذكر المؤرخون بالإجماع إخلاص هؤلاء القواد النية في الجهاد، والبلاء في المعارك التي خاضوها، حتى امتد النفوذ المرابطي في عهد يوسف إلى أشبونة في الغرب، وبرشلونة في الشمال الشرقي، وسرقسطة في الوسط، وحاصروا مرات كثيرة طليطلة. ولم تكن بداية عهد علي بن يوسف بأقل من عهد أبيه في جهاد الإمارات المسيحية والوقوف في وجه تدفق قواها على الثغور الإسلامية. فقد تم استرداد بلنسية من

[1] - الاستقصا: 36/2.
[2] - الحلل الموشية: 73 و83.

السيد القبيطور، كما توالت المعارك والفتوحات التي كان يقودها مجموعة من القواد المحنكين من الذيين شاركوا في معركة الزلاقة وما بعدها.

لكن النكسات التي أصيب بها كيان الجيش المرابطي بوفاة أغلب هؤلاء القواد لم تجعل الجيش يسلم من هزات كبرى هدت الكيان المرابطي، وخاصة منها هزيمة كتندة التي ضاعت بعدها مدينة سرقسطة سنة (514)، وشاتية (519) التي هاجم فيها ملك أرغونة ملك المسلمين ووصلت جيوشه أسوار غرناطة. ومعركة القليعة (523) التي أوصلت الأزمة إلى غايتها[1]. وقد استطاعت انتصارات الأمير تاشفين بن علي في الغرب أن ترفع من معنوية المرابطين، كما استطاعت معركة أفراغة(528) أن تنصف المرابطين وتشفي غليلهم من ملك أرغونة.

وعلى صعيد سياسة المرابطين في المدن الأندلسية التي حكموها فالمعروف عنهم أنهم كانوا متحفظين في بداية أمرهم في الاتصال بالأندلسيين. وآية ذلك أنهم لم يدخلوا مدينة ولا عرجوا على قرية خلال خروجهم للجهاد. كما كان ذلك ديدنهم بعد ذلك. فقد رأوا النعيم الذي كان الأندلسيون يمشون فيه والذي جعلهم أميل إلى الاستقرار وأكثر محافظة على السلم، ورأوا في اختلاط المرابطين بهم خطرا على المرابطين، الذي اعتادوا حياة الخشونة التي كانت سببا من أسباب انتصارهم، وهو ما عبر عنه يوسف بن تاشفين حين قال[2]: (... إنما غرضنا من ملك هذه الجزيرة أن نستنقدها من أيدي الروم لما رأينا استيلاءهم على أكثرها، وغفلة ملوكها وإغفالهم للغزو، وتواكلهم وتخاذلهم وإيثارهم الراحة. وإنما همة أحدهم كأس يشربها وقينة تسمعه، ولهو يقطع به أيامه، ولئن عشت لأعيدن جميع البلاد التي ملكها الروم في طول هذه الفتنة إلى المسلمين، ولأملأنها عليهم خيلا ورجالا، لا عهد لهم بالدعة، ولا علم عندهم برضى العيش، وإنما هم أحدهم فرس يروضه ويستفرهه أو سلاح يستجده، أو صريخ يلبي دعوته).

ونتيجة لشعورهم الذي ترجمته مقالة يوسف، فقد أحجموا في بداية الأمر عن التدخل في الشؤون الداخلية للمدن والولايات الأندلسية، واكتفوا بتعيين أمراء على مدن أو

---

1 – انظر رسالة الأمير علي بن يوسف إلى المنهزمين في حصن القليعة، في الملحق الخاص بوثائق الإسكوريال (عنان: دولة الإسلام في الأندلس ج.د)

2 – المعجب: 162.

مقاطعات كبرى يتولون من السلطات، السلطة العسكرية أولا، وقد يفاوضون في أمور تخرج عن طاقة القاضي أو قاضي القضاة الذي كان يمثل السلطة التشريعية في البلاد.

إلا أنهم تخلو بعد ذلك عن هذه السياسة ودخلوا في دواليب الحياة الأندلسية وظهر منهم أمراء يحيطون أنفسهم بهالات الملوك، كما كان الحال بالنسبة لابن تيفلويت صاحب الشرق، وكذا بالنسبة للأمير إبراهيم بن يوسف، فكثر على بابهم الشعراء والكتاب، وتولوا دور ملوك الطوائف السابقين من الناحية المعنوية، وإن لم يعرفوا الاستقرار الذي عرفه أمراء الطوائف السابقون. ولكن ذلك لم يستمر لأن الأمير علي بن يوسف كان ينظر إلى الأمور بعين بصيرة فكان يعمل على تغيير الولاة من حين لآخر حتى لا يشعروا بالدعة ويتفيأوا الاطمئنان[1].

ومن الناحية المادية فقد سلك المرابطون في الأندلس سلوكهم في المغرب فلم يفرضوا ضرائب ولا مكوسا وقد جوبهوا من لدن بعض الفقهاء حينما أرادوا فرض ضريبة الحرب لمساعدة الجيش على المواجهة في عهد يوسف[2]، وكذلك حين أرادوا فرض ضريبة التعتيب من أجل إصلاح الأسوار في عهد علي بن يوسف.

على أنهم وكما يقول صاحب القرطاس[3] (لم يجز في عملهم طول أيامهم رسم مكس ولا معونة ولا خراج في بادية ولا في حاضرة... وكانت أيامهم أيام دعة ورفاهية ورخاء متصل وعافية وأمن... ولم يكن في عمل من بلادهم خراج ولا معونة ولا تقسيط ولا وظيف من الوظائف المخزنية، حاشا الزكاة والعشر. وكثرت الخيرات في دولتهم وعمرت البلاد ووقعت الغبطة...).

ويشير بعض المؤرخين المحدثين إلى ثورة (494) في قرطبة ويجعل من الحادث صورة من صور رفض الأندلسيين للوجود المرابطي[4] والمعتقد أن الأمر لم يكن بهذه الدرجة من الخطورة، ذلك لأن صورة الحادثة تفيد أن أحد العبيد تعدى نطاقه فاعتدى على بعض

---

1 – انظر قائمة ولاة إشبيلية مثلا في عهد يوسف: البيان المغرب: 105/4.
2 – انظر قصة ابن البراء من يوسف بن تاشفين: الاستقصا: 59/2.
3 – القرطاس: 167.
4 – المرابطون،عبد الهادي شعيرة: 187.

النساء أو بعض الناس فثار أهل قرطبة على هذا السلوك، ولعله كانت له سابقة، أو لعل للهزائم التي مني بها المرابطون دورا في رد الفعل هذا.

على أن الأمور أصلحت، وعوض سكان قرطبة من مالهم عن الضرر الذي لحق قصر الوالي من جراء فعلهم، ولو كان الأمر مربوطا بالتذمر منهم لعم هذا كافة بلاد الأندلس. وعلى العموم. والظاهر أن المرابطين اكتسبوا خبرة إدارية من خلال اتصالهم بالأندلسيين واعتمادهم على مجموعة من وزرائهم في ذلك. ويكفي الإشارة إلى أن وزراء العصر المرابطي جلهم كانوا أندلسيين، سواء منهم أولئك الذين كانوا متصلين بالولاة أو الذين كانوا متصلين بأمير المسلمين.

* **وعلى الصعيد الاجتماعي:** فقد ورثت الأندلس عن العصر السابق للمرابطين وضعية اجتماعية متميزة ترتبط من جهة بالعناصر البشرية الساكنة في الأندلس من حيث أصولها، حيث يختلط القوط بالبربر والعرب، ويتكون من هذا الخليط من القوميات والعصبيات، ما يشكل عاملا من عوامل عدم الاستقرار الاجتماعي.

فالقوط ظلوا يشعرون دائما بارتباطهم بالممالك المسيحية، وخاصة منهم من ظلوا محافظين على ديانتهم المسيحية، فأخذوا يعملون على إحداث الشغب واستغلال الفرصة، وقد كان لوجودهم في بلاط بعض ملوك الطوائف ما شجع الملوك المسيحيين على الاستيلاء على بعض المدن. فسقطت بلنسية ثم سقطت سرقسطة. وكانوا عاملا مساعدا على حملة الفونسو المحارب ملك أرغون وغزوه لبعض مدن الأندلس سنة 519.

أما عنصر البربر الأندلسيين فقد كان موقفهم من الوجود المرابطي على أرض الأندلس في بداية الأمر موقفا رافضا، وقد عمد أمير غرناطة إلى محالفة المسيحيين حين شعر بقرب عودة يوسف بل أخذ في تحصين مدينته وإصلاح أسوارها[1] ولكن صرامة المرابطين أوقفت هذه العملية عند حدها، فاندمج البربر في الدولة بعد ذلك اندماجا كاملا، ولم نعد نسمع عنهم أنهم قاوموا أو تدخلوا في أمر من أمور الدولة.

أما العرب فبعد القضاء على مملكة العباديين العربية لم يبق لهم وجود إلا في الشمال في ثغر سرقسطة. وقد كان سقوطها في يد المرابطين ثم الإسبان نهاية لوجودهم الفعلي فلم

[1] - الحلل الموشية: 50، والقرطاس 99.

يظهروا بعد ذلك خلال العصر المرابطي. ويبدو أن قوة المرابطين وجديتهم قد استطاعت أن تصهر العناصر الأندلسية في سياسة الدولة ولو لفترة محدودة قبل أن تجد هذه العناصر نفسها مرة أخرى مدعوة لتقف في وجه المرابطين على شكل ثورات القضاة في أواخر عصر تاشفين بن علي.

وترتبط من جهة ثانية بالديانات المتساكنة من مسيحية ويهودية وإسلام وما كان لهذا التساكن من تأثير على العادات والتقاليد الاجتماعية. فانتشر مثلا بيع الخمر وتعاطيها في عصر الطوائف، وورث الناس كثيرا من العادات الفاسدة التي كانت مشهورة في عصر انحلال الدولة من سرقة وغش، وحين أراد بعض القضاة والفقهاء المتشددين الوقوف في وجه هذا التيار، رفض عملهم هذا رفضا كاملا، وقوبل بكثير من التذمر والشكوى، كما حدث لأبي بكر بن العربي حين تولى القضاء بإشبيلية.

ويبدو أن مجالس الأمراء والوزراء والأعيان، لم تكن بعيدة عن ما كان يروج في الأوساط الشعبية، والناس على دين ملوكهم، ومن يرجع إلى المجالس التي حدثتنا القلائد والمطمح عنها يجد صورة من هذه الإباحية الاجتماعية التي كانت تدفع بالوزير وقائد الجند إلى التخلي عن القيام بالواجب في سبيل حضور مجلس شراب[1] والأمثلة أكثر من أن تحصى. كما أن من يراجع وضعية موظفي الدولة والفقهاء منهم خاصة، يجد أن هؤلاء قد استغلوا الأوضاع فأثروا ثراء كبيرا دون أن نعرف سببا لهذا الثراء في الغالب إلا استغلال الوضع.

والواضح أن ظهور الدولة المرابطية على مسرح الأحداث في الأندلس لم يستطع أن يقاوم هذا التيار الذي خلفته القرون السابقة وآثاره على الأوضاع الاجتماعية وذلك لعدة عوامل:

- منها أن الهدف الأساسي لتدخل المرابطين في الأندلس كان انقاذها من السقطة العسكرية في يدي المسيحيين والتي كانت وشيكة الوقوع وقتذاك.

---

[1] - المطمح: 95.

– ومنها أن المرابطين ظلوا لفترة غير قصيرة بعيدين عن الاختلاط المباشر بالأندلسيين بحكم موقفهم من فساد الأوضاع من جهة، وبحكم تخوفهم من الأندلسيين من جهة أخرى، خصوصا بعد أن قضوا على تنظيماتهم السياسية المتمثلة في الطوائف.

– ومنها أن الجيل الذي أقام هذا الاتصال بالأندلسيين من المرابطين وأمرائهم، كان جيلا مخضرم الأصول ابتداء من أمير المسلمين علي بن يوسف الذي لم تكن أمه من أصل مرابطي. وهكذا فقد كان للنشأة دورها في هضم سلوك الأندلسيين والتطبع به.

– ومنها إعجاب المرابطين بالأندلس وطبيعتها وتنظيماتها الاجتماعية والسياسية وتأثرهم بها تأثرا دفع ببعض الولاة منهم إلى اتخاذ المجالس التي كانت تشبه مجالس ملوك الطوائف، فوقف ببابهم الشعراء والتمسهم الكتاب وشاع الأنس وعمت البهجة في هذه المجالس. وتكفي الإشارة إلى وجود ابن باجة إلى جانب ابن تيفوليت وما اشتهر به من صناعة التلاحين، ومن تخرج على يديه من كبار المغنين الذين ذكر التاريخ من جملتهم أبا عامر محمد بن الحمارة الغرناطي[1] وإسحاق بن شمعون القرطبي اليهودي[2]. وقد وصف الفتح صورة من هذه المجالس في غير ما خبر من أخباره سواء في القلائد أو المطمح أو في رسالة ابن السيد.

لهذه الاعتبارات كلها نعتقد أن الأندلس ظلت من الناحية الاجتماعية تعيش نفس الأوضاع التي كانت عليها في عصر الطوائف، وانضاف إلى ذلك ما حمله النظام المرابطي من ضرورة احترام المرأة وإعطائها مكانة رفيعة في المجتمع، انطلاقا من تجربة يوسف بن تاشفين مع زينب النفزاوية، حتى لقد أصبحت للمرأة يد في السياسة والاقتصاد رَمَزَ إليها المراكشي في المعجب ملخصا أوضاع المرابطين في أواخر عصرهم[3]:

(... واستولى النساء على الأموال وأسندت إليهن الأمور، وسارت كل امرأة من أكابر لمتونة ومسوفة مشتملة على كل مفسد وشرير وقاطع سبيل وصاحب خمر ومأخور...).

[1] – المغرب: 120/2، المطرب 109، بغية الملتمس 517.
[2] – المغرب: 127/1.
[3] – المعجب: 114.

* **وعلى الصعيد الفكري**: فإن هذه المرحلة ترتبط بماضي الأندلس الفكري والعلمي مع ميزة خاصة ميزتها عن سابقتها من المراحل. وهكذا فإن التمزق والاضطراب الذي عرفته الحياة السياسية في العصر السابق لم يكن له انعكاس سلبي على الحياة الفكرية. ذلك لأن نشوء الطوائف في الدول غالبا ما تكون عواقبه إيجابية على الفكر والعمل والأدب نظرا لتنافس الأمراء في اصطفاء الشعراء والكتاب، وتهافتهم على المشهورين من رجال العلم والمعرفة. وإذا ذكرنا العصر الطائفي ذكرنا معه ازدهار حركة العلوم النقلية المرتبطة بالقراءات في الجزائر الشرقية ودانية مع مجاهد العامري وابن رشيق[1]، وازدهار الحركة الشعرية في الممالك العربية خاصة كالعباديين في قرطبة وإشبيلية. وازدهار حركة التأليف الأدبي في الغرب مع بني الأفطس خصوصا وقد ألف المظفر منهم كتابه الضخم (المظفري) في خمسين مجلدا كما روى ذلك صاحب البيان المغرب[2]. وذكرنا أيضا ظهور جيل من الشعراء الكتاب ومنهم على سبيل المثال لا الحصر ابن زيدون وابن عبدون وأبناء القبطورنة وابن طاهر وابن رزين،... وذكرنا ظهور جيل من الشعراء الكبار الذين لا يقلون جودة عن مشاهير شعراء العصور السابقة كابن اللبانة وابن عمار وابن حمديس، وابن عبد الصمد، وابن وهبون.

وهذه النهضة الأدبية والعلمية هي انعكاس ولا شك لتشجيع كثير من أمراء الطوائف لأقطابها. وهو ما ذهب على مخالفته الدكتور إحسان عباس واعتبره من التعميمات التي توقعنا فيها شهرة بلاط العباديين[3] مع أنه نبه إلى تباين اهتمام ملوك الطوائف واختلاف ميولهم العلمية، هذا التباين الذي يدفعنا إلى القول بأن نشاط العباديين في مجال تشجيع الشعر هو نوع من الاختصاص الذي كانوا يميلون إليه مثله كمثل ما قام من نهضة علمية في الشرق الأندلسي مع مجاهد وأخيه في دانية وشاطبة، ويدفعنا إلى القول بأن هناك نوعا من التضارب في النتائج التي استخلصها من المقدمات التي أسلفها حين أشار في هذه المقدمات إلى انتجاع الشعراء لأبواب كثير من ملوك الطوائف، واستخلص في النتيجة عكس ذلك. وهكذا فإن الميزة التي ميزت هذا العصر من الناحية العلمية، هي تفرق مشارب المشجعين للحركة العلمية والأدبية. وهذا العامل كان له دوره في نهضة كثير من

1 – ابن خلدون المقدمة 437، الذخيرة: 23/3.
2 – البيان المغرب: 236/3.
3 – تاريخ الأدب الأندلسي ـــ عصر الطوائف والمرابطين: 76.

المدن الصغيرة والممالك القصية وقيامها بدور علمي ملحوظ أصبحت معه قبلة لطلاب العلم كما كان الحال بالنسبة لمدن الشرق الأندلسي مثلا.

أما العصر المرابطي فإن ما نملكه من نصوص أدبية، يعكس جوا من التأفف من الأوضاع التي كانت عليها حالة الأدب والأدباء على حساب نهضة الفقه والفقهاء فقد جاء من قصيدة للأعمى التطيلي يمدح أحد بني القاسم في سلا[1].

أيارحمتا للشعر أقوت ربوعه   على أنها للمكرمات مناسك
وللشعراء اليوم ثلت عروشهم   فلا الفكر مختال ولا العز تامك
إذا ابتدر الناس الحظوظ وأشرقت   مطالب قوم وهي سود حوالك
رأيتهم لو كان عندك مدفع   كما كسدت خلف الرئال الترائك
فيا دولة الضيم اجملي أو تجاملي   فقد أصبحت تلك العرى والعرائك
ويا قام زيد اعرضي أو تعارضي   فقد حال من دون المنى قال مالك

وجاء أيضا في قصيدة لأبي بكر يحيى بن بقي في مدح أحدهم [2]:

إلى الله أشكوها نوى أجنبية   لها من أبيها الدهر شيمة ظالم
إذا جاش صدر الأرض بي كنت منجدا   وإن لم يجش بي كنت بين التهائم
أكل نبي الآداب مثلي ضائع   فاجعل ظلمي أسوة في المظالم
ستبكي قوافي الشعر ملء جفونها   على عربي ضاع بين أعاجم

وجاء في أبيات لابن الجبير[3]:

رأيت الكتابة والجاهلو   ن قد لبسوا عزها لامة

---
1 - ديوان الأعمى التطيلي: 91.
2 - القلائد 223 والذخيرة: 626/2.
3 - القلائد: 177.

فقلـــت لكـــل فــتى كاتــب بـــدين الفصـــاحة علامـــة
إذا عـــز غيركـــم بالمـــداد فـــلا أنبـــت الله أقلامـــه

ولن ندعي أن هذه النصوص تصور تدهور الأوضاع الأدبية في عصر المرابطين، ذلك لأنها قيلت في مناسبات مختلفة وظروف متباينة. فقصيدة الأعمى التطيلي قيلت في مناسبة مدح، والشاعر بعيد عن أهله وذويه، مرتحل إلى سلا، راغب في نوال قاضيها، وكذلك الأمر بالنسبة لابن بقي. بينما كان الشعور بالامتعاض هو ديدن ابن الجبير لا من الكتابة وحدها، بل من الدهر جملة، ولهذا الشعر نظائر[1]، ولكنها تحمل في مضامينها تصويرا لواقع معين لا نستطيع رفضه، وهو أن المرابطين لم يكونوا رجال أدب وفتذاك، بل كانوا رجال عراك وحرب، وأنه كان على الشعراء أن ينتظروا مدة زمنية لكي يعتاد الأمراء المرابطون على أسلوب الأندلس وأهلها في الحياة وصورها وطقوسها. وإن ذكر الشنقدي خبر يوسف بن تاشفين مع المعتمد بن عباد وما جرى بعد ذلك[2] فلست أرى في ذلك غضاضة في حق يوسف، فالرجل لم يكن رجل أدب وفكر، بل كان رجل حرب ودولة، لا يميل إلى الحذلقة في الكلام والتصنع فيه. وكانت له سابقة في هذا المجال مع الأدفونش قبل معركة الزلاقة. وقد كان وزراؤه المرابطون وقواده على شاكلته. ولما قوضت عروش الطوائف كان من اللازم أن تعيش الأندلس فترة فراغ أدبي تسكت فيه ألسنة الشعراء إلا من ترديد آهات الأسف وعبارات الحسرة على ما ضاع من ملك الأندلسيين وعلى ما ثل من عروشهم. فكان في هذا النشاط الفني نوع من الدفع للحركة الأدبية لتستمر في أداء رسالتها بوجه أو بآخر. وطبعا فإن هذه الدموع سفحت فيما بعد وفتح الناس أعينهم على سياسة جديدة تنوي العودة بالأندلس إلى سالف عهدها الإسلامي عن طريق الرجوع إلى كتاب الله وتحكيمه بين الناس فيما قد يشجر بينهم من خلاف، وكان على الساسة الجدد أن يعتمدوا القضاة عناصر إيجابية لتطبيق هذه المبادئ التي جاءوا يحملونها معهم، فكان ذلك هو السر في ظهور طبقة الفقهاء على السطح وهيمنتها على الأوضاع، وظهور جيل من القضاة الذين استعان بهم المرابطون لتثبيت أصول الدين الإسلامي وترسيخه بين الناس، فأصبح الفقيه والقاضي مقصد الشاعر الأول بعد أن كان الأمير مقصده الأساسي. ولكن هذا لم يطل إذ

[1] - المغرب: 444/2.
[2] - نفح الطيب: 191/3.

سرعان ما عادت الحياة إلى طبيعتها وتعود المرابطون على أساليب الأندلسيين في الحكم والتعامل، فأحاطوا أنفسهم بالكتاب والشعراء وعاد الازدهار من جديد في ظل الحكم المرابطي، وظهر جيل من الشعراء الجدد كإبراهيم بن خفاجة، وأبي جعفر الأعمى التطلي، كما ظهر جيل من الكتاب نذكر منهم الفتح صاحبنا وابن أبي الخصال، وابن عبد الغفور... وغيرهم كثير.

على أنه من الملاحظ أن العصر لم يكن عصر ازدهار كامل للشعر، بل لقد احتل النثر بصوره المختلفة محله. فظهر النثر التأليفي المرتبط بمجموعة غير قليلة من المؤلفات التي اختلفت موضوعاتها باختلاف أصحابها وظروفهم، وازدهرت حركة الرسائل الديوانية والإخوانية، وكان وراء ازدهارها عاملان:

أحدهما سياسي: يتعلق باصطناع المرابطين لكثير من الكتاب في دواوينهم المختلفة مما أغنى هذا الجانب من الرسائل وأعطاه بعده الخاص.

والثاني اجتماعي: يتعلق بالصداقات التي كانت تربط كثيرا من كتاب العصر إلى بعضهم، والتي تعددت أصولها بين صداقة الدراسة وصداقة الزمالة والمعاصرة وصداقة الإعجاب والتقدير. وقد أشار الدكتور إحسان عباس إلى أنواع أخرى من الرسائل ظهرت في العصر الطائفي والمرابطي كرسائل المناظرات والزرزوريات والرحلات[1] وربطها بما قسم إليه الرسائل أول الأمر من رسائل فكرية وأخرى بيانية.

والمعتقد أن الدكتور إحسان عباس قد أخذ مدلول الرسالة من جانبه الشكلي. وإلا فإن موضوع الرسالة الفكرية داخل في عموم النثر التأليفي الذي يعمد فيه الكاتب إلى وضع تأليف مختصر في موضوع معين من المواضيع العلمية، ورسائل ابن باجة الفلسفية، ورسالة الحدائق لابن السيد ورسالة الانتصار له... داخلة في عموم النثر التأليفي. كما أن موضوع الرسائل الفنية يدخل في عموم الرسائل الإخوانية. فإن استعصت بعض الرسائل عن هذا التقسيم أدخلت في باب النثر التأليفي أو في المقامة.

كما استمر فن المقامة في سيره العادي مجاريا تارة أسلوب المقامة الشرقية الهمدانية والحريرية، ومتخذا تارة أخرى لنفسه أسلوبا ملائما لظروف الكاتب وأحواله. وقد ظهر

[1] – تاريخ الأدب الأندلسي ــ عصر الطوائف والمرابطين 287.

في هذا الباب أمثال أبي حفص عمر بن الشهيد، وأبي محمد بن مالك القرطبي، وأبي عبد الله بن أبي الخصال، ومحمد بن يوسف التميمي السرقسطي، ولكن هذه الصورة الفكرية الكبرى التي حاولنا أن نقدم بها عصر المرابطين لا تنسينا السمة العامة للعصر وهو أنه عصر فقه لا عصر فكر.

يقول المراكشي وهو يتحدث عن علي بن يوسف[1]

(... واشتد إيثاره لأهل الفقه والدين. وكان لا يقطع أمرا في جميع مملكته دون مشاورة الفقهاء. فكان إذا ولى أحد قضائه، كان فيما يعهد إليه أن لا يقطن أمرا ويبث حكومة في صغير من الأمور ولا كبير إلا بمحضر أربعة من الفقهاء، فبلغ الفقهاء في أيامه مبلغا عظيما لم يبلغوا مثله في الصدر الأول من فتح الأندلس...)

ويقول أيضا[2] (... ولم يكن يقرب من أمير المسلمين ويحظى عنده إلا من علم علم الفروع، أعني فروع مذهب مالك، فنفقت في ذلك الزمان كتب المذهب، وعمل بمقتضاها ونبذ ما سواها، وكثر ذلك حتى نسي النظر في كتاب الله وحديث رسول الله ﷺ).

سياسة الدولة إذن قامت على تشجيع حركة الفقه وقاومت التيارات الفكرية المعارضة لاتجاهها هذا فأحرقت كتب الغزالي وواجهت الفلاسفة مواجهة عنيفة، إلا أن يدور تفكيرهم في فلكها. ولذلك لم تظهر آثار ابن باجة إلا بعد وفاته.

وعلى العموم فإن عصر المرابطين كان عصر جهاد قبل أن يكون عصر أدب. ولم يكن معنى الجهاد فيه موقوفا عند حدود المعنى الظاهر للجهاد، الذي هو مقاومة العدو ومجاهدته، بل كان معناه أوسع وأشمل فيما أراده المرابطون من جهاد النفس والعودة إلى الحق والسير في الناس بسيرة الإسلام. تدل على هذا وصية أبي بكر اللمتوني ليوسف بن تاشفين قبل عودته إلى الصحراء، وموقف المرابطين من البرغواطيين المجوس في أغمات وسجلماسة، وموقفهم أيضا من ملوك الطوائف وسلوكهم في الرعية من جهة، وسلوكهم في أنفسهم من جهة أخرى، وموقفهم من تولية القضاء واستشارة الفقهاء، وما يمكن أن يدخل في عموم جهاد النفس الذي سار على دأبه ملوك المرابطين. ولذلك لم نجد أحدا من المؤرخين يتناول سيرة ملوكهم بمطعن أو تنقيص.

---

[1] - المعجب: 171.
[2] - المعجب: 171.

ولكن الجهاد هذا لم يشغل الناس عن أن ينصرفوا إلى الإبداع والابتكار. فقد ظهرت في هذا العصر جماعة من الشعراء وطبقة من الكتاب الكبار والمؤلفين نذكر منهم صاحبنا الفتح ومعاصره ابن بسام.

وكملاحظة أخيرة عن هذا العصر وامتداده على الثقافة الأندلسية فإنه كان قصير العمر من الناحية الزمنية إذ لم يتعد وجوده العملي نصف قرن وبعض السنوات، وهو عمر قصير في حقل الثقافة والفكر، لا يمكن أن ينعكس تأثيره إلا فيما يستقبل من الأيام، ولأجل هذا نرى أن الحركة الفكرية في العصر المرابطي هي امتداد لتأثير العصر الطائفي، وإن الحركة الفكرية في العصر الموحدي هي امتداد للتأثير المرابطي، لأن جل النابهين الذين ظهروا في العصر المرابطي كانوا قد استقوا ثقافتهم من الشعراء والعلماء والأدباء الذين عاشوا في العصر الطائفي. ومن يرجع إلى التراجم التي كتبت لرجال العصر المرابطي يجد تأثير علماء العصر السابق واضحة المعالم، كما أن من يراجع وفيات العصر المرابطي سيلاحظ أن أغلبها كانت لرجال العهد الطائفي.

الـبـاب الأول

❖❖❖❖❖❖❖

الفصل الأول

الترجمة – دراسة نقدية:

حين نحاول وضع ترجمة مفصلة وكاملة (للفتح بن خاقان) تعترضنا مجموعة من القضايا التي ينبغي مناقشتها قبل الانتهاء إلى وضع هذه الترجمة، ويتعلق الأمر:

1) بمصادر الترجمة.

2) بالمضامين التي تحتوي عليها هذه المصادر، من حيث نوعية المعلومات التي تتضمنها وقيمتها.

3) كيفية التنسيق بين الكثير من المعلومات المتضاربة والغامضة التي تحتاج إلى سند تاريخي يثبت صحتها، من أجل استخراج معلومات قريبة من الحقيقة تستطيع الوقوف أمام التمحيص والنقد.

* وهكذا فبالنسبة لمصادر الترجمة فإن الباحث يجد نفسه أمام ثلاثة أنواع من المصادر التاريخية المتعلقة بترجمته وهي:

أ – مصادر أصلية ترتبط المعلومات الموجودة فيها بالفترة التاريخية القريبة من عصر الكاتب (القرنين الخامس والسادس للهجرة)، وتتناول هذه المصادر على تنوعها معلومات مختلفة، كل مصدر حسب طبيعة أخباره، وقيمتها، وكثرتها أو قلتها. ويتعلق الأمر مثلا بابن الأبار (معجم أصحاب الصدفي)، وابن دحية (المطرب)، وابن سعيد (المغرب)، وابن عبد الملك (الذيل والتكملة).

ب – مصادر ناقلة: وهي المصادر التي استفادت من بعض الأصول السابقة وأضافت إليها بعضا مما تردد في كتب التاريخ وما تنوقل من الأخبار، ويتعلق الأمر خاصة بما ورد مثلا عند ياقوت في (معجم الأدباء) وابن خلكان في (وفيات الأعيان) والعماد الأصفهاني في (الخريدة القصر)، وابن العماد في (شذرات الذهب) وابن الخطيب في (الإحاطة) والمقري في (نفح لطيب، وأزهار الرياض). وإن حاولت بعض هذه المصادر أن تتصرف فيما تملكه، وأن تضيف إليه إضافات مختلفة لا تخلو من أهمية كما سنرى.

ج – مصادر حديثة حاولت أن تستفيد من بعض ما طبع من كتب التراجم والطبقات، أو ما هو وارد في بعض المخطوطات المحفوظة بالخزانات العامة، ويتعلق الأمر خاصة بما ورد في بعض كتب الفهارس المختلفة مثل (كشف الظنون) و(هدية العارفين) لحاجي خليفة، و(الأعلام) للزركلي، و(معجم المؤلفين) لكحالة، وبما كتبه بعض الباحثين الأجانب في دراساتهم الخاصة حول الأدب الأندلسي من مثل ما كتبه الألماني (بروكلمان) والإسباني (بالنثيا).

وهذه المصادر في مجموعها، القديم منها والحديث، لم تستطع أن تقدم لنا ترجمة متكاملة للفتح. بل قدمت لنا نتفا من الأخبار تتضارب تارة وتتلاقى أخرى، ولا تستطيع أن تجيب عن بعض الأسئلة التي يطرحها الباحث الذي يريد أن ينتهي إلى إجابات مقنعة.

*أما بالنسبة **للمضامين** التي تحتوي عليها هذه المصادر فهي تتعلق خاصة باسم الكاتب ونسبه وكنيته ولقبه ومسقط رأسه ونشأته العلمية وشيوخه وبعض أخباره وخاصة تلك التي تتعلق بسلوكه، أو التي تفسر ما تناقلته الأخبار عن هذا السلوك، أو التي تتعلق بنهايته واختلاف أصحاب التراجم حول تاريخها وكيفيتها، أو التي تتعلق بمن أخذ عنه أو نقل مؤلفاته أو أجازه، أو التي تتعلق بمؤلفاته واجتماعهم على ذكر بعضها (القلائد والمطمح) واختلافهم حول ما تبقى منها (حديقة المآثر، بداية المحاسن.. وسيرة شيخه ابن السيد البطليوسي، ومجموع ترسلاته).

وهكذا يبدو أن هذه المضامين تتفق حول بعض الحقائق وتختلف في أغلبها. ومن هذه المضامين ما يغلب عليه عنصر الذاتية والفكر المسبق، ويتضح فيه أثر المواقف الشخصية واضحا – كما سنرى –، ومنها ما تبلغ به الحيطة درجة نقل ما رواه السابقون والاكتفاء به دون إبداء نظر أو ترجيح رأي.

* أما بالنسبة لمشكلة **التنسيق** بين المعلومات. فتقتضي أولا تحديد مواطن هذه المعلومات التي قد يكون الاضطراب قد تسرب إليها، ثم الفصل فيما قد يعن من إشكال فيها، والانتهاء أخيرا إلى رأي نهائي معتمد على سند تاريخي أو تأويل قريب من الصواب.

وهكذا **فبالنسبة لاسمه**:

هناك اختلاف واضح بين أصحاب التراجم حول اسمه الكامل ويعود هذا الاختلاف فيما نعتقد إلى عاملين أساسيين:

عامل الرواية حيث يلعب رواة الترجمة دورا أساسيا في قلب الرواية وتقديم ما ينبغي تأخيره أو تأخير ما ينبغي تقديمه، أو إضافة أشياء وحذف أخرى. مما يوقع الترجمة في بعض الاضطراب ويدفع الباحث إلى التشكك في صحة المعلومات المثبتة داخل الترجمة.

عامل الاختصار الذي ينهجه بعض المترجمين، فيكتفون في نسب المترجم له بذكر جد أو جدين على أكثر تقدير، ما دام ذلك يحقق لهم التفريق بين المترجم له وبين غيره. وهكذا تحقق الاضطراب في ترجمة الفتح من وجهتين: وجهة التراجم المغربية، ووجهة التراجم الشرقية. فالتراجم المغربية في الغالب تميل إلى التدقيق، ولكن بعضها يميل إلى الاختصار، وهو اختصار لا ينقل محرفا ولا يوقع في خطا. بينما تميل التراجم الشرقية إلى الاضطراب في الرواية ــ عن غير قصد في الغالب ــ فتخلط بين الاسم واللقب ولا ترى في ذلك حرجا، لأنها تجهل شخصية المترجم له فتكتفي بما نقل لها عنه دون تمحيص.

وكمثال على ما ذكرناه، فإن اسمه في (المغرب) هو أبو نصر الفتح بن محمد بن عبد الله القيسي الإشبيلي، بينما هو في (معجم الصدفي) الفتح بن محمد بن عبيد الله القيسي، فيتفقان في اسمه واسم أبيه، ويختلفان في جده إذ هو في المغرب عبد الله وفي المعجم عبيد الله، ويتفقان في قيسيته، ولا يشير ابن الأبار إلى إشبيليته، ولعله كان من المتشككين في ذلك كما سنوضح بعد.

أما المطرب فيجعله (أبا نصر الفتح بن عبيد الله القيسي ــ ابن خاقان ــ فيصبح عبيد الله أبا له خلافا للسابقين.

ويذهب ابن خلكان إلى جعل لقب ابن خاقان متصلا بسلسة أجداده. فإذا هو (أبو نصر الفتح بن محمد بن عبيد الله ابن خاقان بن عبد الله القيسي الإشبيلي) وهذا خلاف ما أجمع عليه المترجمون له.

أما ياقوت فلم يفصل بين اسمه ولقبه أيضا حين يجعله (الفتح بن محمد بن عبد الله بن خاقان القيسي الإشبيلي).

ويظهر أن السبب الذي أوقع بالمؤرخَين الشرقيين أنهما ربطا بينه وبين الوزير العباسي الفتح بن خاقان وزير المتوكل، الخليفة العباسي.

وقد تفطن ابن عبد الملك المراكشي إلى ما وقع من تضارب حول اسم الكاتب فخرج من المشكل بوضع اسم مختصر مجرد عن النسب المطول واللقب فإذا هو عنده (الفتح بن محمد بن عبيد الله، أشبيلي، أبو نصر).

أما المصادر المتأخرة عن السابقة فقد كانت عالة عليها تروي عنها صراحة تارة، وخفية أخرى، كما هو الحال بالنسبة لصاحب الإحاطة مثلا أو لصاحب النفح وأزهار الرياض.

ويبدو أننا أمام اتجاهين اثنين في قضية الاسم اتجاه مغربي وآخر شرقي، وربما كان الاتجاه المغربي أثبت واقرب إلى الحقيقة لارتباط أصحابه بالكاتب ومعرفتهم به واتصال السند في المغرب اتصالا مضبوطا بالإجازة العلمية وغيرها.

كما يبدو أن الاختلاف الذي وقع حول الاسم قد امتدت عدواه إلى بقية المعلومات الواردة في أغلب كتب التراجم التي ترجمت له.

فقد سكتت بعض المصادر عن **مسقط رأسه**، وأشارت إليه أخرى، فذكرت قلعة الوادي من قرى يحصب قرب إشبيلية وظنت أخرى أنه إشبيلي المولد والنشأة فلم تشر إلى القلعة ولا إلى القرية بقليل أو كثير.

وهناك مشكلة أخرى تتعلق بنوع المعلومات المتعلقة **بسلوكه ونموذج شخصيته**، فأغلب المترجمين له ينعتونه بنعوت متشابهة تصور سوء أخلاقه وانحراف سلوكه ويحتجون على ذلك بقصص مختلفة، بعضها يتعلق بإقامة حد شارب الخمر عليه وبعضها يتعلق بموقفه من ابن باجة فيلسوف عصره، مما جعل البعض منهم يذهب إلى الاعتقاد بأن سلوكه هذا قعد به عن منافسة أقرانه من كبار كتاب عصره كعبد الله بن أبي الخصال وأبي بكر بن القصيرة...، وبعضهم يرى أن حذفه أولى من ذكره، ولعل نهايته أيضا لم تسلم من هذا التضارب الذي أشرنا إليه سواء تعلق الأمر بكيفيتها أو بأسبابها أو بتاريخها، وإن لم يتفقوا تقريبا على أنها كانت بأمر ابي الحسن علي بن يوسف الخليفة المرابطي، لأن المصدر الوحيد الذي نقل مسؤولية مقتله كان هو المطرب وعنه نقل ابن خلكان وغيره.

ثم هناك التضارب الحاصل في عدد مؤلفاته بين من يحصرها في القلائد والمطمح (المغرب، معجم الأدباء، وفيات الأعيان) وبين من يفصل في أمر المطمح (وفيات الأعيان) ومن يضيف إلى الأثرين السابقين (راية المحاسن وغاية المحاسن) ابن الأبار والمقري، ومن يضيف (حديقة المآثر) ابن عبد الملك ومن يجعل له ديوانا لرسائله على شاكلة ديوان ابن أبي الخصال كابن الأبار وابن الخطيب. ولم يشر جل المترجمين إلى ما كتبه في رسالة صغيرة حول شيخه ابن السيد البطليوسي. ولعلهم ظنوه جزءا مما هو موجود في المطمح الكبير.

أما **بالنسبة لشيوخه** فلم يشر إلى ذلك إلا ابن الأبار، وعنه نقل ابن الخطيب، في حين لم يذكر أحد لقبه السياسي (ذو الوزارتين) مع أنه كان من أصحاب الأمير أبي إسحاق إبراهيم بن يوسف بن تاشفين.

كل هذا التضارب الحاصل في المعلومات يدفعنا إلى مناقشتها والبحث في قيمتها التاريخية وسبل التنسيق بين الثابت منها والمضطرب.

الفصل الثاني

الترجمة: محاولة متكاملة

سنحاول أن نعرض الصورة المتكاملة لعناصر ترجمته منطلقين أولا من:

كنيته: فهو أبو نصر: أشار إلى ذلك كل من ابن الأبار[1] وابن دحية[2] وابن خلكان[3]وابن العماد[4] وابن عبد الملك[5] وابن الخطيب[6] وابن سعيد[7]– حسب رواية صاحب النفح – والمقري[8]. ولم يشر ياقوت [9] إلى هذه الكنية على ما أورده من الأخبار الفريدة. ومن هنا يبدو أن جل المصادر أجمعت على هذه الكنية مما دفع الدارسين المحدثين إلى إثباتها نظرا إلى أنه ليست هناك كنية أخرى تدفعها، ونظرا إلى أن جل المترجم لهم كانوا يحملون كنى معينة كل حسب اسمه تثبت في مقدمة أسمائهم.

اسمـــه: هو الفتح بن محمد بن عبيد الله القيسي الإشبيلي كما روت ذلك المصادر الأندلسية والمغربية، كالمغرب، ومعجم أصحاب الصدفي، والذيل والتكملة، والإحاطة[10]، وأزهار الرياض.

أما المصادر الشرقية أو المصادر المغربية التي كتبت في المشرق فقد اختلفت عن المصادر المغربية بعض الاختلاف حيث أضافت بعض الأسماء إلى نسبه وخلطت بين لقبه ونسبه كما حدث لابن خلكان[11]وياقوت[12] والعماد الأصفهاني[13]. ولعل السبب في

---

[1] – معجم أصحاب الصدفي، ص: 313.
[2] – المطرب، ص: 25.
[3] – وفيات الأعيان، ج 4، ص: 23.
[4] – الخريدة، ج 2، ص: 610.
[5] – الذيل والتكملة، ج 5، ص: 569.
[6] – الإحاطة، ج 4، ص: 248.
[7] – المغرب، ج 1، ص: 259.
[8] – أزهار الرياض، ج 5، ص: 99.
[9] – معجم الأدباء، ج 6، ص: 123.
[10] – نص الإحاطة المطبوع يخالف هذا.
[11] – الوفيات، ج: 4، ص: 23.
[12] – معجم الأدباء ، ج: 6، ص: 124.
[13] – الخريدة، ج 2، ص: 610

هذا الخلط يرجع إلى الاضطراب في النقل والرواية. فابن خلكان ينقل عن ابن دحية. وابن دحية اعتذر في مقدمة مطربه عما يمكن أن يكون قد وقع فيه من اضطراب أو سهو نتيجة غياب مصادر مختلفة ليس بينها مصدر مغربي. وعلى كل فإن هذا الاضطراب الذي وقعت فيه المصادر الشرقية يرجع ي نظرنا إلى الاضطراب في رواية الأخبار وانتقالها من المغرب إلى المشرق.

لقبــه: أما عن لقبه فقد عرف بابن خاقان، وكلمة خاقان هذه غريبة عن البيئة الأندلسية، لأن لها ارتباطا باللغة الفارسية والتركية (1). وقد عزا الحجاري في المسهب هذا اللقب إلى ما عرف به الفتح من اتهامه في الخلوة حين قال (2) (... عرف بابن خاقان لاتهامه في الخلوة...) وهذا يفيد أن هذا اللقب غلب عليه في فترة من فترات حياته، ثم أصبح بعد ذلك شائعا بين الناس لا يعرف إلا به، لدرجة أن بعض المترجمين له اعتقدوا أن اسم خاقان هو لجد من أجداده كما حدث لابن خلكان(3)، حين ربط ابن خاقان إلى سلسلة نسبه فقال (أبو نصر الفتح بن محمد بن عبيد الله بن خاقان بن عبد الله القيسي الإشبيلي). وكما حدث لياقوت (4) حين جعل اسمه ولقبه مشتركين لا فاصل بينهما فقال (الفتح بن محمد بن عبد الله بن خاقان القيسي الإشبيلي)، ونقل العماد عن ياقوت، وكذلك ابن العماد. وذكر صاحب النفح في الترجمة التي نقلها عن المغرب (5) وهو يستعرض النقول المختلفة أن صاحب المطرب أورد اعتراضا للشيخ البياسي (أبو الحجاج) يذكر فيه أن يكون الفتح ملقبا بابن خاقان حيث يقول (6) (... وذكره ابن دحية في المطرب ونعته بابن خاقان. قال والشيخ أبو الحجاج البياسي يذكر هذا. وقيل إنما قيل له ابن خاقان لما تقدم ذكره في كلام (الحجاري). ولسنا ندري لم ذكر الشيخ أبو الحجاج هذا اللقب، وهل إنكاره منطلق من حقيقة اللقب أي أنه لم يكن للفتح لقب. أم أنه اعترض على نبزه بقلبه امتثالا لما ورد في القرآن الكريم من النهي عن ذلك(7).

---

1 - دوزي: تكملة المعاجم العربية، ج 1، ص: 346.
2 - المغرب، ج 1، ص: 260.
3 - وفيات الأعيان، ج 4، ص: 23.
4 - معجم الأدباء، ج 6،ص: 124
5 - نفح الطيب ج 7، ص: 29.
6 - نفس المرجع السابق.
7 - الحجرات، الآية: 10.

أما المصادر الحديثة فقد كانت عالة على المصادر القديمة فوقع بعضها فيما وقعت فيه المصادر الشرقية من الخطأ وانحرف بعضها عن ذلك.

وسنكون مضطرين إلى التساؤل عن السبب الذي من أجله لقب الفتح بابن خاقان، على اعتبار أن ما ورد في المسهب مما نقله صاحب المغرب غير مقنع، لأن الحجاري كان يكره الفتح وقد شتمه في مكان آخر من كتابه المسهب حين تعرض لترجمة ابن عبد الغفور[1]. فهل يرجع سبب تلقيبه بابن خاقان إلى اتصاله بالأمراء وبراعته في مخاطبتهم والحديث باسمهم، فيكون بذلك قد شبه بالفتح بن خاقان وزير المتوكل العباسي، لما يجمعهما من عناصر التقارب (الكتابة والوزارة والتأليف). أم أنه لقب بابن خاقان والتي تعني ابن الملوك لأنه كان متخلقا بأخلاق الترفع، ميالا إلى مجالسة الأعيان والأمراء والوزراء والملوك، ينظر إلى نفسه بمنظار الإكبار والإجلال، ويحيط عبقريته بهالة من التمجيد، ويقول عن نفسه في مقدمة القلائد[2] (الحمد لله الذي راض لنا البيان حتى انقاد في أعنتنا وشاد مثواه في أجنتنا...) فإن مست شخصيته بسوء ثأر لها، كما حدث له مع الفيلسوف ابن باجة كما روى صاحب الإحاطة[3].

وعلى أي فلا يمكن أن يخرج سبب تلقيبه بابن خاقان عن ما تقدم ذكره، وإن كنت أشك فيما أورده الحجاري، لأن ابن خاقان لا تعني شرا وسوءا فابن خاقان الشرق كان مثالا يحتذى في الأدب والكرم والعفة. كما أشك فيما ذهب إليه دوزي من أن الأمر مرتبط بمادة الاتصال بأبناء الموالي الأتراك[4].

مسقط رأسه: لم يشر إلى مسقط رأسه من المؤرخين وأصحاب التراجم إلا ابن الخطيب، وعنه نقل صاحب النفح، حيث ذكرا أنه كان في قرية تعرف بصخرة الواد (الإحاطة) وقلعة الواد (في أزهار الرياض والنفح، من قرى قلعة يحصب[5].

---
1 - المغرب، ج 1، ص: 237.

2 - القلائد، ص: 2.

3 - الإحاطة، ج 4، ص: 249.

4 - دوزي تكملة المعاجم العربية، ج 1، ص: 346.

5 - نفح الطيب، ج 7، ص: 25.

على أن المصادر الأقدم لم تشر إلى شيء من هذا، واكتفى منها ابن عبد الملك بالإشارة إلى أنه إشبيلي[1].

وقد اشتهر بإشبيلية، ولم يذكره أحد بأصله. مع أن العادة جرت بأن يفرق أصحاب التراجم بين مسقط الرأس والمربي والمقر. وهذا يجعلنا نذهب إلى الاعتقاد بأنه قدم إلى إشبيلية صغير السن، لذلك لم يذكر ضمن الطارئين على المدينة، وأن سبب استقراره في إشبيلية قد يعود إلى شهرة المدينة، وهي يومئذ عاصمة العباديين ومركز الكثير من العلماء المشهورين. وقد ظلت محافظة على شهرتها تلك حتى بعد زوال ملوك الطوائف، ولم تستقر أسرته في غرناطة التي تعد يحصب من توابعها، نظرا للظروف التي كانت غرناطة تعيشها في ظل الصنهاجيين ووزيرهم ابن النغريلة، وما كانت تعج به أيضا من مظاهر العصبيات المختلفة وألوان الصراع العرقي.

تاريخ ميلاده: ليس بين أيدينا تحديد زمني مدقق لتاريخ ميلاده، والسبب في ذلك بسيط، وهو أنه لم يكن من مواليد أسرة معروفة من أسر العلم، أو الثراء، أو السياسة، بل كان من مواليد قرية صغيرة هي قرية يحصب، التابعة لغرناطة. وقد كان موقف مترجميه من هذا الأمر واضحا، فالحجاري في المسهب لم يشر إلى تاريخ ميلاده، وإنما اكتفى بتقريضه[2]، وابن الإمام في سمط الجمان لم يشر إلى تاريخ ميلاده أيضا بل اعتبر التكلم في شأنه وأعمال القلم في وصف تجلفه وخذلانه إخلالا بالبيان وإضاعة للزمان[3] كما أن ابن الأبار لم يشر إلى تاريخ ميلاده، وإن ذكر أنه أجيز سنة ست عشرة وخمسمائة من لدن ابن السيد البطليوسي وأبي بكر ابن العربي[4]، واكتفى صاحب المطرب بالحديث عن بعض أخباره كما رواها، ولم ينفصل ابن عبد الملك عن سابقيه ولا صاحب الإحاطة، وكذا الأمر بالنسبة للمصادر الشرقية كالوفيات ومعجم ياقوت والخريدة والشذرات وغيرها، مما يدفعنا إلى التساؤل عن تاريخ هذا الميلاد ما دمنا نبحث عن ترجمة متكاملة تحاول أن تجيب عن كل الأسئلة المطروحة.

---

1 - الذيل والتكملة ج 5، ص: 569.
2 - النفح، ج 7 ص: 31.
3 - المغرب، ج 1، ص: 260.
4 - معجم أصحاب الصدفي، ص: 313.

إن من يرجع إلى القلائد يجد إشارة واضحة فيها إلى ما يمكن أن يقدم فرضية تقترب من تاريخ ميلاده. فقد ذكر عند ترجمته للوزير الفقيه أبي عبيد الله البكري[1] أنه رآه وهو صغير السن: (رايته وأنا غلام ما أقمر هلالي، ولا نَبَغَ في الذكاء كوثري ولا زلالي، في مجلس ابن منظور، وهو في هيأة كأنما كسيت بالبهاء والنور، وله سبلة يروق العيون إيماضها، ويفوق السواد بياضها، وقد بلغ سن ابن محلم...) ففي إشارته هاته تدليل على أنه أدرك أبا عبيد البكري المتوفى سنة سبع وثمانين وأربعمائة[2]، وهو صغير السن لم يقمر هلاله أي لم يبلغ الرشد، ولم تكتمل رجولته، في مجلس ابن منظور، أي أنه رآه خلال مرحلة الطلب التي كان فيها الفتح بتنقل بين حلقات العلماء.

وإذا حاولنا أن نقوم ذلك تقويما عدديا، ذهبنا إلى القول بأنه ربما كان من مواليد النصف الثاني من السبعينات أي بعد الخامسة والسبعين والأربعمائة، ومما يزكي هذه الفرضية:

أولا: ما سنذكره عند حديثنا عن حياته العلمية من أنه درس على مجموعة من الشيوخ الذين توفوا قبل دخول القرن السادس، أو من الذين توفوا في بدايته. وهذا يفيد أن نهاية القرن الخامس عرفت مرحلة الطلب في حياته. ولا يلتفت في هذا إلى من يعترض بأنه أجيز من لدن أستاذيه ابن العربي والبطليوسي في سن متأخرة، لأن الإجازة لا ترتبط بسن معينة أو بوقت محدود. بل تعتمد الفرصة التي يلتقي فيها المجيز بالمجاز.

ثانيا: إن لقبه السياسي (ذو الوزارتين) الذي ربطه ابن الأبار سنة ست عشرة وخمسمائة يصادف بلوغه سن الأربعين ـــ حسب ما زعمناه في افتراضنا السابق ـــ وهي سن كمال النضج التي تلتقي مع وضعيته السياسية في ظل الحكم المرابطي، إذ من غير المعقول أن يكون جلساء الأمراء المرابطين ووزراؤهم من الذين لا يتوافر لهم شرط يضمن احترامهم وتقديرهم كالسن الراجحة مثلا.

ثالثا: ما لاحظناه خلال الرسائل التي وجهها له بعض أصدقائه وأساتذته كابن طاهر وابن القصيرة، والتي تفيد في مجملها ما قدم له من النصائح والتوجيهات المختلفة من لدنهم في ظرف أطل الفتح فيه على الحياة السياسية في بداية القرن السادس وهو خالي الوفاض من

---

[1] - القلائد، ص: 218.

[2] - الصلة، ج 1، ص: 282.

كل تجربة يمكن أن تفيده فيما هو مقبل عليه من الحياة السياسية. وإذا علمنا أن الفتح قد أرخ لاتصاله بابن طاهر[1] أدركنا أن بداية حياته قد بدأت بعد ذلك التاريخ بقليل، وكان يومذاك غرا حدثا معجبا بنفسه أيما إعجاب كما تدل على ذلك رسالة ابن طاهر[2].

حياته العلمية: لم يتناول هذا الجانب من حياة الكاتب إلا بعض مترجميه، بمعنى أن عموم أصحاب التراجم كانوا منساقين للحديث عن سيرته المشبوه فيها، ثم عن مؤلفاته التي شهدوا له من خلالها بالتفوق والظهور على غيره، متجاهلين تأثير الحياة التعليمية على ميول الأديب وعطاءاته.

ويعتبر ابن الأبار أول من تناول هذا الجانب في حياة الفتح ونقله عنه غيره، حيث تطرق في مستهل الترجمة التي وضعها له إلى الحديث عن شيوخه فقال[3] (.. له سماع من أبي علي، قرأ عليه بلفظه أدب الصحابة للسلمي وسمع من أبي محمد البطليوسي كتاب الانتصار من تأليفه سنة ست عشرة وخمسمائة وخططه فيه بذي الوزارتين، وكذلك خططه أبو بكر بن العربي: (وقرأت بخطه إجازة له على بعض كتب الأصول، وحدث عن أبي الحسين بن سراج بحكايات...).

كما تناول ابن عبد الملك بعده الإشارة إلى مصدر مروياته وأخباره، ونقلها عنه ابن الخطيب في الإحاطة وذلك حين قال[4]: (... روى عن أبوي بكر بن سليمان بن القصيرة، وابي عيسى بن اللبانة، وأبي جعفر بن سعدون الكاتب، وأبي الحسين بن سراج، وأبي خالد بن بشتغير، وأبي الطيب بن زرقون، وأبي عبد الله بن خلصة الكاتب، وأبي عبد الرحمان بن أحمد بن طاهر، وأبي عامر بن السرور، وأبي محمد عبد المجيد بن عبدون، وأبي الوليد إسماعيل بن حجاج، وأبي... بن دريد الكاتب).

وقد لخص المقري بعد هذا[5] كل ما يتعلق بهذه النقطة حيث نقل عن ابن الأبار وابن عبد الملك. ويبدو لدارس النصوص المتعلقة بحياته العلمية. أن هناك تقصيرا في الحديث عن

---

1 - القلائد، ص: 76.
2 - نفس المصدر والصفحة.
3 - معجم أصحاب الصدفي، ص: 313.
4 - الذيل والتكملة، ج 5، ص: 530.
5 - أزهار الرياض، ج 5، ص: 97.

نشأته العلمية، ذلك أن هذه المصادر لم تشر إلى هذه النشأة ولا إلى المراكز العلمية التي تردد عليها. بل اكتفت بما ذكر قبل عند ابن الأبار وابن عبد الملك.

لقد ولد في إحدى قرى يحصب ــ كما مر ــ من أعمال غرناطة. ومن الضروري أن تكون نشأته العلمية قد خضعت لظروف التعليم في الأندلس التي أشار إليها ابن خلدون عند حديثه عن مناهج التعليم في الأندلس والمغرب والشرق فقال[1]: (... وأما أهل الأندلس فمذهبهم تعليم القرآن والكتاب من حيث هو. وهذا هو الذي يراعونه في التعليم إلا أنه لما كان القرآن أصل ذلك وأسسه، ومنبع الدين والعلوم جعلوه أصلا في التعليم فلا يقتصرون لذلك عليه فقط، بل يخلطون في تعليمهم للولدان رواية الشعر في الغالب والترسل، وأخذهم بقوانين العربية وحفظها وتجويد الخط والكتاب. ولا تختص عنايتهم فيه بالخط أكثر من جميعها. إلى أن يخرج الولد من عمر البلوغ إلى الشبيبة وقد شدا بعض الشيء في العربية والشعر والبصر بهما، وبرز في الخط والكتاب، وتعلق بأذيال العلم على الجملة...). فيكون قد حصل بعض المعارف في قريته، ثم انتقلت أسرته إلى إشبيلية لظرف من الظروف، وهناك تمم معارفه الابتدائية وأصبح قادرا على أن يدخل مداخل العلم، وأن يجلس إلى العلماء الأفذاذ. وقد أشار إلى صورة من هذا عند ترجمته لأبي عبيد البكري في القلائد فقال[2]: (... رأيته وأنا غلام ما أقمر هلالي... في مجلس ابن منظور...) فمثل هذا الخبر يفيد أنه كان يغشى مجالس العلماء وهو صغير لم يبلغ الحلم بعد، ولم تكتمل رجولته.

ونعود إلى خبر ابن الأبار لنجد أنفسنا أمام مجموعة من العلماء الذين أخذ عنهم الفتح وأجازه بعضهم وفي مقدمة هؤلاء:

1) أبو علي الصدفي[3] الذي يعتبر أحد أعلام شرق الأندلس في القرن الخامس الهجري. له رحلة إلى الشرق عاد منها وهو يحمل علما كثيرا حتى قال عنه الضبي في بغية الملتمس (لم يكن بشرق الأندلس في وقته مثله في تقييد الحديث وضبطه والعلم في روايته، مع تنبيه وفضله وورعه وزهده). وتدل المعلومات المنتشرة في التراجم على نفس ما دل عليه

---

1 - مقدمة ابن خلدون الفصل 31) في تعليم الولدان... ص 538).

2 - القلائد، ص: 218.

3 - انظر ترجمته في: بغية الملتمس رقم 655، الصلة رقم 330، تذكرة الحفاظ: 1252، شذرات الذهب، ص: 104، تهذيب ابن عسكر، ج 4، ص: 359، الديباج المذهب، ص: 104، المرقبة العليا، ص: 102، أزهار الرياض، ج: 3، ص 151.

صاحب البغية، حيث ذكر تخصص أبي علي الصدفي في الحديث وعلومه مما يتصل بحفظه وتقييد غريبه ومعرفة رجاله ودرجاتهم مما يدخل في علوم الحديث ورجاله. وقد لخص المقري صورة هذا في أزهار الرياض حين قال:[1] (... وكان عالما بالحديث وطرقه، عارفا بعلله وأسماء رجاله ونقلته، بصيرا بالمعدلين منهم والمجرحين. وكان حسن الخط جيد الضبط. وكتب بيده علما كثيرا وقيده. وكان حافظا لمصنفات الحديث، قائما عليها ذاكرا لمتونها وأسانيدها ورواتها وكتب منها صحيح البخاري في سفر وصحيح مسلم في سفر. وكان قائما على الكتابين مع مصنفات أبي عيسى الترمذي. وكان فاضلا متأنيا متواضعا حليما وقورا عالما عاملا).

فهذه الشهادة من أزهار الرياض تعطينا فكرة عن العلوم التي يمكن أن يكون الفتح قد تلقاها أو تلقى بعضها عن أبي علي الصدفي. فإذا كان له سماع عليه ـــ كما يقول ابن الأبار ـــ فإن هذا السماع غير محدد بعلم أو مصنف، بل هو عام شامل يفيد أنه تلمذ له، وأن أبا علي قد أجازه فيما حذقه وهو كتاب أدب الصحبة للسلمي[2]، فيكون العلم الذي تلقاه عن أبي علي إذن هو ما تعلق بمصطلح الحديث وأخبار المحدثين، الشيء الذي سيكون له تأثير كبير على إحالاته ومروياته من جهة، وتورياته البلاغية وفنه التأليفي عموما من جهة أخرى. وهذا العلم الذي تلقاه عنه كان من الضروري تعلمه. لأنه بدعة العصر، من جهة الأهمية التي صبها بعض ملوك الطوائف على دراسات التفسير والحديث، مما ولد حركة قوية في هذا الميدان خلال عصرهم وما بعده[3].

وبقي أن نتساءل عن تاريخ اتصال الفتح بأبي علي وعن مكان هذا الاتصال فنشير إلى أن أبا علي حين عاد من الشرق استقر في مرسية سنة تسعين وأربعمائة وتصدى فيها للتدريس. وقد طلب للقضاء بها فلم يمض إلا مدة يسيرة حتى استعفى وخرج فارا إلى المرية، حيث اختفى بها مدة حصل خلالها على الاستعفاء فعاد إلى مرسية، واستمر في أداء رسالته بها و لم يغادرها، حتى حين طلبه أمير إشبيلية وتلميذه الأمير إبراهيم بن يوسف بن تاشفين، ومن هنا يكون الفتح قد اتصل به في مرسية خلال فترة من فترات تدريسه بها. والمظنون

[1] – أزهار الرياض، ج 3، ص: 151.
[2] – انظر كشف الظنون، ج 1، ص: 46 وهدية العارفين، ج 2، ص: 61.
[3] – مقدمة ابن خلدون الفصل الخاص بعلوم القرآن، ص: 437.

أنها كانت في الفترة التي درس عليه فيها القاضي عياض والأمير إبراهيم بن يوسف، إذ المعتقد أن الصحبة التي جمعته إليهما تمت خلال مرحلة الدرس وإن لم يذكر الفتح ذلك.

2) أبو محمد: عبد الله بن محمد بن السيد البطليوسي[1]. وهو من شيوخ الفتح الذين ذكرهم ابن الأبار. وأصله من بطليوس وسكن بلنسية، قال عنه صاحب الصلة[2]. (كان عالما بالآداب واللغات مستبحرا فيهما مقدما في معرفتهما وإتقانهما، يجتمع الناس إليه ويقرأون عليه ويقتبسون منه. وكان حسن التعليم جيد التلقين ثقة ضابطا). وتدل مؤلفاته على سعة علمه وتنوع معارفه وإن اشتهر باللغة والآداب. وقد ذكر ابن الأبار أنه أجاز الفتح على كتابه الانتصار[3] الذي ألفه في الرد على الفقيه أبي بكر بن العربي المعافري حول ما عرض له من أمر انتقاد ابن السيد في شرحه للزوميات أبي العلاء المعري. وقد خطه في هذه الإجازة بلقبه السياسي (ذو الوزارتين) سنة ست عشرة وخمسمائة. وفي اعتقادنا أن الصلة بينهما كانت سابقة لهذا التاريخ، ويعزز هذا الاعتقاد:

أ – ترجمة ابن السيد في القلائد. وهي ترجمة تدل على سابق معرفة وعمق اختبار، يقول فيها[4]. (شيخ المعارف وإمامها ومن في يديه زمامها. لديه تنشد ضوال الإعراب، وتوجد شوارد لغات الأعراب) فمثل هذه التحلية تفيد أنه كان على علم بواسع معلوماته في اللغة والنحو قبل أن يجيزه ابن السيد، لأن القلائد ألفت قبل فترة الإجازة كما سنذكر.

ويقول في نفس الترجمة (... ونصب نفسه لإقراء علوم النحو وقنع بتغييم جوه بعد الصحو...) فهو يشير إلى المآل الذي انتهى إليه ابن السيد بعد نكبة ابن رزين أي انصرافه إلى التدريس. ومن خلال ذلك تحدث عن علومه ومعارفه فقال: (... وله تحقق بالعلوم الحديثة والقديمة، وتصرف في طرقها القويمة، ما خرج بمعرفتها عن مضمار شرع، ولا نكب عن أصل للسنة ولا فرع)، وهذا يفيد أنه كان خبيرا بأحواله، مطلعا على دقائقها، عارفا بما له وما عليه من المعارف والعلوم. ولذلك أشار في ترجمته له في القلائد، إلى شروحه حول

---

1 – انظر في ترجمته: الصلة رقم 644/ بغية الملتمس رقم 192، المغرب، ج 1 ص: 385. القلائد: 221، أزهار الرياض، ج 3، ص: 101، وفيات الأعيان، ج 3، ص: 96. الذخيرة / ج 3، ص: 891، رسالة الفتح في ترجمته: أزهار الرياض، ج 3، ص: 103.

2 – الصلة رقم 644.

3 – انظر الانتصار بتحقيق حامد عبد الحميد / تاريخ النقد الأدبي في الأندلس، ص: 347 وما بعدها.

4 – القلائد، ص: 221 وما بعدها.

بعض الكتب، كالاقتضاب في شرح أدب الكتاب، والمقتبس في شرح موطأ مالك، والتنبيه على السبب الموجب لاختلاف العلماء في اعتقاداتهم وآرائهم وسائر أغراضهم وأنحائهم. ولكنه لم يشر إلى كتاب الانتصار لسببين: أولهما أنه حين ألف القلائد لم يكن ابن السيد قد ألف بعد كتاب الانتصار. وثانيهما أنه لا يريد أن يذكره فيفسد ما بينه وبين أستاذه أبي بكر بن العربي، لا سيما وأن كتاب الانتصار، مؤلف في الرد عليه كما أسلفنا.

ب – أشار الفتح في الرسالة التي ألفها في الترجمة لابن السيد أنه درس عليه وأخذ عنه وذلك حين قال [1]: (ولقد نزلت منه بالتقي الطاهر، ولقيت منه ما لقي عوف ابن محلم من ابن طاهر، ورأيت نار مكارمه تتألق، وبت كأنما على النار الندى والمحلق...). غير أنه لا يشير إلى تاريخ هذا الاتصال. والمعتقد أن ذلك تم بعد سنة ست وتسعين وأربعمائة، أي السنة التي استولى فيها المرابطون على إمارة بني رزين بشنتمرية الشرق. وحيث أن الفتح يذكر صراحة أن أستاذه عاد إلى الدرس بعد نكبة ابن رزين، فإن المظنون أنه أخذ عنه خلال هذه الفترة، ثم أجازه بعد ذلك حين علت شهرته باتصاله بالأمير المرابطي أبي إسحاق.

3) أبو بكر بن العربي المعافري [2] وهو من شيوخه الذين أشار إليهم ابن الأبار، حين ذكر أنه أجازه عن بعض كتب الأصول، ومن المعلوم أنه كانت لأبي بكر رحلة إلى الشرق عاد بعدها واستقر في إشبيلية وقد حمل معه علما كثيرا قال عنه هو نفسه[3]: (كل من رحل لم يأت بمثل ما أثبت به أنا والقاضي أبو الوليد الباجي) وأخذ يدرس العلوم التي استوعبها ابتداء من سنة ثلاث وتسعين وأربعمائة. أشار إلى هذا ابن الزبير في صلة الصلة، ونقله عنه المقري في أزهار الرياض حين قال[4]: (انصرف إلى الأندلس فسكن بلده إشبيلية وشوور فيه وسمع ودرس الفقه والأصول وجلس للوعظ والتفسير. وصنف في غير فن تصانيف مليحة حسنة مفيدة... وأقبل على نشر العلم وبثه. وكان فصيحا حافظا أديبا

---

[1] – أزهار الرياض، ج 3، ص: 106.

[2] – انظر ترجمته في الصلة رقم 1297، البغية رقم 179، المغرب ج 1، ص: 254، جذوة الاقتباس، ص: 160، الديباج، ص: 281، أزهار الرياض، ج 3، ص: 62، المراقبة العليا، ص: 105، المطمح ص: 62 وفيت الأعيان ج 3، ص: 423، تذكرة الحفاظ 1294، شذرات الذهب ج 4، ص: 141، بستان المحدثين 123

[3] – أزهار الرياض، ج 3، ص: 63.

[4] – نفس المرجع والصفحة.

شاعرا كثير الملح مليح المجلس). وقد أشار إلى نفس هذا وغيره كل من ترجم له سواء من تلامذته أو من أخذ عنهم، كابن بشكوال، والضبي، وابن سعيد، والعماد الأصفهاني، والنباهي...، وكلهم يجمع على سعة علمه وفضله ويشير إلى تضلعه في المعارف وتخصصه في الحديث والفقه والأصول.

ويبدو أن تاريخ اتصال الفتح به غير معروف. فالفتح لم يشر إلى ذلك حين ترجم له في المطمح، وإنما أشار إلى علمه وأورد جملة صالحة من أشعاره. وأبو بكر لم يغادر إشبيلية بعد عودته من الشرق إلا إلى المغرب، وتم ذلك بعد وفاة الفتح. فالمرجح إذن أن اتصاله به كان خلال الحقبة الذهبية من حياة الفتح، وهي فترة ولاية الأمير إبراهيم بن يوسف على مدينة إشبيلية، إذ فيها بلغ من المجد ما بلغ حتى نعت بذي الوزارتين. ولذلك خط أبو بكر إجازته له على بعض كتب الأصول ووضع فيها لقبه[1]، (وكذا خططه أبو بكر بن العربي، وقرأ بخطه إجازة له على بعض كتب الأصول).

ومما هو جدير بالانتباه، أن الفتح أجيز خلال فترة وجيزة ومتفاوتة من لدن عالمين جليلين هما ابن السيد وابن العربي. فهل يعني هذا أنه توجه خلال هذه الفترة إلى العلم يغترف منه حتى حصل على ما يريد منه ومن رجاله، بغاية أن يكون لنفسه رصيدا من السمعة ينفعه في وضعه السياسي الجديد. أم أن هؤلاء العلماء هم الذين سعوا إليه لما اشتهر أمره في إشبيلية وغيرها. إن الإجابة القاطعة عن مثل هذه التساؤلات ستكون مفتقرة إلى ما يزكيها من الدليل الثابت والبرهان الواضح، وهو ما نفقده في إشارات المترجمين.

والحقيقة أن حياته العلمية يسودها كثير من الغموض، ولن تستطيع إشارة ابن الأبار أو غيره، أن تفك ما عمي منها بقدر ما تضيف إلى معمياتها تساؤلات حائرة حول ارتباطه بحياة عصره العلمية وتردده على شيوخ العصر.

إن الذي يدرس الجو العلمي الذي كان سائدا في الأندلس خلال هذه الفترة التي عاش فيها الفتح، يدرك أن المعرفة لم تكن مقصورة على عواصم ملوك الطوائف الكبرى كقرطبة وإشبيلية مثلا، بل أنها كانت متيسرة حتى في المدن الصغرى والقرى النائية، وإن مراجعة صغيرة لفهارس الذخيرة أو المغرب توضح هذه الحقيقة وتجلي أبعادها لمن يلتمس الدليل على شمولية النهضة العلمية واتساع آفاقها، وكيف أن الطلبة كانوا يرحلون إلى المدن

[1] – معجم أصحاب الصدفي، ص: 313.

الصغيرة والكبيرة على السواء من أجل الاتصال بعالم أو رواية كتاب أو الحصول على إجازة، وكيف كانت رحلاتهم تنتهي في الغالب بالاستفادة الكاملة، على أنه من غير المشكوك فيه أن المدن الكبرى كانت تستقطب جماعة من شيوخ العصر (حسب تعبير د.حسن مؤنس)[1]. ممن كانت حياتهم العلمية مرتبطة بمصالح السياسة أو العلم أو غيرهما، فكان هؤلاء يشكلون محجا تحج إليه قوافل المتعلمين. ونخص من هذه الحواضر قرطبة وإشبيلية ومدن الشرق الأندلسي بميزتها العلمية ومجالات اهتمام علمائها في هذه المرحلة[2].

ففي قرطبة يحدثنا ابن خاتمة عن شيوخ المدينة الكبار في بداية القرن السادس عن طريق تعرضه لشيوخ القاضي عياض فيقول[3]: (... فأخذ بها عن ابن عتاب، وابن حمدين، وابن الحاج، وابن رشد، وأبي الحسين بن سراج، وأبي الحسن بن مغيث، وأبي القاسم بن النحاس، وأبي بحر الآمدي، وأبي القاسم بن بقي، وأبي الوليد هشام بن أحمد العواد، وغيرهم من أعلام قرطبة). فهؤلاء الشيوخ على اختلاف درجاتهم العلمية وتخصصاتهم المختلفة، قد كونوا حقلا عرفانيا يسهل الأخذ عنه والتلمذ له. يدل على هذا ما أشار إليه أصحاب التراجم عند حديثهم عن هؤلاء وما حذقوه من العلوم ومن تلمذ لهم من الأدباء والعلماء المشهورين. وتكفي إطلالة سريعة على تراجمهم لتؤكد لنا نفوذهم العلمي ومبلغه.

* فقد كان ابن عتاب[4] آخر الشيوخ الجلة الأكابر بالأندلس (حسب رأي صاحب الصلة) في علو الإسناد وسعة الرواية... وكان عالما بالقراءات السبع وكثير من التفسير وغريبه ومعانيه مع حظ وافر من اللغة. وكانت الرحلة في وقته إليه، ومدار أصحاب الحديث عليه.

* وكان ابن حمدين [5]أبو عبد الله محمد بن علي... الثغلبي من أصحاب العلم الواسع. تولى القضاء على عهد ثورة ابن الحاج سنة تسع وتسعين وأربعمائة، وأشار

---

1 - شيوخ العصر في الأندلس، المكتبة الثقافية رقم 146.

2 - مقدمة ابن خلدون ص: 437: حيث يركز ابن خلدون على النهضة التي عرفتها علوم القراءات في ولايات الشرق على عهد مجاهد العامري.

3 - أزهار الرياض، ج 3، ص: 8.

4 - الصلة رقم 749، البغية رقم 986، الديباج المذهب، ص: 150، أزهار الرياض: 160/3.

5 - الصلة رقم 1253، القلائد: 219، المغرب: 100/1، المرقبة العليا: 103، أزهار الرياض: 95/3.

صاحب الصلة إلى فضله ونزاهته وأشار آخرون إلى حذقه لعلوم أستاذه ابن عتاب وحاتم بن محمد وأبي عمر بن البر.

* وكان ابن الحاج[1] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن خلف التجيبي، قاضي الجماعة بقرطبة واحد علماء اللغة والأدب والنحو. كما كان أحد رجال الحديث. يدل على هذا أنه روى عن عبد الملك بن سراج، الغريب واللغة والأدب، وعن أبي عبد الله بن فرج وأبي علي الغساني علوم الحديث والفقه. ولذلك كان معدودا في المحدثين والأدباء. ويروي ابن بشكوال أنه كان له مجلس بالجامع الكبير بقرطبة يسمع الناس فيه.

* وكان ابن رشد[2] أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد (الجد) قاضي الجماعة بقرطبة، أحد رجالات العلم واللغة. روى عن عبد الملك بن سراج اللغوي الأديب، كما روى عن ابن خيرة، وابن فرج، وأبي علي الغساني، وأبي العباس العذري من رجال الحديث والقراءات. وقد جمع علما كثيرا لم يبخل به. وكان كما نقل ابن فرحون مقصد طالبي الحاجات وأصحاب القتيا.

* وكان أبو الحسين سراج بن عبد الملك بن سراج[3] من علماء قرطبة بالآداب واللغات والتقييد لها والضبط لمشكلها مع الحفظ والإتقان لما جمعه منها. أخذ الناس عنه كثيرا. ولعل هذه المعرفة الواسعة بالآداب والتأثير الذي يلحظ له على غيره من رجال القرن السادس عند الحديث عن شيوخهم، هو الذي يدل على ارتباطه بعصره من جهة، وارتباط صاحبنا به ارتباطا علميا ــ كما ذكر ابن الأبار ــ[4] من جهة أخرى، وإن لم تذكر ذلك كتب التراجم إلا في إطار محدود (وحدث عن أبي الحسين بن سراج بحكايات)، والتحديث لا يعني إلا أنه روى عنه بمدلول الرواية الموسع، لا المدلول الضيق الذي تستعمل فيه عند رجال الحديث.

[1] – الصلة رقم 1278/ البغية رقم 25، التكملة 38، المرقبة العليا: 102.

[2] – الصلة رقم 1270، البغية رقم: 24، الديباج المذهب 278 أزهار الرياض: 61/3.

[3] – الصلة رقم 519، القلائد: 231، الذخيرة: 721/1، معجم أصحاب الصدفي: 305، المغرب: 116/1، الخريدة: 484/2، المطرب: 133، البغية الوعاة: 1205.

[4] – معجم أصحاب الصدفي 313.

* وكان أبو الحسن بن مغيث (يونس بن محمد بن مغيث)[1] من كبار علماء قرطبة باللغة والنحو والآداب والأخبار وأكثرهم معرفة برجال الأندلس وتواريخ ملوكها وأفكههم مجلسا، وأقربهم إلى من يفد عليه ويقصده. ولعل هذه المعرفة الواسعة وهذه الخبرة بالأخبار والرجال لها دورها في توجيه التلاميذ إلى العناية بكتب الأخبار والتراجم. ولعل الفتح كان ممن تأثروا بنصائحه.

* وكان أبو القاسم بن النحاس[2] من كبار رجال الإقراء بقرطبة قال عنه ابن بشكوال (كانت الرحلة في وقته إليه، ومدار الإقراء عليه). وذكره المقري في جملة من أخذ عنهم القاضي عياض من شيوخ العصر وعلماء المصر. ولعله من غير المستبعد أن يكون كل من قدم على قرطبة ودرس في جامعها، قد كان له سماع عليه واتصال به، ولو لم يكن ممن يهتم بالقراءات، لأن الطالب أيا كان نوعه آنذاك كان محتاجا إلى أن يحذق من علم الإقراء الشيء الكثير، لأنه كان بدعة العصر، ومدارُ العلم عليه.

* وكان هناك أيضا أبو بحر سفيان بن العاص الأسدي[3]، إماما محدثا أديبا متقدما، صدوقا في روايته، ضابطا لما أخذه عن أهل الرواية والدراية، بمعنى أنه جمع علوم الحديث إلى علوم القرآن والآداب. ومثل هذه المعرفة تركت بصماتها على من تلقى عنه. ومن المحتمل أن يكون الفتح قد أخذ عنه خلال مرحلة الطلب، وإن لم يصرح أحد من المؤرخين بذلك، لأنه شهرة أبي العاص كانت كافية لأن تجلب طلاب العلم من كل مكان.

* وكان ابن العواد (أبو الوليد هشام بن أحمد بن العواد)[4] من جلة الفقهاء وكبارهم ومن أعلام الفقه، مبتعدا عن السلطان منصرفا إلى نشر العلم، جمع إلى هذا أخلاقا طيبة وقبولا حسنا، وهي صفات تزكي شخص العالم في أعين الطلاب وتستنفر جموعهم إليه. ولعل من هذه الجموع من كان يحضر حبا في الشخص نفسه ودماثة أخلاقه، وهو عنصر ملائم لمزاج الفتح.

---

[1] - الصلة رقم 1518، البغية رقم 1501، أزهار الرياض: 161/3 (وعنها تنقل أغلب التراجم).

[2] - الصلة رقم 396، البغية رقم 782، أزهار الرياض: 8/3.

[3] - الصلة رقم 527، البغية رقم 782، أزهار الرياض: 160/3.

[4] - الصلة رقم 1439، أزهار الرياض: 161/3.

وأما عن مدينة إشبيلية التي يظن أن الفتح رحل إليها من قريته يحصب. فقد كانت هي أيضا تضم عددا هاما من العلماء الكبار نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر الإمام أبا بكر بن العربي المعافري، والفقيه أحمد بن محمد بن منظور القيسي، وأبا جعفر بن عبد العزيز اللخمي المكنى بابن المرخي، وأبا عبد الله محمد بن شبرين وغيرهم كثير.

* فأما أبو بكر بن العربي فقد سبق أن أشرنا إلى أنه أجاز الفتح عن بعض كتب الأصول ـــ كما ذكر ذلك ابن الأبار ـــ وفصلنا الحديث عن تاريخ اتصاله به ونوع العلاقة التي يمكن أن تكون قائمة بينهما.

* وأما الفقيه أحمد بن محمد بن منظور القيسي فقد كان قاضي أشبيلية وعالمها، لقيه صاحب الصلة وأخذ عنه وجالسه، وقد صرف عن القضاء فتوجه إلى التعليم فانتفع الناس به، ولعل من بينهم الفتح، إذ أن الرجل ظل بإشبيلية حتى وفاته سنة ست وعشرين وخمسمائة. وقد ذكره الفتح عرضا في ترجمة البكري، وأشار إلى أنه كان في مجلسه حين قدم البكري عليهم.

* وهناك الفقيه العالم أبو علي الغساني (الجياني)[1]. الذي امتدت شهرته من قرطبة لتشمل باقي مدن لأندلس. وقد كان الناس يرحلون إليه، كما كانوا يرحلون إلى أبي علي الصدفي في شرق الأندلس.

* وهناك أبو جعفر أحمد بن محمد بن عبد العزيز اللخمي[2] (الملقب بابن المرخي). كان من كبار المحدثين، وكان أبو علي الغساني يعظمه وبفضله حسب ما روى صاحب البغية.

وما قلناه عن علماء إشبيلية يجوز أن يصدق على علماء مدن الغرب كشلب، وبطليوس، وباجة، وشنترين، وأن يصدق أيضا على مدن الشرق والشمال الشرقي والجنوب الشرقي كبلنسية ومرسية ودانية وغرناطة وألمرية ومالقة وجزائر الشرق، وقد كانت للفتح زيارات إلى هذه المدن، عقد خلالها صلات مع أترابه من رجال عصره في ظروف نجهلها، ونقدر أنها كانت ظروف التعليم والدرس، حيث التقى بكثير من رجال

1 - الصلة رقم 329،البغية رقم 643، الديباج 105، أزهار الرياض 7/3 و143/3.

2 - الصلة رقم 175 البغية رقم 363 أزهار الرياض 157/3.

العصر الذين يذكرهم في ثنايا أخباره في مؤلفاته، ويعرض لارتباطه بهم. وهو ما سنوضحه خلال الحديث عن علاقاته من خلال آثاره جملة.

ونعود إلى ما جاء عند ابن الأبار من الإشارة إلى شيوخه، فنجده قد أشار إلى أن الفتح قد حدث عن أبي الحسين بن سراج بحكايات[1] والتحديث في نظرنا لا يعني إلا الدرس والتحصيل غير أن مادة هذا الدرس مختلفة عما اعتدناه في الدروس التي كان يلقيها أمثال أبي علي الصدفي أو أبي بكر بن العربي أو أبي علي الغساني أو من شابههم من رجال الحديث والإقراء. ولذلك استعمل ابن الأبار لفظ التحديث لأن أبا الحسين كان رجل لغة وآداب و لم يكن رجل حديث أو تفسير، ولذلك فمكانته كانت دون مكانة المحدثين. وقد أشار صاحب الصلة إلى هذا حين قال[2]: (كانت له عناية كاملة بكتب الآداب واللغات والتقييد لها والضبط لمشكلها مع الحفظ والإتقان لما جمعه منها. أخذ الناس عنه كثيرا...). فخبر صاحب الصلة هذا يفيد أنه كان له مجلس للإقراء يأخذ عنه الناس فيه. وهو نفس ما تردد في المغرب مما نقله عن صاحب الذخيرة حين قال[3]: (سراج علم وأدب وبحر لغة ولسان العرب، إليه في وقتنا هذا بحضرة قرطبة تشد الاقتاب، وتمضي الركاب في الاقتباس منه...) وما عناه الفتح في القلائد حين ترجم له فقال[4]: (... همي به للمعارف انسجام، وأفصح منها استعجام. فوسم علمه إغفالا، وأوضح فهمه إشكالا، وحدث به العلوم قد فض ختامها، وانتفض قتامها...). ويبدو ظاهرا لمن يدرس القلائد أن طبيعة مروياته عنه كانت تدخل في إطار الأشعار التي نقلها عنه والأخبار التي تتعلق ببعض المترجم لهم، والمناسبات التي نظمت فيها القصائد. ولو استعرضنا هذه الأخبار لوجدناها تتعدى الستة:

أولها يتعلق بالمناسبة التي نظم فيها المعتمد بن عباد بيتيه اللذين استدعى فيهما ثلة أبي الحسين بن سراج التي كانت مجتمعة في خرائب الزهراء[5].

ثانيها متعلق بالمناسبة التي نظم فيها ابن زيدون حائيته المشهورة[6].

---

1 - معجم أصحاب الصدفي: 313.

2 - الصلة رقم 519.

3 - الذخيرة: 831/1.

4 - القلائد: 231.

5 - القلائد: 11.

6 - القلائد: 80.

ثالثها متعلق بأبيات شعرية وجهها أبو بكر بن القبطورنة إلى أبي الحسين بن سراج يذكر لمة من أصحابه[1].

رابعها خبر عن المناسبة التي نظم فيها أبو بكر بن القبطورنة لبيتين في التغزل بأبي الحكم عمر بن حزم وهو يومئذ صغير السن[2].

خامسها خبر حول المناسبة التي نظم فيها أبو الحسين بن سراج وأبو بكر بن القبطورنة لبيتين يفضحان أبا الحسن بن اليسع [3].

سادسها خبر متعلق بسيرة بن اليسع وموقفه من الخروج لرؤية هلال رمضان، مع أبيات لأبي الحسين بن سراج يعاتب فيها ابن اليسع على تخلفه عن أصحابه[4].بالإضافة إلى ما كتبه عنه في ترجمته له[5].

ومن خلال هذه الأخبار يبدو أن طبيعة العلاقة العلمية التي كانت قائمة بينهما تدور على ما كان معروفا في المجالس الأدبية والمنتديات المخصصة لتدارس الأشعار آنذاك، من الحديث عن مناسبات القصائد، أو مناقشة مضامينها مناقشة نقدية تهتم بالمعاني الشعرية التي يوردها الشاعر. أما عن علاقتهما الشخصية فسنوضحها عند الحديث عن علاقاته برجال عصره.

أما إشارة ابن عبد الملك فتذهب إلى الحديث عن من روى عنهم الفتح دون أن تؤكد على الجانب التعليمي في ذلك، على نقيض ما أخبرنا به ابن الأبار، وما احتمله خبره من الصبغة العلمية لعلاقاته برجال عصره من العلماء المذكورين سابقا.

وهكذا لم يشر ابن عبد الملك إلى علاقته بأبي علي الصدفي أو بابن العربي أو بابن السيد، بل ذكر أنه روى عن مجموعة من رجال عصره، وحدد منهم ابن القصيرة وابن اللبانة، وابن يشتغير، وابن زرقون (أبا الطيب)، وابن خلصة، وابن طاهر، وابن عبدون، وابن حجاج، وابن سعدون، وابن سراج، وابن سرور، وابن دريد الكاتب.

---

1 - القلائد: 173.
2 - القلائد: 176.
3 - القلائد: 191.
4 - القلائد: 192.
5 - القلائد: 231.

ولعله قد أراد بالرواية جانبا معينا من علاقات الفتح برجال عصره، يتعلق من جهة، بالأخبار التي لا يعرف أصحابها أو لم يعاصرهم، فينظر إلى الرواية عمن عاصروهم أو عرفوا من أخبارهم ما يكون مادة صالحة للتراجم التي يكتبها عنه. ويتعلق من جهة أخرى بالأخبار التي يرويها عن مصادرها الأصلية، أي عن أصحابها دون أن يكلف نفسه عناء ذكر ذلك. وهذا ما أشار إليه ياقوت عندما ترجم للفتح وتعرض للحديث عن طريقته في التأليف فقال[1]. (... حدثني الصاحب الكبير العالم جمال الدين بن أكرم أدام الله علوه قال: لما عزم بن خاقان على تصنيفه كتاب قلائد العقيان، جعل يرسل إلى كل واحد من ملوك الأندلس ووزرائها وأعيانها من أهل الأدب والشعر والبلاغة، يعرفه على عزمه ويسأله استيفاد شيء من شعره ونظمه ونثره ليذكره في كتابه...). فالخبر إذن يفصل الكيفية التي حصل بها الفتح على جانب من معلوماته ومعارفه. وهذا نوع آخر من أشكال الرواية يختلف عن سابقه.

وعلى هذا فإن ما نقله بعض المؤرخين حول الرواية ومدلولها إنما يفيد بالنسبة للفتح الأخبار التي رواها عن جماعة من رجال عصره ممن كان له اتصال بهم سواء كان هذا الاتصال اتصال تلمذة أو صداقة.

ولعل جولة سريعة في تراجم من ذكرهم ابن عبد الملك ستعطينا فكرة عن نوع هذه العلاقة التي كانت قائمة بينه وبينهم، والتي كانت في غالبها -كما سيتضح- علاقة أستاذية وتلمذة بالمدلول الواسع للكلمتين.

* فأما أبو بكر بن القصيرة[2] فهو محمد بن سليمان الكلاعي الإشبيلي ذكره صاحب الصلة فقال عنه (كان من أهل الأدب البارع، والتفنن في أنواع العلم) وأشار صاحب الذخيرة إلى أستاذيته فقال (إنه يسر للعلم فتعلمه وعلمه) وقد اشتغل عقدا من عمره في بلاط المعتمد، فسفر بينه وبين كثير من ملوك الطوائف، وبينه وبين ملك المرابطين يوسف بن تاشفين، وحين صفى المرابطون أمر الطوائف في الأندلس، كان في جملة من غودر من أصحاب النفوذ ورجال العهد السابق. ولكن نفوذه عاد إليه بعد ثلاث سنوات كما ذكر

[1] - معجم الأدباء: 124/6.

[2] - الصلة رقم 1253، القلائد: 117، الذخيرة: 239/2، المغرب: 1350، المعجب 163، المطرب: 81 الخريدة: 342/2، الذيل والتكملة: 659/6، الإحاطة: 516/2.

صاحب الذخيرة[1]. فأصبح الكاتب الخاص لأمير المسلمين، وبقي كذلك إلى أن توفي يوسف بن تاشفين. ويذكر أصحاب التراجم السابقون أنه خرف في آخر عمره.

ويهمنا من أمر عرض حياته أن نتساءل عن الفترة الزمنية التي تم الاتصال فيها بينه وبين الفتح، هل كانت خلال المرحلة الانتقالية من حياة ابن القصيرة (بين عصر الطوائف وعصر المرابطين) أم كانت بعد وفاة الأمير المرابطي يوسف بن تاشفين. أم كانت خلال فترة استقراره في المغرب في كنف الأمير المرابطي.

والحقيقة أن الإجابة الشافية المعتمدة على نقول صريحة غير موجودة أو غير متوافرة الآن، بالنظر إلى أن الفتح في ترجمته لابن القصيرة لم يذكر شيئا من ذلك، بل اكتفى بنقل نص رسالة جوابية رد بها ابن القصيرة على رسالة تساءل فيها الفتح عن شيء يهمه. وقد صدر بها مختاراته له فيها[2] (... وافتني أعزك لله لك أحرف كأنها الوشم في الخدود، تميس في حلل إبداعها كالغصن الأملود. وإنك لسابق هذه الحلبة لا يدرك غبارك في مضمارها، ولا يضاف سرارك إلى إبدارها. وما كان أخلقك بملك يبنيك وملك يقتنيك، ولكنها الحظوظ لا تعتمد من تتجمل به وتتشرف، ولن تقف إلا على من توقف. ولو اتفقت بحسب الرتب لما ضربت إلا عليك قبابها، ولا خلعت إلا عليك أثوابها. وأما ما عرضته فلا أرى انفاذه قواما، ولا أرضى لك أن تترك عيون آرائك نياما. ولو كففت عن هذه الخلق، وانصرفت عن تلك الطرق، لكان أليق بك وأذهب مع حسن مذهبك، فقديما أوردت الأنفة أهلها، موارد لم يحمدوا صدرها، والموقف من أبعدها وهجرها، وسأستدرك الأمر قبل فواته، وأرهف لك مفلول شباته، فتوقف قليلا ولا تنفذ فيه دبيرا ولا قبيلا، حتى ألقاك هذه العشية، وأعلمك بما تنبني عليه القضية، إن شاء الله).

فمضمون الرسالة يحدد أن هناك معرفة بينهما يشير إليها الجزء الأول من الرسالة، وهو الذي بدا فيه ابن القصيرة منصفا للفتح مشيدا بعبقريته، متأسفا على أن أحدا من الملوك لم يشمله بعنايته أو يدخله في بطانته. ويحمل الأيام مسؤولية ذلك. كما يشير الجزء الثاني منها إلى طبيعة هذه المعرفة. وهي في زعمنا معرفة قائمة بينهما مستندة على علاقة سابقة استغلها الفتح في موضوع الرسالة التي وجهها إليه. فكان جواب ابن القصيرة ملبيا

[1] – الذخيرة: 239/2.

[2] – القلائد: 118.

لطلبه، كما كان أسلوب الجواب يكشف عن عطف وحدب من جانب أبي بكر على وضعية صديقه الفتح، بل وفيه توجيه لأخلاقه وسلوكه ــ وهو الشاب الذي ما زال في بداية الطريق يبحث عن نفسه وعن مستقبله ــ حين نهاه عن أن يبادر إلى اتخاذ موقف من الموضوع الذي تضمنته رسالة الفتح له، ودعاه إلى التخلي عن أخلاق الأنفة والتكبر. ولعل مصداق هذه النصيحة سنجده في عتاب وجهَه ابن طاهر إليه بعد أن رأى من أنفته ما رأى.

أما عن طبيعة هذه العلاقة فالمعتقد أن ابن القصيرة كان خلال وجوده في بلاط المرابطين يمارس ما اعتاد أن يمارسه خلال حياته في بلاط ابن عباد قبل ذلك: أي أنه كان متصدرا للعلم والتعليم ــ حسب رواية ابن بسام السابقة ــ ويؤكد هذا ما أشار إليه ابن عبد الملك في ترجمته لابن القصيرة من أنه قد أخذ عنه أبو الوليد هشام بن يوسف بن الملجوم لقيه بمراكش سنة اثنين وتسعين وأربعمائة. مما يؤكد أنه كان يكتب للأمراء، ولا يستغني عن ممارسة الإقراء والتوجيه في ميدان اللغة والأدب. ولذلك نعتقد أن العلاقة التي قامت بينهما هي علاقة تلمذة ومشيخة، فقد روى عنه غير قليل من الأخبار، وخاصة تلك التي تعلقت بشعر ابن عباد ومناسباته.

* أما أبو بكر بن اللبانة[1] فهو أبو بكر محمد بن عيسى الداني الملقب بابن اللبانة. يذكر صاحب المعجب أنه كان منقطعا إلى بني عباد، وفيهم أجود مدحياته ومراثيه. وقد ألف برسمهم كتابين هما (السلوك في وعظ الملوك) ضمنه مجموعة من القصائد والمقطعات في البكاء عليهم وعلى أيامهم. و(الاعتماد في أخبار بني عباد) فصل فيه الحديث عن تاريخهم بعد أن طوهم يد الحدثان. وألف كتابا آخر هو (سقيط الدرر ولقيط الزهر).

ولو عدنا إلى القلائد والمطمح وبحثنا عن إثر ابن اللبانة فيهما لوجدنا أن الفتح اعتمد كثيرا على مروياته وخاصة تلك التي تتعلق بأخبار المعتمد ابن عباد، والوزير بن اليسع، وشملت هذه المرويات أخبارا عن المناسبات التي نظمت فيها بعض القصائد والمقطعات التي نقلها عنه الفتح (إحدى عشرة مناسبة).

وتستوقفنا هنا أسئلة ملحة حول العلاقة التي كانت قائمة بين الفتح وابن اللبانة وطبيعتها وتاريخها. والجواب أن أي مصدر من المصادر لا يشير إلى طبيعة هذه العلاقة أو

1 - القلائد: 282، المعجب 149، بغية الملتمس رقم 123، التكملة 145، الذخيرة: 666/3، المطرب 178، المغرب 409/2، الخريدة: 444/2.

تاريخها، وإنما تكتفي بعض هذه المصادر بذكر ما نقله الفتح عن ابن اللبانة أو ما رواه عنه. ومدلول الرواية في الخبر غير واضح في الغالب، لأن استعماله عند أصحاب التراجم عموما غير دقيق، خاصة حين يتعلق الأمر بالرواية الأدبية أو اللغوية. فهل كانت العلاقة بينهما علاقة علمية. لا نعتقد ذلك، لأننا لا نجد في تراجم ابن اللبانة من يذكر أنه كان له مجلس يحدث فيه الناس بأخبار بني عباد أو يذكر لهم مقتطفات من كتبه السابقة الذكر، أو أن الفتح قد غشي هذه المجالي واتصل بابن اللبانة فروى عنه ما رواه، لا سيما وأن هذه الأخبار تتعلق بذكريات أليمة شهدها الفتح وهو صغير السن في إشبيلية، ووصفها في القلائد وصفا نتشمم فيه روح المعاناة، ويفصح عن ذكريات أليمة عن صدى ترحيل بني عباد بين الأوساط الاجتماعية التي أثرت على عواطف الفتح يومذاك وهو طفل لم يبلغ العاشرة بعد[1]. أو أن الفتح قد اتصل بابن اللبانة حين عزم على تأليف كتابه القلائد فروى عنه أشعارا حلاها بما نقله عنه وعن غيره من أخبار ومرويات. إن من يقرأ القلائد، سيجد ابن اللبانة في قائمة من روى عنهم الفتح، ولو قمنا بعملية إحصاء لمصادر أخبار الفتح لوجدنا ابن اللبانة على رأس قائمة من أخذ عنهم. ومما يؤكد هذا الافتراض أن الفتح يستعمل في كثير من الأحيان لفظة (أخبرني) وهي تحمل ما تحمله من دلالة التخصيص والإفراد.

* أما أبو جعفر بن سعدون فتسكت أغلب المصادر عنه، وتكتفي بما نقله الفتح عنه في أخبار بن رزين، بل نجد أن صاحب الذخيرة يروي الخبر نفسه الذي أورده الفتح[2]. كما نجد أن صاحب المغرب[3] لا يقدم معلومات كثيرة عنه بل يكتفي بالإشارة إلى أنه تردد على ملوك الطوائف وخاصة على ابن رزين، وأن قراءاته كانت بمرسية وبلنسية.

وبالنسبة لعلاقته بالفتح فإن الخبر التي أوردته القلائد لا يستطيع أن يوضح أمرها بنوع من الإقناع وإن تضمن ما يفيد أن الفتح كان على اتصال بابن سعدون، وأنه اعتمد عليه في مروياته الخاصة بأخبار ابن رزين، لأنه لا يحدد زمان ومكان هذا الاتصال وطبيعته. والمعتقد أن اتصالهما كان قد تم خلال زيارات الفتح لمدن الأندلس، حيث التقى في إحداها بأبي جعفر – الذي كان يشبهه في البحث عن الرزق والتجوال والتطواف على الأمراء والملوك[4].

1 – القلائد: 25.
2 – يعتقد إحسان عباس أن هذا الخبر مدسوس على الذخيرة (انظر الذخيرة 109/3)
3 – المغرب: 271/2.
4 – نفس المصدر السابق.

* أما أبو جعفر بن بشتغير[1] فهو أحمد بن سعيد بن خالد (أو ابن خلف) بن بشتغير اللخمي اللورقي. ذكره غير واحد من المترجمين، فأشار الضبي إلى أنه كان فقيها محدثا أديبا من أهل بيت جلالة في لورقة. وأشار ابن بشكوال إلى شيوخه وفصل فيهم القول، وتناول شخصيته فذكر سعة علمه وروايته ومكانته في الإسناد، كما أشار إلى تصدره للعلم (أخذ عنه جماعة من أصحابنا وكتب إلينا بإجازة ما رواه). وقد أكد ابن الأبار في المعجم ما أشار إليه بن بشكوال، وألمع إلى جملة ممن روى عنهم وذكر بعض من رووا عنه ومنهم أبو الحسن بن النعمة وابن بشكوال.

على أن الفتح أيضا لم ينس أن يذكر أنه روى عنه، غير أنه ينعته تارة بأبي خالد (في الخبر الذي تقله عنه عند ترجمته للمعتصم بن صمادح [2]. وتارة بأبي عامر (في ترجمة أبي الحسن بالحاج[3]). ولعلهما لقبان لمسمى واحد، أو لعله أخطأ في تلقيبه بأبي عامر إذ لم يعرف لأبي جعفر إلا لقبان هما أبو خالد وأبو جعفر.

وبالنظر لتردد الفتح على بلنسية فلا شك أنه تردد أيضا على لورقة القريبة منها فتعرف هناك على أبي جعفر وأخذ عنه من الأخبار ما رواه في كتبه، أو أنه تعرف عليه خلال فترة الدراسة، إذ أن كلا منهما أجيز من أبي علي الصدفي[4] وإن لم تصرح المصادر بذلك.

وهكذا روى عنه مجموعة من الأخبار، يتعلق بعضها بأحوال الأندلس ورجالها، ويتعلق البعض الآخر بالمادة التي تخصص فيها أبو جعفر وهي الحديث، وهذا الجزء لا يعني بحثنا لأن أثره لا يظهر في مرويات الفتح عنه[5].

* أما أبو الطيب بن زرقون[6] فهو المسمى سعيد بن أحمد ابن سعيد بن عبد البر الأنصاري البطليوسي. ذكره ابن عبد الملك وأشار إلى أنه سكن إشبيلية وأن لقب ابن زرقون غلب على أبيه من لدن المعتضد العبادي لشدة حمرة خدوده. كما أشار إلى شيوخه

---

1 - الصلة رقم 157، البغية رقم 413، معجم أصحاب الصدفي: 6.
2 - القلائد 55.
3 - القلائد: 158.
4 - المعجم ص 6 و313، وقد خصص ابن الأبار كتابه لمن أجازه أبو علي.
5 - القلائد 55 و158
6 - الذيل والتكملة: 23/4.

وإلى من روى عنه، وفي مقدمتهم ابنه أبو عبد الله الذي يذكر صاحب أزهار الرياض[1] أنه روى عن الفتح كتبَه بجانب أبي بكر يحيى بن محمد الأركشي. ويضيف ابن عبد الملك إلى أنه كان كاتبا بليغا كتب لابن الأفطس (المتوكل) ولغيره، وأنه توفي في حدود العشرين وخمسمائة. وحين نتجه إلى آثار الفتح نجد ابن زرقون من الذين اعتمدهم الفتح في الأخبار التي رواها عن بني الأفطس خاصة[2].

وتقوم هذه الأخبار على ما تقوم عليه مرويات الفتح عموما من الحديث عن مناسبة بعض القصائد أو القطع الشعرية. ولا يذكر شيئا عن العلاقة التي قامت بينهما. بينما يفصل المقري في أمر هذه العلاقة، فيشير إلى أن أبا الطيب رغب إلى الفتح في أن يجيز ابنه أبا عبد الله ففعل. وهذا يدل على معرفة متأصلة بينهما، كما يدل على الاحترام الذي كان ابن زرقون يكنه للفتح.

* أبو عبد الله بن خلصة[3] وهو محمد بن عبد الرحمان بن أحمد.. اللخمي البلنسي الشريوني الأصل. ذكره ابن الأبار في المعجم فأشار إلى أنه كان عالما مقدما في كل من دانية وألمرية، وأنه علم العربية بهما. وكانت بينه وبين ابن السيد مناقضات انتهت بهما إلى التعيير بالعاهات الخَلقية[4]. وقد بالغ ابن عبد الملك في الإشادة بفضله وعلمه فذكر أنه كان (متقدما في علوم اللسان نحوا ولغة وأدبا، فصيحا بليغا كاتبا بارعا شاعرا محسنا...). كما أشار إلى وزنه الاجتماعي والعلمي فذكر أن ابن العربي كان يجله ويشهد بفضله في ما ينتحله من العلوم. وربما زاره بمنزله. ولم يتطرق أي مصدر من المصادر التي ترجمت له إلى علاقة بالفتح، فابن الأبار في المعجم لا يذكر من الذي رووا عنه إلا أبا بكر محمد ابن أبي الليل المعروف (بابن ولم)، وأبا بكر يحيى بن محمد ابن رزق الحافظ، الذي حضر إقراءه لكتاب سيبويه في المرية[5]، في حين يذكر ابن عبد الملك من رواته أبا بكر بن رزق، وأبا

---

1 - أزهار الرياض: 99/5.
2 - القلائد: 50.
3 - معجم أصحاب الصدفي 95/ التكملية 4261، الذيل والتكملة: 337/6.
4 - المعجم:95.
5 - نفس المرجع السابق.

عبد الله بن أحمد بن مطرف التطيلي، وأبا عمرو زياد بن الصفار. ولم يذكر الفتح ابن خلصة إلا مرة في القلائد حين تعرض لخبر ابن رزين مع أبي عيسى بن لبون[1].

ويبدو أن العلاقة التي قامت بينه وبين ابن خلصة ربما كانت من نوع العلاقة التي قامت بينه وبين ابن السيد أو ابن العربي، أي علاقة أستاذية وتلمذة. فقد ذكر ابن الأبار أن ابن خلصة كان يعلم بالمرية العربية، وأشار ابن عبد الملك إلى أنه تصدر للإقراء بدانية وبلنسية، ثم تحول إلى المرية وتمادى تدريسه بها إلى أن توفي، فلا شك أن الفتح قد اتصل به في إحدى هذه المدن حين خرج لطلب العلم والشهرة، ولعله قصده حين قصد أبا علي الصدفي. وقد كان ابن خلصه من النماذج المحببة إلى الفتح، والتي ترضي غروره بتواضعها وجميل معاملتها، ووفرة علمها. وهو ما أشار إليه ابن عبد الملك حين تحدث عن الصفات الخلقية والخلقية لابن خلصة فقال[2] (وكان حسن السمت معروف الذكاء جميل المعاملة) بالإضافة إلى علمه الواسع الذي اشرنا إلى بعضه.

* أبو عبد الرحمان بن طاهر[3]وهو محمد بن أحمد بن إسحاق بن طاهر صاحب الأحكام في مرسية. استولى عليها بعد وفاة أبيه. وهو من بيت عامر، وعدد وافر، يفخرون بالعروبة وينتسبون في قيس عيلان كما حكى ابن حيان[4]. وقد ذكره الفتح بكثير من الخير والفصل حين ترجم له، كما روى أخباره ونهايته التي شهدها سنة (507) وشبهه صاحب الذخيرة بالصاحب بن عباد في الشرق، لأنه كان يكتب عن نفسه. وبالغ في مدحه فقال عنه (أنه أحد من جمع الحديث على القديم)، وخصص له كتابا سماه (سمط الجواهر في ترسيل ابن طاهر)، وقال عنه ابن الأبار في الحلة[5] أنه كان من أهل العلم والأدب البارع، يتقدم رؤساء عصره في البيان والبلاغة، ينتجعه الشعراء ويقصده الأدباء، كما ذكر صاحب الذيل والتكملة[6] بأنه كان أحد المتقدمين في البلاغة، بارع الكتابة فصيحا خطيبا. ويهمنا

---

[1] - القلائد: 61.

[2] - الذيل والتكملة: 227/6

[3] - انظر القلائد: 64، الذخيرة: 24/3، الصلة رقم 1256، البغية رقم 33، المغرب: 247/2، المعجب 121، الحلة السيراء: 116/2، الخريدة: 313/2، أعمال الأعلام: 202. ذ.ت: 590/5.

[4] - الحلية: 116/2.

[5] - نفس المرجع السابق.

[6] - الذيل والتكملة: 590/5.

من هذه النقول ما تداولته من الإشارة إلى مكانته الأدبية والعلمية وعلاقاته بالأدباء عامة والفتح خاصة.

والمعروف والمكرور عن ابن طاهر أنه كان خفيف الروح متواضعا، ميالا إلى مجالسة الأدباء، ولذلك قصدوه فاشتهروا به واشتهر بهم. ومن يطلع على نصوص الرسائل والخطابات المتناثرة في كتب التراجم يلاحظ أن اتصالاته كانت واسعة، وأن أفقه السياسي والفكري كان رحبا، ولذلك كان قبلة الناهين والناشئين وأصحاب الطموح وطلاب الشهرة. وهذا الحكم الذي انتهينا إليه، تؤكده الأخبار المنقولة ويعرض له الفتح في القلائد حين يتناول علاقته به أثناء ترجمته له[1].

فقد تعرض لتاريخ اتصاله به وهو سنة ثلاث وخمسمائة ــ وهي سن متأخرة بالنسبة لعمر أبي عبد الرحمن ــ وكان مكان اتصالهما هو باب الحنش.... فإذا هو شيخ أضجرته سنه العالية. اتخذ عكازة يعتمد عليها في سيره، وقد تراجعت أحواله المادية عما كانت عليه أيام شبابه وعزه. لكنه ما يزال ثابت الجنان، قوي الإدراك. وقد قامت بينهما صداقة بعد هذا اللقاء، صورها الفتح بما تردد بينهما من مراسلات، وما أضفاه ابن طاهر عليه من سابغ النصيحة وواكف التوجيه. وقد قدم لنا الفتح صورة من هذه النصائح والتوجيهات من خلال كتاب ورد عليه من ابن طاهر يوجهه فيه إلى ما فيه خيره ومستقبله، ويعنفه تعنيفا خفيفا على رفضه لدعوة أمير بلنسية له للالتحاق بكتابته. إذ يعتبر ابن طاهر ذلك طريقا للوصول إلى الشهرة، وسبيلا إلى تحصيل النفوذ والجاه حيث قال:[2](أنا اعزك الله عليك شحيح، ولك فيما تأتيه وتحتذيه نصيح. فالزمان لا يساعد، والأيام تعوق وتباعد. فاقصر من هذه الهمة واقتصر من أمورك على المهمة التي تفجأ من الأوقات، ولايلجأ فيها إلى ميقات، واقتصد في مواهبك، واقصد إلى العدل في مذاهبك، ولا تكلف في الجود بسرف ولا تقف من التبذير على شرف. فلو أن البحر لك مشرب والتربة مكسب. لنفذا معا و لم يسدا موضعا. ولو كان النجم لك مصعدا، والفلك مقعدا، لما ثنيت إلى ذلك عنانا ولا ارتضيت لهمتك مكانا. وقد خطبتك الحظوة سرا وجهرا. وبذلت لك الإمرة أسنى مراتبها مهرا، فازدريت زهوا وامتطيت بأوا، لاتتربص على مسديها ولا يختص بإجابتك

---

[1] - القلائد: 64

[2] - القلائد: 76.

مناديها. وقد كان يجب ألا ترغب عن راغب ولا تنكب عنه إلى شغب شاغب، فأين تريد تترل وما الذي ترتضي وتستجزل، وقد عرضت عليك الأماني فما تأملتها، وخلعت ملابسها فما اشتملتها، والذي أحظك عليه أن تكف من رسنك قليلا، ومن وسنك مستطيلا إن شاء الله).

وهكذا يبدو أن ابن طاهر مارس على الفتح نوعا من الأستاذية والتوجيه المتعلق بالحياة ومتطلباتها، والحظوة والشهرة وشروطها. لأنه عرك الحياة وعرف حلوها ومرها وانتهى فيها إلى الاعتبار بأحداثها واستشفاف الحكم من ماجرياتها. فأفاد الفتح من تجربته خصوصا وأن حياته انطلقت من مرحلة العلم إلى مرحلة الحكم. ابتدأ كاتبا وانتهى حاكما. لذلك وجدناه يعاتبه على تضييعه لهذه الفرصة التي أتاحها له أمير بلنسية، خصوصا وقد بدا منه كل خير. من خلال الصلات التي وصله بها ليرغبه في البقاء إلى جانبه.

ورغم ما يمكن أن يستشف من الوجه الآخر للرسالة، والخاص بالفتح، من حيث دلالته على أخلاقه وطبيعة تفكيره، وعلاقة هذا بطموحه وسنه المبكرة، فإن الرسالة تظل شاهدة على نوعية العلاقة التي قامت بينه وبين ابن طاهر، بل تظل عربونا على آفاق الاتصال الذي قام بينهما والذي توضحه رسائل أخرى تفصح عنه أشكال الرسائل الإخوانية عموما من تعلق المتكاتبين ببعضها البعض[1].

لقد استفاد الفتح من معاشرة ابن طاهر فوائد جمة. بعضها يتعلق بالتاريخ وأخباره، والبعض الآخر يتعلق بالآداب وبالآثار الفنية المرتبطة بكثير من الأحداث التاريخية، من نحو ما هو متردد في الأخبار التي رواها عنه والتي ترددت أصداؤها في القلائد عامة وترجمة ابن طاهر خاصة. كالخبر المنقول عن ثورة ابن حجاف في بلنسية[2] والخبر المنقول عن اتصالهما بمنية المنصور بن أبي عامر[3]. بل إن ترجمة ابن طاهر وحدها تعطينا فكرة عن علاقته بأربع عشرة شخصية معاصرة له، وما جرى له معها من احداث مختلفة، بعضها سياسي، وبعضها اجتماعي، وبعضها فني[4]. ولعل هذه الاستفادة هي التي عناها ابن عبد الملك[5] حين ترجم

[1]- القلائد 88،رسالته إلى الفتح يتأسف على رحيله ويذكر عهد اتصالهما.

[2]- القلائد 78.

[3]- القلائد 77.

[4] - القلائد: 64.

[5]- الذيل والتكملة: 590/5 .

لابن طاهر وأشار إلى اللذين رويا عنه، وهما أبو عمر زياد بن الصفار وأبو نصر الفتح بن محمد بن عبيد الله الإشبيلي.

* أما ابن عبدون: فهو أبو محمد عبد المجيد بن عبد الله بن عبد ربه الفهري اليابوري[1] ذكره غير واحد بالفضل والعلم الكثير، فأشار صاحب المعجب في خبر مطول عن ابن زهر الحفيد أنه كان من أيسر محفوظاته كتاب الأغاني. وأشار صاحب الصلة – بعد أن ذكر شيوخه – إلى علمه وأدبه فقال[2]: (وكان أديبا متقدما وشاعرا عالما بالخبر والأثر ومعاني الحديث، أخذ الناس عنه، وتوفي بيابرة) وذكره ابن بسام بالخير والفضل واعتبره أحد أربعة من المميزين من الكتاب[3]. (كلاعيان وفهريان. فالكلاعيان هما ابن القصيرة وابن عبد الغفور، والفهريان هما ابن الجد وابن عبدون).

وعن علاقته بالفتح ونوعيتها فقد سكتت عنها المصادر، ولم يسكت عنها الفتح. إذ أشار في التحلية التي وضعها له أثناء ترجمته له إلى أنه من نخبة النبلاء وبقية أهل الإملاء[4]. وهذا يساير ما أشار إليه صاحب الصلة [5] من أنه قد أخذ الناس عنه.

ومثل إشارة الفتح هاته كافية في الدلالة على نوعية الشخصية التي كان يتعامل معها في الرواية. لقد كان ابن عبدون من كبار العلماء العارفين بالخبر والآثار. وإذا كانت الأغاني أيسر محفوظاته. فلا شك أن هناك مثيلات لها كان يحفظها ويستوعبها ونقلها عنه تلاميذه ومن روى عنه. ومن هنا نؤول العلاقة التي نحن بصدد بحثها، إلى رواية علمية يتم الترابط فيها بطريق العطاء والأخذ.

كما أشار الفتح أثناء ترجمته لابن عبدون إلى نوع آخر من أنواع الاتصال الذي كان قائما بينهما. وذلك في الخبر الذي صدر به المختارات التي اختارها له. حيث أورد خبر انتقاله إلى يابورة ونزوله بقصر واليها. فلما علم ابن عبدون بحلوله. اتجه إليه واستدعاه

1 – القلائد: 164، الذخيرة: 468/2، الصلة: 2؟؟، البغية رقم 1570، التكملة: 407، المطرب 27 و180، المغرب: 374/1.

2 – السلسلة: 388/2.

3 – الذخيرة: 144/1.

4 – القلائد: 165.

5 – الصلة: 388/2

وبالغ في تكريمه، وحين عزم على الرحيل ودعه بقصيدة شعرية ذكر خلالها مكانته الأدبية والسياسية فقال:[1].

فأنت الذي لولاه ما فاه لي فم ولا هجست نفس ولا كتبت كف

نصيري أبا نصر على الدهر لا النوى النوى فمنك لنا نصر وأنت لنا كهف

كما تأسف على عدم قدرته على الخروج لتوديعه فقال:

ولست على التشييع أن سرت قادرا فلا عيشة تصفو ولا ريشة تضفو

فمثل هذا الخبر يفيد أن ابن عبدون كان يكن له تقديرا كبيرا ويجله للاعتبارات التي ذكرها في القصيدة ومنها بيانه الساحر وأدبه الباهر الذي يثير حسد الحساد، والذي هو زينة للعيون وتشنيف للآذان.

وأشار في ترجمته أيضا إلى نص رسالة كتبها ابن عبدون إليه مراجعة له عن رسالة بعثها إليه الفتح، وتناولت رسالة ابن عبدون موقفه من خصومة بين الفتح وبين أحد منافسيه في بلاط أحد الأمراء (ابو يحيى) وفيها يبالغ ابن عبدون في أطراء مناقب الفتح الأدبية وفتوحاته العرفانية ويطمئنه على وضعيته في ظل الأمير أبي يحيى خصوصا بعد أن أعلى ذكره في الآفاق حيث يقول[2]:

(... وأقسم بمساعيه العظام وأياديه الجسام المحلية لأعناق الكرام المزرية بأطواق الحمام. لقد نشرت عليه ثوب إحسان تقصر عنه صنعة قس وسحبان، وأنه لأبصر بكرامة الضيفان من زرقاء اليمامة بعسكر حسان...). فنص الرسالة يفيد أن الفتح استجار بمكانته العلمية وشهادته فيه في بلاط أبي يحيى بن روادة أمير المرابطين على اشبيلية أو قرطبة[3]، ولكننا لا ندري من هو المنافس الذي تعرض لهجو لاذع من ابن عبدون حين قال عنه في نفس الرسالة (.... وأما ذلك المصحف المبدل للمعاني والأغراض، المقابل لما لا يفهمه

[1] نفس المرجع والصفحة.

[2]- القلائد: 167 و168.

[3]- الحلل الموشية: 70 و71. وهو والي المرابطين على قرطبة حتى 515 قبل أن يثور عليه أهلها، وانظر البيان المغرب: 66/4.

بالاعتراض، فما الحساب لما طن الذباب إذا طن، لا يناوبه بصفيره العصفور فكيف يجاوبه بزائره الليث الهصور. ولولا تمريث الزمان بذكره وتلويث الأواني بقبائحه وذكره لأريتك من خطله وزللـــــه ما يضحك الثكلى، ويستدرك به الجاحظ باب النوكى...) فهل كان هذا المنافس أحد الكتاب المشهورين الذين كانوا ينافسون الفتح أم أنه أحد أعدائه وكفى.

ومن جميع ما تقدم يبدو أن العلاقة التي كانت قائمة بين الفتح وابن عبدون شبيهة بالعلاقة التي جمعته إلى علماء العصر، فقد وجدناه يستشيره في ملمات الأمور، فيجيبه ابن عبدون بما يقتضيه الظرف [1]. ووجدنا ابن عبدون يحرص على صحبته ومصافاته وإكرامه، على ما عرفت به مكانته يومذاك في الأوساط الأدبية والعلمية والسياسية، بل وجدناه ينظم قصيدة مدحية يطري فيها الفتح ويعتذر له على عدم قدرته على الخروج لتوديعه ــ كما جرت العادة آنذاك من الخروج لتوديع أصحاب الشأن على أبواب المدن وأطرافها ــ وهذا يدل على مكانة الفتح في عين ابن عبدون.

على أنه بالنسبة للرواية بمدلولها الموسع فإن المتصفح للقلائد لا يجد إلا خبرين ينقلهما الفتح مسندين إلى ابن عبدون: الأول خبر تاريخي[2] يتعلق بالجذب الذي أصاب عاصمة المتوكل ابن الأفطس وما فعله المتوكل. والثاني حول رحلته معه إلى شنترين[3] وما كان من سلوكه مع قاضيها وفراره إلى دار ابن خيرون أحد أصدقائه، حيث أعد له ما يلزم في مجلس الأنس والشراب.

رواته: حين نتناول رواته بالذكر لا تجد اتفاقا بين من ترجم له من المؤرخين حول عددهم أو أسمائهم. بل نجد البعض يغفل ذكرهم إطلاقا، إما لأنه يجهل أسماءهم أو لأن منهجه في التأليف لا يقوم على ذكرهم. وهكذا فلم يشر صاحب المغرب إلى من روى عنه أو كان له به اتصال، وكذلك جل مترجمي الشرق، مع أن أغلبهم يروى قصته مع ابن باجة، ويذكر سبب خصومته معه ويشير إلى أن ابن باجة كان قد أزرى به في مجلس إقرائه حين بالغ الفتح في الحديث عن الصلات التي وصله بِها أمراء الأندلس[4]، فيروون أنه كان

[1] – القلائد: 168

[2] – القلائد: 48.

[3] – القلائد: 49.

[4]– الإحاطة ج 247/4.

له مجلس أقراء ولا يذكرون عن هذا المجلس شيئا، لا عن مكانه ولا عن زمانه ولا عن رواده.

على كل فقد أشارت طائفة من المصادر إلى مجموعة من هؤلاء الرواة الذين أخذوا عنه وفي مقدمة هذه المصادر:

- معجم أصحاب الصدفي: لابن الأبار القضاعي. فقد ذكر وهو يترجم للفتح، بعض رواته الذين أخذوا عنه، وذكر منهم ابن زرقون والأركشي ونجبة بن يحيي حيث قال[1]: (... روى عنه عبد الله بن زرقون جميع تواليفه، وسمع كثيرا من نوادره وأخباره، وري عنه أبو بكر يحيي بن محمد الأركشي. وللأستاذ أبي الحسن نجبة بن يحيي اجازه منه باستدعاء أبيه لجميع تواليفه وأخباره).
- المطرب لابن دحية الذي ذكر من رواته أبا عبد الله محمد ابن القاسم بن عميرة، حيث ربط اسم الفتح في الكتاب وأخباره به[2] وروى كل ما يتعلق به مسندا إليه.
- أزهار الرياض للمقري: الذي يشير إلى أبي عبد الله ابن زرقون وإلى أبي بكر يحيي بن محمد الأركشي في جملة من روى عنه حين قال[3]: روى عنه أبو عبد الله بن زرقون جميع تواليفه وسمع كثيرا من نوادره وأخباره. وروى عنه أيضا أبو بكر يحيي بن محمد الأركشي في آخرين يطول تعدادهم...) فكلام الأزهار المنقول أغلبه عن المعجم، يفيد أن هناك جماعة كثيرة أخذت عنه. ولعل المقري بحكم تأخره قد استفاد من كثير من المؤلفات التي أشارت إلى ذلك و لم تصلنا، إلا أنه لم يكلف نفسه مشقة ذكر هؤلاء الرواة بأسمائهم بل اكتفى بالإشارة إلى أن تعدادهم يطول. فأطال حيرتنا بإشارته.

إن مراجعة بسيطة لتراجم هؤلاء الرواة (رواة الفتح) ستوقفنا على مجموعة من الحقائق التي تتضارب فيها الأخبار وتنتهي إلى نتائج غير مستقرة.

ففي مقدمة هؤلاء الرواة ابن زرقون[4] وهو أبو عبد الله محمد بن سعيد بن أحمد بن سعيد المعروف بابن زرقون. أشار إلى ترجمته عدد غير قليل من أصحاب التراجم واتفقوا

1- معجم أصحاب الصدفي 313.
2- المطرب 25.
3- أزهار الرياض ج 99/5.
4- الصلة رقم 82/ البغية رقم 139/ المطرب 219 التكملة 257/1/ الديباج 285.

على علمه الواسع بالنظر للشيوخ الذين روى عنهم وأجازوه، وفيهم ابن تليد، وابن الأبرش، وابن عبدون، وعياض، والخولاني، وابن الحاج الشهيد، وابن شبرين، وشريح، وأبو مروان الباجي. وقد ركز ابن الأبار[1] على استقامته وثرائه الواسع وعلمه الغزير الشيء الذي جعل الناس يرحلون إليه، كما أشار إلى براعته في الأدب والمشاركة في قرض الشعر والتصرف في طرفي النظم والنثر. ورغم أن ابن الأبار هو أول من أورد الخبر الذي تحدث عن رواية ابن زرقون (الابن) لكتب الفتح[2]. (روى جميع تواليفه وسمع كثيرا من نواره وأخباره...) فإنه لم يشر إلى ذلك في ترجمته له في التكلمة، بل لم يجعل الفتح ضمن الشيوخ الذين روى عنهم ابن زرقون، ولا ندري سببا لإغفاله لهذا إلا تركيز التراجم في التكملة وابتعاده عن التطويل، ولحاجة في نفس يعقوب أشار إليها في خاتمة ترجمته له في المعجم.

أما ابن دحية فقد وضع ترجمة مطولة لابن زرقون تحدث فيها عن شيوخه دون تمييز بين الفقيه منهم أو المحدث أو اللغوي أو الأديب وأثناء حديثه عن قدرته العلمية أشار إلى ما عرضه ابن خاقان في قلائده من أنه كان يحضر مجالس الأنس (أثناء ترجمته للمتوكل ابن الأفطس[3]). وذكر أن هذا لا يقدح في عدالته وسلوكه الطيب لأن باب التوبة مفتوح، وأن ذلك كان من نزوات الصبا، وأنه صلح للقضاء فاستقضي في كبره فكان عادلا رضيا[4]. ويظهر أن في ترجمة ابن دحية خلطا إذ لم يميز بين الأب والابن.

وهكذا نلحظ أن ابن دحية لم يذكر الفتح ضمن شيوخ ابن زرقون مع أنه أشار إلى القاضي عياض ضمن شيوخه. وعياض كان معاصرا للفتح ومن طبقته.

واكتفى الضبي[5] بالإشارة إلى بعض شيوخه كالخولاني وابن شبرين رغم أن إجازة الخولاني لم تكن إلا للتبرك فقد أجازه في نفس السنة التي ولد فيها[6]. وردد ابن فرحون[7]

1- التكملة 257/1.

2- معجم أصحاب الصدفي 313.

3- القلائد 50.

4- المطرب 220/ ويشير ابن دحية إلى أن الفتح ترجم لابن زرقون في القلائد ولكن القلائد المطبوعة لا تحتوي شيئا من ذلك، بل لم يذكر إلا مرة واحدة ق.50.

5- بغية الملتمس رقم 139.

6- المطرب 219.

7- الديباج 285.

ما عرضه صاحب التكملة والبغية. وحدا حدوده المقري[1] بمعنى أن المصادر في مجملها لم تقدم لنا دليلا على وجود هذه الرواية التي أشار إليها ابن الأبار ولم تقدم لنا أثرا ماديا عليها، كما أنها لم تنكر وجودها برفضها. وليس لهذا من تعليل إلا نزول الفتح عن درجة المشيخة في نظر كتاب التراجم هؤلاء.

أما نجبة بن يحيى بن نجبة[2] فهو ممن أشار إليهم ابن الأبار أيضا ضمن من رووا عن الفتح وأجاز لهم حين قال:[3] (وللأستاذ أبي الحسن نجبة بن يحيى إجازة منه باستدعاء أبيه لجميع تواليفه وأخباره...) وقد تفرد ابن الأبار بهذه الإشارة ولم يروها عنه غيره ممن تعرضوا لرواة الفتح. ويبدو أن السبب في ذلك يرجع حسب ما نظن إلى مكانة الأستاذ أبي الحسن الذي كان فقيها عالما بالقراءات خبيرا بشؤون اللغة العربية، مما قد يفرض عليه أن لا تدنس سمعته العلمية بإلحاق إجازة الفتح بها، لما اشتهر به من التهتك الذي عرضه لعقاب القضاة. ولهذا وجدنا ابن الأبار يردف إشارته إلى رواة الفتح، بالتأكيد على سوء سلوكه حيث قال:[4] (ولم يكن مرضيا وحذقه أولى من إثباته). وفي ترجمة ابن الأبار لأبي الحسن إشارة موسعة إلى شيوخه في القراءات كأبي الحسن شريح، وأبي محمد شعيب اليابوري، وأبي جعفر بن عيشون، وأبي العباس المسيلي. وإلى شيوخه فيما عدا ذلك ومن أشهرهم ابن العربي، وابن لب، وأبو مروان الباجي، وأبو بكر بن طاهر، ومفرح ابن عبد الله وأبو الحسن بن مسلم، وأبو بكر بن فندلة، وأبو الوليد ابن حجاج، وأبو القاسم بن الرماك وغيرهم. وفيها إشارة إلى من أجازه من المحدثين.

ومن هنا يبدو واضحا ما أشرنا إليه سابقا من إغفال ابن الأبار للفتح في التكملة ضمن الذين أجازوا أبا الحسن، إما لأنه ـــ أي ابن الأبارـــ يجري الإجازة على مدلولها الضيق المتصلة خاصة بالعلم الشرعي، أو لأن الفتح لم يجزه الإجازة العلمية المعقولة التي تأتي بعد التعرف على المادة المجاز فيها لأن سن أبي الحسن كانت آنذاك أقل من أن تحمل عبء ما تزخر به مؤلفات الفتح من المعارف والأخبار والأشعار والأسلوب واللغة، لأن سنة آنذاك لم تكن ملائمة لهذه الإجازة، فقد ولد سنة إحدى وعشرين وخمسمائة، في حين أن

[1]- النفح 115/2.

[2]- التكملة رقم 1879/2.

[3]- معجم الصدفي 313.

[4]- معجم الصدفي 313.

وفاة الفتح كانت سنة تسع وعشرين وخمسمائة، فكيف يجيز الفتح طفلا لم يبلغ الحلم إلا أن تكون الإجازة مقصودا بها التبرك أو الشهرة، وهو أمر جرى عليه الناس وعرف به الوقت. أو لأن أبا نجبة يحيى بن خلف كانت له مكانة في إشبيلية تجعله قبلة يحج إليها طلاب المال والشهرة.

ونظير هذا ما نجده في إجازة الخولاني لأبي عبد الله بن زرقون سنة اثنين وخمسمائة، أي السنة التي ولد فيها أبو عبد الله. فأجازه الخولاني باستدعاء أبيه في السنة الأولى من ميلاده[1].

أما الأركشي[2] وهو الذي يكنى عند ابن الأبار في المعجم بأبي بكر يحيى، فلم نعثر له فيما هو موجود بين أيدينا من المصادر على ترجمة خاصة به. وإنما المشهور من أسرة الأركشي هو أبو زكرياء يحيي بن محمد[3] أشار صاحب المغرب إلى أنه كان من حفاظ الأدب وفي هذا التخصيص تنبيه إلى تعلقه بأصحاب الأدب ورجال الشعر والنثر، والدليل على هذا ما ذكره صاحب المغرب عنه من أنه كان راوية لابن خفاجة ــ الذي كان على علاقة بالفتح كما سنذكر ــ الشيء الذي يؤكد صلته به. ويؤكد ابن الأبار صحة روايته عن ابن خفاجة في التكملة حين يقول (... أخذ عن أبي إسحاق بن خفاجة شعره سنة ست وعشرين وخمسمائة. وكان أديبا كاتبا شاعرا...). على أن المترجمين له لم يذكروا روايته عن الفتح، سواء تعلق الأمر بأخباره أو بآثاره. وليس من سبب لذلك في نظرنا سوى الحصار الذي ضرب على الفتح ومؤلفاته من جانب أعدائه، فلم تسلم لنا من أخباره إلا ما أغفلته يد السخط أو ما حفظته بعض الظروف.

أما أبو عبد الله بن عميرة [4]: فهو أبو عبد الله محمد ابن أبي القاسم بن عميرة ذكره ابن الأبار في وفيات سنة سبع وسبعين وخمسمائة، ونعته بالكاتب، واكتفى بالإشارة إلى بعض شيوخه ومنهم ابن زغيبة، وأبو بكر الأسدي، وابن السيد البطليوسي، وأبو الحسن بن مغيث. ويظهر أنه كان من مواليد بداية القرن السادس، لأنه درس على من أشرنا إليهم وجلهم توفي قبل الثلاثين من القرن السادس. وقد ذكره ابن دحية في المطرب مرات كثيرة

[1]- المطرب 219.

[2]- التكملة 725/2 / المغرب 316/1 النفح 62/4.

[3]- من العجيب أن يترجم ابن الأبار له في التكملة بلقب أبي زكرياء، ولا يتنبه إلى أنه أورده في المعجم بلقب أبيبكر.

[4]- التكملة 1431/2/ المطرب 186/179/175/137/122/85/61/25/23/20.

ونقل عنه أخبارا مختلفة بعضها متعلق بالفتح وبعضها متعلق بغيره. وقد اعترف بأنه أخذ عنه قراءة منه عليه[1]. (...أنشدني الوزير الفقيه المحدث الكاتب أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم بن عميرة قراءة مني عليه سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة رحمه الله قال...).

ورغم أنه لم يترجم له، فإن التحلية التي وضعها لاسمه تفيد أنه كان وزيرا ــ بالمدلول الأندلسي ــ فقيها محدثا رواية كاتبا. كما تفيد تحليات أخرى وضعها له أنه كان المحدث الفاضل، الكاتب العالم، والكاتب العالي المراتب.

وعلى كل فابن دحية هو الذي يقيم الدليل بخبره على اتصال أبي عبد الله بن عميرة بأخبار الفتح ونوادره ومؤلفاته وبعض اتصالاته، أما غيره فلا يشير إلى ذلك مطلقا.

---

[1]- المطرب 175.

الفصل الثالث

علاقاته من خلال مؤلفاته:

1) القلائد: يبدو لكل من يقرأ القلائد قراءة متمعنة، أن الفتح لم يقف فيها عند الحديث عن محاسن الأعيان كما عبر عن ذلك في عنوان الكتاب ــ بل انطلق أيضا إلى التعريف بمكانه بين هؤلاء الأعيان عن طريق عرض اتصالاته بهم، واتصالاتهم به. وتوضيح وجهة نظرهم حوله وحول فنه النثري على العموم. وقد استطاع بهذا أن يعوضنا عما ينقصنا مما لم نجده في الكتب التي ترجمت له حول مكانته الأدبية أو السياسية. كما استطاع أيضا أن يلطف من أثر الصورة القائمة التي صور بها من طرف كثير من المترجمين من الذين أثرت عليهم ظروف اجتماعية وفكرية عاشتها الأندلس خلال القرن السادس وما بعده فانطلقوا يبخسونه حقه وينعتونه بكل قبيح ويلصقون به التهم.

وبهذا نعتقد أن من يريد أن يعرف الفتح ومكانته وعلاقاته واتصالاته، فإن عليه أن يعود إلى مؤلفاته التي ترجم فيها لجماعة من معاصريه. وهناك سيجد الحق الذي قلبته بعض الروايات والشهوات.

لقد عرضت القلائد جانبا من العلاقات التي ربطته برجال عصره أثناء التراجم التي أوردها لكثير من رجال عصره. ولعل وقفة قصيرة عند كل منها ستتيح لنا التعرف على نوعية هذه العلاقة وآفاقها، كما ستقدم لنا الجانب الثاني من الصورة الذي تغافل عنه بعض المترجمين، والذي يحكي الحقيقة من الجانب الآخر الذي هو جانب المدعى عليه. وسنتبع في عرض هذه التراجم النسق الذي سارت عليه القلائد في الترجمة مبتدئين بالأمراء فالوزراء...

1) وأول من يطالعنا من الأمراء الرئيس الأجل أبو عبد الرحمان محمد بن طاهر[1] ترجم له غير واحد من أصحاب التراجم فأشادوا بفضله وذكروا أنه كان يلي أمور مرسية فثار عليه أهلها فاتجه إلى بلنسية وظل بها إلى أن توفي وقد نيف على التسعين. كما ذكروا أنه كان يكتب عن نفسه وشبهوه لذلك بالصاحب ابن عباد في المشرق وكان الفتح من أهم من ترجموا له ورووا عنه. فقد عرض له في ترجمة مفصلة مست مراحل حياته المختلفة، وتتبعت الأسباب التي أدت إلى نكسته ودخوله السجن ثم الإفراج عنه بتدخل ابن عبد

---

[1]- القلائد 64/ الذخيرة 24/3 الصلة 1256 البغية 23/ الحلة 116/2 العجب 121 الخريدة 313/2 الذيل والتكملة 590/5/ أعمال الأعلام 202.

العزيز، واستقراره في بلنسية ورحيله منها إلى شاطبة خلال مرحلة استيلاء السيد القنبيطور عليها، ثم عودته إليها بعد ذلك إلى حين وفاته سنة سبع وخمسمائة. وأثناء المختارات التي اختارها له تعرض لذكر خبر اتصالاته به، فأرجع أول اتصال إلى سنة ثلاث وخمسمائة حين دخل الفتح مدينة بلنسية فوجده وقد أخذت الأيام منه مأخذها، فانحنى ظهره وتقوس، واتخذ عصا يتكئ عليها، كما أخذت الأيام من ماله فلم تبق له كثيرا، كما وجده مازال محتفظا بأشراق فكره وانطلاق لسانه[1]. وخلال مقامه ببلنسية كثر الاتصال بينهما، واستفاد كل منهما من الآخر: استفاد ابن طاهر روح الشباب والمرح التي أشعها الفتح في جوه فخخفت عنه بعض الثقل الذي فرضته عليه السنين التي يحملها ظهره. واستفاد الفتح معرفة واطلاعا على الحياة وشؤونها وماجرياتها.

ونجد صورة لهذا من نص الرسالة التي وجهها ابن طاهر له بعد أن استبقاه أمير بلنسية ورغبة في الاستقرار بما أهداه إليه من الهدايا والدراهم، فأعرض الفتح عن ذلك. فكان ذلك سببا في ملاحاة ابن طاهر له، وهو الذي علم قصده وغايته من زيارة بلنسية وأميرها (أبي محمد عبد الله بن فاطمة[2] حين قال[3]. (... أنا أعزك الله عليك شحيح، ولك فيما تأتيه وتحتذيه نصيح. فالزمان لا يساعد، والأيام تعوق وتباعد. فاقصر من هذه الهمة، واقتصر من أمورك على المهمة التي تفجأ مع الأوقات ولا يلجأ فيها إلى ميقات. واقتصد في مواهبك واقصد إلى العدل في مذاهبك، ولا تكلف في الجود بسرف، ولا تقف من التبذير على شرف، فلو أن البحر لك مشرب والترب مكسب لنفذا معا ولم يسدا موضعا. ولو كان لك النجم مصعدا، والفلك مقعدا، لما ثنيت إلى ذلك عنانا، ولا ارتضيت لهمتك مكانا. وقد خطبتك الخطوة سرا وجهرا، وبذلت لك الإمرة أسنى مراتبها مهرا. فازدريت زهوا وامتطيت بأوا، ولا تتربص على مسديها ولا يختص بإجابتك مناديها، وقد كان يجب أن لا ترغب عن راغب، ولا تنكب عنه إلى شغب شاغب. فأين تريد تنزل وما الذي ترتضي وتستجزل. وقد عرضت عليك الأماني فما تأملتها وخلعت عليك ملابسها فما اشتملتها. والذي أحظك عليه أن تكف من رسنك قليلا ومن وسنك مستطيلا إن شاء الله).

---

[1]- القلائد 76.

[2]- البيان المغرب 42/4.

[3]- القلائد 76.

فقد خصه في مقدمة الرسالة بمجموعة من النصائح والتوجيهات التي يشتم منها أنه عرف نوع شخصيته وأدرك بفهمه وتجربته صورة من طموحه. كما لاحاه في الجزء الأخير على العرض الذي تقدم به والي بلنسية إليه فرفضه، مع أنه سبيل إلى الشهرة التي يطلبها وطريق إلى المناصب التي يحلم بها الكتاب وحملة الأقلام، في عصر كثر عددهم فيه وانتهت الكثرة بهم إلى المنافسات والأحقاد.

كما تعرض في هذه المختارات أيضا إلى صورة أخرى من صور اتصاله به. سواء في باب الحنش[1] أو في منية المنصور بن أبي عامر ببلنسية[2] أو حين غادرها الفتح إلى ميورقه[3]، حيث كتب له يودعه قائلا[4] – (يا كوكب مجد أظلمت بغروبه منيرات الآفاق. وذهب ما كنت عهدته بطلوعه من الإشراق. لقد استرجعت مسراتي أجمعها وأنزلت عن نفسي في السلوة طمعها فسقيا لعهدك، وقل له السقيا، ويا لهفي من بعدك أن قضي لي بالبقيا. وإن بي من الشوق لبعدك والكدر ما لو كان بالفلك الدوار لم يدر. فلقد كانت غراء أيام تلاقينا والأنس يساقينا، وأنها لممثلة لعيني ما يحول السلو بيني وبينها، وعساها تعود فتطلع معها السعود إن شاء الله تعالى).

فهو يأسف لفراقه ويتذكر عهد اللقاء الذي قام بينهما والذي استعاد فيه أنسه وبهجة الحياة معه، ويتمنى أن تعود هذه الأيام فتشرق بها سعوده. وعلى العموم فإن من نظر إلى علاقة الفتح بابن طاهر على أساس أنها علاقة تلمذة فقط قصر في حق هذه العلاقة. حتى لو أراد بالتلمذة مذلوها الموسع الذي يشمل الاستفادة من تجارب الحياة المختلفة. إذ نزعم أن الفتح قد قصد ابن طاهر من أجل التوسط له عند أمير بلنسية. فلما حصل ذلك أعرض عما جاء في طلبه لسبب من الأسباب، فأوقع ذلك ابن طاهر في ورطة جعلته يكتب له الرسالة المذكورة سابقا[5] والتي ينبهه فيها إلى الرضى بالمتحصل والالتزام بالمبدأ (... فلو أن البحر لك مشرب والترب مكسب لنفذا معا ولم يسدا موضعا. ولو كان لك النجم مصعبا والفلك مقعدا لما ثنيت إلى ذلك عنانا ولا ارتضيت لهمتك مكانا...) كما ينبهه إلى ضرورة

1- القلائد 76.
2- القلائد 77.
3- نفسه.
4- نفسه.
5- القلائد 76.

الابتعاد عن الزهو والاستماع إلى نصح من لا تنفع نصيحته من المشاغبين[1]. (وقد كان يجب أن لا ترغب عن راغب، ولا تنكب عنه إلى شغب شاغب. فأين تريد تترل. وما الذي ترتضي وتستجزل).

وقد أحس ابن طاهر فيما بعد بنوع الطموح الذي يحلم الفتح بتحقيقه. فانصرف إلى ملاطفته وأفادته بتجارب الحياة التي مر بها، وحدثه عن أخبار الماضين ممن عايشهم وعاشرهم، وتأسف على من مضى منهم ولم يبق له إلا الأثر الذي يشاهد. (منية المنصور بن أبي عامر). ومن غير المستعبد أن يكون الفتح قد طلب منه آنذاك أن يتحفه ببعض آثاره، مما وضعه في المختارات التي حلى بها ترجمته، بدليل أن اللقاء بينهما لم يتجدد ــ كما ذكر الفتح ــ إذ أنه حين عاد إلى بلنسية وجد ابن طاهر قد لبى نداء ربه سنة سبع وخمسمائة.

2) وهناك أيضا الوزير الفقيه الكاتب أبو القاسم محمد بن عبد الله بن الجد الفهري[2] وهو من لبلة وسكن إشبيلية. أشار صاحب الصلة إليه فقال: كان من أهل المعارف والتقدم في الآداب والبلاغة وله حظ جيد من الفقه والتكلم في الحديث، وكان يفتي في بلده لبلة وكان فاضلا حسن العشرة...) وتدخل علاقة الفتح به في إطار العلاقات التي أقامها مع طبقة الوزراء وكبار الكتاب من رجال العهد الطائفي والمرابطي. وهكذا يحدثنا عن ابن الجد وعن مكانته العلمية والفنية وما تحصل له بسبب ذلك من الدرجة العالية في ظل المرابطين. وقد صدر المختارات التي اختارها له بنص رسالة وجهها إلى الفتح يعتذر له فيها عن عدم الرد على خطاب سابق له ويقول[3]: (... لو أطعت نفسي، أعزك الله، بحسب هواها ومحتمل قواها، لما خططت طرسا ولا سمعت للقلم جرسا. ولنمت في حجر العطلة مستريحا ولزمت بيت العزلة جليسا طريحا. ولكنني بحكم الزمان مغلوب وبحقوق الإخوان مطلوب، فلا أجد بدا من إعمال الخاطر وإن غدا طليحا، وتناهي تبليحا. ولما طلع علي طالع خطابك الكريم، في صورة المقتضي الغريم، تعين الأداء ووجب الإعداد واتصل بالتلبية النداء. وقد كنت تغافلت عن الكتاب الأول تغافل الساكن إلى العذر المتأمل. فهزتني من الثاني كلمات مؤلمات ولكنها في وجه الحسن والإحسان سمات. لم توجد في إلى المعذرة

1- القلائد 76.

2- القلائد 123 الذخيرة 285/2 الصلة 1267/ المطرب 190 المعجب 237/ المغرب 341/1.

3- القلائد 124.

طريقا، ولا سوغتني في النظرة ريقا. فتكلفت هذه الأسطر تكلف المضطر حفزه نقل البر، وأنت بفضلك تقبل وجيزها ولا تبخل بأن تجيزها والله يطيل بقاءك محسود النجابة ولا يخلي دعوتي لك من الإجابة)

وقد جرى في هذا الخطاب على ذكر ما منعه من إيراد الجواب واضطراره في الأخير إليه اضطرارا. وقد طلب منه أن يقبل هذا الجواب ويجيزه ودعا له في خاتمته.

ويبدو أن الرسالة تخلو من كل ما يمكن أن يستشف منه خبر عن علاقة بعينها أو صداقة تجمعها ولكن الذي نفهمه أن ابن الجد لم يكن ينظر إلى الفتح نظرة إكبار واحترام تدفعه إلى المسارعة في رد الخطاب أو التأدب على الأقل في الجواب. فالخطاب يخلو من كل تحلية كيفما كان نوعها كما يظهر في ثناياه استصغار لشأن الفتح يدفعه إلى التباطؤ في الجواب، وتكلفه بعد ذلك حين أوجعته معاتبتة.

ولعل تاريخ هذه الرسالة يرجع إلى الفترة الأولى من حياة الفتح حين كان يبحث عن الشهرة ويبادر إلى الاتصال برجال الدولة المرابطية من الأندلسيين. ولذلك تعالى ابن الجد عن الخطاب الأول واضطر إلى الإجابة عن الثاني بجواب مقتضب حتى لا يتهم بالتقصير في حق من لا يعرفه أو من لم يشتهر، كما يبدو أن موضوع رسالتي الفتح ربما كان متعلقا بما عزم عليه من وضع كتاب يضم محاسن الأندلسيين وأعيانهم فكتب إلى ابن الجد في جملة هؤلاء الأعيان فتباطأ عنه فعالجه بخطاب ثان اضطره إلى الرد فكتب الرسالة السابقة.

وعلى أساس هذا الافتراض نزعم بأنه لم يكن هناك اتصال سابق بينهما وأن ما ورد في القلائد يعطي صورة عن نوع هذه العلاقة التي قامت على حرص من جانب الفتح ونفور من جانب ابن الجد رغم ما عرف عنه من طيب العشرة وحسن المعاملة[1]. وأن حرص الفتح على الاتصال به إنما يعود إلى ما كان قد عزم عليه من أمر مؤلفه الذي كان ينوي وضعه حول أعيان الأندلس في قلائد العقيان.

3) أما ابن القصيرة فقد سبقت الإشارة إليه عند الحديث عن شيوخ الفتح ومن روى عنهم، إذ تذكر بعض المصادر أن ابن القصيرة في جملة من روى عنهم الفتح[2] وقد أشرنا إلى أن هذه العلاقة يمكن استنباط أبعادها من خلال الرسالة التي أرسلها ابن القصيرة

[1]- الصلة رقم 1267.

[2]- الذيل والتكملة 530/5.

إلى الفتح[1] والتي أرشده فيها إلى الطريق التي ينبغي عليه أن يسلكها في الحياة، كما حثه ان لا يمضي في أمر ـــ استشاره الفتح فيه ـــ حتى يفد عليه ويقضي فيه بما ينبغي أن يقضي. كما بينا الأصول التي يمكن أن تستنتج من هذه الرسالة

4) أما أبو محمد عبد الله بن يمن الدولة محمد بن عبد الله بن القاسم[2] فلم تشر المصادر إلى وجود علاقة قائمة بينه وبين الفتح خلافا لما أشارت إليه الخريدة ـــ فيما نقلته عن القلائد ـــ وقد ترجم له الفتح ضمن طائفة الوزراء، مع أنه كان من أمراء الطوائف استولى آباؤه على إقليم البنت ـــ فلقب بأبي القاسم البونتي ـــ وقد تأخرت وفاته إلى ما بعد بداية القرن السادس.

ونستطيع أن نستشف صورة العلاقة التي قامت بينه وبين الفتح من خلال صورتين اثنتين:

الأولى وهي الأصل وتقوم على الرسالة التي اختارها الفتح له ضمن مختاراته، وفيها ودعه أبو القاسم بعد لقاء تم بينهما، وفيها بالغ في امتداح أدب الفتح وجهد في تحليته بكل وصف جميل ولطيف[3].

الثانية: تتعلق بالمادة الخبرية التي أوردها عن حياته إذ تتبع جزئياتها فصلا فصلا، وأشار خلال ذلك إلى النهاية التي انتهى إليها، حيث جلس إلى مقعد الدرس والاعتبار، فنبذ الدنيا وانشغل عنها[4]. (... وهو اليوم قد انقبض عن أنواع الناس وأجناسهم، واستوحش من إيناسهم وأنس بنتائج أفكاره، وهام بعيون العلم وأبكاره. وكلف بفتونه وتصرف من سهوله إلى حزونه. ونبذ الدنيا نبذ النواة، وانتبذ من ملابسة الغواة، وصرف وجهه تجاه البر والتقوى، وترك ربع الحظوة عافيا قد أقوى. وعلم الله، أن الله به حفي، وأنه له صفي، حين أعلقه بأسبابه وصرفه عن باب الملك إلى بابه).

كما أظهر عمق اتصاله به أيضا في تتبعه لأخباره بعد أن أنزله المرابطون عن عرشه وخيروه في المقام في بلاد من بلاد المغرب فاختار سلا[5]. (... ولما نفذ في أمره ما نفذ،

1- القلائد 111.

2- القلائد 144/ الخريدة 384/2/ البيان المغرب 215/3/ أعمال الأعلام 208.

3- القلائد 145.

4- القلائد 144.

5- القلائد 149.

وانفصل عن أمير المسلمين وانتبذ. خيره في بلاد المغرب فاختار سلا، واعتقد أنه يأنس فيها ويسلا، بمجاورة بني القاسم الذين غدو بدور سمائها، وصدور أسمائها..).

5) أما أبو محمد عبد الله (أو عبد الرحمان) بن جعفر بن الحاج المعافري اللورقي[1]، فهو ممن اتصل بهم الفتح واتصلوا به وقد ترجم له ولأبيه في القلائد، وأن وقف في ترجمته له عند حدود امتداح أدبه وشمائله وخصاله. وكانت ترجمة ابن الأبار أوفي ترجماته لأنها شايعت أخباره إلى نهايتها وعرفت بميزاته العلمية حين قالت[2]: (... وبرع أبو محمد هذا في الآداب وهي كانت بضاعته وصناعته) كما عرف بتطور حياته. سواء عندما استدعي سنة ثمان وعشرين وخمسمائة إلى بلاط المرابطين بمراكش ليكتب لهم. أو بعد ذلك حينا استعفي فأعفي وعاد إلى مرسية. بينما انحصرت ترجمة صاحب المغرب في الحديث عن ما نقله من أخبار أبيه حين طلب للولاية من العامة فاستعفي وعاد بعد هدوء الثورة إلى ممارسة حياته[3]. ويظهر أن قصور معلومات الفتح عنه يرجع إلى أن أهم وأنشط مراحل حياته وتطوراتها الكبرى لم يعرفها الفتح. لأنه ألف القلائد في مرحلة متقدمة عن تاريخ نشاط أبي محمد، من جهة، ثم لأن الفتح توفي في سن مبكرة بالنسبة لامتداد حياة أبي محمد. ومن المعلوم أن الربع الثاني من القرن الخامس عرف اضطرابا كبيرا في حياة أبي محمد، أصبح خلالها مؤذنا في مسجد بمرسية يصحب الفقراء ويزهد في ملذات الدنيا وشهواتها، ومعنى هذا إن الفتح عرفه في مرحلة شبابه أو قبل ذلك حين اتجه ليدرس على أبي علي الصدفي، وامتدت صحبتهما بما توفر لها من الجو الذي كان يحيط بأسرة ابن الحاج، وما كان يرغب فيه الفتح مما وصف في المختارات التي اختارها لأبي الحسن جعفر بن إبراهيم من جو المرح والملذات والمتع. وتدل المختارات التي اختارها الفتح لأبي محمد على مجموعة من الدلالات المختلفة فهي تتضمن:

أولا: رسالتان: إحداهما إخوانية تتناول موقف أبي محمد من وضعية الفتح السياسية والفنية، وثانيتهما في وداع الفتح وتمجيد معارفه[4] (... فإنما ألمعت بساعات من قربك إلماعا، ملأت بها عيونا وأسماعا ومددت فيها للأدب والبحث باعا وساعا...).

1- القلائد 164/ معجم أصحاب الصدفي 214/ المغرب / 276.

2- معجم أصحاب الصدفي 214.

3- المغرب/ 276/2.

4- القلائد 164.

ثانيا: مكانة الفتح السياسية حيث خوطب بلقبه السياسي (ذو الوزارتين)، ومعنى ذلك أنها ترجع إلى الفترة التي تعقب سنة (516) أي السنة التي تربطنا المصادر إليها كتاريخ لتلقيبه بهذا اللقب- كما أسلفنا -، أو أنه مال إلى مجاملته بهذه المخاطبة.

ثالثا: الإشارة إلى مكانة الفتح الفنية والأدبية والعلمية. ففي الرسالة الأولى يعترف أبو محمد بأنه لا يستطيع أن يساجل الفتح أو يقف في وجهه[1]. (كيف أساجلك في الأدب وأنت تملأ الدلو إلى عقد الكرب، وأنا امتاح من وشل، واستنجد بفشل...) وهو على حق في هذا إذ سبق للفتح وهو يترجم له أن قال في حقه (... مع تفاوت معلوماته، وتهافت أدواته....) وفي الرسالة الثانية يعترف له بالتلمذة والإفادة ويطلب منه إلا ينظر إلى كتابته بعين الناقد وإلا فسيكشف أخطائها وهفواتها[2]. (... وما هي أبا نصر إلا بديهة خاطر في التعرض لك مخاطر، أرجو لكف شبات نقدك عنها فضل...) رغم ما يمكن أن يستشف من قوله من عناصر التواضع.

رابعا: وهي تتضمن صورة عن أخلاقه وتعامله. فهو سخي كريم تنحصر فيه معاني الكرم المادية والمعنوية، لا يبخل بما يحصل عليه من المال، ولا بما يضمه صدره من العلم، فيملأ الأسماع والأعين على حد تعبير أبي محمد. والخلاصة أن ما قام بينهما من علاقة، هو الذي يبرره حرص أبي محمد على استدعائه فور وصوله إلى بلنسية كما أشار الفتح إلى ذلك[3]. وهي صداقة مبنية على ما ذكرناه من أمر الزمالة في الدرس، والصحبة في السياسة، إذ ينتميان إلى طبقة سياسية واحدة، هي طبقة الأندلسيين المتعصبين لأندلسيتهم ولأهل الأندلس عموما.

6) أما عن علاقته بأبي محمد عبد المجيد بن عبدون فقد سبقت الإشارة إليها عند الحديث عن شيوخه[4].

7) ومن الذين ربط بهم علاقة متينة أبناء القبطورنة[5]. وهم إخوة ثلاثة أشهرهم أبو بكر عبد العزيز بن سعيد بن عبد العزيز البطليوسي ويليه أخوه أبو محمد طلحة. ثم أبو

---

[1]- القلائد 164.

[2]- القلائد 164.

[3]- القلائد 165.

[4]- انظر الفصل الخاص بحياته العلمية.

[5]- القلائد 169/ الذخيرة 753/2/ التكملة رقم 1743/ المطرب 186/ المغرب 367/1. رايات المبرزين 30 الإحاطة 528/1.

الحسن محمد. وهم من الأسر الشهيرة في غرب الأندلس وفي بطليوس التي ينسبون إليها، فقد ذكر بعض الدارسين المحدثين أنهم من أسرة غير عربية أسلمت وحسن إسلامها، كما حسن اتصالها بالعربية وآدابها عن طريق الجماعة التي اتصلت بعلمها، وأشهر أفرادها أبو بكر تلميذ بن العربي المعافري[1]، وقد كتبوا للمتوكل بن الأفطس. ولا تسعفنا المصادر بالكثير من أخبارهم لأن جل هذه الأخبار متعلقة بذخيرة ابن بسام وقلائد الفتح. إذ عاصر هؤلاء الإخوة الوزراء واتصل الفتح باثنين منهما (أبو بكر عبد العزيز وأبو محمد طلحة) و لم يذكر ابن بسام أن له اتصالا بأحدهم. لكن مختاراته الشعرية والنثرية، ومادته الخبرية كانت أكبر من مادة القلائد ومختاراتها.

وعن العلاقة التي قامت بينه وبين أبي محمد طلحة: فإننا لا نجد مصدرا يحدد نوعها أو يشير إليها ـــ ما خلا الخريدة، وهي تنقل عن القلائد- وقد أشار الفتح لهذه العلاقة حين صدر بها المختارات التي اختارها لأبي محمد هذا. فأورد مقطوعة يودع فيها أبو محمد الفتح ويتأسف على فراقه تأسفا شديدا ويذكر مزاياه[2]:

إذا قيـــل مـــن هـــذا يقولـــون كاتـــب   وإن قيـــل مـــن هـــذا يقولـــون شـــاعر

وإن أخـــذ التحقيـــق فيـــه بحقـــه   وقيـــل ومـــن هـــذا. يقولـــون ســـاحر

ويستفاد من جو المقطوعة عموما إن الفتح تعرف إلى أبي محمد وقد اكتملت شخصيته العلمية والفنية، ولذلك وجدنا في المقطوعة إشارة إلى نبوغه في الكتابة والشعر، و لم نجد فيها إشارة إلى وضعيته السياسية بسبب من الأسباب ربما عاد إلى أن العلاقة بينهما كانت علاقة علمية بحته لا دخل للسياسة فيها. أو أن الظروف التي تعرف فيها الفتح إلى أبي محمد كانت ظروفا علمية بحتة، أو أن الفتح لم يكن آنذاك قد حصل على مركز سياسي مريح فتصرف أبو محمد معه بلباقة الأدباء و لم يشر إلى موضوع السياسة إطلاقا.

أما عن علاقته بأبي بكر عبد العزيز فلم تكن في عمق علاقته بأبي محمد في زعمنا، بسبب ما ظهر من تكلف أبي بكر في مخاطبة الفتح في المقطوعة التي اختارها له حين قال:[3]

---

[1]- الخريدة 412/2.

[2]- القلائد 169.

[3]- القلائد 172.

إلى الله مـــنى مـــا لقيـــت برقعـــة ورتـــني وأحمـــت في ضـــلوعي مكاويـــا
اتـــتني أبـــا نصـــر وأني معـــرس عـــزائم عـــزت في نـــواك عزائيـــا
بطـــرس وحـــبر رائقـــين تطلعـــا مـــن الحســـن أســـطارا فعـــدن أفاعيـــا
لـــذغن فـــؤادي إذ بثـــثن لـــه النـــوى فأصـــبحت لا ألقـــى لبـــيني راقيـــا
فهـــذي دمـــوعي تســـتهل صـــبابة ونفســـي مـــن وجـــد تحـــل التراقيـــا

فما هذه الأسطر التي تصبح أفاعي تلذغ فؤاد أبي بكر حتى أصبح لا يجد راقيا يشفيه مما خلفه خبر رحيل الفتح. أفلا تكون هذه الدموع خير راق له وهي مصدر تنفيس عن كل ما يكرب الإنسان ويحزنه.

إننا نذهب إلى الاعتقاد بأن الفتح قد أحرج أبا بكر بخبر رحيله وكأنه يستعلم منه عن مكانه في نفسه فكان أن أجابه أبو بكر بالمقطوعة السالفة الذكر. ومن مقارنها بسابقتها لأخيه أبي محمد يلحظ الفرق بين الطبع والتكلف فأين هي من شعره الذي رواه الفتح له وهو يساجل أخويه قائلا[1].

يـــا أخـــي قـــم تـــر النســـيم علـــيلا بـــاكر الـــروض والمـــدام شمـــولا
في ريـــاض تعـــانق الزهـــر فيهـــا مثلمـــا عـــانق الخليـــل الخلـــيلا
لا تـــنم واغتـــنم مســـرة يـــوم أن تحـــت التـــراب نومـــا طـــويلا

وعلى كل فيظهر أن علاقته بأبناء القبطورنة لم تكن علاقة صداقة حميمة، وإنما كانت علاقة مجاملة أراد الفتح أن يستغلها فيما كان قد عزم عليه من تأليفه (القلائد)، كما يظهر أن مبتدأها كان متصلا بعلاقته بأبي محمد منهم، ثم بأخيه أبي بكر بعد ذلك. ولعل اتصالا بين الفتح وأبي محمد قد حصل في اشبيلية حيث التقيا على مائدة الدرس عند الإمام أبي بكر بن العربي، إذ أن كلا منهما درس عليه وأجازه، وإن كنا لا نملك تاريخ إجازة ابن العربي لأبي محمد حتى نجزم بصحة هذا الاستنتاج.

---

[1]- القلائد 172.

8) ومنهم الوزير الكاتب أبو محمد عبد الله بن الجبير بن عثمان اليحصبي[1] من كتاب عصر الطوائف كان على اتصال بالمأمون بن المعتمد، ومال في شبيبته إلى الجندية، وكانت له معرفة بالنحو والآداب واللغة وقد ترجم له غير واحد ممن جاء وبعده، شدهم إليه اهتمام الفتح به وثناؤه عليه. والدليل على ذلك أن ابن بشكوال لم يتناوله في الصلة وتداركه ابن الأبار في التكملة[2].

ويهمنا أن نعرف نوعية العلاقة التي قامت بينه وبين الفتح وهو شيء لم تذكره المصادر، بل إن الخريدة لم تزد شيئا عما أورده الفتح في القلائد، ولم تورد أثناء ذلك شيئا من النص الذي أورده الفتح، والذي يتناول العلاقة التي قامت بينهما.

لقد اتضحت هذه العلاقة في الخبر الذي أورده الفتح في ترجمة ابن الجبير وصدر به مختاراته له، حيث ذكر أنه نزل عنده في إحدى سفراته، وهذا يدل على معرفة سابقة بينهما تبيح له أن يغشى داره كلما نزل لوشة أو غرناطة أو مالقة أو قرطبة، وهي المدن التي كانت لابن الجبير بها منازل، فيكرم وفادته. وقد روى أنه حين عزم على الرحيل ودعه بمقطوعة شعرية يقول فيها: [3]

يـــذكرني نيـــل الهمـــام أبي نصـــر	زمـــان اهتمـــام بـــالقريض وبـــالنثر
ومـــالي لا أهـــدي المـــلام إليهمـــا	وقد رفعـــا مـــن قـــدر كـــل عـــر غمـــر
فللـــه مـــا يســـدي ويلحـــم طبعـــه	وينثـــر مـــن شـــذر وينـــظم مـــن در
ولله منـــــــه همـــــــة عربيـــــــة	أبـــت أن تـــرى الأعلـــى قمـــة النســـر
لقـــد أحـــرزت علياـــاه كـــل فضـــيلة	مطـــرزة الأبـــراد عـــاطرة النشـــر
إلى حســـب كالمـــاء يصـــقله الصـــبا	وعرض كعرف الورد غب حيـــا يســـري

ومن خلال أبيات المقطوعة تتكشف لنا معالم العلاقة التي قامت بينهما كما تتكشف أصول هذه العلاقة من خلال بعض مختاراته التي اختارها له. فقد نظر ابن الجبير إلى الفتح

[1]- القلائد 176/ التكملة 817/2 / الخريدة 421/2/ الذيل والتكملة 189/4. بغية الوعاة 35/2.
[2]- التكملة 817/2.
[3]- القلائد 176.

نظرته إلى رجل الأدب، الذي يذكره بزمان اهتمامه بالقريض وبالنثر، مما يفيد أنه كان بينهما سابق اتصال في مجال العلم والأدب. وأن هذا الاتصال كان شديدا لدرجة أن يعرف كل منهما الآخر معرفة تكشف له ما ستر من أخلاقه. ولذلك وجدنا ابن الجبير يشيد ببعد همة الفتح، ويربط بينها وبين أصله العربي، ويشير إلى أن الفتح كان لا يرضى بالدون والذل، وأنه كان حريصا على أن يبلغ القمة في كل شيء يطلبه. وينتهي في ختام المقطوعة إلى ذكر صورة من أخلاق الفتح العالية وحسبه الصافي وعرضه النقي الذكي الرائحة.

ومثل هذا الكلام عن أخلاقه لا يمكن أن يكون كلاما اعتباطيا مرسلا على عواهنه. لأنه لم يصدر عن شخص نكرة أو متملق أو جاهل، ولأن هناك ما يزكيه من أخلاق الفتح، مما عرفنا صورة عنه في اتصال له بابن طاهر وابن الجد، وما ذكره ابن الخطيب حين تحدث عن سبب الخلاف الذي قام بينه وبين ابن باجة[1]. وهو شهادة على عموم سلوك الفتح، تدحض كل افتراء من لدن أعدائه أو المتعصبين عليه. كما تتكشف لنا صورة عن هذا الذي يتعامل مع الفتح وهو أحد المخلصين للعهد البائد ورجاله الناقمين على العصر وتغيراته[2].

بدار الملك من صرف الزمان حوادث تجتليها الناظران
تبدلت الحوافر من خدود وغر الخيل من غر الغواني
مطالع أوجه الغيد الحسان غصصن بكل يعبوب حصان
كأن نسور أيديهن فيها يطأن غراب عيني أو جناني

المنتقدين لأحوال العصر وكتابه الجهلة الذين لبسوا عز الكتابة واشتهروا بها على جهلهم بأصولها[3]:

رأيت الكتابة والجاهلون قد لبسوا عزها لامة
فقلت لكل فتى طيب بديع الفصاحة علامة

[1]- الإحاطة 248/4.
[2]- القلائد 177.
[3]- القلائد 177.

إذا عـــــز غيركـــــم بالمــــــداد فـــــــلا أنبــــــت الله أقلامـــــــه

فهو هنا يتحدث باسم طائفة من منكودي الحظ من الكتاب الذين عاشوا في العهد السابق و لم يستطيعوا أن يتكيفوا مع العهد الجديد، أو إن تكيفوا فإنهم لم يصلوا إلى ما كانوا يحلمون بالوصول إليه. وفي نفس الوقت يدعو على كتاب العصر بأن لا ينبت الله لهم قلما.

9) ومنهم الوزير الكاتب أبو محمد عبد الغفور بن أبي القاسم بن عبد الغفور الكلاعي[1] أحد كتاب حضرة إشبيلية، وأحد أبناء أعيان العهد السابق (عهد الطوائف) إذ كان أبوه صديقا حميما للمعتمد، ويظهر أن ابا محمد أخذ عن الجماعة التي اشتهرت بالعلم والمعرفة آنذاك سواء في إشبيلية أو في غيرها من المدن الأندلسية. فاستوى كاتبا وعالما ونجما إذا طلع تضاءلت الشموس والأقمار ـــ على حد تعبير صاحب الذخيرة ـــ ولا تذكر المصادر التي ترجمت له كثيرا عن تطورات حياته. فالذخيرة تكتفي بتقريضه، وتشير إلى صعوبات اعترضت حياته[2] ـــ ولعلها صعوبات سياسية متصلة بإخلاصه للعهد السابق، والمطرب يكتفي بالحديث عنه عرضا[3] والخريدة تنقل جزءا مما ورد في القلائد وتضيف إليه ما روى عن ابن اليسع من أنه رآه بمراكش سنة واحد وثلاثين وخمسمائة، كاتبا في بلاط على بن يوسف[4] ونفس الخبر نقله صاحب المغرب والرايات. مع إضافة موقف الحجاري من كلام الفتح حول ابن عبد الغفور[5].

أما عن ترجمة صاحب القلائد فليس فيها ما يفيد في هذا الباب. فقد بدأها بتحديد موقفه منه ومن اختياره ضمن أعلام كتابه معللا ذلك بصعوبة منهجه في الكتابة أولا، وبنفسيته الخبيثة وطويته السيئة ثانيا[6]. (... لتهوره وكثرة تقعره، فإنه بادي الهوج، واعر المنهج، له ألفاظ متعقدة وأغراض متوقدة، لا يفك معماها ولا يعلم مرماها. مع نفس فاسدة الاعتقاد، ثابتة الأحقاد، تتنكد بالأفراح، وحسد حتى على الماء القراح. وتغص بفارس يراعة، وتتربص الدوائر بحامل براعة. إلى لسان لا ينطق إلا هجرا. وأجفان لا ترمق

1- القلائد 182/ الذخيرة 326/2/ المطرب 182/ الخريدة 424/2. المغرب 241/1.
2- الذخيرة 326/2.
3- نفس المرجع السابق.
4- الخريدة 424/2.
5- المغرب 241/1.
6- القلائد 182.

من توقد الحقد فيها فجرا. فهي ترى الظلام مكان الأنوار، وتود أن ترى النجاد كالأغوار...)، وحين اختار له ما اختاره، استثناه من غيره، واعتبره فلته من الفلتات التي ارتقت به إلى مكان الأعيان.

وليس في المختارات ولا في الترجمة إشارة مادية إلى اتصال انعقد بينهما ـــ كما جرت عادة الفتح من إيراد، جملة من أخبار علاقته بغيره ـــ ولكن ما يستنتج من ثنايا التحلية يفيد أن الاتصال بينهما كان موجودا، وأن التنافس على بلاط الأمير المرابطي أبي يحيى كان على أشده. وربما شفعت لابن عبد الغفور شهرة أبيه وعلو مكانة أسرته ونفوذها على الصعيد الاجتماعي في النيل من الفتح وتهميش مكانته في البلاط المرابطي في إشبيلية. يؤكد هذا ما لاحظناه سابقا من استجارة الفتح بكبار شخصيات العصر (ابن عبدون) وما قرضوا به أدبه وما نبهوه إليه من ضرورة الالتفات عن صغار الكتاب ممن لا يقدرون على شيء مما كسبوا[1]. (... وأما ذلك المصحف المبدل للمعاني والأغراض، المقابل لما لا يفهمه بالاعتراض. فما الحساب لما طن الذباب إذا طن لا يناوبه بصفيره العصفور، فكيف يجاوبه بزئيره الليث الهصور. ولولا تمريث الزمان بذكره، وتلويث الأواني بقبائحه ونكره، لرأيتك من خلطة والله ما يضحك الثكلى ويستدرك به الجاحظ باب النوكى...).

فمثل هذه الرسالة إذا قورنت بما نقله صاحب الذخيرة من رسائل ابن عبد الغفور[2]. كافية في التدليل على الصراع الذي كان قائما في بلاط إشبيلية بين ابن عبد الغفور وأنصاره وابن خاقان وأنصاره، هذا الصراع الذي لا نعرف عن نهايته شيئا. لأن الفتح بترفعه، نزه كتابه عن أن يترل ساحة الجدال والمقارعة، واكتفى بالانسحاب الموقت، ليعود هذا الصراع مرة أخرى- حسب ما نظن- إلى الظهور في مراكش حين وفد الفتح عليها يبحث لنفسه عن مكان في بلاط المرابطين.

10) ومنهم أبو جعفر أحمد بن أحمد[3] ويسميه صاحب الخريدة (أبو جعفر أحمد بن أبي محمد) بل ولم يترجم له وإنما أورد تفريقا بينه وبين أبي جعفر بن عطية وزير عبد المومن الموحدي، كما شار إلى الخلط الذي وقع فيه ابن اليسع[4].

1- القلائد 168.

2- الذخيرة 327/2.

3- القلائد 188/ الخريدة 442/2/ المغرب 307/2.

4- الخريدة 442/2.

وليس لدنيا من التراجم الموسعة له غير ترجمة القلائد، وترجمة المغرب التي تنقل عن الحجاري وعن الفتح، وتذكر أنه كان من أعيان كتاب بلنسية. عالي الهمة، مرفوع الرأس، وعلو الهمة هذا دفعه إلى أن يترفع عن البحث عن العمل أو امتهان نفسه في سبيل الوصول إلى مكانة ما. وهي نفس الصورة التي صور بها من طرف الفتح، حين أطرى نبوغه كما أشار إلى صور من أخلاقه وتعامله (... انخفض عن الارتفاع، ونفض يده من الانتفاع. فلم يلح في سماء و لم يرد مورد ماء).

وعن علاقتهما يذكر الفتح في التصدير الذي وضعه للمختارات التي اختارها له، صورة من هذه العلاقة في شكل خبرين ورسالتين.

أما الخبر الأول فيحدد بداية هذه العلاقة، حين نزل الفتح حمة بجانة[1] مستوحشا لا يجد أنيسا، فأسعفته الظروف بملاقاة أبي جعفر الذي سعى إليه ــ على بعد مكان إقامته ــ فأزال وحشته وانتهى لقاؤهما برسالة إخوانية ودع فيها أبو جعفر الفتح وتمنى لقاءه. وقد خاطبه فيها بلقبه السياسي (مثنى الوزارة) [2].

أما الخبر الثاني فيتعلق بزيارة أبي جعفر لبلنسية بعد تاكيد من الفتح على ذلك، لكنه لم يصادفه بها و لم يتمكن من انتظاره حتى يعود فاكتفى برسالة إخوانية أخرى عاتبه فيها على طول فراقه وشبه محبتهما بالسراب، بعده فيه أنس وقربه فيه يأس[3]. (... وما كذا ألفت الحميم ولا على هذا خلفت الرأي الكريم...) وفي ختام الرسالة اعتذار عما صدر فيها من عتاب اعتبره أبو جعفر نفحة من نفحات الشوق وزفرة من زفرات الوجد (... ولكنها زفرة شوق لاعج، ودجرة توق هائج. تثور ثم تسكن، وتتأمل عينها فتحسن..).

ومن يتأمل جوهر الخبرين والرسالتين يجد أن العلاقة بينهما قامت على رغبة من أبي جعفر وإلحاح. وأن الفتح جارى هذا الإلحاح، بدليل ما ورد في الخبر الثاني الذي أشار فيه الفتح إلى أنه كان يكاتبه على بعد، ويواصله بتجديد العهد. ولكنني اعتقد أن هذا التواصل إنما كان مجاراة من الفتح له مادام أثره المادي على حياته العملية منعدما. فأبو جعفر ليس من كبار الكتاب، ولا من رجال السياسة ولا من الذين تضر محبتهم أو تنفع كراهيتهم.

---

[1]- الروض المعطار 79.

[2]- القلائد 189.

[3]- القلائد 189.

11) ومنهم أبو محمد عبد الرحمان بن مالك القرطبي المعافري الوزير[1] أحد مشاهير الشعراء والكتاب المخضمرين، الذين عاشوا عصر الطوائف والمرابطين. وتدل الترجمة التي ترجم له بها ابن بسام أنه كان يعيش حياة البؤس والفقر في المرية في ظل المعتصم بن صمادح حتى هم بالرحيل إلى المشرق. ثم توجه بعد ذلك إلى سرقسطة عند بني هود وهناك تحسنت أحواله. وازدادت تحسنا بدليل ما ورد في تحليته لمختاراته[2]. (... وله أدب زاخر اللجة، باهر الحجة لائح البهجة، واضح المحجة، يروق لمجتليه، ويزف زهرة لمجتنبيه) فهو يصف أدبه بما يفضله الفتح عموما في شكل الإنتاج الأدبي وعمقه من جزالة ووضوح وعمق وإقناع. وهي الصفات التي حددها في إنتاج أبي محمد هذا ورأي نقيضها في إنتاج ابن عبد الغفور معاصريه مثلا.

وهي سياسية بالنسبة لما ورد في صورة الخبر الثاني من اجتماعهما حول تشييع أحد زعماء المرابطين في إشبيلية، ثم خروجهما إلى معرس أمير المسلمين الذي يستريح فيه بإشبيلية. والدليل على ارتباطهما السياسي أيضا ما تعلق بالأخبار المروية حول أبي محمد من طرف الفتح، خاصة ما تعلق منها بنشاطه السياسي في ظل المرابطين. ويبقى بعد هذا أن نشير إلى أن زيارته له في طرطوشة ربما كانت زيارة عمل ترتبط بجمع المادة الخبرية الخاصة بالقلائد، إذ وردت جملة في ثنايا الترجمة تفيد هذا الاستنتاج وذلك حين قال[3]: (...فأقمت معه... وأنشدني كل مستحسن وأسمعني كل مستطاب استطابة العين للوسن...) كما ينبغي الإشارة أيضا إلى أن رسالة توديع أبي محمد له كانت خير ترجمان لحالة الفتح وظروف حياته وارتباطاته: فهو لا يستقر في مكان، وحسب من نوى بعشرته الاستمتاع أن يعتده من العواري السريعة الاسترجاع، فلا يأسف على قلة التوى... على حد تعبير أبي محمد[4].

12) ومنهم أبو القاسم بن السقاط المالقي[5] وكان كاتبا لأبي محمد بن مالك. وذكر صاحب المغرب نقلا عن الحجاري أنه ولي أعمال مالقة. وليس هذا ببعيد- وإن لم

1- القلائد 194 / الذخيرة 739/1 الخريدة 447/2. المغرب 227/2.

2- القلائد 194.

3- القلائد 194.

4- القلائد 195.

5- القلائد 195/ الخريدة 449/2/ المغرب 428/1.

يشر إليه أحد من المترجمين الآخرين – لأن أبا محمد بن مالك كان يلي أمور الشرق فلعله قد ندبه لولاية مالقة. كما أشار صاحب الخريدة إلى خبر تفرد به وليس له أصل في القلائد، يتعلق بأخلاق أبي القاسم هذا وهو (...الاشتهار بالمردان والاستهتار بحب الصبيان...) فمثل هذا الخبر لو ورد عن الفتح لكان حجة على ما اهم به من طرف أعدائه الذين دبروا مقتله على الكيفية التي رواها صاحب المغرب، إذ نجد فيما رواه صاحب الخريدة تعييبا من الفتح على سلوك أبي القاسم هذا[1].

أما العلاقة التي قامت بينهما فيمكن تشخيصها في صورتين اثنتين:

الأولى: متعلقة بالترجمة التي وضعها له.

والثانية: متعلقة بالأخبار الواردة ضمن المختارات التي أوردها له.

ففي الصورة الأولى يقدم الفتح لنا شخصية ابن السقاط في إطارها الخارجي، أي فيما يظهر للناظر إليها قبل أن يعرف مخبرها فإذا هو شخص[2].(... مستعذب المقاطع، كأنما صور من نور ساطع، بهي الطلعة زكي الرائحة، مبشور الوجه...) أما عن مخبره فهو وفي في إخائه متواضع في سلوكه، صافية سريرته، كريم في استقباله وضيافته بالإضافة إلى علو كعبه في الكتابة والخطابة. ومثل هذه الصورة التي صور بها أبو القاسم، لا يمكن أن تصدر إلا عن ريشة خبيرة به عارفة بظواهره وبواطنه.

وفي الصورة الثانية ننتقل بين خبيرين اثنين:

أولهما يتناول بيتين شعريين أرسلهما الفتح إلى أبي القاسم فرد عليه بقطعة شعرية من أربعة أبيات يقو فيها[3]:

أتـــتني علـــى شـــخص العـــلاء تحيـــة   كـــرأد الضـــحى في رونـــق وتـــأنق

أتم مـــن الريحـــان ينضـــح بالنـــدى   واطـــرب مـــن ســـجع الحمـــام المطـــوق

ســـطران في مغزاهمـــا أمـــن خـــائف   وســـلوة مشـــغوف وأنـــس مشـــوق

1- الخريدة 449/2.

2- القلائد 195.

3- القلائد 198.

نصرت أبا نصر بها همم العلا وأطلقت من آمالها كل موثق

وأضاف صاحب الخريدة إلى الخبر[1]. (... قال فزاري متجهما فبسطني، وواجما فنشطني، والسماء قد نسخ صحوها وغيم جوها فأنشدني: يوم تجهم فيه الأفق وانتشرت...) ويظهر أن صاحب الخريدة قد خلط بين هذا الخبر والخبر الثاني الذي يذكر فيه الفتح أنه خرج مع جماعة إلى ضيعة أبي الحسن بن أضحى... [2].

وهكذا يظهر من صورة الخبر أن الاتصال والمعرفة بينهما كانت سابقة، وأن الفتح اغتنم الفرصة، فحيى أبا القاسم ببيتين شعريين فرد أبو القاسم التحية بأحسن منها.

ثانيهما: يؤكد صورة مما حلى به الفتح بن السقاط عندما ترجم له، حيث أورد خبر مناسبة خرجا فيها إلى ضيعة أبي الحسن بن أضحى فتعرض الفتح لمضايقة من شخص لم يذكر اسمه، تغير معها مزاجه فسرى عنه أبو القاسم، (وبسطه بتحفيه، وأبهجه ببر لم يزل يتممه ويوفيه) وأنشده[3].

يوم تجهم فيه الأفق وانتشرت مدامع الغيث في خض الثرى هملا

رأى وجومك فارتدت طلاقته مضاهيا لك في الأخلاق ممتثلا

فمثل هذا الخبر يفيد أن ابن السقاط كان على صلة وطيدة بالفتح يحبه ويبالغ في إكرامه، بل إنه ليسعى في التخفيف عنه إذا ما أحس أنه مكدور أو متغير.

وعلى كل فالمعتقد أن العلاقة بينهما كان مصدرها الأساسي صلة الفتح بأبي محمد بن مالك، هذه الصلة التي جعلته يتعرف على جماعته ومساعديه، وكان منهم ابن السقاط الذي استهوى الفتح بخفة روحه ودماثة أخلاقه وتواضعه الذي جعله لا يتشوف إلى منافسته. ولذلك ذكره بكل خير، واثنى عليه وعلى أدبه في التحلية التي وضعها للمختار من إنتاجه[4].

---

[1]- القلائد 199.

[2]- الخريدة 452/2.

[3]- القلائد 199.

[4]- القلائد 195.

13) ومنهم أبو عبد الله محمد بن مسعود بن خلصة المعروف بابن أبي الخصال[1]. وهو من أهم من اتصل بهم الفتح.

وترجع هذه الأهمية في نظرنا إلى عناصر مختلفة:

منها مكانة أبي عبد الله بن أبي الخصال في بلاط المرابطين. وهي التي كان الفتح يحلم باحتلالها خلال حياته كلها.

ومنها المكانة العلمية التي كان أبو عبد الله يحتلها على صعيد الفقه والأدب، فقد ألف جملة مؤلفات اختلفت موضوعاتها وتفاوتت أهميتها. وهي جعلت منه عالما متفننا في العلوم مستبحرا في الآداب متقدما في اللغة- على حد تعبير صاحب الصلة.

ومنها عقدة الفتح الشخصية الماثلة في ثقته بنفسه واعتداده بها وطموحه الواسع المواكب لهذه الثقة. وهي التي جعلته ينفس على غيره ما وصل إليه ويتحدى هذا الغير حبا في الظهور عليه واحتلال مكانته. ولهذا وجدناه، يحاكي ابن أبي الخصال في مجال التأليف.

كما وجدناه ينافسه في ميدان الكتابة والترسل دون أن يصرح بذلك، بدليل اتصاله بابن الحاج ولي نعمة ابن أبي الخصال في سن مبكرة، ومحاولة التقرب منه.

ويهمنا أن نرصد صورة الاتصال الذي قام بينهما من خلال الترجمة التي وضعها الفتح له في القلائد، ومن المختارات التي اختارها له أيضا. فقد عرض في الترجمة لمكانته الأدبية والعلمية، كما عرض لأخلاقه العالية، ثم عطف بالحديث عن نشأته في ظلال ابن الحاج قائد المرابطين في قرطبة. وقد غمز نسبه بما لم يذكره أحد من المؤرخين حين قال عنه[2] (... وهو وإن كان خامل المنشإ نازله، لم يترله المجد منازله، ولا فرع للعلاء منابا ولا ارتشف للسناء رضابا، فقد تميز بنفسه، وتحيز من جنسه، وظهر بذاته، وفخر بأدواته...)

فقد عرض بأصله ونسبه بغية التنقيص من أهميته، وإن عوض عن ذلك بالحديث عن ذكائه ونباهة شأنه، مما يدل على أنه كان ينفس عليه المكانة التي وصل إليها دون أن تتوافر له كل المؤهلات التي تؤهله لذلك حسب زعمه.

---

[1]- القلائد 199/ الذخيرة 786/3/ الصلة رقم 1294/ البغية رقم 282/ المطرب 187. المعجب 173/ الخريدة 449/2 / معجم الصدفي 149/ المغرب 66/2/ الرايات 74/ الإحاطة 264/2/ بغية الوعاة 243/1/ النفح 268/3.

[2]- القلائد: 200.

أما المختارات التي اختارها له فنقف منها على حدثين:

الأول: متصل بالمراسلة التي قامت بينهما حول موضوع مؤلف الفتح (القلائد) حين طلب منه الفتح أن يمده ببعض إنتاجه، فأجابه ابن أبي الخصال برسالة اعتذر فيها عن الموضوع بنوع من التواضع والتحايل، وأنهاها بطلب يرجوه فيه أن لا يشيع ما خصه به من هذه الاختيارات حين قال: (... وقد حملت فلانا ما سمح به الوقت، وإن اشتبه على القصد والسمت، وحاضرت بما يسرت إلى ذكره، على شريطة كتمانه وستره، انقيادا إلى برك، وتصديا إلى عقوقك ببرك...).

فالمستفاد من هذه الفقرة أن ابن أبي الخصال كان يقدر أهمية ما يريده الفتح من جهة، وكان يعرف الفتح ومكانته من جهة أخرى، لذلك خصه بما لم يخص به غيره، فقد تعرض صاحب الذخيرة لنفس الأمر وكان جواب ابن أبي الخصال له بنفس رسالة الاعتذار التي اعتذر بها للفتح[1]

كما اعتذر ابن أبي الخصال له بكيفية مباشرة في الرسالة التي أوردها صاحب الذخيرة في القسم الخاص بترسلاته وأوردها صاحب المعجب أيضا[(2)].

والثاني متصل بالرد الذي رد به ابن أبي الخصال على الفتح نيابة عن ابن الحاج وإلى المرابطين على فاس ــ آنذاك ــ وبأمر منه بعد أن مدحه الفتح بأبيات قال فيها: [(3)].

اكعبة علياء وهضبة سؤدد وروضة مجد بالمفاخر تمطر
هنيئا لملك زان افقك نوره وفي صفحتيه من مضائك اسطر
وأبي لخفاق الجفاحين كلما سرى لك ذكر أو نسيم معطر
وقد كان واش هاجنا لتهاجر فبت وأحشائي جوى تتقطر
فهل لك في ود ذوى لك ظاهرا وباطنه يندى صفاء ويقطر

---

[1]- انظر التعليق الذي علق به محقق الذخيرة على الموضوع في: الذخيرة 3\ 786.

[2]-المعجب 173.

[3]- القلائد 204.

ولست بعلق بيع بخسا وأنني لأرفع أعلاق الزمان وأخطر

فرد عليه ابن أبي الخصال نيابة عن ابن الحاج بقوله[1]:

ثنيت أبا نصر عناني وربما ثنت عزمة الشهم المصمم أسطر

ونالت هوى ما لم تكن لتناله سيوف مواض أو قنا متأطر

وما أنا إلا من عرفت وإنما بطرت ودادي والمودة تبطر

نظرت بعين لو نظرت بغيرها أصبت وجفن الرأي وسنان أشطر

وقد ما بذلت الود والحب فطرة وما الود إلا ما يخص ويفطر

ويستوقفنا في هذا الرد أصل الخبر الذي ساقه الفتح كمناسبة للأبيات التي أوردها لنفسه ولابن أبي الخصال. فقد أشار فيه إلى استقراره بالعدوة، واستحكام الصلة بينه وبين ابن الحاج. ثم ما طرأ على هذا الاتصال من عوامل الاضطراب، حتى انتهى بجفوة من جانب الفتح لمجالس ابن الحاج أدت به إلى الانفصال. لكن سرعان ما اكتشف خطأه، بعد أن نمى إليه الخبر الصحيح عن طبيعة التقدير الذي كان ابن الحاج يكنه له. فكتب إليه يعتذر له ويطلب عفوه.

فمن خلال الخبر يبدو واضحا ما سبق أن افترضناه من أن الفتح كان ينفس على ابن أبي الخصال. وانتهى به ذلك إلى أن ولج عليه وكره، ودخل في زمرة حاشية ولي نعمته ــ ابن الحاج ــ كما أننا نستطيع أن نستنتج من خلال ما قام بينهما من جفوة قصيرة أن وراء هذه الجفوة من يخاف على مركزه، لم يفصح عن اسمه وإن أشار إليه حين قال[2]:

(... وبعد انفصالي علمت أن ذلك القول غدا زورا، ووشى به من غص أن يرانا زائرا ومزورا...) ولعله ابن أبي الخصال أو أحد أتباعه، وذلك حين خاف المنافسة، واطمأن للفرقة فلما سنحت له الفرصة ليخاطب الفتح باسم أبي يحيى بن الحاج، حمل شعره من

1- القلائد 205.

2- القلائد 204.

ألوان العتاب ما يضجره ويصرفه عن العودة إلى بلاطه، لاسيما وهو صاحب النفس الأبية والهمة العالية.

إن العلاقة التي قامت بين الفتح وابن أبي الخصال، هي علاقة معاصرة ومنافسة. فيها من التوادد المشوب بالحذر الشيء الكثير. وفيها من التخوف الشديد الشيء الكثير أيضا. لقد كانت سمعة ابن أبي الخصال أقوى وأوسع وأفضل من سمعة الفتح، وكان مركزه أمتن، لا من الناحية السياسية فقط، ولكن حتى من الناحية العلمية أيضا، فقد جمع أبو عبد الله إلى المعارف الدينية والفقهية الأدب واللغة. ولكن الفتح كان أجسر منه وأقرب إلى النفوس والقلوب، لما اشتهر به من ذلاقة لسانه وحسن خطابه وأنس مجلسه وسعة اطلاعه. وهي الشروط الموضوعية التي تعمل على إنجاح جليس السلطان ونديمه ووزيره. والدليل على ما قلناه هو أن الفتح استطاع أن يجالس الأمراء والأعيان وهو من أبناء العشرين أو أكثر بقليل، فاتصاله ابن طاهر وابن الجد والأمير أبي يحيى بن الحاج ولي نعمة بن أبي الخصال، دليل على أنه يشكل خطورة تدفع غيره من المشهورين أن يتوجسوا منه خيفة وأن يحسبوا له حسابه، لاسيما إذا كان ولاة نعمتهم من طينه ابن الحاج المشهور بالتواضع والحب للعلم والأدب[1].

ولم يشر أحد من المؤرخين أو المترجمين إلى قيام علاقة بين الفتح وابن أبي الخصال بعد وفاة الأمير ابن الحاج، وذلك لأن أبا عبد الله لزم داره ــ كما يقول ابن الأبار ــ خائفا من الأحقاد القديمة وراضيا بالإياب إليها من الغنيمة[2]. ولعله تنسك وتزهد. وهذا ما يبدو واضحا من خلال بعض الأبيات التي أوردها صاحب الذخيرة لابن أبي الخصال يمحص فيها بعض غزلياته[3].

14) ومنهم أبو يحيى محمد بن محمد بن الحاج[4] أحد وجوه المرابطين وأحد كبار قادتهم. ذكرته المصادر التاريخية في إطار ثورته على الأمير علي بن يوسف بن تاشفين غداة بيعته[5]، وذكره ابن الأبار في معرض حديثه عن أبي عبد الله بن أبي الخصال فأشار إلى

1- معجم أصحاب الصدفي 101 (... وذلك لشفوف هذا الأمير على أترابه...).

2- معجم أصحاب الصدفي 149.

3- الذخيرة 794/3.

4- البيان المغرب 48/4 القلائد 204/ معجم أصحاب الصدفي 152.

5-البيان المغرب 48/4.

فضله ودمائه خلقه وحدبه على الأدباء وأصحاب الأقلام[1]. (... وإذ حمت شهادته قافلا من غزاته في التاريخ المرسوم. كسد ما نفق في أيامه من بضائع العلوم وناصع المنثور والمنظوم...).

وقد ذكره الفتح أيضا في معرض ترجمته لابن أبي الخصال وأشار إلى اتصاله به في العدوة المغربية بفاس حين كان واليا عليها، وأورد خبرا يحكي صورة هذا الاتصال ونهايته وما اكتنفه من أحداث، كما روى ضمنه قطعته الشعرية التي مدحه بها، والشعر الذي راجعه به ابن أبي الخصال نيابة عنه وبأمر منه. وقد أشرنا في معرض حديثنا عن علاقة الفتح بابن أبي الخصال إلى ما يمكن استنتاجه من أسباب الجفاء الذي قام بينه وبين أبي يحيى قبل أن يتراجع الفتح عن خطئه في حقه ويوجه إليه أبياته الشعرية التي اعتذر فيها عن تقصيره في حقه.

15) ومنهم أبو محمد عبد الله بن محمد بن السيد البطليوسي[2]. وقد تقدمت الإشارة إلى ترجمته في الفصل الخاص بحياته العلمية. ويبدو من خلال القلائد أن الاتصال بينهما قد تم قبل تأليف الفتح لكتابه أي قبل أن يجيزه أبو محمد. بدليل ما ورد في المختارات التي اختارها له وخاصة الرسالة التي وجهها إلى الفتح يصف فيها جزءا من القلائد ويقول[3]: (... تأملته فسح الله لسيدي ووليي في أمد بقائه، كتابه الذي شرع في إنشائه. فرأيت كتابا سينجد ويغور ويبلغ حيث لا تبلغ البذور. وتبين به الذرى والمناسم وتغتدي له غرر في أوجه ومواسم فقد أسجد الله الكلام لكلامك، وجعل النيرات طوع إقلامك، فأنت تهدي بنجومها، وتردي برجومها. فالنثرة من نترك، والشعرى من شعرك. والبلغاء لك معترفون وبين يديك متصرفون. وليس يباريك مبار، ولا يجاريك إلى الغاية مجار، إلا وقف حسيرا وسبقت، ودعي أخيرا وتقدمت، لا عدمت شفوفا، وبرح مكانك بالآمال محفوظا، بعزة الله).

فهو يشير إلى كتاب القلائد الذي اطلعه الفتح على مشروعه. وهذا كان قد تم قبل أن يجيزه ابن السيد. مما يدفعنا إلى الاعتقاد بأن الفتح كان يستشيره استشارة استئناس، لأن

---

[1]- معجم أصحاب الصدفي 152.

[2]- تقدمت الإشارة إلى مصادر ترجمته، ص: 35.

[3]- القلائد 222.

ابن السيد بالغ في اطراء عمل الفتح و لم يبد ملاحظة معينة حوله أو حول ما قدم له منه. كما أن في ما حلاه به في الجملة الدعائية، في صدر الرسالة (فسح الله لسيدي وولي في أمد بقائه) ما يفيد أنه كان يوليه من الاحترام والتقدير ما يجعل العلاقة بينهما أكبر من علاقة التلمذة والأستاذية.

16) ومنهم أبو الحسين سراج بن عبد الملك بن سراج[1] وقد تقدمت الإشارة إلى ترجمته أيضا. ويبدو أن الاتصال بينهما تجاوز حدود العلاقة القائمة بين الطالب والأستاذ. فقد أشار أبو الحسين في رسالة وجهها إلى الفتح، إلى صورة من هذا الود الذي كان متبادلا بينهما حين قال[2]: (كتبت وروض العهد قد أفصحت أناشيده، وديوان الود قد صحت أسانيده، ودوح الإخاء يتفاوح زهرا، ويتناوح مجتني ومهتصرا. والله يصوب مزنته بشآبيب الوفاء ويمنح نغبته أعلى درجات الغذوبة والصفاء برحمته. وأما تلك المراجعة فكأنها لما عاقت عقت، وقد نالها من عتاب في ذلك ما استحقت). فهو ود قائم على عهد صحيح الأسانيد، وأخاء ظاهر يجتني كل منهما ثماره، ورعاية ربانية تزكي ما قام بينهما من الوفاء. ورغم ما يطبع أفق هذه الرسالة من روح المصانعة. فإن مخبرها يفيد وجود علاقة احترام متبادلة. يزكي هذا الفرض الجزء الأخير من الرسالة وما يحمله من عتاب أبي الحسين. والعتاب لا يكون إلا بين الأحبة المتوادين. ومن الطبعي أننا لا ندري عن تاريخ هذه العلاقة شيئا، إذ تعوزنا الإشارة الصريحة ولكننا نستطيع أن نحدد تاريخ نهايتها بتاريخ وفاة أبي الحسين الذي كان سنة ثمان وخمسمائة. فهي إذن سابقة لهذا التاريخ وترجع إلى مرحلة متقدمة من حياة الفتح.

17) ومنهم أبو أمية إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن عبد الله ابن عصام[3]. المعروف بابن (منتايل) ترجم له غير واحد من المؤرخين والمترجمين وعلى رأسهم ابن الآبار في التكملة والمعجم. والضبي في البغية، وابن سعيد في المغرب والرايات والعماد في الخريدة.

على أن أقرب التراجم إلى عصره، هي تلك التي وضعها الفتح له. وذلك لمعاصرته إياه من جهة، وللاتصال الذي انعقد بينهما كما سنوضح بعد. فقد كان أبو أمية أحد

1- انظر الفصل الخاص بحياته العلمية.

2- القلائد 231.

3- القلائد 232/ البغية 222 معجم أصحاب الصدفي 55/ التكملة 973 الخريدة 486/2/ المغرب 258/2 رايات المبرزين 15.

أعلام العصر. وكان قاضي قضاة الشرق كما سماه الفتح وغيره، وقد أطراه صاحبنا بما لا مزيد عليه. حيث تحدث عن ذكائه، ومضاء عزيمته في سلك القضاء، بالإضافة إلى أخلاقه الدمثة وسلوكه المستقيم. وهي صفات وافقه فيها بعض المترجمين له واختلفوا معه في بعضها الآخر:

فقد أشار ابن الأبار في المعجم إلى اضطراب سلوكه، وأورد بيتا شعريا لأبي الحسن جعفر بن الحاج اللورقي[1] يثبت ذلك، كما أشار إلى قلة علمه مع أنه روى عن أبي علي الصدفي جملة كتب منها أدب الصحبة للسلمي والشمائل للترمذي.

ويهمنا أن نرصد الأبعاد العامة للعلاقة التي قامت بينه وبين الفتح ويستوقفنا فيها أمران أساسيان: الأول يتعلق بالترجمة التي وضعها له الفتح، والثاني يتعلق بالمختارات التي اختارها له.

أما عن الترجمة: فقد استقصت أحوال أبي أمية انطلاقا من سلوكه وأخلاقه، إلى عمله ووضعيته السياسية والاجتماعية ثم مكانته الأدبية التي زكاها بما اختاره له. ومثل هذا الاسقتصاء لا يمكن أن يصدر عن شخص يجهل أبا أمية.

أما عن المختارات: فيهمنا منها أنها أشارت إلى نوع العلاقة التي قامت بينهما. ففي الرسالة التي وجهها أبو أمية إلى أبي عبد الله ابن الحاج[2] صورة من هذه التوصيات التي كانت تصدر عن المشهورين من الرجال إلى أصدقائهم، يوصونهم خيرا بمعارفهم أو من تعلق بهم حيث يقول (ووصل فلان (أي الفتح) فشكر ما أوليته ونشر مما قصدته في جانبه وأتيته ما أمال الأهواء وأطال الثناء والدعاء، وحبب عندك الآمال وجنب إليك (عنك) الأملاك، وهو ممن قد علمت أيدك الله ارتفاع شأن وإبداع بيان، وقد نهض بعزمة لا يرى أن يخدم غيرك، وهمة لا ترتضي أن تلتزم إلا أمرك. ومثلك رحب مقدمه وأسبل عليه ديمه، وعرف قدره وشرح بخلقه صدره إن شاء الله). فالظاهر من الرسالة أن الفتح قد استغل معرفته بأبي أمية فرغب إليه أن يتوسط له عند أبي عبد الله ابن الحاج ليلحقه بخدمته ففعل أبو أمية، وتوجه الفتح ثم عاد ليخبره بالذي حصل، مما استوجب على أبي أمية أن يشكر ابن الحاج على ما قام به في حق الفتح.

---

[1]- معجم أصحاب الصدفي 56.

[2]- القلائد 233.

وانطلاقا من هذا نتساءل عن تاريخ هذا الاتصال. فنذهب إلى الاعتقاد بأنه يرجع ولاشك إلى المرحلة الأولى من حياة الفتح العلمية والسياسية، حين اتجه إلى الشرق وأخذ عن أبي علي الصدفي واتصل هناك في مرسية بأبي أمية فتوسط له ــ كما أشرنا ــ عند ابن الحاج والي قرطبة. وإن هذا يرجع تاريخه فيما نظن إلى أوائل القرن السادس الهجري. وهي المرحلة التي اتصل فيها بابن طاهر وابن الجد وابن القصيرة وابن عبدون. وغيرهم من وجوه العصر السابق، عصر الطوائف. أي المرحلة التي لم يستو خلالها كاتبا مشهورا يجالس الأمراء والملوك.

18) ومنهم أبو محمد عبد الله بن أحمد بن إسماعيل بن سماك العاملي[1]، ترجم له غير واحد من أصحاب التراجم. على أن ترجمة الفتح كانت أوفاهم. لذلك استوحوا ما جاء فيها من التمجيد والتكريم فقال عنه صاحب الإحاطة مثلا[2] (كان فقيها أديبا بارع الأدب، شاعرا مطبوعا كثير النادر حلو الشمائل...). ومثل هذه الصورة أذا ما أضيفت إلى ما ذكره من شيوخه ستعطينا صورة عن النموذج الذي أعجب به الفتح فاطراه اطراء شموليا حين قال عنه[3]: (وتولى الفقيه أبو محمد فأقالها ووضع في يد التقوى عقالها. وحماها بأسنة من العدل وشفار، وأراها وجه الديانة كالصبح عند الأسفار. همام إذا لقي، غمام إذا استسقى. فإن احتفى جاد، وإن اصطفى كان كالصارم النجاد... وله علم كاللجة إذا اضطربت أمواجها، والكتيبة إذا تحركت أفواجها. وأدب كالروض غب المطر، ومذهب كالنسيم هب على الروض وخطر).

فقد أشار إلى صورة من حياته وأخلاقه، حلاها بما يعرفه من سلوكه العادل وأخلاقه في التواضع والكرم، وعلمه الغزير الذي يشبه اللجة في اضطرابها والكتيبة في تحرك أعدادها وأفرادها.

ويهمنا أن نعرض للعلاقة التي قامت بينهما فنعرف تاريخها من جهة وصورها من جهة أخرى. فنرى أن القلائد قد حددت هذه العلاقة ومكانها ونوعيتها في الجزء الخاص بالمختارات، حين أخبرنا بأنه كان جارا في غرناطة حين حل بها[4] وقد أشاد بهذه الجيرة

[1]- القلائد 235/ البغية 531 المرقبة العليا 109/ الإحاطة 410/3.
[2]- الإحاطة 410/3.
[3]- القلائد 235.
[4]- القلائد 235.

ذات المنافع المتعددة حين قال: (... ولما حللت غرناطة جاورته فكان لي كجار أبي دؤاد. سقاني حتى أروى كل ظمأ وجواد، وأحلني من مبرته بين ناظر وفؤاد. ووالي من أتحافه ودروب ألطافه ما حسبتني به مفطوما يعلل عن الفطام. ورأيت الأماني مجنوبة إلي في خطام).

كما أخبرنا أنه كان يجالسه فيستفيد من مجالسته ضروبا من الطرائف والنوادر وكثيرا ما كان يستنشده فينشده الشعر الرائع والجميل. وهذا يدفعنا إلى القول بأن معرفته بابن سماك كانت وطيدة لدرجة تسمح للفتح بأن يقترح عليه أن يجمع رسائله وأشعاره في ديوان، فيستعظم الأمر ويخاطب الفتح قائلا[1]. (... الكتابة أعز الله الشريف الماجد ميدان لا يضمر له إلا أفراس الرهان، ولا تسابق فيه الأجياد الفرسان. ولا يعرف فيه بالعتق إلا من حاز قصب السبق، فكيف بالهملاج المقتاد مع الفرس الجواد. وأنى للسكيت إذا ركض مع السابق إذا نهض).

وقد عرض الجزء الثاني من الرسالة لمكانة الفتح في عينه، وعدد مميزات فنه الكتابي وقارئه إلى غيره من فحول الكتابة والخطابة حين قال عنه[2]. (... كلا وإن أبا نصر ناظم سلك البلاغة، وقائد زمام البراعة ــ سحبان في زمانه، وقس في أوانه، وابن المقفع في مكانه والجاحظ في بيانه، إذا أوجز أعجز، وإذا شاء أطال، وأطلق من البلاغة المقال. وأتى من ذلك سحرا حلالا، وسقاه عذبا زلالا، أصل للكتابة أصولا. وفصل أبوابها تفصيلا، وحصل أغراضها تحصيلا. فلسان الشاهد منه يقول:

تنسمت الكتابة عن نسيم | نسيم المسك في خلق الكريم
أبا نصر وسمت لها وسوما | تخال وشومها وضح النجوم
وقد كانت عفت فأثرت منها | سراجا لاح في الليل البهيم
فتحت من الكتابة كل باب | فصارت في طريق مستقيم
فكتاب الزمان ولست منهم | إذا راموا مرامك في هموم

---

[1] -القلائد 236.

[2] - نفس المرجع.

فمـــا قـــس بـــأبرع منـــك لفظـــا ولا ســـحبان مثلـــك في العلـــوم...)

وبالطبع فإذا كان الفتح جليسه على هذا الشأن من عظم الذكر وخطورة الأمر في الفن الكتابي، فمن غير المعقول أن يجري في حلبته، أو أن يكتب مع وجوده ومعرفته. وهو ما رددته الرسالة في مقدمتها وخاتمتها.

وهكذا يبدو أن ابن سماك من الذين أعجبوا بالفتح فاعترفوا له بالفضل وبالغوا في ذلك. وأن الذي دفعه إلى هذا ربما كان راجعا إلى مكانة الفتح السياسية من جهة وإلى تحزبه مع طائفة من الكتاب دون غيرهم من جهة أخرى. خصوصا وقد وجدنا من يحصر الكتابة في كلاعيين وفهريين[1] وحين وجدنا بعد ذلك من ينتقد الفتح لما مارسه من نقد لأسلوب ابن عبد الغفور في القلائد[2].

ولن نستطيع أن نحدد تاريخ هذه العلاقة تحديدا زمنيا مضبوطا من خلال ترجمة ابن سماك. لكننا نستطيع أن نحرز أن العلاقة قامت بينهما حين وفد الفتح على غرناطة ليتصل بابن أضحى. وربما كان ذلك في بداية القرن السادس، وقبل أن يحتل الفتح ما احتله من المكانة السياسية في ظل الأمير أبي إسحاق إبراهيم بن يوسف بن تاشفين، لأن ابن سماك لم يستعمل في مخاطبته تحلية سياسية، بل حلاه بالشريف الماجد. وأن نذهب إلى أن نوع هذه العلاقة كان هو الصداقة التي قامت على الجيرة الحسنة التي ذكرها الفتح في مقدمة الترجمة والتي تطورت إلى اتصال علمي وأدبي شهد ابن سماك من خلاله للفتح بالتفوق والنبوغ في ميدان الكتابة وفضله على غيره من الكتاب.

19) ومنهم أبو محمد عبد الحق بن عطية المحاربي[3] أحد وجوه غرناطة وقاضي المرية. ترجم له غير واحد من أصحاب التراجم والطبقات وذكره الفتح باعتباره أحد معاصريه ومن كان له اتصال بهم وقد قصر ترجمته له على تحلية مركزة تناولت الإشارة إلى ذكائه ومعرفته بالعلوم[4]. (... آثاره في كل معرفة علم في رأسه نار، وطوالعه في آفاقه

1- الذخيرة 144/1 و498/3.

2- المغرب 241/1.

3- القلائد 239/ الصلة 350/ الخريدة 529/2/ المغرب 117/2/ المرقبة العليا 109/ الديباج المذهب 174/ بغية الوعاة 49/1/ النفح 526/2.

4- القلائد 239.

صبح أو نهار...). ولكنه لم يشر إلى نوع معارفه كما فعل في ترجمته لأبيه، كما لم يشر إلى مؤلفه في التفسير (الوجيز في التفسير) وربما يرجع ذلك إلى أنه قد ألفه بعد تأليف القلائد.

أما عن نوع العلاقة التي قامت بينهما وامتدادها فلا يمكن لخبر الفتح الذي رواه عن خروجهما إلى نزهة... أن يعطي صورة واضحة عن هذه العلاقة. لأنه تعلق بمناسبة أنشد فيها ابن عطية شعرا في روضة نجرس.

على أننا نستطيع أن نزعم ان هذه العلاقة كانت وطيدة تمتد إلى معرفته لأبيه وذلك لسببين:

أولهما ما أشار إليه الفتح في خبره السابق الوارد في القلائد[1]. (ومررنا في إحدى نزهنا بمكان مقفر...) حيث تدل صورة الخبر على أنهما كانا على اتصال ينتهي بهما إلى أن يخرجا إلى النزهات.

وثانيهما: المختارات الغزيرة المتنوعة التي اختارها الفتح له فقد كانت غزيرة في كثرتها متنوعة في مواضيعها وشكلها الفني مما يدل على قوة الاتصال التي قامت بينهما، وهو اتصال جعل الفتح يعرف الكثير من إنتاج أبي محمد ويختار من هذا الكثير ما أثبته في قلائده. أما عن نوعية العلاقة فهي ولاشك علاقة سياسية ترتبط بأصدقاء الفتح، الذين كان لأبي محمد معرفة بهم. ولكننا لا نستطيع أن نعرف شيئا عن امتداد هذه العلاقة، لأن الفتح لم يخبرنا عنها بشيء. وكذا الذين ترجموا لأبي محمد بعده.

20) ومنهم أبو الحسن علي بن أضحى الهمداني[2]. الوزير الحسيب الفقيه المشاور القاضي كما لقبه الفتح. ترجم له غير واحد من أصحاب التراجم، وبالغ الفتح في إطراء محامده ومكارمه، ابتداء من أصله إلى علمه وعدله. وأشار إلى عمله في ميدان القضاء و لم يذكر شيئا عن عزله من طرف المرابطين.

وقد عرض فيما أورده له من مختارات لصورة من صور اتصالهما تدل على سعة صدره وقوة صبره وذلك في مناسبة استدعيا فيها معا إلى إحدى ضياع والي غرناطة. فبدر من الفتح سلوك مع ابن صاحب الضيعة أضجر ابن أضحى. لكنه عاد إلى هدوئه بعد أن

[1]- القلائد 241.

[2]- القلائد 248/ البغية 1552/ التكملة 1849/ الخريدة 541/2/ الحلة السيراء 211/2/ الذيل والتكملة 532/5/ معجم السلفي 78/ المغرب 108/2/ رايات المبرزين 53/ الإحاطة 083/4/ النفح 533/2.

اسمعه الفتح من الكلام ما أحقده ومن الملام ما اعتقده. وخاطب الفتح جوابا على دعابة قائلا[1]:

أتـــتني أبـــا نصـــر نتيجـــة خـــاطر سريع كرجـــع الطـــرف في الخطـــرات
فـــاعرب عـــن وجـــد كمـــين طويتـــه بـــأهيف طـــاو فـــاتر اللحظـــات
غـــزال أحـــم المقلـــتين عرفتـــه بخيـــف مـــني للحـــين أو عرفـــات
رمـــاك فأصـــمى والقلـــوب رميـــة لكـــل كحيـــل الطـــرف في فتكـــات
وظـــن بـــأن القلـــب منـــك محصـــب فلبـــاك مـــن عينيـــه بـــالجمرات
تقـــرب بالنســـاك في كـــل منســـك وضـــحى غـــداة النحـــر بالمهجـــات
وكـــان لـــه جيـــان مثـــوى فأصـــبحت كئيبـــا علـــى الأشـــجان والزفـــرات
فلـــو قبلـــت للنـــاس في الحـــب فديـــة فـــديناك بـــالأموال والبشـــرات

ويبدو من خلال القصة أن العلاقة التي كانت تجمعهما هي علاقة صداقة وطيدة تسمح لكل منهما أن يستغل هفوات الآخر. كما يبدو من خلال الأخبار التي رواها عنه، معرفته الشخصية الدقيقة بكثير من نوادره ومأثراته. كما يبدو أن ارتباطهما قد تم خلال المرحلة الأولى من حياة الفتح، حيث اتصل بجماعة من رجال العصر من سياسيين وأدباء وفقهاء ممن ذكرهم أو أشار إليهم كابن سماك وابن عطية وابن الحاج وابن أضحى صاحبنا. كما أورد أخبارا عن اتصاله به في مناسبات أخرى[2].

21) ومنهم أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض[3] الفقيه الحافظ القاضي. ترجم له غير واحد من أصحاب التراجم والطبقات فذكروا فضله وعلمه واستقامته في الحق وشغفه بالعلم وبلوغه في ذلك درجة عالية. وكان الفتح ممن اطرى فبالغ في الاطراء، وذكر

1- القلائد 249.

2- القلائد 199.

3- القلائد 255/ الصلة 472/ البغية 1269/ التعريف / الغنيمة / معجم الصدفي 306 المراقبة العليا 101/ وفيات الأعيان 484/3/ الديباج المذهب 16668/ أزهار الرياض.

جملة من أخباره وروى كثيرا من مختاراته. وخلال هذه المختارات، عرض كعادته لعلاقته به، والتي يمكن تحديد صورها فيما يلي:

1) رسالة وجهها القاضي إليه يحمله فيها السلام إلى ابن طاهر بعد أن علم برحيله إليه وفيها يقول: (عمادي أبا نصر مثنى الوزارة ووحيد العصر. هل لك في منة تفوت الحصر، تخف محملا وتبلغ أملا وتشكر قولا وعملا، شكرا تترنم به الحداة ثقيلا ورملا، إذا بلغت الحضرة العلية مستلما، ولقيت الطاهر بن طاهر فخر الوزارة مسلما، وحللت من فنائه الأرحب حرما، ولمست بمصافحته ركن المجد يندى كرما. فقف شوقي بعرفات تلك المعارف، وأنسك شكرى بمشاعر تلك العوارف، وأطف إكباري بكعبة ذاك الجلال سبعا، وبوئ لودادي في مقر ذلك لكمال ربعا. وأبلغ عني تلك الفضائل سلاما يلتئم بصريح الحب التئاما، ويحسن عني بظهر الغيب مقاما، ويسير عني بأرج الجد إنجادا وإتهاما).

ويظهر أن هذه الرسالة قد جاءت متأخرة عن ما هو معروف من اتصالهما المبكر بدليل أنه يخاطبه فيها بلقبه السياسي وبدليل أن تاريخ إنشائها يجب أن يكون مترددا بين سنة ثلاث وخمسمائة وهي التي اتصل فيها بابن طاهر ــ كما ذكر ــ وبين سنة ثمان وخمسمائة وهي التي توفي فيها ابن طاهر. والظاهر أنها كانت قبل وفاته وقبل آخر رحلة رحلها الفتح إليه. كما لا تستطيع الرسالة أن تحدد نوع العلاقة التي كانت تجمعهما إلا في إطار الاستنتاج، إذ يمكن أن نستنتج أنه كانت بينهما معرفة سابقة لتاريخ الرسالة بحيث سمحت للقاضي أن يكلفه بما كلفه به فيها.

2) وهناك بيتان راجع بهما القاضي الفتح بعد أن ألح عليه برسالتين لم يتلق عنهما جوابا يقول القاضي فيهما[1] أبا النصر:

أبا النصر إن شدوا رحالك للنوى فإن جميل الصبر عنك بها شدوا

وأن تتركوا قلبي مقيما وترحلوا فماذا ترى في مهجة معكم تغدوا

فمدلول البيتين هو أسف القاضي لرحيل الفتح بعد أن أعلمه بذلك في رسالتيه السابقتين. لأن البيتين كتبا مراجعة من القاضي له على الرسالتين اللتين أرسلهما الفتح إليه.

[1]- القلائد 256.

ومثل هذه المراجعة تثير التساؤل عن السبب الذي دفع الفتح إلى أخبار القاضي برحيله. فهل هو إخبار عار من كل هدف. لا نظن ذلك. لأن هذا الإلحاح في الأخبار يحمل شيئا بين طياته. وما نعتقد في الموضوع هو أنه كان يرجو من القاضي أن ينجز له أمرا فتجاهل القاضي طلبه أولا ثم ألح عليه الفتح برسالة ثانية فراجعه القاضي مراجعة يفهم منها الأعراض عن الموضوع المطلوب وتوديع الفتح هذا التوديع المتكلف. والدليل على ذلك أن الفتح يروي في المختارات الثالثة رسالة للقاضي عياض يتناول موضوعها أمرا من قبيل ما ذكرنا وما تعرضت له رسالتا الفتح.

3) وهناك رسالة كتبها القاضي إلى شخص مجهول يوصيه فيها بالفتح ويقول فيها[1] (... في علمك سدد الله علا حكمك ما جمعه فلان من جلائل تشد عن الحصر، وفضائل يعترف له بها نبهاء العصر. يقول فيختلس العقول، ويعن فيذهل الألباب ويحن. أن نظم فعبيد أو لبيد، أو نثر فعبد الحميد أو ابن العميد، أو صال فأبو نعامة، أو أنال فكعب بن مامة، أو فاخر فشجرة السيادة أصلها ثابت وفرعها عامة الثريا، وعزة تمتهن الفضل بن يحيي، ولهجة تخرس العجاج، وبهجة تزري بنصر ابن الحجاج. ولو كنت ابن أبي هالة، لما بلغت المنتهى له. على أنه لم أنبه لشأنه ذا جهالة، لكنه الكلام يطرد، والبداية حسب ما ترد، واللسان ينطق ملء فيه والجنان يرشح بما فيه).

فمن ثنايا الرسالة تتضح معالم شخصية الفتح كما يراها صديقه المطلع على أحواله والمختبر لظاهره وجنانه، هذا الصديق الذي لا يمكن أن ينطق عن الهوى لأنه يؤدي شهادة يعلم هو إلى أي حد ينبغي أن تكون صادقة، على اعتبار أنه يعلم أصول الشهادة له. فيتخذ من هذه الشهادة وغيرها ضمانا يقاوم به خصومه، وما أكثرهم، في عصر كثر فيه التحزب، واشتدت العصبيات السياسية والإقليمية والعرقية، واتجه الناس يبحثون عن مثالب خصومهم لينشروها، فينالوا من سمعتهم ويحدوا من نفوذهم. غير أننا لا نعرف لمن وجه القاضي هذه الرسالة ومتى كان ذلك. والمعتقد أن الفتح استعان بهذه الشهادة في الظروف التي كانت يبحث فيها لنفسه عن مكان مريح في بلاط أمير أو وزير، أي قبل أن تستقر أحواله السياسية في ظل الأمير أبي إسحاق إبراهيم بن يوسف بن تاشفين. بل ربما كانت الرسالة موجهة إليه، وأن كنا نفتقد ما يعزز هذا الافتراض من الحجيج المادية، إلا أن مثل هذا

[1]- القلائد 256

الأطرأ، الذي ظفر به الفتح من القاضي لا يمكن أن يكون موجها إلا إلى شخص كثير الأهمية والخطورة.

4) وهناك المختارة التي عرض فيها لحادث جرى له بصحبة القاضي حين خرجا لنزهة، فتمزقت غفارة الفتح، فأخذها منه القاضي وأرسلها لمن يعمل على إصلاحها. فلما حل يوم الجمعة واحتاج الفتح إلى غفارته لأداء صلاة الجمعة، ولم يكن قد حصل عليها، كتب إلى القاضي في ذلك فقال[1]: (... قد بقيت، أعزك الله كالأسير، ولقيت التوحش بجناح كسير، إن أردت النهوض لم أنهض وليت من لا يريش لم يهض. وقد غدوت من المقام في مثل السقام. فلتأمر بردها لعلي أحضر الصلاة وأشهدها، لازلت سريا تطلق من يد الوحشة بريا...) فكان أن راجعه القاضي بقوله[2]: (... أدام الله يا وليي جلالك، وأبقى حليا في جيد الدهر خلالك. الغفارة عند من ينظر فيها. وقد بلغت غير مضيع تلافيها. ويرجى تمامها قبل الصلاة وإدراكها. وتصل مع رسول وكأنما قد شراكها. وإن عاق عائق فليس مع صحة الود مضائق. والعوض رائق لائق، وهو وأصل وأنت بقبوله مواصل. والسلام ما در شارق وومض بارق).

ويبدو من ثنايا الحادثة التي رواها الفتح معززة بالرسالتين أن العلاقة بينهما كانت علاقة صداقة وطيدة يخرجان خلالها للنزهة ويتطوع القاضي برتق غفارة الفتح عند من يحكم إصلاحها بعد أن أصابها ما أصابها. ويخاف الفتح أن تحين صلاة الجمعة فلا يشهدها بغفارته فيرسل إلى صديقه مستعجلا إنجاز ما وعده به فيطمئنه القاضي بل ويعده إن لم تصله في الوقت المعلوم أن يعوضه منها خيرا (... والعوض رائق لائق).

وعلى العموم فالمعتقد أن الصداقة التي جمعت الفتح بالقاضي ربما كانت قديمة ترجع إلى عهد الطلب، حين وفد عياض على الأندلس يطلب العلم واتصل هناك بأبي علي الصدفي، وعنده تعرف على الفتح فاستمرت صداقتهما. والدليل على ما أشرنا إليه من ذلك، المختارة الأولى التي حمل فيها القاضي الفتح رسالة إلى ابن طاهر، وقد كان ذلك كما زعمنا في بداية القرن السادس، وقريبا من عهد الطلب الذي جمعهما إلى شيوخ العصر آنذاك. ورغم ما تعرضت له هذه الصداقة من رجات (إقامة حد شارب الخمر على الفتح من طرف القاضي) فإن هذه الصداقة استمرت فيما لاحظناه من خلال مختارات القلائد،

---

[1]- القلائد 258.

[2]- القلائد 258.

اللهم إلا إذا كان الحد قد أقيم عليه بعد تأليف الكتاب وهذا أمر مستبعد لما أكده المؤرخون من تردد الفتح في إثبات اسم القاضي في كتابه[1]: (...وأخبرني بعض أصحابنا قال لي بعث أبوك إلى الفتح ابن خاقان بعد أن أقام عليه الحد صحبتي ثمانية دنانير، وعمامة، وأخبرني بعض أصحابنا، أنه أخبره بعض أصحاب الفتح ابن خاقان أن الفتح قال له بعد إقامة الحد عليه عزمت على إسقاط اسم أبي الفضل من كتابي الموسوم بقلائد العقيان قال فقلت له: لا تفعل، وهي نصيحة، فقال لي وكيف ذلك، قال فقلت له: قصتك معه من الجائز أن تنسى، وأنت تريد أن تخلدها مؤرخة، فقال لي: وكيف قلت له: كل من نظر في كتابك يجدك قد ذكرت من هو مثله ودونه في العلم والصيت فيسأل عن السبب فيقال له، فيتوارث العلم بذلك الأصاغر عن الأكابر قال فتبين له ذلك وعلم صحته).

فالذي يشير إليه النص هو أن الفتح كان قد وضع اسم القاضي في مشروع الكتاب ثم عزم على إسقاطه بعد ذلك.

22) ومنهم الفقيه القاضي أبو الحسن علي بن زنباع[2] ولم ترد له ترجمة مفصلة في كتاب ترجمة بهذا الاسم بل كل ما يعرف عنه هو ما نقله الفتح في القلائد ورواه عنه بعد ذلك صاحب الخريدة وعنهما نقل المحدثون من أصحاب التراجم. اما ما رواه صاحب الذخيرة عن أديب طنجي اسمه ابن بياع، فهو كما يبدو نفس الشخص الذي يعنينا يحمل لقب ابن بياع، ويسميه من يعرفه باسمه الأصلي وقد ورد هذا اللقب في بعض نسخ القلائد المخطوطة[3] كما ذكره الأعمى التطيلي بنفس اللقب في القصيدة التي وجهها إليه والتي رواها صاحب الذخيرة في ترجمة الأعمى التطيلي حين خاطبه بقوله[4].

أبيعــك يــا ابــن بيــاع فــؤادي   وغــيري مــن إذا نــدم اســتقالا

كما ذكر صاحب معجم السفر خبرا حول ابن بياع هذا حين روى أن أبا عمران السبتي نقل له بعض أشعاره مع جماعة من شعراء المغرب[5].

1- التعريف بالقاضي عياش /112/ أزهار الرياض 92/5.

2- القلائد 259/ الخريدة 556/2/ معجم السلفي 122/ الذخيرة 730/2.

3- المخطوطة رقم 2423 ك المكتبة العامة – قسم المخطوطات والوثائق- الرباط.

4- الذخيرة 750/2.

5- معجم السلفي 122.

وقد أشار الفتح إلى أنه كان أديبا وعالما وشاعرا وقاضيا بمدينة طنجة لعهده، وبالغ في إطرائه بجميل النعوت وكامل الصفات. وفي المختارات التي اختارها له تصادفنا قصيدة شعرية وجهها أبو الحسن إلى الفتح يمدحه فيها ويذكر مميزاته وخصائصه الفنية حين قال[1]:

هوى منجد يلقى به الليل متهم   يصرح عنه الدمع وهو يجمجم
يبيت يداري أو يدارئ ما به   ويغلبه أمر الهوى فيسلم

إلى أن يقول:

ولولا أبو نصر ولذات أنسه   تقضت حياتي كلها وهي علقم
فتى فتح الله المعارف باسمه   ومن دونها باب من الجهل مبهم
تأخر في لفظ الزمان وإنه   بمعناه في أعيانه متقدم
أتوا بالمعاني وهي در منظم   وجاء بها من أفقها وهي أنجم
وما يستوي في الحكم راق وغائص   لقد نال أسنى الرتبة المتسنم
إليك أبا نصر بديهة خاطر   توالي عليه الشغل وهو مقسم
أهبت به للقول وهو لما به   فلبى ولم يسعده نطق ولا فم
وكم مصقع لا يهرب القول فعله   ثنته خطوب ما انثنت وهو مفحم
ولو لم يكن إلا وداعك وحده   لأشفق منه يذبل ويلملم
فما يصنع الإنسان وهو بفهمه   يحس بأشتات الأمور ويفهم
وقد كنت تشكيني من الدهر دائبا   فقد صرت أشكو منك ما أنت تعلم
عليك سلام تسحب الريح ذيله   فيعبق منه كل ما يتنسم

[1]- القلائد 261.

ملاحظة: ظهرت للأستاذ الدكتور محمد بنشريفة مقالة تبحث في تسمية ابن زنباع، لم نستطع أن نستفيد منها لأن رقن البحث كان قد تم قبل ظهورها، انظر العدد 22 المناهل ص 529.

وإن لم يكـــــن إلا وداع وفرقـــــــة فـــــإن فــــؤادي قبلــــك المتقـــــدم

وقد كتب القصيدة ردا على رسالة للفتح وادعه فيها حسب ما تداولته معاني القصيدة، لاسيما الجزء الأخير منها.

ولن نستطيع أن نحرز نوع العلاقة التي قامت بينهما من خلال هذه المختارة فقط وإن كنا نزعم بأن الفتح كان يتخذ من مترله مقرا له كلما نزل مدينة طنجة، ونلاحظ من ثنايا القصيدة أن درجة هذه العلاقة كانت وطيدة لدرجة تجعل الفتح يشكو همومه إلى صاحبه ويكاشفه بما يستره عن الناس.

وقد كنت تشـــكيني مـــن الـــدهر دائبـــا فقد صرت أشكو منك مـــا أنـــت تعلـــم

فيبادله الآخرون نفس الشكوى من فراقه، كما عبرت عن ذلك بعض أبيات القصيدة.

ولعل الاتصال بينهما قد تم عن طريق القاضي عياض. إذ كانت تجمعه بالقاضي صداقة أشار إليها ابنه في الكتاب الذي وضعه حوله[1].

وعلى كل فإن أهمية ابن زنباع بالنسبة للفتح أنه مختلف عن بعض النماذج التي عاشرها في الأندلس. يحبه حبا صادقا ويعطف عليه، ويثق الفتح في عواطفه تجاهه، فيصدقه التعبير عما يشعر به وما يضطرب في نفسه دون أن يخاف وشاية أو منافسة أو عتابا أن احتاج الأمر إلى عتاب.

23) ومن قسم الشعراء هناك أبو إسحاق إبراهيم بن أبي الفتح ابن عبد الله بن خفاجة الهواري[2]. وهو من مشهوري الشعراء والكتاب الذين أدركهم الفتح من شعراء عصر الطوائف، الذين أدركوا المرابطين. ترجم له غير واحد من أصحاب التراجم، وكانت ترجمة صاحب الذخيرة أوفى وأكمل التراجم، لأنها اشتملت على جملة صالحة من المختارات

[1]- التعريف بالقاضي عياض ص 111.

[2]- القلائد 266/ الذخيرة 541/3/ البغية 502/ معجم أصحاب الصدفي 59/ التكملة 175/ المطرب 109/ الخريدة 625/2/ المغرب 368/2 رايات المبرزين 82/ وفيات الأعيان 56/1/ النفح 328/2.

الشعرية والنثرية. على أن ترجمة الفتح له تميزت بالأخبار التي رواها عن علاقتهما، وآفاق هذه العلاقة، ومنها نستطيع أن نتعرف إلى درجة العلاقة والتقارب الذي كان قائما بينهما.

ومن هذه الأخبار يظهر لنا أن الفتح اتصل به بواسطة معارفه من رجال العصر الذين اتصل بهم من الوزراء والقضاة والأمراء. ذلك أن من يقف وقفة قصيرة عند قائمة ممدوحي أبي إسحاق من رجال العهد المرابط ويقارن بينها وبين قائمة معارف الفتح، يدرك ولاشك أن الاتصال بينهما تم عن طريق أحد هؤلاء في مجلس من المجالس التي حضراها معا. وإلا فإن فارق السن القائم بينهما يمكن أن يشكل حاجزا اجتماعيا يقف في وجه أي نوع من أنواع التقارب والاتصال، مادام ابن خفاجة ليس من مشهوري العلماء أو الوزراء حتى يرحل الفتح إليه أو يطلبه. على أن نبوغ الفتح وظهوره على مسرح الكتابة ـــ على صغر سنه- جعل وجوده إلى جانب ابن خفاجة أمرا غير مستغرب. وهذا هو سر الإكبار والإجلال الذي نظر به الفتح في ترجمته إلى ابن خفاجة، وخاصة في المقدمة التي حلاه فيها والتي عدد فيها من مميزاته الفنية ما نستطيع معه أن نشخص به ذوقه الفني ورؤيته النقدية.

وحين نعود إلى المختارات التي اختارها له، والتي تعطي صورة عن علاقتهما نجد أنفسنا أمام نوعين من هذه المختارات نوع يتناول الأخبار التي رواها الفتح عنه، ونوع يتناول صورة من الاتصالات التي قامت بينهما مع تحديد صورها.

وهكذا ففي المختارات الأولى يحدثنا عن التطور الذي عرفته حياة ابن خفاجة من لهو ومجون إلى اعتبار واستذكار، وتذكر لخوالي الأيام واستعبار. وذلك حين يقول[1]: (...وأخبرني أنه لما أقلع عن صبوته، وطلع ثنية سلوته. والكهولة قد حنكته وأسلكته من طرق الارعواء حيث أسلكته...) ثم ذيل هذا الخبر بما رواه من شعره في التأسف على ما ضاع من شبابه حين قال:

ألا ســـاجل دمـــوعي يـــا غمـــام   وطـــارحني بشـــجوك يـــا حمـــام

فقـــد وفيتـــها ســـتين حـــولا   ونـــادتني ورائـــي هـــل أمـــام

إلى أن يقول:

[1]- القلائد 266.

فيـــا شـــرخ الشـــباب ألا لقـــاء　　يبـــل بـــه علـــى بـــرح أوام
ويـــا ظـــل الشـــباب وكيـــف تنـــدى　　علـــى أفيـــاء ســـرحتك الســـلام

ومن هذه المختارة نستطيع أن نستنتج أن علاقته بالفتح كانت بعد بلوغه الستين، لأنه يروي له خبرا وشعرا قاله حين بلغ الستين، فهو يخبر عن شيء مضى. ولما كان ابن خفاجة قد ولد سنة إحدى وخمسين وأربعمائة لاشك أن اتصالهما كان بعد العشرة الأولى من القرن السادس.

وفي المختارة الثانية ينقل خبرا عن ابن خفاجة حول نهاية صديقه ابن وهبون، وعن هذه الرواية ينقل أصحاب التراجم. وقد أورد له ولابن وهبون شعرا في المناسبة[1].

وفي المختارة الثالثة: يحدثنا أنه بلغ إلى علم ابن خفاجة أن المؤلف قد ذكره بسوء في كتابه حين وصف أيام فتوته بتندير وتلميح، فكتب إليه قصيدة يعاتبه فيها على ذلك ويقول منها[2]:

... ما للصـــديق وقيـــت تأكـــل لحمـــه　　حيـــا وتجعـــل عرضـــه منـــديلا
أقبلتـــه صـــدر الحمـــام وطالمـــا　　اضـــفيته درعـــا عليـــه طـــويلا
مـــاذا ثنـــاك عـــن الثنـــاء وشـــره　　بـــردا علـــى الرســـم الجميـــل جميـــلا

إلى أن يقول:

أعـــد التفاتـــك واذكرهـــا خلـــة　　لا تســـتقل بـــه عـــلاك مميـــلا

ويختم القصيدة بدعوة حارة إلى الفتح أن يكون كريما سمحا حتى لا ينفر الناس منه، وأن لا يبالغ في ذكر مالا ينبغي أن يشتهر ويذاع.

وإذا دعبـــت ولا دعابـــة غيبـــة　　فاغضـــض هنـــاك مـــن العنـــان قلـــيلا

---

[1]- القلائد 267.
[2]- القصيدة بكاملها في القلائد 268.

لا تستـــتنير بـــك السـيادة غــرة   حـتى يسـيل بـك النـدى تحجـيلا

وســواي ينشــد في ســواك ندامـة   يـا ليـتني لم أتخــذك خلـيلا

ويبدو من ثنايا هذه القصيدة أن ابن خفاجة كان يخاف النقد ويتهيبه خصوصا إذا أتى من كاتب نابه كالفتح، وأخص ما يخافه في هذا النقد أن لا يذكر بخير، خصوصا بعد توبته وإعراضه عن تصابيه. ولما كان كتاب الفتح فتحا جديا في بابه لم يسبقه إليه أحد من الأندلسيين، فقد خشي ابن خفاجة أن يكون نقطة سوداء في هذا المؤلف. ولهذا دعاه ــ كما لاحظنا سابقا ــ إلى أن يغير أسلوبه في الحديث عنه وعن الناس.

وفي المختارة الرابعة: يورد الفتح نص رسالة جوابية لابن خفاجة ردا على رسالة اعتذار بعث بها الفتح إليه متعللا بطول اغترابه وتوالي اضطرابه، وانعدام استقراره، الشيء الذي صرفه عن جوابه فكتب إليه أبو إسحاق[1]. (...وأن كتابك الكريم وافاني تحية هزتني أريحية هز المدامة تتمنى، والحمامة تتغنى. فلولا أن يقال صبا، للزمت سطوره ولثمت مسطورة. وما انطقتني صبوة استفزتني فهزتني، ولكن فضلة راح في كأس العلا تناولتها فكلما شربت طربت...).

ففي نص الرسالة يبدو إلحاح ابن خفاجة شديدا في التعلق بالفتح وتقديره، هذا الإلحاح والتقدير الذي نستطيع أن نستفيد منه ما كان يجمعهما من متين الروابط التي ربما كان مصدرها راجعا إلى إعجاب ابن خفاجة بشخصية الفتح ونبوغه، أو إعجابه بمذهبه في الحياة القائم على الترحال وعدم الاستقرار الاجتماعي. ومثل هذا الشعور يجعل مشاعرهما متقاربة دون أن يفصحا عن ذلك. والدليل على هذا أن ابن خفاجة بالغ في إطراء أسلوب الفتح في الحياة واعتبره في تحركه المستمر شبيها بالنجوم التي لا تستقر في مكان واحد. وأشاد بمكانته، وعدد الملوك والأمراء الذين يتهادونه ويبالغون في تكريمه[2]. (... فما انتضتك يد المغارب إلا ماضي المضارب، ولا تعاطتك أقطار البلاد إلا طيب الميلاد...).

---

[1]- القلائد 269.

[2]- القلائد 270.

وفي المختارة الخامسة: هناك إشارة إلى اجتماعهما في دار أحد أصدقاء أبي إسحاق، حيث اعتاد أن يجتمع فيها مع جماعة من خلانه الراحلين، وقد أورد له قصيدة يبكي فيها المعتمد بعد أن بلغه نعيه بأغمات[1].

وفي المختارة السادسة: يورد خبر اتصالهما في شاطبة سنة عشر وخمسمائة وافدين على الأمير أبي إسحاق إبراهيم بن يوسف مهنئين له بعيد الفطر حيث أنشد ابن خفاجة قصيدة مدحية في المناسبة[2].

ومن مجموع هذه المختارات تبدو شخصية ابن خفاجة قريبة من الفتح، تجمعهما صداقة وروابط عاطفية تقوم على شعور خفي بالمصير المشترك: حيث كان ابن خفاجة يعاني من وحدة قاتلة، فيطلب من الفتح أن يحقق له ما يرجوه من الأشياء التي رغب فيها ثم رغب عنها وتمنى أن يكون ابتعاده عنها نهائيا ذكرا وعملا. وبالفعل فقد استجاب الفتح لطلبه فاستهل مختاراته له بمقدمة تعطي صورة عن توبته أولا، ثم روى بعد ذلك من مختاراته ما يستجيب لرغبته في إسقاط الشعر المحمض الذي قد يكون فيه إضرار به.

24) ومنهم أبو العلاء بن صهيب[3]. ترجم له بعض أصحاب التراجم ولم يكن من الشعراء الكبار المشهورين، ولكن شعره كان مستملحا، اشتهر باتصاله بأبي أمية إبراهيم بن عصام. الذي كانت له فيه مدائح متعددة، وقد روى الفتح وغيره أنه وقعت بينه وبين أبي أمية نفرة أدت إلى تهاجيهما، إلا أن الفتح لم يورد من هذا التهاجي شيئا واعتذر عن ذلك.

ويظهر أن اتصال الفتح به كان سابقا للخبر الذي رواه عن التقائهما في سفره إلى ذلك الأفق ـــ (لعله مرسية بلد الشاعر) وهو في جملة من حملة البيان ولمة من نبهاء الأعيان فحياه تحية من سبقت معرفته، وأظهر له من صور الإجلال ما أظهره وتوجه إليه بقوله[4]:

سـلام كمـا فـاح العـبير لناسـم   عليـك أبـا نصـر خـلال النواسـم
أحيـي بـه ذاك الجـلال وإنمـا   أحيـي بـه شـخص العـلا والمكـارم

---

[1]- القلائد 272.

[2]- القلائد 275.

[3]- القلائد 326/ معجم أصحاب الصدفي 283/ الخريدة 583/2/ المغرب 257/2.

[4]- القلائد 327.

ولم يورد الفتح له شعرا كثيرا ضمن المختارات التي اختارها له كما لم يشر إلى نوع العلاقة التي كانت تجمعها. ونحن نظن أنها كانت علاقة زمالة ترجع إلى عهد الدراسة حين التقيا في مرسية وأخذا عن أبي علي الصدفي. فإن لم يكن فلاشك أن اتصالهما قد تم في مجلس من مجالس أبي أمية إبراهيم بن عصام قاضي قضاة الشرق الذي كان صديقا لهما معا.

25) ومنهم أبو عامر بن عيشون[1]. لم يذكره من أصحاب التراجم إلا صاحب الخريدة، ونقل صاحب النفح ترجمة القلائد، ووضعه في قائمة الراحلين إلى المشرق[2]. ويظهر أنه كان من الشعراء المغمورين والذين لم يلتفت إليهم فأرادوا أن يحققوا برحيلهم إلى الشرق شهرة فخاب مسعاه في ذلك كما ذكر الفتح وهكذا (... ارتد على عقبه ورد من حبالة الفوت إلى منتظره ومرتقبه. وقد شهد له الفتح بالمعرفة وسعة الاطلاع في الأدب والتحقق به، كما شهد له بالطبع المتدفق في المديح والنسيب وإن لم يورد من هذا الغرض الأخير شيئا في المختارات التي اختارها له.

وقد ركز الفتح الأخبار الواردة في المختارات على ما تعلق باتصالهما فقط، وروى عن رحيله إلى الشرق خبرا لا يخلو من أهمية في تحديد نوع الصعوبات التي لاقاها هناك[3].

وهكذا نجد في المختارة الأولى نص دعوة ــ حسب ما جاء في تقديم القصيدة ــ وجهها أبو عامر إلى الفتح يستدعيه وهو بفاس ويشير إلى علو كعبه في الآداب، ويمزج الحب بالتقدير والتعلق وذلك حين يقول:[4].

تناهبـــت الأفكـــار أنســـي ولا يـــد اذود بهـــا فكـــرا عـــن الأنـــس ذائـــدا
يطـــارحني الوســـواس حـــتى كأنمـــا أســـاور منـــها كـــل حـــين أســـاودا
سوى أن قربـــا منـــك أن سمحـــت بـــه ليـــال ضـــنينات وسمـــن مجـــاودا
فـــأجلو بمـــرآك البـــهي نـــواظرا تبيـــت بـــرغم المجـــد رمـــدا ســـواهدا

---

[1]- القلائد 332/ الخريدة 593/2/ النفح 494/2.
[2]- النفح 494/2 سماه صاحب النفح محمد بن عمر بن سعيد.
[3]- القلائد 332.
[4]- القلائد 333.

هلـــم إلى ورد مـــن الأنـــس ســـائغ تظللــــه الآداب هـــدلا موائـــدا....

ويظهر أن أبا عامر هذا من الذين عرفهم الفتح في مرحلة سابقة ثم التقي به بعد ذلك فعرف كل منهما الآخر. واشتد اتصال أبي عامر بالفتح بعد ذلك، خصوصا وقد ذاعت شهرته فأصبح وزيرا بل ذا وزارتين. ولكن ابن عيشون لم يخاطب الفتح بلقبه السياسي في كل المختارات التي أوردها له لأحد سببين:

الأول: أن ابن عيشون وجه هذه الأشعار إلى الفتح قبل أن يحصل على هذا اللقب.

الثاني: إن الكلفة كانت ساقطة بينهما، لاتصالهما الشديد، فاكتفى ابن عيشون بالإشارة إلى مكانة صديقه الأدبية ومعاليه السامية، رغم أن اللقب كان عملة رائجة حتى بين الأوساط التي تسقط الكلفة بينها. ولعل هذا هو السبب في نفور الفتح منه كما سنرى.

وفي المختارة الثانية: أبيات أربعة في العتاب يعاتب فيها أبو عامربن عيشون الفتح على عدم زيارته فيقول[1]:

كتبـــت ولـــو وفيـــت بـــرك حقـــه لما اقتصرت كفـــي علـــى رقـــم قرطـــاس

ونابت عـــن الخـــط الخطـــا وتبـــادرت فطور على عـــيني وطـــورا علـــى رأســـي

سل الكأس عني هل أديرت فلـــم أضـــغ مـــديحك الحانـــا يســـوغ بهـــا كاســـي

وهـــل نـــافح الآس النـــدامى فلـــم ادع ثنـــاءك أذكـــى مـــن منافحـــة الآســـي

وهكذا نلاحظ أنه لا يقف بالعتاب عند حدود ضيقة، بل يلاحق الفتح بتركيزه على غلطته في مجافاته، ويحمله تبعة ما انقطع بينهما من اتصال. والظاهر أن الفتح كان يتعمد هذا النوع من المجافاة بفعل ظروفه الشخصية التي تجعله لا يستقر في مكان، وبفعل شعوره الشخصي تجاه أبي عامر الذي ستوضحه المختارة الآتية:

وفي المختارة الثالثة: يذكر الفتح أن أبا عامر رأى وعليه غفارة وخاتما كلاهما مستغرب، فوجه إليه في الغفارة فبعث بها الفتح إليه فراجعه أبو عامر مادحا وشاكرا[2]:

1- القلائد 333.

2- القلائد 334.

نشـــقنا مــــن المجـــد المؤثـــل نفحـــة تزيـــد علـــى النـــد المثلـــث والمســـك

ومـــــا ذاك إن ســـــألت فجـــــادلي أبـــو نصـــر الأعلـــى ببرنســـه المســـك

يـــــنظم في جيـــــد المعـــــالي قلائـــــدا هي الـــدر للجـــدوى وعليـــاه للمســـك

إذا ختمـــــت يمنـــــاه مـــــني عـــــاطلا خلعت على اليســـرى بـــه خـــاتم الملـــك

وإن محكـــت أيـــدي اللئـــام بشـــكرها محكت فلـــم اجعـــل بلائـــي ولا محكـــي

وتستوقفنا في ترجمة ابن عيشون ومختاراته جملة أمور:

منها: ما لقبه به الفتح في تحليته لاسمه (الأديب الحاج) إذ لا نجده يستعمل مثل هذه التحلية لغيره، بل لا نجد غيره يستعمل مثل هذا اللقب الديني في ترجمة من التراجم ولا ندري سببا لهذا.

ومنها: القطعة الشعرية التي يعاتب فيها ابن عيشون زائرا زاره فلم يسمح له بملاطفته، و لم تنبسط نفس المزور لهذه الزيارة، فمن يكون المزور. أهو الفتح الذي كان يستثقل ابن عيشون، والذي أراد أن يخفي صورة من صور سلوكه، أم هو غيره. المعتقد في نظري أن الفتح هو المعني بالأمر، وأن الجواب على موقفه من ابن عيشون يكمن في المختارة الأخيرة[1] التي ألح فيها ابن عيشون على الفتح في شأن غفارته الغريبة وخاتمه فلم يجد الفتح آنذاك بدا من التخلص منه عن طريق إهدائها له.

26) ومنهم أبو القاسم بن العطار: [2] ترجم له غير واحد من أصحاب التراجم فأشاروا إلى تهتكه وفجوره كما أشاروا إلى أنه كان أحد نحاة إشبيلية وأدبائها[3]. (العامرين لإرجاء المعارف وساحاتها...) وكان اشتهاره بالخلاعة والمجون أكثر من اشتهاره بالعلم أو بغيره، لذلك استغرق وصف تهتكه من الفتح جل الترجمة. وعنه نقل صاحب المغرب

[1]- القلائد 334.

[2]- القلائد 328/ الخريدة 585/2/ المغرب 259/ رايات المبرزين 15.

[3]- القلائد 328.

والخريدة، وأكد صاحب المغرب صدق ما رواه الفتح بقوله[1]: (... وبذلك وصفه الحجاري...).

ويهمنا من ترجمته التي روتها القلائد ما تعلق بالمختارة التي اختارها والتي تصور هذه العلاقة ودرجتها فقد جاء فيها قوله[2] (... وله يخاطبني وقد رحلنا إلى قرطبة.

كتبـــت إليـــك يـــا رب الكتابـــة حروفـــا خطهـــا قلـــم الكتابـــة

وبـــين جـــوانحي مـــن شـــوق نـــار تجـــول بـــين أجفـــاني ســـحابة

لـــئن تاهـــت بـــك الـــدنيا بهـــاء لقـــد هامـــت بـــك العليـــا صـــبابة

ولـــو رفعـــت عيـــون المجـــد بنـــدا تلقـــى منـــها رايتـــها عرابـــة

بقرطبـــة البيـــان تعـــب عبـــا ولـــيس بجبنـــا منـــه صُـــبابة

عـــبرت إلى المكـــارم بحـــر بيـــد علـــى وجفـــاء ســـارية ســـحابة

وأمـــا حمـــص منـــذ رحلـــت عنـــها فيـــأبى وجههـــا إلا كآبـــة

فالقطعة إخوانية مدحية، وتعبر عن نوع خاص من الارتباط يصل المشهورين كالفتح بطلاب الشهرة من الشعراء، كابن العطار، ولا نستطيع أن نزعم أن الفتح كان على مذهب ابن العطار من خلال ما رواه في ترجمته عنه، إذ أن المعاصرة كافية لإطلاعه على ما خفي من أسراره.

27) ومنهم الأديب أبو الحسن باق بن أحمد بن باق[3] ذكر ابن الأبار في التكملة أن اسمه باقي بن عبد الله بن إسماعيل.. وذكره الحجاري وأثنى على بيته. وأشار أغلب المؤرخين إلى أنه كان مقتصرا على أبي أمية إبراهيم بن عصام. ولكن ما أورده الفتح من

[1]- المغرب 259/1.

[2]- وردت هذه القطعة خاصة في طبعة بولاق وطبعة الطوبي 297 ولم ترد في ط توسن.

[3]- القلائد 342/ البغية 235/ التكملة 231/1/ المغرب 461/2.

أخباره في ثنايا ترجمته، يفيد أنه كان يتخذ من أصحاب أبي أمية ممدوحين له، ومنهم الفتح الذي مدحه بأبيات صدر بها المختارات التي اختارها له حيث قال فيه[1]:

الدهر لولاك ما رقت سجاياه ... والمجد لفظ عرفنا منك معناه

كان العلا والنهي سرا تضمنه ... صدر الزمان فلما لحت أفشاه

آيات فضلك نتلوها ونكتبها ... في صفحة البدر ما أبدى محياه

فأنت عضب وكف الدهر ضاربة ... تنبو الخطوب ولا تنبو غراراه

ويظهر أبو الحسن هنا شاعرا مداحا ينهج أسلوب المتكسبين ويتمسك بأنماطهم، سواء مع الفتح أو مع غيره كأبي العباس الغرباقي وأبي محمد بن القاسم حيث يكثر من ذكر صور المجد وأبعاده وما شاكل ذلك من ألوان المبالغات وضروب التملق.

28) ومنهم أبو جعفر أحمد بن عبد الولي البني[2] ترجم له الفتح في القلائد والمطمح وكانت ترجمته في المطمح تكرارا لما ورد في القلائد، وترجم له غير واحد من أصحاب التراجم الآخرين. غير أن الفتح وابن سعيد وقعا في خلط بين ابن عبد الولي البتي وبين أبي جعفر بن البني اليعمري. وقد نبه ابن الأبار إلى الخلط الذي وقع فيه الفتح. وشرح محقق الذيل والتكملة وجه الخطا[3].

ومن خلال ما ذهب إليه المحققون يظهر أن الفتح إنما يترجم لابن البني اليعمري الشاعر الهجاء الفاجر، بدليل ما حلى به ترجمته من الإشارة إلى مروقه وشذوذ سلوكه. ولم يكن ابن عبد الولي البتي كذلك، بل كان وزيرا أحرق في بلنسية حين دخلها السيد القنبطور. وامتد العمر بابن البني اليعمري إلى سنة ستين وخمسمائة. وعلى كل فالفتح قد تعرف ابن البني أثناء وجوده في ميورقة وروى من أخبار مجونه ما يعطي فكرة واضحة عن نوع شخصيته وسلوكه. غير أن السؤال المطروح هو عن نوع العلاقة التي كانت قائمة بينهما. فنرى أنها كانت علاقة معاصرة لا غير، لأن ما يرويه الفتح من أخباره، وخاصة

1- القلائد 342.

2- القلائد 343/ المطمح 91/ البغية 182/ الخريدة 606/2/ التكملة 24/1 / المعجب 122/ المطرب 195/ الذيل والتكملة 273/1/ المغرب 357/2/ الرايات 94.

3- الذيل والتكملة 275/1.

الخبر الخاص بمصادفته له بميورقه، لا يفيد أنه كان على اتصال به. وإنما يفيد أن ابن البني كان قد أثار ضجة في الأوساط الاجتماعية بسلوكه فألب الجميع ضده، وكان من بينهم الفتح، بل نظن أن عداء الفتح له كان أكثر، بحكم ما اهم به من الاشتهار بمعاشرة الذكور فكان من الضروري أن يبرئ ساحته بمعاداة أصحاب هذا الاتجاه، وبإلحاق التهمة نفسها بخصومه، مثل ما فعل بابن باجة حين صدر المختارات التي اختارها له بتغزله في غلام أسود كان يعشقه.

29) ومنهم أبو بكر محمد بن الحسين بن الصائغ المشهور بابن باجة[1] ترجم له غير واحد من أصحاب التراجم والطبقات وخاصة منهم من اهتم بشؤون الطب والحكمة والفلسفة. وقد أشاد أغلب المترجمين بعلمه وفضله، وعده المحدثون من الدارسين زعيم فلاسفة الأندلس ورائدهم[2]. ويهمنا أن نرصد أبعاد علاقته بالفتح من خلال التراجم التي تعرضت له ثم من خلال القلائد بعد ذلك.

فالمشهور بين المترجمين أن الفتح حين عزم على تأليف كتاب القلائد راسل ملوك الأندلس ووزراءها وأعيانها من أهل الشعر والبلاغة يعرفهم عزمه على تأليف كتابه، ويسألهم أن ينفذوا إليه شيئا من شعرهم أو نثرهم ليثبته في كتابه قال ياقوت[3] وكانوا يعرفون شره وثلبه فكانوا يخافونه وينفذون إليه ذلك، وصرر الدنانير. فكل من أرضته صلته أحسن في كتابه وصفه وصفته. وكل من تغافل عن بره هجاه وثلبه. وكان ممن تصدى له وأرسل إليه أبو بكر بن باجة المعروف بابن الصائغ، وكان وزير ابن تيفلويت العامري صاحب المرية.

وابن باجة هذا أحد الأعيان، وأركان العلم والبيان، شديد العناية بعلم الأوائل، مستول على أهل الأشعار والرسائل، وكانوا يشبهونه في المغرب بابن سينا في المشرق، وله تصانيف في المنطق وغيره. فلما وصلته رسالته تهاون بها و لم يعرها طرفه ولا لوى نحوها عطفه، وذكر ابن خاقان بسوء فعله. فجعله الفتح ختم كتابه وصيره مقطع خطابه وقال:... وبلغ ذلك ابن الصائغ فانفذ له ما استكفه به واستصلحه.

1- القلائد 346/ الخريدة 283/2/ المغرب 119/2 وفيات الأعيان 9/2/ بغية الوعاة 475/1/ شذرات الذهب 103/4/ طبقات الأطباء 62/2. تاريخ الحكماء 406/ نفح الطيب 17/4.

2- تدبير المتوحد ص 7.

3- معجم الأدباء.

والذي يبدو من ثنايا خبر ياقوت أن الفتح جعل من تأليف كتابه طريقا للتكسب وجمع المال. كما أن الذي يبدو منه هو أن السبب الأساسي في الخصومة التي قامت بين الفتح وابن باجة يعود إلى إهمال ابن باجة لرسالة الفتح وتهاونه بامرها وذكر ابن خاقان بسوء فعله أي بما اشتهر عنه. لذلك جعله الفتح خاتمة كتابه ومقطع خطابه ووصفه بما وصفه به في تحلية ترجمته.

ونحن نرى في خبر ياقوت جملة عيوب:

منها أن الفتح لم يرد التكسب وجمع المال عن طريق تأليفه بدليل ما اشتهر عنه من علو نفسه وأنفته التي لا ترضى بمثل هذا السلوك، وبدليل رسالة الفتح التي بعث بها إلى ابن أبي الخصال والتي يفهم منها امتعاضه مما أهداه إليه أبو عبد الله حين أرسل إليه بعض آثاره التي رواها في ترجمته[1].

ومنها أن العلاقة بينهما عرفت كثيرا من الحدة أشار إليها بعض المترجمين وهم يتحدثون عن سبب الخصومة التي قامت بينهما[2].

ومنها أن الفتح كان يريد أن يتغاضى عما بينهما من خصومة حين أرسل إليه، فلما أهمله وأشاع في الناس ما أشاعر عنه تناوله الفتح بما هو عليه حقا وبما اشتملت عليه عقيدته.

ومنها أن ما اشتهر من رجوع الفتح عن موقفه من ابن باجة لا يعود إلى استصلاح ابن باجة له بالمال، وإنما يعود إلى ما قام بينهما من مصالحة، وخاصة بعد وفاة كل من ابن تتقلويت وأبي إسحاق إبراهيم بن يوسف اللذين كانا مصدر تنافس الرجلين.

أما عن علاقته به من خلال القلائد فإن الذي يكشفها إنما هو موقفه منه في التحلية التي وضعها له حين قال عنه[3]. (هو رمد جفن الدين، وكمد نفوس المهتدين...) فالظاهر من التحلية هاته أن الفتح يهاجم ابن باجة في عقيدته وسلوكه ويتهمه بالمروق عن الدين وانتحال الأفكار التي توجب محاكماته وقتله، لاسيما وهو يجاهر بذلك ويفتخر به. ولم تخل

1- المخطوطة 488 لو 52 فهرس الغزيلري/ الأوسكوريال.
2- الإحاطة 249/4.
3- القلائد 346.

هذه التحلية في نظرنا من عنصر ذاتي، ولكنها أيضا لم تخل من واقع يعضدها. فقد لاحظ بعض الدارسين المحدثين أن الفتح كان مصيبا فيما اهم به صاحبه من المروق عن الدين أو ما عبر عنه هؤلاء الدارسون بالآراء الفلسفية. يقول د. معن زيادة في المقدمة التي كتبها حول كتاب ابن باجة (تدبير المتوحد) [1].

(... إنه لمن الجدير بالاهتمام حقا أن نرى كيف يفكر فيلسوفنا الذي جاء بعد الغزالي مباشرة وفي فترة انتصار أهل السلف على الفلاسفة، وقبل نهوض الفيلسوف الكبير ابن رشد، وأنه لمما يثير الإعجاب أن نرى كيف نهض ابن باجة وتكلم، ليس دفاعا عن الفلسفة فقط بل معرضا بأبي حامد أيضا، في وقت آثر فيه بعض المفكرين الأحرار من أمثال مالك بن وهيب الانسحاب سرا بعد التهديدات الأولى التي وجهت إليه. كان لابد من شجاعة مفكر حر حقيقي، للوقوف وقفة ابن باجة تلك... وعلى كل حال فإن اتهامات الفتح ابن خاقان لم تكن كلها ادعاءات باطلة. فابن باجة رفض الكثير من الأفكار الدينية التقليدية. فقد كان يذهب إلى القول بأنه ليس ثمة أي فروقات بين الأفراد بعد الممات فنفوس السعداء لا تتميز واحدها عن الأخرى، ولا تكثر بالعدد، بل هي نفس واحدة. وابن باجة يعلن في رسالة الاتصال وبكثير من الوضوح أن العقل الخالص هو الجزء الوحيد من الإنسان الذي يبقى بعد موت الأجساد...)

فموقفه هذا من البعث والنشور يخالف ما جاء به الإسلام حول مصير الإنسان بعد الموت مما يتردد في كثير من الآيات القرآنية التي تعبر بصراحة وتشرح فكرة البعث والمعاد. ولم يكن موقفه هذا هو الموقف الوحيد الذي يمكن أن ينتقد عليه، فقد وجدناه يشرح في كتابه تدبير المتوحد مثلا قضية الحقيقة، ويميز بين الحقيقة القائمة على الوحي والحقيقة المنطلقة من المنطق والعقل، وينتهي إلى تفضيل الفلاسفة على الأنبياء، ولا يعطي لشخصية الرسول محمد ﷺ، كبيرا اعتبار، لأنه يذكره في كثير من المناسبات دون أن يحليه بما هو أهل له وما أمر المسلمون به من الصلاة والسلام عليه، كما أنكر خلود النفس الجزئية (نفس الإنسان الفرد) وأنكر وجود حياة ثانية للأفراد. وقد وضع الدكتور معن زيادة أصول فلسفة ابن باجة وآفاقها في المقدمة التي وضعها لكتاب ابن باجة (تدبير المتوحد) [2] حيث

[1]- تدبير المتوحد ص 9.

[2]- تدبير المتوحد: المقدمة ص 24.

تلتقي أصول هذه الفلسفة مع جزء مهم من التهم التي اتهمه بها الفتح، وهي التهم المتعلقة بالعقيدة في الغالب والتي يرفضها المنطق السني، الذي يمثل الفتح واجهة الدفاع عنه.

أما التهم المتعلقة بالسلوك وصوره المختلفة كالموسيقى.. فقد يكون جانب المنافسة بينها عاملا من عوامل رفضها أو رفض بعضها، لأن سلوك ابن باجة كان كسلوك غيره من الذين ترجم لهم، ووصف مجالسهم واطراها على ما تضمه هذه المجالس من مواقف انتقدها الفتح على ابن باجة.

لقد كان الفتح يرمي إلى النيل منه أكثر مما يرمي إلى تقرير الحقيقة، لأن الصورة التي عرض بها لآرائه هي صورة المتعصب للدين الثائر للمروءة والأخلاق الإسلامية- مما يلتقي مع الأهداف المرابطية من جهة وفقهاء الأندلس من جهة أخرى ـــ و لم يكن الفتح متعصبا للدين في سلوكه أو أرائه، وإنما كان يمتدح التساهل فيه كما بدا واضحا في ما اختاره لبعض قضاة الأندلس[1].

وقد بلغ موقف الفتح منه حدا أن اعتبر استوزار الأمير أبي بكر بن تيفلويت له مما تدعو إليه أخلاق العصر وما يفرضه الاعتراف بالشكر لابن باجة بعد أن حبر فيه مدائح كثيرة[2]. (وكان الأمير أبو بكر يعتقد له هذه الماتة ويراها، ويجود أبدا ثراها. فلما ولي الثغر والشرق لم يغفلها من رعي، و لم يكلها إلى شفاعة وسعي. وحمله على ما كان يعتقده فيه من المقت، واستعمله على ما يقتضيه خلق الوقت، من إقامة وغد، وتسويغه كل نعيم رغد. وتغليب حجة داحضة وإنهاض عثرة غير ناهضة...).

كما بلغ بالفتح النيل منه حدا أن سعى به عند الأمير إبراهيم حين جاء ابن باجة يطلب مكانا في بلاطه. فانتهت هذه السعاية به إلى السجن. وإلا فلماذا أدخل أبو إسحاق ابن باجة السجن.

ويبقى بعد هذا أن نعرف رد ابن باجة على هذه المواقف خصوصا إذا علمنا أنه وزر لأمير المسلمين مدة عشرين سنة بالمغرب كما روئ ابن زاكور في شرحه على القلائد. و لم يتعرض نص القلائد لهذا ولكن الأخبار المتواترة تفيد أنه قد وقعت بينهما مصالحة، نظن أنها

[1]- المطمح (ترجمة بن عيسى) ص 49.
[2]-القلائد 348.

لم تكن خاتمة المطاف فيما قام بينهما من تنافس وتناحر، لأن الفتح حين رحل إلى مراكش رحلة الوفاة كان بها جمع من أعدائه في مقدمتهم ابن باجة وابن زهر وغيرهما.

علاقاته من خلال المطمح:

يعتبر المطمح الكتاب الثاني الذي تعرض لعلاقات الفتح برجال عصره وفصل الحديث عنهم. ورغم أن نوعية المترجم لهم فيه لم تكن كالقلائد، إذ التزم فيه منهجا خاصا في اختيار الشخصيات، فإن هذا لم يمنع أن تتخلف لنا عن المطمح المطبوع مجموعة أخبار داخل التراجم تحدد بكيفية من الكيفيات عناصر الاتصال التي كانت تربطه إلى بعض رجال عصره ممن ترجم لهم هناك.

وسنحاول أن نتابع وجودهم ونعرض لأصول العلاقة التي قامت بينه وبينهم من خلال ما أورده من أخبارهم ومختاراتهم، معتمدين نفس المنهج الذي اعتمدناه في دراسة هذه العلاقة من خلال القلائد وأول الشخصيات التي تطالعنا ممن كان لهم اتصال معين به هو:

1) الوزير أبو يحيى رفيع الدولة ابن صمائح[1] أحد أبناء المعتصم صاحب المرية ترجم له كثير من أصحاب التراجم الأندلسيين فأشار صاحب المغرب مثلا إلى أنه[2] (أقام في ظلال أمير المسلمين مدرعا من حمايته بدرع حصين...) وقد أجمع المترجمون على أنه كان عنوانا للفضل والخير، وزكى هذا الإجماع ما أشار إليه الفتح في المطمح من أنه كان مستقيما فاضلا[3].

(... فما تراه إلا سالكا جددا ولا يلقى إلا لابسا سؤددا...) كما زكى هذا الإجماع أيضا ما اختاره له من المختارات، وخاصة تلك التي وردت في نسخة الذخيرة [4]. ولم ترد في المطمح المطبوع والتي حاور فيها الشاعر ابن اللبانة.

وحين نعود إلى تحديد العلاقة التي قامت بينهما من خلال المطمح وغيره نقف أمام أربع مختارات.

1- المطمح 30/ الذخيرة 737/1 / الحلة السيراء 82/2/ المغرب 199/2/ النفح 369/3/ 7 34.

2-المغرب 199/2.

3- المطمح 30.

4- الذخيرة 737/1.

المختارة الأولى: وهي الوحيدة التي توجد في المطمح. وهي عبارة عن قطعة شعرية تحتوي ثلاثة أبيات خاطب بها رفيع الدولة الفتح بعد عودته من سفر. وقد أورد صاحب النفح مقدمة لهذه المختارة تفيد أن لقاءهما كان عند أحد الأمراء، ثم وصف مكانتهما معا عند هذا الأمير وروى بعد ذلك الأبيات التي يقول فيها[1]:

قدمت أبا نصـــر علـــى حـــال وحشـــة فجاءت بـــك الآمـــال واتصـــل الأنـــس

وقـــرت بـــك العينـــان واتصـــل المـــنى وفـــازت علـــى يـــأس ببغيتـــها الـــنفس

فـــأهلا وســـهلا بـــالوزارة كلـــها ومـــن رأيـــه في كـــل مظلمـــة شمـــس

ومثل هذه القطعة لا نستطيع معها أن نحدد نوع العلاقة التي كانت قائمة بينهما إذا حذفنا منها ذلك التقديم الذي رواه صاحب النفح والذي أشار فيه إلى مكانتهما العالية عند الأمير، نظرا لمكانة الفتح التي صورتها الأبيات، ونظرا لحالة رفيع الدولة التي فضحتها أبيات وجهها إلى ابن اللبانة يذكر فيها فقره وقلة ذات يده ويتحسر فيها على ماضي الأيام[2]. .بمعنى أنه من الجائز أن يظن أن هذه الأبيات كانت محاولة من رفيع الدولة للتقرب من الفتح.

المختارة الثانية: وهي عبارة عن ثلاثة أبيات يعاتب فيها رفيع الدولة الفتح ورواها الذخيرة[3]، وتفيد أن العلاقة التي كانت قائمة بينهما هي علاقة مودة وصداقة، وهي من نوع العلاقات التي جمعته مع رجال العهد السابق، والتي أخلص لها غاية الإخلاص. وفيها يقول رفيع الدولة:

سلوت أبـــا نصـــر ومـــا كنـــت ســـاليا وأظهـــرت مـــن قـــرب المـــزار الثنائيـــا

فديتك قل كيف اجترأت علـــى النـــوى وخلفـــت مـــن تهـــواه بـــالجزع تاويـــا

ظننـــت بـــأن يســـليك نـــاي محلـــة وهيهـــات مـــا تـــزداد إلا تماديـــا

---

[1]- النفح 45/7.

[2]- الذخيرة

[3]- الذخير 737/1.

فقد لاحظنا أنه يعاتبه على سلوه عمن يحبه ــ ولعله يقصد الأندلس ــ وينبهه إلى أن بعاده لن يزيده إلا تعلقا به وتماديا في محبته. فهو إذن يشير إلى مكانة الفتح في نفسه وعند قومه كما يشير إلى مكانته في نفس الفتح، ويدعوه إلى الانصراف عن هذا الإعراض.

المختارة الثالثة: وهما عبارة عن بيتين ربما كانت لهما علاقة بمعنى الأبيات الثلاثة السابقة. إذ يتعجب فيهما رفيع الدولة من رحيل الفتح إلى فاس، يطلب فيها الاستقرار، ويتأسى بها عن غيرها فيقول: [1]

عجبت أبا نصر لعيشك آسيا   بفاس وما فيها مقام لفاضل

وفي حمص الدنيا نعيم وجنة   وماء وظل وارف غير زائل

فكأنه يوجه إليه نصيحة سياسية ينبهه فيها إلى خطا هذا الاختيار على اعتبار أن فاس المغرب لا يمكن أن تقارن بمدن الأندلس التي تركها الفتح، أو بعبارة أن المغرب لا يمكن أن يقارن بالأندلس.

المختارة الرابعة: وهي مما أورده صاحب النفح[2] وتتناول بيتين رثى فيهما رفيع الدولة الفتح وقد بلغه نعيه:

مثنى الوزارة قد أودى فما فعلت   تلك المحابر والأقلام والطرس

ما كنت أحسب يوما قبل ميتته   إن البلاغة والآداب تختلس

ورغم أن الخبر لم يكن صحيحا ــ آنذاك ــ فإن رثاء رفيع الدولة. يحمل صورة من صور الإخلاص التي كان يضمرها للفتح.

وهكذا يبدو من خلال هذه المختارات أن العلاقة التي كانت قائمة بينهما هي علاقة صداقة تتجاوز حدود التعارف الشكلي أو المعاصرة، لتصل إلى اهتمام كل منهما بالآخر. هذا الاهتمام الذي ذهب بالفتح إلى اختياره ضمن من يملكون قلما يفاخر به الأندلسيون أهل المشرق حين ترجم له في المطمح. واهتمام أبي يحيى دفعه إلى مراعاة شروط الصحبة التي

[1]- الذخيرة 738/1.
[2]- النفح 45/7.

تفرض بذل النصيحة كلما كان ذلك واجبا، أو التهنئة من السفر حال كل عودة، أو الرثاء بعد أن نعي إليه، أو التأكيد على عمق المحبة التي يكنها له كلما سنح الظرف بذلك.

2) ومنهم أبو الفضل جعفر بن محمد بن الأعلم الشنتمري[1] وقد سماه الفتح خطأ باسم يوسف، وهو ما لم يتفق عليه أغلب الذين ترجموا له، فقد ذكر باسم جعفر عند كل من صاحب البغية والمغرب ومعجم السفر، وأشار محققا الخريدة إلى ذلك. وقد اتفق على أنه حفيد العالم اللغوي والنحوي الكبير أبي الحجاج يوسف بن عيسى الملقب بالأعلم الشنتمري. وكانت ترجمة الفتح أوسع تراجمه، لأنه لم يوقفها على ما تردد عند المترجمين من الحديث عن علمه وفضله، بل أشار إلى التطور الذي أصاب حياته بعد شباب طائش صرفه في الملذات على اختلاف أشكالها.

ويظهر أن علاقة الفتح به لم تكن علاقة سطحية، تقوم على ما تقوم عليه ظروف التأليف وجمع المعلومات من الرحلة إلى المعني بالأمر، بل كانت له به معرفة سابقة يحددها خبران أوردهما في المطمح.

الأول وهو الذي صدر به مختاراته حيث رحل إليه إلى شنتمرية (الغرب)[2]. (...فالتقينا بها على ظهر وتعاطينا ذكر ذلك الدهر. فجددت من شوقه ما قد كان شب عن طوقه...)

فمعرفته به إذن كانت قديمة ترتبط بعصر الشبيبة وما عرفه من أحداث وما زخر به من ذكريات، ذكره الفتح بها فأذكر. ويظهر إلى هذا اللقاء كان متأخرا عن المرحلة الأولى التي عاشها ابن الأعلم والتي شب عن طوقها الآن وتجاوزها، فجاء الفتح ليثير حنينه إليها. فلما انصرف قال في وداعه:

بشـــراي اطلعـــت الســـعود علـــى آفـــاق أنســـي بـــدرها كمـــلا
وكســـا أديم الأرض منـــه ســـنا فكـــن بســـائطها لـــه حلـــلا
أيـــه أبـــا نصـــر وكـــم زمـــن نصـــر إدراكـــك عنـــدي الأمـــلا

[1]- المطمح 64/ بغية الملتمس 239/ الخريدة 493/2/ معجم السفر 117/ المغرب 396/1 رايات المبرزين 34/ النفح 471/2.
[2]- المطمح 64.

هــــل تـــــذكرن والعهــــد يخجلـــني هــــــل تـــــــذكرن أيامنـــــا الأولا
أيـــــــام نعثـــــــر في أعنتنـــــا ونجـــــر مــــــن أبرادنـــــا حلـــــلا
ونحـــــل روض الأنـــــس مؤتنقـــا وتحــــل شمـــــس مرادنـــــا الحمـــــلا
ونـــــــرى ليالنــــــا مســــــاعفة يــــــدعو إلينــــا وقفنـــــا الجفـــــلا
زمــــــن نقـــــول علـــــى تـــــذكره مـــــا تم حــــتى قيـــل قـــــد رحـــــلا
عرضــــت لـــزروتكم ومـــا عرضـــت إلا لتمحــــــق كــــل مـــــا فعـــــلا

الثاني: وهو الذي عرض فيه لذكرياتهما خلال أيام الطلب والدرس حيث أقام أبو الفضل لنفسه مكانا للأنس والراحة، استدعى إليه الفتح في عشية من العشايا فقضيا فترة من المذاكرة والمناقشة انتهت ببيتين شعريين وصف فيهما أبو الفضل هذه الأمسية ورمز فيهما إلى الفتح الذي كان وحيده فيها حين قال[1]:

وعشــــــية كالســــــيف إلا حـــــده بســــط الربيـــع بهـــا لنعلـــى خـــده
عاطيت كـأس الأنـس فيهـا واحـدا مـــا ضـــره إذا كـــان جمعـــا وحـــده

والذي يفهم من الخبرين ومن بقية الترجمة أن الفتح حين عزم على تأليف المطمح وضع لائحة لمعارفه وأصدقائه ومن يرشحهم ليضمهم مؤلفه ثم أخذ ينتقل بحثا عنهم. وهكذا اتجه إلى شنتمرية حيث صديقه أبو الفضل[2]. (... وشنتمرية هذه داره، وبها كمل هلاله وإبداره، وبها استقضي، وشيم مضاؤه وانتضي...) فزوده ببعض أخباره وأشعاره وذكره الفتح بما كان بينهما من سابق المودة ومتين الاتصال.

3) أبو عامر بن عقال[3] أحد رجال الطوائف ذكر الفتح أن اتصاله كان ببني القاسم أصحاب (القنت) فلما خوت نجومهم وعفت رسومهم، أصبح كالطائر المقصوص. إلى أن رقاه الأمير إبراهيم بن يوسف بن تاشفين.

1- المطمح 65.
2- المطمح 64.
3- المطمح 86/ الذخيرة 319/2/ الخريدة 359/2/ المطرب 190/ المغرب 341/1/ النفح 46/7.

أما غير المطمح من المصادر الأخرى فلم تشر إليه بكثير أو قليل فالذخيرة اكتفت بإيراد ما كان بينه وبين ابن الجد من مراسلات وأشعار. وعنها نقلت الخريدة والمطرب والمغرب، والنفح يروي ترجمة المطمح بنصها.

وحين نعود إلى العلاقة التي كانت قائمة بينهما لا نجد عليها شاهدا ماديا في أثر شعري أو رسالة ـــ مما اعتدناه في التراجم التي وضعها له إشارة إلى أن الرجل كان ينافسه في بلاط المرابطين وأن الفتح لم يستطع أن ينال منه بقول أو فعل. فاكتفى بالتحسر على ما وصل إليه من مكانة ـــ كان يعتقد أنه أولى منه بها ـــ حيث يقول: [1] (... إلى أن رقاه الأمير إبراهيم بن يوسف بن تاشفين إلى أسمى ذروة، ورداه أبهى حظوة. فأدرك عنده مكانة أعلام التجدير والإنشا، وترك الدهر قلق الحشا، وتسنم مترلة لا يتسنمها إلا من تطهر من درنه، وجمع إحسانه في ميدان حزنه. والحظوظ أقسام والدنيا إنارة واعتام وصفاء يتلوه قتام...).

ففي هذه الفقرة من الترجمة إشارة إلى أن الأمير إبراهيم هو الذي رقاه إلى مرتبة أعلام التحبير والإنشاء. واستعماله لكلمة ـــ رقي ـــ لها دلالتها الخاصة هنا. لأنه يعتقد أنها مكانة لا يستحقها لأسباب متعددة منها ماضيه في خدمة أمراء الطوائف، ومنها أنه لم يبلغ المكانة الأدبية والفنية التي تؤهله ليشغل هذا المنصب. فالأمر إذن أمر حظ، بلغه هذه المكانة، والحظوظ أقسام لا تسام. وفي ختام الفقرة نبه الفتح إلى أن الحظوظ لا تظل على ابتسامها لأن منطلق الدنيا مخالف لذلك، وكأني به يتوعد أبا عامر بعد أن ابتسمت له الحياة وأشرق له السعد. والدليل على ما أشرنا إليه من موقفه منه. هو هذا التقديم الذي وضعه للمختارات التي اختارها له، ثم تعليقه على بعضها.

فأما التقديم فقد أشار فيه إلى أنه اختار له بعضا مما انتقاه مما يدل على أنه مارس غربلة دقيقة على آثاره، لم تترك بين يديه إلا نزرا قليلا لم يبلغ درجة أن يصبح من المختارات.

وأما التعليق على المختارات. فقد رأيناه يتدخل في إنتاج أبي عامر بنوع من النقد المقارن، فيربط بين مختارته الأولى وأبيات لأبي إسحاق الصابي تتناول نفس المعنى المتردد في أبيات أبي عامر[2]، وهذا أمر مستغرب في أسلوب الفتح في التعامل مع اختياراته، لأننا لم

[1]- المطمح 86.
[2]- المطمح 87.

نتعود فيما يختاره أن ينظر إليه بعين نقص. ولعله أراد أن يفضح سر جمال أبيات أبي عامر أو إنتاجه جملة ليبين أن الرجل يغرف من معارف الغير ويسطو على حسناتهم.

4) ومنهم أبو القاسم بن أبي طالب الحضرمي المنيشي[1]. الملقب (بعصا الأعمى التطلي) لقب بذلك لشدة اتصاله به. ترجم له غير واحد من أصحاب التراجم، واتفقوا على أنه كان شاعرا هجاء بذيئا يقع في الأعراض. وبهذا وصفه الفتح في المطمح، وأضاف إلى أنه كان بعيدا عن المشهورين لا يطرق باب أحد منهم، وإنما انصرف إلى أهون الأعمال وأخسها. كما ذكر أنه احتاط في مختاراته فلم يورد منها إلا ما يلائم غرضه. ولاشك أنه يقصد بالغرض الهدف الذي من أجله ألف الكتاب، وهو منافسة أهل المشرق بما وصل إليه أهل المغرب. ولهذا عرض في جملة ما عرض له وصفا لروضة، ولزرزور، ثم رثاء في والدة الفتح. ولعله قد اختاره في مطمحه لأجل هذه المرثية نظرا لما فطر عليه من حب النفس وما كان يسعى إليه من الاشتهار.

أما عن العلاقة التي قامت بينهما، فالمظنون أنها كانت علاقة معاصرة لا أكثر ولا أقل. وأن أبا القاسم ـــ الذي وصفه الفتح بأنه لم يطرق باب أحد من المشهورين، وأنه مارس أحقر الأعمال- قد انصرف إلى الفتح فرثى أمه لينتفع انتفاعا ماديا. بدليل أنك لا تجد في القصيدة إلا حزنا مفتعلا ومعاني سوقية. فهو لا يرجوا المشاركة العاطفية بقدر ما يرجو أن ينال العطاء وكفى. وهذا الإطار النفعي الذي يغلف اختياره الفتح هو الذي يجعلنا نرفض في بعض الأحيان إخلاصه للأهداف التي رسمها في مقدمة كتابه. ذلك لأننا لو قسما أهمية قصيدة المنيشي بالهدف الذي ألف من أجله الكتاب، لوجدناها تقع دون غيرها من قصائد الرثاء التي كان على الفتح أن يختارها لشعراء لم يذكرهم في مطمحه، وكانوا أحق به من غيرهم.

5) ومنهم أبو جعفر أحمد بن عبد الولي البتي اليعمري ترجم له الفتح في القلائد، وكرر نفس الترجمة في المطمح. وقد أشرنا في تعليقنا السابق إلى ما يمكن أن يكون بينهما من ترابط[2].

1- المطمح 88 بغية الملتمس 1557/ المطرب 110/ المغرب 219/1/ الرايات 23.

2- انظر الفصل السابق الخاص بعلاقاته من خلال القلائد.

6) ومنهم أبو الحسن علي بن أحمد بن فتح بن لبال[1] ورد في المطمح المطبوع باسم ابن اللسان وهو خطأ مطبعي في الغالب لأن الذين ترجموا له من غير الفتح، اتفقوا على أنه لبال وأنه كان من ذوي البيوت. وقد أشار الفتح إلى مكانته الأدبية كما ذكر أنه كان متصلا بالأعيان من الملوك والرؤساء، ثم خبا حاله وعطل سوقه، ولكن أدبه ظل متقدا بعيدا عن الانتقاد.

وفي المختارات التي اختارها له نلحظ أنه كان على اتصال بأصدقاء الفتح من الأمراء والقواد ومنهم أبو إسحاق إبراهيم بن يوسف، وأبو عمرو عثمان ابن يحيي بن إبراهيم قائد الثغر الأعلى. وتستوقفنا في هذه المختارات، القطعة الشعرية التي رثى بها أم الفتح وعزاه في فقدها[2] كما تستوقفنا أيضا القصيدة التي وجهها إلى القائد أبي عمر عثمان بن يحى بن إبراهيم[3].

فبالنسبة لقصيدة التعزية والرثاء فإن الذي يظهر من خلالها أن الفتح كان قد بلغ من الشأن ما جعله قبلة للشعراء وخاصة منهم من ساءت أحواله كابن لبال، والمنيشي السابق. فيستغلون مناسبة كهذه المناسبة ليتقربوا منه وينالوا من عطفه، خصوصا وقد اشتهر عنه أنه مؤلف كتاب قلائد العقيان الذي ذكر فيه محاسن الأعيان فلم لا يتقرب منه هؤلاء ليجعلهم في صف هؤلاء المحسنين إن أراد أن يضيف إلى كتابه شيئا أو أن يؤلف كتابا آخر في نفس الموضوع.

وعلى هذا الأساس لم يكن هناك رابط يجمع الفتح إلى ابن لبال إلا رغبة هذا الأخير والحاجة في ذلك.

أما بالنسبة للقصيدة التي وجهها إلى القائد أبي عمر يشكره فيها ويذكره، فإنها تؤيد نفس الفرض الذي افترضناه حول علاقته بالفتح. ذلك لأن التقديم الذي قدمت به يفيد أنه لم يكن له سابق اتصال أو معرفة به بدليل قوله[4]. (... فبينا نحن نفض ختامها وننفض عنها غبار الوحشة وقتامها إذا أنا بابن لبال هذا وقد نخل أذنه علينا، فأمرناه بالترول

[1]- المطمح 93/ التكملة 1874/ المطرب 97 و181/ الذيل والتكملة 169/5 / المغرب 303/1.
[2]- المطمح 94.
[3]- المطمح 95.
[4]- المطمح 95.

والتقيناه بترحيب...) فصورة الخبر تفيد أنه لم تكن هناك معرفة سابقة به إلا من باب ما هو مشهور عنه من الشعر. يؤكد هذا نص الجملة الخبرية (إذا أنا بابن لبال هذا) ونص الجملة الأخرى (فأمرناه بالنزول) فالجملة الأولى تفيد أنه لا يعرفه ولذلك نعته بهذا. والثانية تفيد نوعا من الاستعلاء الذي يفرض أنهما كان مقصودين من طرف من يطمع في الاتصال بهما لغاية من الغايات. ولو كان على اتصال سابق به لدعواه عوض أن يأمراه، إذ في الأمر استعلاء ومخاطبة من أعلى إلى أدنى.

كما تشير القصيدة إلى مكانة الفتح عند القائد من جهة ومكانته الأدبية والفنية من جهة أخرى، حيث تقول:[1].

قد زادها ابـــن عبيـــد الله مـــن وضـــح ما زادت الشـــمس نـــور الفجـــر للـــرائي

لله درك يـــــاذا الخطـــــتين لقـــــد خططـــت بالمـــدح فيـــه كـــل ديـــوان

كلاكمـــا البحـــر في جـــود وفي كـــرم أو الغمامـــــة فيهـــــا ري ضـــــمآن

إن كـــان فارســـا هيجـــاء ومعتـــرك فأنـــــت فـــارس أفهـــام وتبيـــان

فـــاذكر أبـــا نصـــر المعمـــود مترلـــة بالرفد ما شـــئت مـــن مـــثنى ووحـــدان

قصـــائدا لأخـــي ود وإن نزحـــت بـــك الركـــاب إلى أقصـــى خراســـان

فقد أشار إليه وقارن بينه وبين ممدوحه أبي عمر، فجعله فارس القلم كما جعل صاحبه فارس الميدان، وطلب منه أن لا ينساه ولا ينسى قصائده لأنه كريم كرم البحر أو الغمام.

2) ومنهم أبو بكر عبد المعطي بن محمد بن عبد المعين[2]. لم يعرض لترجمته أحد من أصحاب التراجم القدماء ولعله لم يكن له من الشأن ما يجعله مشهورا مذكورا. وقد ترجم له الفتح في آخر من ترجم لهم من شعراء المطمح ونقل عنه صاحب النفح الترجمة مع بعض الاختصار وقد كان ابن المعين كما يبدو من ثنايا ترجمته في المطمح ابن شخصية تحب

[1]- المطمح 95.

[2]- المطمح 96/ النفح 234/4.

الأدباء وتكرمهم، ونشأ ابنه عبد المعطي محبا للأدب متصلا برجاله، ومنهم ابن سراج وابن الأعلم وأبناء القبطورنة وابن خاقان وجماعة من المشهورين لم يذكر الفتح أسماؤهم.

وقد عرض صورا لاتصالاته بهم خلال المختارات التي اختارها له. على أن أهم ما عرض له فيها هو علاقته به، هذه العلاقة التي تتضح من خلال خبرين:

الأول منهما صدر به مختاراته يذكر أنهما اجتمعا في ليلة وكان ابن عبد المعين يومذاك قد تجاوز سن الشباب. وفي تلك الليلة مدح الفتح بأبيات أشار فيها إلى سبقه في ميداني المنظوم والمنثور وركز خاصة على فنه الكتابي، ثم مدحه بالكرم بعد ذلك في جملة ما مدحه به حين قال[1]:

أمـــام النثـــر والمنظـــوم فـــتح   جميـــع النـــاس ليـــل وهـــو صـــبح

لـــه قلـــم جليـــل لا يجـــاري   يقـــر بفضـــله ســـيف ورمـــح

يبـــاري المـــزن مـــا ســـحت سماحـــا   وإن شـــحت فلـــيس لديـــه شـــح

ويبدو أن ابن عبد المعين لم يكن من ذوي الرتب السياسية، وإنما كان أديبا يتعلق بأصحاب السلطان ويحاول أن يشتهر بهم، وكان له اتصال بالجيش[2]. (...وكان مرتسما في عسكر قرطبة).

والثاني منهما يعطي صورة عن ابن عبد المعين. وهي نفس الصورة التي أشرنا إليها سابقا في تعلقه بأصحاب السلطان حيث يروي أنه اجتمع به في ربض الرحال خارج قرطبة، وفيه لمة من الإخوان فأخذ ابن المعين يمتعهم بصنوف الآداب والملح. ثم ختم الخبر بإيراد قطعة له في مدح الفتح يقول فيها[3]:

أيا ابـــن عبيـــد الله يـــا ابـــن الأكـــارم   لقـــد نحلـــت يمنـــاك صـــوب الغمـــائم

لك القلم الأعلـــى الـــذي عطـــل القنـــا   وفـــل ظبـــاة المرهفـــات الصـــوارم

1- المطمح 96.

2- المطمح 96.

3- المطمح 97.

وأخلاقـــك الزهـــر الأزاهـــر بـــالربى تـــرف بشـــؤبوب الغيـــوث الســـواجم
بقيـــت لتشـــييد المكـــارم والعـــلا تظاهرهـــا بالســـالف المتقـــادم

ومن صورة هذا المدح تتبدى شخصية ابن عبد المعين متعلقة بالفتح، ترجو نواله، وتزكي رجاءها بما تذكره من مركزه الأدبي والسياسي وما تشير إليه من أخلاقه العالية، وما تدعو له به من التوفيق في مساعيه حتى يظاهر بأعماله الحالية ما سلف من أعماله وأعمال أجداده الخالية.

إن شخصية ابن عبد المعين تكاد تكون نموذجا مكررا للأدباء الذين اختارهم الفتح في مطمحه من الذين يتعلقون به، ويرضون بتعلقهم كبرياءه وتعاليه. والمعتقد أن اختيارهم في المطمح إنما تم على هذا الأساس ـــ كما سنبين في حينه ـــ.

علاقاته من خلال بعض رسائله:

أشار المؤرخون وأصحاب التراجم وهم يتحدثون عن أثاره إلى ترسيله باعتبار أنه كان أحد الكتاب المشهورين في العصر المرابطي، وأشاروا أيضا إلى أن هذا الترسيل قد دون، ولم يضيفوا شيئا إلى هذا. فلم ندر هل هو الذي قام بهذا التدوين أم قام به من جاء بعده من رواته أو من المعجبين بأسلوبه الفني وإذا كان هذا الترسيل قد دون فلاشك أنه قد جمع في مجموع خاص أشبه ما يكون بترسيل الفقيه لأبي عبد الله بن أبي الخصال. لكن هذا المجموع غير موجود بين أيدينا، وإنما الموجود الآن هو مجموعة من الرسائل حوتها بعض المصادر نستدل بها على بلاغته وطول باعه في المراسلات المختلفة. ومن هذه الرسائل تطل علينا بعض شخصيات العصر التي كان له بها اتصال، والتي ظهر اسمها عرضا، لأن أغلب الرسائل لا تحمل إشارة إلى أصحابها كما سنذكر ذلك في مكانه.

وتستوقفنا في هذه الرسائل ست منها تميزت بما ذكرناه من ارتباطها بمجموعة من الأسماء التي عاصرته وهذه الرسائل هي:

1) رسالة وجهها إلى الأمير أبي بكر بن علي بن يوسف[1].

[1]- نفح الطيب 678/1 و37/7.

2) رسالة وجهها إلى أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين[1].
3) رسالتان وجههما إلى أبي عبد الله بن أبي الخصال[2].
4) رسالة وجهها إلى أبي محمد عبد الله بن السيد البطليوسي[3].
5) رسالة وجهها إلى أبي الفضل عياض بن موسى بن عياض[4].

= أما الرسالة الأولى: فقد وجهها إلى الأمير أبي بكر بن علي بن يوسف بن تاشفين أكبر أبناء أمير المسلمين يهنئه فيها بولاية أمر إشبيلية خلفا لعمه تميم بن يوسف وذلك في بداية سنة ثمان عشرة وخمسمائة[5]. ويظهر أن هذه الرسالة هي شاهد على الفراغ الذي عرفته حياة الفتح وقتذاك. فبعد أن نكب صاحبه الأمير إبراهيم بن يوسف من طرف أخيه أمير المسلمين، بعد التقصير الذي ارتكبه في حق المسلمين في وقعة كتندة، والذي انتهى بهزيمة المرابطين وضياع سرقسطة من المسلمين[6] أخذ يبحث عن حام جديد يعيش في كنفه. والمعتقد أن النجاح لم يحالفه بسبب وجود أبي مروان بن زهر في حاشية أبي بكر، إذ كان مؤدبه، لأننا لم نجد أثرا لأبي بكر في حياة الفتح عقب هذه الرسالة، بل وجدنا تشكيا من الفتح إلى أمير المومنين من ابن زهر في فترة لاحقة بعد ذلك. ولاشك أن هذا التشكي كانت له جذور سابقة. وليس في رسالة الفتح ما يثير، وإنما هي رسالة تهنئة بسيطة تشتمل على تقديم يقوم على دعاء وتقرير، ثم إشارة إلى المميزات الشخصية التي يتحلى بها الأمير، وما تنتظره الأندلس من ولايته. ثم تختم الرسالة بالدعاء له بالنصر حتى يبلغ الغاية التي لم يبلغها غيره.

ولعل الرسالة كانت نوعا من جس النبض حاول بها الفتح أن يعرف نوع التقبل الذي يمكن أن يصادفه في نفس هذا الأمير وحاشيته. ولم نعثر على جواب مكتوب أو مروي عن هذه الرسالة. فهل تقبل منه هذا القربان الفني أم لا. لا ندري لذلك جوابا. ولعل الذي دفعه إلى يقبل على الأمير أبي بكر هو أنه كان أندلسي المنشأ والمربى، ففي

1- نفح الطيب 245/2.
2- مخطوط 488 لو 51 و52.
3- المخطوط 488 لو 50.
4- القلائد 258. وقد تناولنا الحديث عنها في فصل سابق.
5- البيان المغرب 67/4 و101 و106/ نفح الطيب 37/7.
6- معجم أصحاب الصدفي 40.

سلوكه وتفكيره نفَس من تفكير الأندلسيين وسلوكهم، لذلك تاقت نفس الفتح إليه ورغب في منافسة غيره فيه.

= وأما الرسالة الثانية: فهي موجهة من الفتح إلى أمير المسلمين علي بن يوسف. وقد تناولت في موضوعها شكوى صريحة من الفتح إلى أمير المسلمين بعد أن ناله من أذى أبي مروان عبد الملك بن زهر ما ناله. وقد تحامل فيها على أمير المسلمين وعلى من يتصرف باسمه تحاملا واضحا بدا معه وكأن الأمير ربما اتخذ في حقه قرارا خاصا. والمفروض أن تكون هذه الرسالة قد وجهت إلى الأمير أثناء زيارة للفتح إلى مراكش، ولا يستبعد أن تكون هذه الزيارة من صنف الزيارات التي خرج فيها الفتح يطلب الاستقرار والعمل في ظل المرابطين، حيث يُذكر أنه زار فاس ومراكش، وظهرت آثار هذه الزيارات واضحة المعالم في بعض أخباره في القلائد والمطمح.

= وأما الرسالتان الثالثة والرابعة[1]: فموضوعهما يكاد يكون متقاربا ذلك أن الفتح في الأولى يشيد بأبي عبد الله بن أبي الخصال، وبأميره ابن الحاج، ويذكر ما لقيت الآداب بسوقهما من نفاذ، وما عرفت العلوم في ظلهما من ازدهار، ويختم الرسالة بالحديث عن الكرم الذي لقيه من وزير اسمه أبو بكر، ويرجو من أبي عبد الله بن أبي الخصال أن يجازيه خيرا على ما قام به في حقه. فموضوع الرسالة هو شكر مزدوج بل متعدد الأطراف، يحمد فيه وجود الأمير ابن الحاج وكاتبه ابن أبي الخصال، ويذكر أفضال هؤلاء جميعا عليه، كما يشكر النعم التي أغدقها عليه الوزير أبو بكر، ويكلف ابن أبي الخصال بشكره على ما قام به في حقه.

وأما الرسالة الأخرى فهي شكر وامتنان موجه إلى أبي عبد الله ابن أبي الخصال أيضا على ما أولاه به من سابغ الكرم، هذا الكرم الذي انتهي بهدية حمدها الفتح حمده لحسن تقبل ابن أبي الخصال له، وطيب بشره وحسن استقباله، ثم أشار في نهايتها إلى تردده في قبول هذه الهدية أولا، ثم مجاراته لأبي عبد الله في هذا العمل ثانيا.

ويفرض علينا تناول الرسالتين مجموعة تساؤلات يرتبط بعضها بتاريخ هذه العلاقة، ويرتبط بعضها الآخر بأفقها ويتصل جانب ثالث منها بالارتباط القائم بين موضوع الرسالتين ومضمون ترجمة القلائد.

---

[1]- مخطوط 488 لو 51 و52 (الأسكوريال).

أما النقطة الأولى فلاشك أن تاريخ هذه العلاقة يعود إلى مرحلة متقدمة من حياة الفتح حين كان يطلب الشهرة ويسعى متلمسا مكانه في بلاط الأمراء والوزراء المشهورين، ومنهم ابن طاهر، وابن الجد، وابن القصيرة، وابن أبي الخصال. والدليل على هذا ما تفيده الرسالتان من ضعف شأن الفتح وهو يخاطب أبا عبد الله في الرسالتين معا. وهو أمر لم نعتده منه فيما نجده في قلائده ومطمحه من إدلال لا حد له بعبقريته، ومن تخير كامل للأخبار التي تتعلق به وبمواقف الغير منه حين لا يروي منها إلا ما يدخل في عموم الرفع من شأنه والتدليل على شهرته.

وبالنسبة للنقطة الثانية فلاشك أن أفق العلاقة القائمة بينهما من خلال الرسالتين يبدو متفاوتا. فابن أبي الخصال مشكور وشكر الفتح له لا يقف عند حدود شكر النعم التي أضفاها عليه بل ينطلق إلى تعداد الفضائل والمزايا والصفات[1]. (... ما أحق ــ أدام الله عزك ــ دولة أنت كوكب سمائها والمستقل بأعبائها أن تنتظم لواليها أشتات البلاد، وتشتمل عليه أهواء العباد، وتنفسح له متضيقات الآماد برأيك السديد، الذي إذا اقتدح أورى، وإذا سرى إلى صحبه صار حميد السري... لقد جمعتكما مشاكلة وألفت بينكما مماثلة أقامت للمعارف عندها سوقا، وأوضحت لأقاليمهما طريقا، فللآداب عندكما جولة، ودولتكما تزري بدولة سيف الدولة، لا جرم أنه بك أيده الله أظهر، وحظه من الذكاء بك أوفر...) حيث تبدو مكانة ابن أبي الخصال قريبة جدا من مكانة أميره، بينما يبدو الفتح ضئيل القدر صغير الشأن إذا قورن بصاحبه. وليس في هذا انتقاص من شأنه، وإنما هو تقرير لما هو موجود بالفعل. فشهرة أبي عبد الله يومذاك أوسع من شهرة الفتح وسنه أكبر من سنه، وتجربته في الاتصال بالمرابطين أوسع وأكبر. ومن هنا هذا الإقرار من طرف الفتح له.

أما النقطة الثالثة والمتعلقة بعلاقة هذه الصورة بترجمة ابن أبي الخصال في القلائد، فلاشك أن هناك بونا شاسعا بين المرحلتين فابن أبي الخصال في القلائد لم يعد ذلك الوزير المشهور والمذكور بل أصبح شخصا عاديا بعد وفاة صاحبه ابن الحاج، بينما أصبح الفتح شخصا مشهورا معروفا بمصاحبته للأمير إبراهيم بن يوسف. والدليل على ما ذكرنا أن الفتح غمز نسبه بما لا ينسجم والصورة التي أضفاها عليه في الرسالتين السابقتي الذكر.

---

[1]- المخطوط 488 لو 51.

وعلى العموم فالرسالتان توضحان المرحلة المبكرة لعلاقة الفتح بابن أبي الخصال وآفاق هذه العلاقة.

= وأما الرسالة الخامسة: فهي التي وجهها إلى أبي محمد عبد الله بن السيد البطليوسي يخبره فيه برحيله إليه، ويذكر شوقه إلى لقائه، وينهيها بما يفيد أنه بعث إليه بنسخة من القلائد ليراجعها قبل أن يتقدم بها إلى الأمير إبراهيم بن يوسف. ويبدو أن تاريخ هذه الرسالة يرجع إلى مرحلة ما قبل إجازة ابن السيد له، لأن الفتح يتحدث في رسالته عن تأليفه الذي سيراجعه أستاذه قبل أن يطمئن عليه الاطمئنان النهائي.

وفي الرسالة إشارة إلى شوق الفتح إلى زيارة أستاذه وذلك يدل على أنه قد كانت هناك زيارات سابقة لم تقنع الفتح، وهو يرجو من زيارته المقبلة أن تكون فصل الخطاب وخاتمة المطاف، يستريح فيها إلى شيخه وينهل من علمه ويستفيد من ضيافته ـــ على حد تعبيره ـــ ولعل هذه الزيارة هي التي أعقبتها إجازة ابن السيد له. فقد كان الفتح عازما على الاستقرار في ضيافته فكان أن أكرمه بإجازته على كتابه الانتصار والذي كان انتصارا لأبي محمد بن السيد علي أبي بكر بن العربي. وأكرمه أيضا باطلاعه على جل إنتاجه الشيء الذي كون مادة خاما لإنشاء كتاب خاص عن أبي محمد ـــ الذي كان رمزا لكتاب كبير كان الفتح ينوي تأليفه عن رجال الأندلس، وعلى كل فالرسائل السابقة إضافات إيجابية إلى آثار الفتح المفقودة، وهي في نفس الوقت شهادات أخرى على علاقات الفتح بعصره ورجاله.

ومن خلال ما تقدم يبدو أن الفتح كان رجلا من رجال العصر الذين عقدوا صداقات واسعة، وسعوا إلى تنميتها بأسلوب أو بآخر كما كان مشهورا شهرة تفرض عليه أن ينافَس وأن ينافس، وأن يتكون من هذا الصراع أعداء وأصدقاء، وأن تبلغ الصداقة حدا أن تمتدح أخلاقه وخصاله، وأن تبلغ العداوة حدا أن يطعن في سلوكه وأن يتناول بالألسنة بل أن تبلغ العداوة مرحلة الأضرار أو الاغتيال.

لقد استطاعت آثاره أن تقدم لنا الجانب الآخر من الصورة ومن الحقيقة التي تعامت عنها كتب التراجم، فأضحت بذلك مرافعة دافع بها عن نفسه وعن سلوكه دون وعي منه، وقدم لنا شهادات على حسن السلوك وعلى دماثة الأخلاق وكرم العشرة، شهادات

تتجاوز حدود الأحقاد لأنها صادرة عن أشخاص عاشروه وعرفوه وأطلعوا على أحواله فأدوا شهادتهم وهم يقدرون قيمتها.

لقد قدمت لنا هذه الآثار أيضا صورة عن طبيعة اتصالاته وآفاقها فاستنبطنا منها أنها كانت متنوعة تنوعا تفرضه العشرة وصورها والمعاصرة وطبيعتها.

ويمكن الحديث عن أنواع هذه الاتصالات من خلال التقسيم الآتي:

- الاتصالات العلمية الخالصة وهي التي عقدها مع طبقة من علماء العصر الذين تلقى عنهم الكثير من المعارف والذين أفصحت بعض التراجم والأخبار عن أسمائهم وعن ما تلقاه عنهم.
- الاتصالات العلمية الإخبارية: وهي التي ارتبطت بها رواياته عن جماعة من أعيان العصر من أخبار ضمنها مؤلفاته.
- الاتصالات الانتفاعية وهي التي جمعته بطائفة ممن انتفع بهم أو انتفعوا به سواء تعلق الأمر بالذين قصدهم في شأن من شؤونه أو تعلق بمن اتصلوا به في شأن من شؤونهم.
- اتصالات الصداقة وهي التي جمعته بطائفة من رجال السياسة والنفوذ وبجماعة من رجال العهد الطائفي، وبطبقه ممن عاشرهم أثناء فترة الطلب والدرس.

أما عن درجة هذه الاتصالات وأهميتها فلاشك أنه كانت تجمع الفتح إلى البعض علاقة خاصة تجعله يطمئن إليهم ويكاشفهم بأسراره وهمومه كالبطليوسي وعياض ورفيع الدولة ابن صمادح وأبي الحسن بن الحاج... وبعض الأمراء والقواد كالأمير إبراهيم بن يوسف بن تاشفين والقائد أبي عمرو عثمان بن يحيى بن إبراهيم. وكانت تربطه إلى البعض صداقات شكلية تحتم عليه أن يصانعهم وكانت بينه وبين بعضهم عداوة تبلغ حد الإذاية المتبادلة.

الفصل الرابع

نهايته:

تستوقف الباحث في نهاية الفتح مجموعة تساؤلات تثير غموضا حول هذه النهاية وسببها والمسؤول عنها. ذلك لأن المصادر التي ترجمت له، رغم أنها تناولت هذه النقطة. إلا أنها وقفت عند حدود قاصرة عن شفاء الغليل فيما يطرح من تساؤلات حول هذه النهاية. فلماذا قتل الفتح في مراكش مثلا. وهل كان أمير المسلمين علي بن يوسف مسؤولا عن هذه النهاية حقا. ولماذا هذه النهاية المعقدة والمشوهة، والمربوطة بحدث أخلاقي معين، ومن المستفيد من وفاته من رجال عصره، هذه بعض التساؤلات التي لم تستطع المصادر وأخبارها المجردة أن تعطينا جوابا شافيا عنها، مما يجعلنا نذهب إلى وضع مجموعة من الافتراضات حول هذه النهاية ونزكيها بما نملكه من الشواهد.

ولنبدأ أولا بما أوردته المصادر من أخبار حول هذه النهاية. فإن من يرجع إلى المصادر التي ترجمت للفتح وتعرضت لنهايته لن يجد مفرا من أن يقسمها مبتدأ إلى قسمين رئيسين: مصادر أصلية وأخرى ناقلة. وكل منها ينقسم بدوره إلى قسمين مصادر شرقية ومصادر مغربية.

● فأما المقصود بالمصادر الأصلية فهو ما سبق أن بيناه عند حديثنا عن مصادر ترجمته وأخباره، من أنها المصادر التي تفردت بنقل أخباره دون نسبتها إلى مصدر بعينه أو رواية خاصة، بمعنى أنها كانت أصلا فيما روته. إما لقربها من عصره، أو لتفردها بنقل أخبار خاصة عن مصادر مجهولة أو مفقودة.

● وأما المقصود بالمصادر الناقلة فهو ما اكتفت به بعض المصادر بما روته عن المصادر السابقة لها، بمعنى أنها لم تضف جديدا إلى ما هو معروف، إما لبعدها عن عصر الكاتب، أو لوقوف مصادر بينها وبين عصره أغنت عنها، فاكتفت بما وجدته في هذه المصادر.

– وتعتبر المصادر الأندلسية والمغربية أدق المصادر وأوثقها لقربها من عصر المؤلف من جهة، ومن مكان الأحداث من جهة ثانية، ومن محور الأحداث من جهة ثالثة.

– في حين أن المصادر الشرقية تقف في مجملها عند حدود ضيقة من الأخبار والمرويات. إما لشح المصادر هناك وإما لإهمال غير مقصود من المؤرخين.

فبالنسبة للمصادر المغربية الأندلسية. فتتفق كلها على أنه توفي بمراكش ذبحا في فندق لبيب. وقد أشار إلى هذا كل من ابن الأبار[1]. وابن دحية[2] وابن عبد الملك[3] وابن سعيد[4] وابن الخطيب والمقري[5] ثم تتجه هذه المصادر بعد ذلك إلى تفصيل صورة مقتله فيعمم ابن الأبار حين يقول (عبث فيه بأحد بيوت الفندق المذكور) ويفصل صاحب المغرب ــ وهو ينقل عن المسهب ــ حين يقول (فوجد في فندق بمراكش قد ذبحه عبد أسود خلا معه...وتركه) وفيما نقله النفح عن المغرب تفصيل أكثر، ربما يعود إلى أن نسخة صاحب النفح أكمل من النسخة التي بين أيدينا. حيث يقول عن هذه النهاية (... فوجد في فندق بحضرة مراكش قد ذبحه عبد أسود خلا معه بما اشتهر عنه وتركه مقتولا وفي دبره وتد)، ويذهب ابن عبد الملك إلى نفس ما ذهب إليه سابقوه حيث يقول (توفي بمراكش... ألفي في بيت بفندق لبيب مولى... اللمتوني أحد فنادق مراكش الخنوية، وقد ذبح وعبث فيه وما شعر به إلا بعد ثلاث من مقتله) وقد نقل ابن الخطيب ما رواه ابن عبد الملك بينما مال المقري إلى عرض ما ورد في الإحاطة والمغرب في نفحه، وصاغ في أزهار الرياض ترجمة جمع فيها ما تداول في المصادر السابقة. ونقل صاحب المطرب خبر مقتله عن الوزير ابن عميرة وتفرد بخبر نسبة مقتله إلى أمير المسلمين علي بن يوسف.

وبالنسبة للمصادر الشرقية فقد اكتفت بنقل خبر نهايته دون تفصيل يذكر ودون أن تأتي بجديد لأن جل ما ورد في ثناياها من أخبار نستطيع رده إلى أصوله المغربية الأندلسية دون عناء. فصاحب الخريدة مثلا لا يشير إلى نهايته وإنما يكتفي بالحديث عن أخلاقه وتصرفاته وينقل ذلك عن الجنان لابن الزبير ويقول[6]: (... إلا أنه كان يضع من نفسه بشدة تبدله وكثرة تنقله، وغضه من ذوي الرتب وإساءة الأدب على الأدب وتحليه من

1- معجم أصحاب الصدفي 313.

2- المطرب 25.

3- الذيل والتكملة 569/5.

4- المغرب 260/1.

5- الإحاطة 248/4/.

6- نفح الطيب 25/7.

الخلاعة بما تعزف عنه نفس كل ذي عقل رصين، واشتفافه في الدنايا إلى ما لا يرضاه أهل المروءة والدين....) فهو ينقل عن الجنان ـــ كما يصرح بذلك ـــ نوعا من الأخبار تتعلق بأخلاقه وسلوكه ليجعلنا نعتبر نهايته طبيعية حين نقرأ عنها أو تروى لنا في مصدر آخر. ولعله كان يعرف هذه النهاية ولكنه لم يعرض لها لسبب من الأسباب. أما ابن خلكان فيشير إلى نهايته وتاريخها وإن أخطأ في تاريخ هذه النهاية حيث يقول[1] توفي قتيلا سنة خمس وثلاثين وخمسمائة بمدينة مراكش في الفندق...) ويتجه بعد ذلك إلى النقل عن ابن دحية ليصور كيفية مقتله وليصحح تاريخ نهايته ومن كان وراءها ويداخله شك في خبر ابن دحية فينهي ما نقل عنه بقوله (والله أعلم بالصواب). أما ياقوت فيورد خبر النهاية دون تفصيل حيث يقول[2] (مات في حدود ثلاث وثلاثين وخمسمائة) ثم يصحح تاريخ النهاية فيقول (... وقال لي بعض المغاربة أنه توفي قبل هذا التاريخ) وهكذا يبدو أن ياقوتا لا يهتم بخبر نهايته ولا بتفاصيلها وإن كان ينقل عن أصول مغربية. أما ابن العماد فقد كان عالة على من سبقه من مؤرخي المشرق والمغرب فقد نقل عن ابن خلكان وياقوت حين قال[3]: (توفي قتيلا بمدينة مراكش في الفندق، قاله ابن خلكان، وقال غيره مات بمراكش قتيلا) كما عاد إلى النقل عن ابن دحية دون أن يشير إلى ذلك فقال: (... ذبح بمسكنه في فندق من فنادقها....).

أما بالنسبة للمراجع الحديثة فقد كانت عالة فيما روته على المصادر القديمة، يستوي في ذلك المشارقة والمغاربة والمستشرقون بل ذهب بعضهم إلى تحوير ما رواه عن المصادر القديمة. فذكر بلا نسيا في كتابه تاريخ الفكر الأندلسي[4] أنه توفي مخنوقا. وهو ما لم يشر إليه مصدر من المصادر. كما ذهب إلى تأويل إشارة ابن الخطيب حول سبب مقتله ولم يدعمها بحجة حين قال[5]: (وقد توفي ابن خاقان مخنوقا في فندق في أحد دروب مراكش في (22 محرم 529 موافق 13 نوفمبر 1134). ويذهب بعض الناس إلى أن علي بن يوسف

1- وفيات الأعيان 23/4.

2- معجم الأدباء 186/16.

3- شجرات الذهب 107/4.

4- تاريخ الفكر الأندلسي 296.

5- تاريخ الفكر الأندلسي 296.

بن تاشفين هو الذي أوعز بقتله، في حين ذهب الآخرون إلى أن نفرا من أهل حاشية علي بن يوسف هم الذين دبروا قتله لما آلمهم من نقده فبعثوا أحد غلمانه فقلته).

وبهذا وضع أمامنا فرضيتين حول سبب مقتله: إحداهما مشهورة مروية عمن سبقه من المؤرخين وهي التي تجعل دمه في رقبة علي بن يوسف[1] والثانية: غير واردة في الخبر، تجعل دمه في رقبة حاشية علي بن يوسف ممن كان الفتح ينافسهم أو ينتقدهم وهو أمر لم يشر إليه أحد، ولعله فهمه من الرسالة المأثورة عن الفتح في التشكي من ابن زهر.

وتستوقفنا فيما رويناه من أخبار حول نهاية الفتح، الأسئلة التي وضعناها سابقا حول هذه النهاية، وأسبابها، والمستفيد منها، ولم تمت في مكان معين وتاريخ معين، إلى غير ذلك من الأسئلة المختلفة المطروحة التي لم تستطع الأخبار مجردة أن تعطينا جوابا شافيا عنها، مما يضطرنا إلى الرجوع مرة أخرى إلى حياة الفتح وعلاقاته كما وضحتها المصادر من جهة، وكما وضحتها آثاره المختلفة من جهة أخرى. فنشير إلى أن المصادر تحدثت عن أخلاق الفتح، ووصفتها بما وصفتها من سوء وتفسخ وانحلال، وأظهرت من مظاهر الامتعاض منه ما ذهب ببعضها إلى القول[2]. (... ولم يكن مرضيا وحذفه أولى من إثباته...) وربما كانت هذه المصادر على حق فيما وصفته به. بل ربما كانت على حق في تشميتها بنهايته إذا استعرضنا أصحابها وما يمثلونه من اتجاهات فكرية. ذلك أن المتتبع لترجمة الفتح من خلال المترجمين له يجد أن جل الذين تناولوه بالذكر كانوا من طبقة الفقهاء أو رجال الحديث ممن يعرضون الشخصية المترجم لها لأصول التجريح والتعديل، حتى وإن لم يكن الموضوع داعيا إلى ذلك. ومثال هذا ما وصف به ابن الزبير في الجنان الفتح من خلال ما رواه صاحب الخريدة عنه. فبعد أن ذكر بلاغته في التأليف وذلاقة لسانه اتجه إلى الحديث عن أخلاقه فوصفها بما ذكرناه حيث قال: [3] (... وله تواليف تشهد له بدراية وتصانيف تدل على توسعه في الرواية إلا أنه كان يضع من نفسه بشدة تبدله، وكثرة تنقله، وغضه من ذوي الرتب وإساءة الأدب على الأدب، وتحليه من الخلاعة بما تعزف عنه نفس كل ذي عقل رصين، واشتفافه من الدنايا إلى ما لا يرضاه أهل المروءة والدين...) ويبدو أثر ثقافة المحدثين واضحا فيما انتقده ابن الزبير على الفتح. فمن المؤكد أن مما يقدح في عدالة راوي

---

[1]- الرواية منقولة عن المطرب وروجها بعدد ابن خلكان وابن الخطيب والمقري.

[2]- معجم أصحاب الصدفي 313.

[3]- الخريدة 610/2.

الحديث أن يضع من نفسه بالتبدل في الأسواق والمجالس والطرقات ومخاطبة الرعاع والأكل في أماكن العامة وكذا التنقل من مكان إلى مكان ومن مدينة إلى مدينة، فلا تراعي له حرمة ولا يحفظ له جاه، وأن لا يكون سليط اللسان بأن ينال من أصحاب الرتب والجاه، فيسقط في أعين الناس. لأن غضه من هؤلاء لا يمكن أن يجعله بديلا في أعينهم، بالإضافة إلى شرف الأخلاق التي لم يكن للفتح فيها حظ من وجهة نظر صاحب الترجمة، لأنه يتحلى من الخلاعة بما تعزف عنه كل نفس ويستشف من الدنايا إلى ما لا يرضاه أهل المرءوة والدين.

وهكذا يبدو تحامل ابن الزبير ومن نقل عنه تحاملا أبعده عن أن يكون صاحب عقل رصين يميز بين الخطأ والصواب أو أن يكون عالما وعارفا بما يرضى الله ويرضى عباده، الذين يميزون بين الحق والباطل على ضوء ما جاء من تعاليم الدين. وبهذا كان ابن الزبير يشكل امتدادا لأسلوب المحدثين في التعرض لنقد الرجال دون وعي منه بحقيقة الموضوع المناقش أو شخصية المترجم له.

ومال بعض أصحاب التراجم ــ وجلهم من مؤرخي الأندلس ــ إلى التعرض لشخصيته من زاوية تاريخية بحثه مع التأثر بأساليب المحدثين ورجال الرواية في تراجمهم، من الإشارة إلى الاسم واللقب وذكر الشيوخ الذين روى عنهم والمادة المروية والإجازات التي حصل عليها من هذا أو ذاك، ثم الإشارة إلى صورة من آثاره إن أمكن والتعرض إلى نهايته باختصار تارة وبتطويل أخرى إن احتاج الأمر إلى تطويل.

والمعتقد أن هذا الأسلوب التاريخي هو الذي دفعهم إلى استقصاء أخباره ورواية بعض نكث حياته، وخاصة تلك التي تلبي رغبتهم في النيل منه متأثرين في ذلك بمحيطهم الفكري من جهة، ومناخ فكرهم من جهة أخرى. ولهذا نزعم أن المترجمين الذين ترجموا له كانوا يربطون عمدا بين نهايته وتفسخ أخلاقه، ويوردون من أخباره ما يشهد على ذلك، من مثل ما نقله صاحب الذيل والتكملة حول الحد الذي أقامه عليه القاضي عياض[1]. ومن مثل ما نقل عن سلاطة لسانه في الخبر الذي رواه ياقوت[2] حول طريقته في جمع المعلومات الخاصة بكتابة القلائد حيث كان يراسل (ملوك الأندلس ووزراءها وأعيانها من أهل الشعر والبلاغة يعرفه عزمه ويسأله إنفاذ شيء من شعره ونظمه ونثره ليذكره في كتابه وكانوا

[1]- الذيل والتكملة 569/5.

[2]- معجم الأدباء 186/16.

يعرفون شره وثلبه فكانوا يخافونه وينفدون إليه ذلك...) وحين تعرض ابن باجة لخطته ناله من شره ما ناله فقال عنه (أبو بكر بن الصائغ هو رمد جفن الدين وكمد نفوس المهتدين...).

ومن السهل الطعن في الخبرين السابقي الذكر، لا من جهة صحتهما بل من جهة الاستشهاد بهما على صحة ما ذهب إليه أصحاب التراجم. ذلك لأن الخبر الأول المتعلق بجلده اعتبره كثير من الفقهاء من نكث القاضي عياض التي تجاوز فيها حد الشرع حين أخذ الفتح بجريرة لم يشاهده وهو يرتكبها، مع أن هناك نصوصا من الحديث تدعو إلى عدم الإلحاح في العقاب من مثل قوله صلى الله عليه وسلم ادرأوا الحدود بالشبهات، وقوله صلى الله عليه وسلم أقيلوا ذوي العثرات عثراتهم. وإلا فلماذا أرسل القاضي عياض بدراهمه وعمامته إلى الفتح أهو استرضاء منه له واعتذار. أم هو اعتراف منه وإقرار بتجاوزه حدود الحق معه.

أما الخبر الثاني فإن من يرجع إلى مؤلفات الفتح يجد صورة مخالفة لما أورده ياقوت من هذه العلاقات الوطيدة التي كانت تجمعه بكثير من هؤلاء الذين ترجم لهم، والذين كانوا ينظرون إليه نظرة إكبار وإجلال ويعتبرون وجوده إلى جانبهم تتميما للسرور[1].

إن السؤال المطروح بعد هذه المقدمات وهذه الأخبار هو هل كان الفتح سيء الأخلاق حقا إلى الدرجة التي اشتهر بها من خلال التراجم.

لقد وضعنا سابقا علامات استفهام حول أصحاب هذه التراجم وأشرنا إلى نوع الثقافة التي كانوا يمثلونها، والمناخ الفكري الذي كانوا يعيشون تحت رحمته، وتحرزنا من تصديق تلك الأخبار تصديقا كاملا باعتبار أن أصحابها لم يعيشوا عصر الفتح ووقعوا في الفخ الذي نصبه منافسوه له ولمن يتصل به وبذكره.

لا يجوز أن تكون أخبارهم ونقولاتهم صحيحة صحة كلية، لأننا نعتقد أنها لم تنقل الصورة كاملة. فالرجل الذي كانت له علاقات طيبة بالعلماء والفقهاء والزهاد والأمراء والوزراء لا يجوز أن يكون شرا كاملا. فالصورة التي وضعت له من لدن مترجميه كانت صورة نصفية يظهر فيها النصف الشرير من وجهه، وهو الذي يتبدى من خلال ما يروى

1- انظر الفصل السابق الخاص بعلاقاته برجال عصره من خلال آثاره.

عنه، وما يفهم من خلال بعض مواقفه من معاصريه ــ كموقفه من ابن باجة مثلا الذي كان موقفا فرضته ظروف المنافسة والمعاصرة والثقافة والاتصالات التي قامت بينهما وبين رجال الحكم من الأمراء المرابطين.

ولست أدري لم لم تعط نفس الهالة لعلاقات ابن باجة مع ابن السيد البطليوسي وقد بلغت من التوتر حدا أن أشتكي ابن السيد منها إلى عدد من أصدقائه[1] من أمثال أبي محمد بن الأوراشي، وأبي محمد بن سفيان وأبي عامر بن الكناس. ولم لم تعط نفس الهالة لعلاقة ابن باجة ابن زهر (أبي مروان عبد الملك) مع أنه كان بينهما ما يستوجب ذكر هذه العلاقة والتعليق عليها حيث يروي لنا النفح مثلا خبرا عن سخرية ابن باجة من طب ابن زهر في بيتين شعريين يقول فيهما[2]:

يا ملك الموت وابن زهر تجاوزتما الحد والنهاية
ترفقا بالورى قليلا في واحد منكما الكافية

إن علاقة الفتح بابن باجة كانت كعلاقة غيره به، لأن ابن باجة لم يكن أهلا لأن يسالم أو يعاشر، إذ كان سليط اللسان، متوثب الجنان، ولا أدل على ذلك من موقفه من ابن زهر السابق الذكر، وموقفه من الفتح حسب ما رواه ابن الخطيب في الإحاطة[3]. (من تكذيبه إياه في مجلس أقرائه، إذ جعل يكثر ذكر ما وصله به أمراء الأندلس ووصف حليا، وكانت تبدو من أنفه فضله خضراء اللون ــ زعموا ــ فقال له فمن تلك الجواهر أذن الزمردة التي على شاربك...) فكان ابن باجة أسبق في النيل من الفتح ومعاكسته.

ولو تجاوزنا خبر ابن الخطيب فسنكون مضطرين إلى افتراض أن ابن باجة كان يخاف منافسة الفتح في بلاط ابن تيفلويت صاحب المرية وأنه كان يكيد له عند الأمراء المرابطين من أسرة ولي نعمته فانتقم الفتح لنفسه منه. فرد ابن باجة فيما بعد على تهم الفتح بتدابير مختلفة خلال وجوده في البلاط المرابطي في مراكش. فكانت الحرب بينهما على هذا مستمرة يذكيها التنافس ويؤججها إعجاب كل واحد منهما بنفسه وإدلاله بعبقريته.

1- انظر اللوحة 37 وما بعدها من المخطوط 478.

2- نفح الطيب 434/3.

3- الإحاطة 248/4.

أما الخبر المتعلق بما روي عن إقامة الحد عليه من القاضي عياض، فقد استغل استغلالا مغرضا فيما نرى. ذلك أن من يقرأ الخبر كما رواه ابن عبد الملك بنوع من التمعن يدرك ولاشك صدق ما رأيناه. إذ من غير المعقول أن يغشى الفتح مجلس القاضي وهو في حالة سكر. وحتى إذا حدث فإن الخبر لا يفيد أن الفتح كان سكرانا. وإنما يذكر أن أحد الحضور تنسم منه رائحة الخمر فاعلم القاضي بذلك، ولا ندري من تنسم هذه الرائحة، لأن الخبر يسكت عن هذا ـــ كما لا ندري المجلس الذي ضمهم ونوعه، ونوع الحضور الذين كانوا يشكلونه، ولعل أحد أعدائه هو الذي كان يقف وراء هذا التصرف ممن كان يريد أن ينال منه ومن صداقته للقاضي، ولربما كان من أعداء القاضي أيضا وأراد أن يمتحن موقفه. فاستجاب القاضي للتحدي وجلد الفتح ثم شعر بالندم بعد ذلك على تسرعه فبعث إليه بثمانية دنانير وعمامة. و لم تكن العادة جارية بأن يبعث القاضي لكل من يحده بما بعث به إلى الفتح. ولكنه أراد فقط أن يفهمه بأنه كان مضطرا إلى ذلك أو يرمز إلى تقديره له بهديته الرمزية. والدليل على هذا ما أثاره الموضوع من نقاش بسطه صاحب أزهار الرياض[1] وأشار إليه صاحب المعيار ونقله ابن زاكور في شرحه على القلائد[2] وبسطه أيضا القاضي النباهي[3]. فقد أشار صاحب المعيار إلى صور من العفو عن شارب الخمر حين قال[4]: (... وهذا يعني العفو عن شارب الخمر عكس ما اتفق للقاضي الفاضل أبي الفضل عياض رحمه الله، وهي من نوادره التي اضطره الشرع إليها إقامة الحد على الفتح ابن خاقان...)

إن أخلاق الفتح لم تكن مستهجنة بالصورة التي صورت بها كما أنه لم يكن مستقيما استقامة مثالية. فقد كان رجل العصر بما يحمله هذا العصر من سوء وفجور، وما يحتويه من صلاح وتقوى، فالرجل الذي كان يغشى مجالس الأمراء والنبهاء والقواد، فيجالسهم وينادمهم، ويشرب معهم الخمر إن شربوها، ويفجر معهم أن فعلوا، هذا الرجل الإمعة هو نفسه الذي يغشى مجالس العلم ويتلهف على لقاء الفقهاء والأدباء. ويكفي أن يكون من شيوخه أبو علي الصدفي وأبو بكر بن العربي... ممن اشتهر من رجال الأندلس بعلمه وفضله

[1]- أزهار الرياض 91/5 وما بعدها.
[2]- فرائض البيان ص 103 الهامش مخطوط الخزانة العامة رقم 1024.
[3]- المراقبة العليا 61 و63.
[4]- أزهار الرياض 91/5.

وأن يروي عن جماعة من أعيان العصر من الشعراء والكتاب واللغويين ممن وردت أسماؤهم في آثاره أو لم ترد. ويكفي أن نعلم أنه عاش في اشبيلية وزار قرطبة وبلنسية والمرية ومرسية وسرقسطة وبطليوس وغرناطة والجزيرة الخضراء وسبتة وفاس ومراكش وتعرف خلال تجواله على عدد كبير من رجال الفكر والفقه والأدب، فساجل من ساجل، وأخذ عمن أخذ وأعطى لمن أعطى- وكتبه خير شاهد على ذلك- فاعترف له الجميع بالنبوغ وشهد له العدو الصديق بالبروز والظهور في فن النثر وفي الإحاطة بالمعارف والعلوم. هذا الرجل هو نفسه الذي يخاف ألا يحصر صلاة الجمعة في أبهى حلة، فيرسل إلى صديقه القاضي عياض في شأن غفارة أخذها القاضي منه ليعمل على إصلاحها بعد أن لحقها عطب بصحبته[1]. هو الرجل الكريم الذي يبلغ به الكرم حد التهور فيوزع ما يحصل عليه من الهدايا والأموال دون أن يحتاط لمستقبل حياته حتى دفع الأمر بصديقه ابن طاهر إلى تعنيفه على ذلك[2]، هو الرجل الذي قسا عليه الدهر وعاكسته الأيام فظل طريدا شريدا رحالة ينتقل من مدينة إلى أخرى، ومن أمير إلى وزير ومنه إلى قاض ومن العدوة الأندلسية إلى المغربية يبحث عن الاستقرار وعن ما يرضي طموحه وعبقريته. هو الرجل الرحيم بأمه التي كان يحبها والذي خلد ذكرها في آثاره بما نثره من تعازي الشعراء له فيها، ولاشك أنه رثاها أو نعاها إلى أحد أصدقائه و لم يصلنا ذلك عنه.

هذه أبعاد الجانب الثاني من الصورة الذي أهمله المؤرخون بل رفضوا روايته وفي الإشارة إليه أنصاف لصاحبه وللعدل.

لقد كان عيب الفتح الأساسي أنه لم ينشئ لنفسه حياة اجتماعية مستقرة تبعد عنه الشبهة ومظنة السوء، وتصرفه عن حياة التنقل والترحال والركض وراء المناصب والأمراء والأعيان، وتجعله كغيره من أدباء العصر وعلمائه، قبلة لمن يقصده ويريد أن يستفيد من أخباره وآدابه وذكائه وأسلوبه. ولكن هذا العيب يدوب وتزول أهميته حين نربطه إلى عصره، وهو عصر لم يعرف الاستقرار الذي يجعل المرء ينشده ويطمئن إليه، فقد كان العصر عصر حروب مستمرة بين المرابطين وأعداء الإسلام من الصليبيين. وكان عصر صراع بين مفهوم الدولة كما عاشه الأندلسيون ومفهومها كما تصوره المرابطون وطبقوه،

1- القلائد 258.

2- القلائد 76.

وكان عصر صراع بين القيم الاجتماعية والفكرية التي عاش عليها الأندلسيون خلال عصر الطوائف، والقيم البديلة التي فرضها المرابطون، والتي تقوم على تطبيق المبادئ الإسلامية تطبيقا حرفيا لا مرونة فيه، وعصر ظهور سلطان الفقهاء مهيمنا على كل محاولة لتطوير الفكر أو تحويره حتى لقد خشي ابن باجة أن يؤخذ بفلسفته ــ وقد أخذ بها فيما نظن من لدن الأمير إبراهيم بن يوسف ــ واضطر ابن السيد إلى تبني منهج تلفيقي في كتابه الفلسفي (الحدائق في المطالب الفلسفية العالية)، يربط فيه بين الدين والفلسفة حتى لا يتعرض لغضب أصحاب الفكر المقلد، وعاقب ابن العربي خلال فترة قضائه زامرا بثقب أشداقه، وجلد القاضي عياض أحد الوزراء (الفتح). إن هذا الصراع الذي عاش الفتح في دوامته هو الذي جعله لا يبحث عن الاستقرار ولا ينشده، لأنه لم يكن موجودا.

ولما تعود حياة الرحلة وجد الاستقرار في الترحال والتجوال فرحل ما شاء له، ثم استقر به المقام في مراكش يبحث لنفسه عن هذا الاستقرار وقد تقدمت به السن وأصبح يفكر جديا في بناء حياة جديدة. وفي مراكش حدث ما سنذكره.

1) في مراكش وجد الأوضاع السياسية متردية، نتيجة ظهور المهدي بن تومرت، وانشغال الدولة بمحاربته وما منيت به من هزائم في حربه على الصعيدين الفكري والعلمي[1].

2) في مراكش وجد الأوضاع الاجتماعية متفسخة وقد شهد على صحة ذلك المؤرخون، وهم يتحدثون عن أسباب انهيار الدولة المرابطية واستبداد النساء بالحكم، واشتمال الدولة على كل ضعيف الرأي محرض على الفسق[2].

3) في مراكش وجد طائفة من الوزراء الأندلسيين الذين كانوا ينافسونه مكانته في الأندلس وجاء إلى مراكش لينافسهم وعلى رأس هؤلاء أبو مروان عبد الملك بن زهر، وابن باجة، وابن عبد الغفور، ووجودهم هناك كان له أكثر من دلالة، فقد سبق أن تناول ابن باجة في كتابه القلائد بكل شر وسوء ــ وإن اعتذر عن ذلك كما روى المقري نقلا عن المطمح[3]. وكذا فعل مع ابن عبد الغفور الذي عاب أسلوبه الكتابي ونسبه إلى تقعر، كما وصف نفسيته بكل شر. وكان له مع ابن زهر موقف خاص خلال اتصاله بالأمير أبي بكر

1- المعجب 184 و192 والحلل 111.

2- المعجب 177.

3- النفح 24/7.

بن علي بن يوسف، حين وفد عليه يهنئه بولاية إشبيلية[1]. وبدا أثر هذا الموقف بعد ذلك فيما مارسه عليه ابن زهر في مراكش من مضايقة دفعته به إلى أن يشكوه إلى أمير المسلمين في الرسالة التي يقول فيها[2].

(أطال الله تعالى بقاء الأمير الأجل سامعا للنداء، دافعا للتطاول والاعتداء. لم ينظم الله تعالى بلبتك الملك عقدا، وجعل لك حلا للأمور وعقدا. وأوطأ لك عقبا، وأصار من الناس لعونك منتظرا ومرتقبا. إلا أن تكون للبرية حائطا، وللعدل فيهم باسطا، حتى لا يكون فيهم من يضام، ولا ينال أحدهم اهتضام. ولتقصر يد كل معتد في الظلام. وهذا ابن زهر الذي أجررته رسنا وأوضحت له إلى الاستطالة سننا، لم يتعد من الأضرار إلا حيث انتهيته، ولا تمادي على غيه إلا حيث لم تنهه أو نهيته. ولما علم أنك لا تنكر عليه نكرا، ولا تغير له متى ما مكر في عياد الله مكرا. جرى في ميدان الأذية ملء عنانة، وسرى إلى ما شاء بعدوانه و لم يراقب الذي خلقه، وأمد في الحظوة عندك طلقه وأنت بذلك مرتهن عند الله تعالى لأنه مكنك ليلا يتمكن الجور ولتسكن بك الفلاة والغور. فكيف أرسلت زمامه حتى جرى من الباطل في كل طريق، واخفق به كل طريق. وقد علمت أن خالقك الباطش الغيور يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وما تخفي عليه نجواك ولا يستتر عنه تقلبك ومثواك، وستقف بين يدي عدل حاكم، يأخذ بيد كل مظلوم من ظالم. قد علم كل قضية قضاها، ولا يغادر كبيرة ولا صغيرة إلا أحصاها، فبم تحتج معي لديه إذا وقفت أنا وأنت بين يديه، أترى ابن زهر ينجيك في ذلك المقام، أو يحميك من الانتقام. وقد أوضحت لك الحجة، لتقوم عليك الحجة، والله سبحانه النصير وهو بكل خلق بصير لا رب غيره والسلام).

حيث يدل مضمون الرسالة على أن الفتح استقر بمراكش في كنف المرابطين حيث جعلوه في كتابتهم التي كان يرأسها ابن زهر. فضيق عليه وأذاقه ما لا طاقة له بالصبر عليه. فشكا إلى ولي أمره كما يدل مضمون الرسالة على ذلك. ويبدو أن ابن زهر قد بلغ خطوة كبيرة في ظل المرابطين أشار إليها المؤرخون والمترجمون. وقد استغل هذه الحظوة لينال ممن تنسم فيه رائحة المنافسة. وكان الفتح أول من يشكل خطرا على هذه المكانة التي يحتلها

[1]-- البيان المغرب 67/4 و101 و106/ النفح 37/7.

[2]- النفح 245/2.

لقربه من خدمة المرابطين وسابقته في ذلك[1]، ولاشتهار قلمه بين الأقلام سواء في مجال المراسلات أو في مجال التأليف. فأخذ يكيد له في الخفاء وقد شعر الفتح بذلك وأشار إليه في الرسالة حين قال: (... ولتقصر يد كل معتد في الظلام...)

كما يدل مضمون الرسالة أن هذا الإضرار بلغ حدا أن جعل الفتح يتجاوز حدود الأدب واللياقة وهو يخاطب أمير المسلمين حيث يتهمه بالتآمر مع أبي مروان وابن زهر تارة وينفي عنه ذلك تارة أخرى، ثم يحمله مسؤولية ما يجري من ظلم وما يمارس من جور باسمه، وينبهه إلى المصير الذي ينتظر الظالم حين يقف أمام الله يوم الحشر ليقتص منه للمظلوم، ومثل هذا التهديد الصريح لا ينبغي أن يصدر من كاتب في حق أمير المسلمين وهو لم يتأكد بعد من مساعدة الأمير على هذا الظلم الذي يمارس عليه، إلا أن يكون هذا الإضرار قد بلغ حدا لا يحتمل السكوت. وعلى كل فإن هذا الجو المشحون بالدسائس والاضطراب والكراهية الذي وجده الفتح في مراكش. كان عاملا من عوامل انتفاء الاستقرار في حياته مرة أخرى، بل كان عاملا من عوامل النهاية التي انتهى إليها. وصورة ذلك أن هذه الجماعة التي كانت تعيش إلى جانب أمير المسلمين من الكتاب الأندلسيين، قد شعرت بخطورة وجوده إلى جانبها، وكانت بينه وبين هذه الجماعة سابقة خصومة وتنافس كان من نتائجها إن دخل ابن باجة إلى السجن في عهد الأمير إبراهيم. فليس من المستبعد أن يكون ابن باجة قد حاول الانتقام، وصادف ذلك هوى من نفس ابن زهر الذي شكاه الفتح إلى أمير المسلمين في الرسالة السابقة فتم تنفيذ المؤامرة على الصورة التي روتها المصادر وبهذا لا يكون للأمير علي بن يوسف يد في مقتل الفتح[2] لأن التفصيل الذي عرضه صاحب المغرب لأمر قتله يتنافى مع ما هو مشهور عن أمير المسلمين من إيمانه بالأخلاق واعتماده على أصول الإسلام ولجملة أسباب خارجية منها امتناعه عن إيقاع عقوبة الموت بالنصارى الذين تآمروا مع ملك أرغونه في شان غزو بلاد الإسلام[3] ومنها امتناعه عن إيقاع عقوبة الموت في حق المهدي بن تومرت بعد أن ألح عليه مالك بن وهيب قاضي مدينة مراكش حين لمس خطر دعوته[4] ومنها أن الأخبار لا تذكر أن الفتح أخذ

1- كان في بلاط الأمير إبراهيم، ثم أصبح مربيا ووزيرا للأمير أبي بكر بن علي.

2- كما روى ابن دحية ونقله عنه غيره.

3- البيان المغرب /72/ الحلل الموشية: 90.

4- الأنيس المطرب 174 المعجب 185.

وهو بمراكش بجريرة أو بعمل مناف للإسلام أو للأخلاق. فلماذا يقدم الأمير على اغتياله. وحتى لو أراد قتله لتوسل إلى ذلك بالطرق الشرعية فأسند الأمر إلى القاضي الذي يتكفل بمحاكمته محاكمة علنية كما حدث في أمر حده من طرف القاضي عياض.

إن الذي ينتهي إليه البحث في مثل هذا الأمر هو أن هناك يدا خفية قامت بهذا الأمر وقد أشرنا بأصبع الاتهام إليها وقد كان تدبيرها لطريقة مقتله تدبيرا محكما يصرف الانتباه عن استقصاء البحث في شأنها. فقد تمت الجريمة في مكان مشبوه هو[1] (فندق لبيب... اللمتوني). (أحد فنادق مراكش الخنوية)[2]. وبأسلوب بشع حيث عبث بجثته، أو وجد وفي دبره وتد[3] ومثل هذا الأسلوب يصرف الناس إلى التفكير في ارتباط الحدث بعناصر أخلاقية خصوصا إذا زكي ذلك بجملة مشبوهة تشير إلى أنه[4] (خلا مع عبد أسود، بما اشتهر عنه... فتركه مقتولا....).

ولو عدنا إلى الإجابة عن الأسئلة التي طرحت في بداية هذا الفصل لوجدنا أن من السهل الإجابة عنها إجابات تبرئ أمير المسلمين من ذم الفتح وتشير إلى الجماعة التي كانت تحيط به والتي اعتادت الانتقام من خصومها بأساليب ملتوية وغادرة تتبرأ منها الدولة المرابطية. وتشير إلى التنافس الذي أدى إلى هذه النهاية المحزنة بأحد رجال العصر وكتابه. كما تشير إلى استغلال هذه الجماعة لظروف المرابطين الصعبة في مواجهتهم العسكرية والسياسية، مما قد يصرفهم عن البحث في الأمر والضرب على يد مرتكبيه.

---

[1]- معجم أصحاب الصدفي 313/ المطرب 180.

[2]- الذيل والتكملة 529/5.

[3]- نفح الطيب نقلا عن المغرب 29/7.

[4]- المغرب 258/1.

الباب الثاني

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

الفصل الأول

أثاره:

يستوقف الباحث في أثار الفتح ما استوقفه سابقا وهو يتناول ما كان متعلقا بترجمته وجزئياتها. بحيث لم نجد إجماعا حول ما تعلق بتلك الترجمة، كما لا نجد الآن إجماعا حول آثاره، وعددها، وأسمائها، وتواريخ تأليفها، وربما قد يعود الأمر إلى الحصار الاجتماعي والسياسي الذي فرض على الفتح من طرف الأعداء الذين كانوا يتربصون بسلوكه الدوائر، والذين دبروا مقتله أيضا. وربما كان لهذا الحصار آثاره السلبية أيضا على أخباره جملة، وعلى ما عرف من أخباره خاصة. ولست مع من قد يعتقد أن اضطراب الأخبار عن أثاره يعود إلى انعدام الاستقرار في حياته، لأن هذا العامل تتلاشى أهميته حيث يتعلق الأمر بالقلائد أو المطمح من مؤلفاته التي سلمت من الضياع، ووصلت على وجه من الأوجه التي سنتناولها. وعلى كل فان من يرجع إلى تراجمه يجد التضارب بين أخبارها واضحا، وخاصة فيما نحن بصدده من الأخبار المتعلقة بمؤلفاته.

1) فابن الأبار أشار في (معجم أصحاب الصدفي) من مؤلفاته إلى القلائد والمطمح وراية المحاسن وغاية المحاسن، وإلى مجموع في ترسيله حين قال[1]:

(... ومن تآليفه كتاب مطمح الأنفس ومسرح التأنس، وكتاب قلائد العقيان في محاسن الأعيان وراية المحاسن وغاية المحاسن، وله مجموع من رسائله...).

وهكذا ذكر ابن الآبار أربعة مؤلفات، ولم يعتن في ذكرها بترتيبها حسب أهميتها، أو حسب تاريخ تأليفها أو جمعها، بل لعله لم يضع أمامه أي اعتبار في ترتيبها عند ذكرها إلا ما سبق إلى ذهنه منها. وإلا فإن كان قد قصد بترتيبه شيئا، فإنه لم يفصح عنه، وكل افتراض يفترض في هذا الموضوع لن يعدو جانب الظن، ولن يرقى إلى اليقين بأي حال من الأحوال.

2) أما صاحب المطرب فقد وضع في ترجمته المختصرة خبرا عاما حول مؤلفاته حين قال[2]: (... لقيت جماعة من أصحابه وحدثوني بتصانيفه وعجائبه...). فاكتفى بالإشارة إلى مؤلفاته دون أن يذكرها أو يذكر بعضها رغم أنه أشار إلى أهميتها وجودها.

---

[1]- معجم أصحاب الصدفي 313.

[2]- المطرب 25.

3) بينما روى له صاحب الخريدة، في الترجمة التي وضعها له[1]، مجموعة من رسائله، ولكنه لم يشر إلى مؤلفاته، وأن خص جزءا عاما من قسمه الرابع- الخاص بشعراء الأندلس ــ لشعراء القلائد. حيث تتبع تراجم القلائد وأحدة تلو الأخرى مع بعض الاستثناءات. ولعل السبب الذي دفع بصاحب الخريدة إلى أغفال مؤلفاته أن موضوع كتابه مخلص للشعراء وآثارهم، و لم يكن من منهجه أن يذكر ما خلفه المترجم لهم من مؤلفات.

4) و لم يكن حال ابن سعيد صاحب المغرب بأقل من حال صاحب الخريدة في أغفال موضوع مؤلفاته، مع أنه ينقل عن القلائد الشيء الكثير. وقد ذكر عرضا في نهاية ترجمته له صورة من مؤلفاته فقال[2]: (... وما ورد ويرد في أثناء كتاب المغرب من نثره في القلائد عنوان بلاغته). وهكذا فهو لا يذكر شيئا عن مؤلفاته الأخرى.

ويبدو أن ما هو موجود في المغرب المطبوع والمحقق عن الفتح وأخباره هو غير ما كان موجودا في المغرب الأصلي بدليل أننا نجد المقري في النفح يورد ترجمة مختلفة عن تلك التي وردت في المغرب المطبوع وينسبها إلى أصلها في المغرب، ثم يشير إلى اختصاره لها. وفي هذه الترجمة المخلصة يذكر القلائد والمطمح حين يقول[3]: (فخر أدباء إشبيلية بل الأندلس... صاحب القلائد والمطمح...) ومن هنا يبدو أن ابن سعيد ومن نقل عنهم في كتابه، لم يشيروا إلى المؤلفات الأخرى التي ذكرها ابن الأبار مثلا، بل لم يشر إلى ترسلاته، مع أن الفتح كان كاتبا ومؤلفا وشاعرا.

5) أما ابن عبد الملك فقد أشار إلى مؤلفاته حين ترجم له فقال[4]: (... وله مصنفات منها قلائد العقيان، ومطمح الأنفس، وحديقته المآثر وترسيله مدون...) ويبدو من خبر ابن عبد الملك أن للفتح مؤلفات كثيرة اختار منها على حد قوله ما ذكره له (وله مصنفات منها...) كما يفيدنا الخبر ذكر تأليف جديد لم نسمع به في التراجم السابقة الذكر وهو حديقة المآثر الذي لم يذكره ابن الأبار رغم ما عرف به من تدقيق في الروايات والأخبار، و لم يشر إليه ابن دحية، ولا العماد الأصفهاني، ولا ابن سعيد. كما يفيد خبره أيضا أن له ترسيلا مدونا. وقد نبه إلى ذلك ابن الأبار. و لم يشر خبر ابن عبد الملك إلى

1- الخريدة 610/2.
2- المغرب 259/1.
3- الذيل والتكملة 569/5.
4- النفح 27/7.

كتاب راية المحاسن وغاية المحاسن الذي ذكره ابن الأبار. فهل هو الكتاب نفسه الذي أطلق عليه اسم حديقة المآثر أم أن الحديقة كتاب آخر لا تعرفه للفتح وكشف عنه ابن عبد الملك.

إن الذي يبدو من خلال عنوان الكتابين، أن موضوعهما يمكن أن يكون متشابها. فحديقة المآثر سيكون مجموعة اختيارات متنوعة تنوع الحديقة وأزهارها وفواكهها، اختارها لجماعة من الأدباء السابقين أو المعاصرين تشمل الأخبار كما تشمل الآثار. بينما سيكون راية المحاسن، مقتربا من موضوع الحديقة، لأنه سيضم عنوان كل المحاسن التي مارس الفتح عليها عملية الغربلة والاختبار بكل أبعادها ومقاساتها، ومما يزكي افتراضي أن ابن عبد الملك ينفرد بهذه الإشارة أولا، وأن صاحب النفح الذي تأخر به العهد واستفاد من المأثور والأخبار والروايات لم يشر إلى هذا الكتاب لا في النفح ولا في الإزهار ثانيا، وأن المصادر الشرقية ــ التي كانت عالة على المصادر المغربية في الأغلب لم تشر هي أيضا إلى هذا المؤلف ثالثا.

6) أما عن ياقوت الحموي فقد اكتفى بالإشارة إلى كتابيه القلائد والمطمح حين قال[1]: (... له من التصانيف كتاب قلائد العقيان، وكتاب مطمح الأنفس ومسرح التأنس...) وقد ربط بين الكتابين في مكان آخر من الترجمة حين جعل الثاني منهما ذيلا للأول فقال: (وصنف ابن خاقان كتابا آخر سماه مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ذيل شعراء الأندلس وصله بقلائد العقيان...).

واستشهد على صحة ما ذهب إليه من صلة القلائد والمطمح، بما ورد في ترجمة ابن الصائغ في القلائد وما أشار إليه ونقله عن المطمح. وقد تفرد ياقوت بهذه الإشارة ــ إشارة صلتهما بالبعض ــ فلم يروها غيره من أصحاب التراجم. ويبدو أن موضوع القلائد يختلف كما سنذكر عن موضوع المطمح، وأن من العسير أن نذهب إلى تأييد ما أشار إليه ياقوت من اتصال أحدهما بالآخر إلا أن يكون مدلول الاتصال في نظره مختلفا عما يراد به الآن من الاستدراك والإضافة.

7) أما ابن خلكان فقد أشار في وفياته إلى مؤلفاته إشارة تخصيص وتعميم: أما التخصيص فحين ذكر القلائد والمطمح من مؤلفاته وأما التعميم فحين أشار إلى أن له عدة

[1]- معجم الأدباء 186/16.

تصانيف في قوله[1]: (... صاحب قلائد العقيان له عدة تصانيف منها الكتاب المذكور... وله أيضا كتاب مطمح النفس مسرح التأنس في ملح أهل الأندلس، وهو ثلاث نسخ كبرى ووسطى وصغرى. وهو كثير الفائدة لكنه قليل الوجود في هذه البلاد..).

وهكذا يبدو أن ما يقدمه ابن خلكان من معلومات حول مؤلفاته، لا يضيف جديدا إلى هذه المؤلفات، بل لا يقف إلا عند المشهور منها وهو القلائد والمطمح. والجديد عنده هو الإشارة إلى نسخ المطمح (كبير ومتوسط وصغير). كما أنه لم يشر إلى مصدر خبره حول هذه الإشارة. فهل كان يملك نسخا من المطمح أم أنه أخبر عن ذلك فروى الخبر كما نقل إليه أم أنه نقل الخبر عن مصدر ما، و لم يكلف نفسه عناء ذكره.

إن تصديق خبر النسخ الثلاث قد تعرض لاهتزاز وامتحان من جانب بعض المؤرخين المغاربة المتأخرين حين أشار المقري إلى ما ذكره ابن خلكان حول الموضوع، ونبه إلى أن بعضهم ذكر غير ذلك فقال[2]: (... وقد ذكر ابن خلكان أن المطمح ثلاث نسخ صغرى ووسطى وكبرى، والذي قاله ابن الخطيب وابن خاتمة وغير واحد من المغاربة أنه نسختان فقط صغرى وكبرى. ولعله الصواب إذ صاحب البيت أدرى بما فيه).

وكأني بالمقري لا يميل إلى تصديق الخبر فيورد ما يناقضه أو يبطله وهو رأي ابن خاتمة وابن الخطيب في الموضوع، محتجا على ذلك بأن صاحب الدار أدرى بما فيها. ورغم أنه لم يعزز هذا الرأي أو يكرره في أزهار الرياض[3] فإن إشارته استطاعت أن تنبه إلى التضارب الحاصل في عدد نسخ المطمح بين الرواية المغربية والرواية الشرقية، وتركت الباب مفتوحا لمن أراد أن يبدي رأيه في الموضوع.

وفي اعتقادي أن في إشارة المقري وجاهة لا يمكن إنكارها لجملة أسباب:

أولها: أن الترجمة التي كتبها ابن خلكان لم تكن من الدقة بحيث يمكن تفضيلها على غيرها من الترجمات الشرقية التي لم ترو الخبر. فقد اضطربت في ذكر اسمه كما اضطربت في موضوع القلائد فاعتقدت أنه يضم طائفة من شعراء المغرب، والحالة أنه مخصص للكتاب والشعراء الأندلسيين واضطربت أيضا في تحديد وفاته بين تاريخ (535 و529).

---

[1]- وفيات الأعيان 23/4.

[2]- أزهار الرياض 100/5.

[3]- النفح 25/7.

ثانيهما: أن ابن الخطيب وابن خاتمة كانا متأخرين عن ابن خلكان وكانا على علم بما كتبه. فلو كان ما رواه صحيحا، لعدلا عن إشارتهما ونقلا روايته. إلا أنهما لم يفعلا وفي ذلك أكثر من دلالة.

ثالثها: أن المقري مارس عملية نقد وموازنة انتهى فيها إلى إصدار رأي فيه من التواضع بقدر ما فيه من الدقة. وهو وأن لم يصرح به في أزهار الرياض، فقد أوضح بما لا يدع مجالا للشك بأن الرواية المغربية أقوى وأمتن، وذلك لقربها من مصدر الأخبار وتأخرها عن ابن خلكان.

8) أما ابن العماد فقد اعتمد على غيره في نقل ما رواه عن الفتح وأثاره وخاصة ابن خلكان[1]، مما يدل على أنه يزكي روايته حول الموضوع. ومن تم فليس هناك من جديد في ترجمته.

9) أما ابن الخطيب فقد أورد في الإحاطة خبرا عن مؤلفاته قال فيه[2]: (...ومصنفاته شهيرة منها قلائد العقيان، ومطمح الأنفس، والمطمح أيضا، وترسيله مدون وشعره وسط وكتابته فائقة...).

فعدد منها القلائد والمطمح ثم عاد فذكر المطمح مرة أخرى ولعله كان يريد ما أشرا إليه المقري من وجود نسختين من المطمح. ثم ذكر ترسيله ووصفه بأنه مدون وقد نقل هذه الإشارة عن ابن عبد الملك إذا العبارة عبارته. ولست أدري من أين فهم المقري أن ابن الخطيب عنى المطمح الصغير والكبير، إلا أن تكون النسخة التي نقل عنها غير التي نملكها، وهو الافتراض الذي يمكن الاطمئنان إليه في الاقتناع برأيه، لأن خبر الإحاطة فيه قدر غير قليل من الركاكة. مما يفيد أن هناك كلاما محذوفا بقي منه قوله (والمطمح أيضا) وأن ما نعرفه عن أسلوب ابن الخطيب سواء في هذه الترجمة أو في غيرها من أنه أسلوب يخلو من كل ركاكة، بل أنه فصيح بليغ بكل ما في الكلمة من معنى. وعلى كل فابن الخطيب لم يذكر من مؤلفاته إلا القلائد والمطمح والترسيل ولم يرو شيئا عن راية المحاسن أو حديقة المآثر.

1- شذرات الذهب 107/4.

2- الإحاطة 249/4.

10) أما المقري فقد كانت تراجمه نموذجا للتراجم الجامعة وخاصة حين تعلق الأمر بالفتح حيث روى ونقل في نفح الطيب عن أكثر من مصدر(1) وصرح بأسماء هذه المصادر جميعها واحدا بعد الآخر.

بينما مال في أزهار الرياض إلى إنشاء ترجمة ملفقة جمعت المعلومات جمعا وصاغتها في قالب جديد(2). (... وألف رحمه الله كتبا جمة ظهرت فيها براعته وتبينت بلاغته وصناعته. منها قلائد العقبان في محاسن الأعيان وكتاب المطمح الكبير وكتاب المطمح الصغير. كذا قال ابن خاتمة وابن الخطيب، وقال ابن خلكان مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس وهو ثلاث نسخ كبرى ووسطى وصغرى، وهو كتاب كثير الفوائد يدل على غزارة مادته. انتهى ومن تآليفه راية المحاسن وغاية المحاسن ومجموع في ترسيله...). ورغم أنه لم يناقش في الأزهار رأي ابن خلكان فإنه قد ناقشه كما بينا قبل في النفح وانتهى إلى رأي فيه. وبالجملة فهو لم يعرض لما رواه ابن عبد الملك حول كتاب حديقة المآثر. ولعل إغفاله له يدل على أنه لا يذهب مذهبه فيما نسبه إليه من أمر هذا الكتاب. والملاحظ أنه أورد رسالته في ابن السيد في مكان منفصل عن الترجمة(3).

أما المراجع الحديثة فقد كانت بطبيعة الحال عالة على المصادر القديمة تنقل عنها صراحة ومواربة. وقد نحت في حديثها عن آثاره نحوين مختلفين:

الأول تعرض لهذه الآثار دون تعليق لأن موضوع الكتاب الذي وردت فيه لا يسلك مسلك البحث والتعليق.

والثاني تعرض لمضمون هذه الآثار، وخص منها كتاب قلائد العقيان بالتعليق نظرا لشهرته وانتشار نسخه.

ولو حاولنا أن نقف على ما في هذه المراجع باستقصاء تام لوجدنا في ذلك نوعا من التكرار، إذ سبقت الإشارة إلى مظان هذه المراجع وأغلبها كان شرقيا، لأن المصادر الأندلسية ظلت مجهولة إلى وقت قريب. ولكن هذا لن يمنعنا من تناول بعض هذه المراجع التي نرى في التركيز عليها نوعا من الإفادة، وخاصة منها كتب الفهارس التي تعرف بالكتب أو بالمؤلفين وفي مقدمتها:

1- نفح الطيب 29/7.

2- أزهار الرياض 99/5

3- الأزهار: 103/93.

1) كتاب كشف الظنون (حاجي خليفة) الذي أشار إلى مؤلفي الفتح[1] (قلائد العقيان في محاسن الأعيان لأبي نصر الفتح بن عيسى ابن خاقان القيسي... وله: الحمد لله الذي راض لنا البيان حتى انقاد في أعنتنا... ذكر في خطبته أبا إسحاق إبراهيم بن يوسف... جمع فيه من شعراء المغرب طائفة وذكر أشعارهم وجعله على أربعة أقسام). و(مطمح الأنفس ومسرح التأنس[2] في ملح أهل الأندلس لأبي نصر الفتح بن عيسى بن خاقان القيسي الإشبيلي الوزير المتوفى سنة 535... وهو ثلاث نسخ كبير ووسط وصغير، أول صغيره: أما بعد حمد الله الذي أشعر لنا إلهاما...إلخ جعله على ثلاثة أقسام: الأول في الكتاب والبلغاء، والثاني في العلماء والقضاة والفقهاء، والثالث في الأدباء...) ولم يشر إلى غير هذين من مؤلفاته ولا ندري سببا لذلك سوى أنه كان يعتني بذكر ما هو مشهور ومتداول من الكتب ويبدو أنه كان يملك نسخا من القلائد ومن المطمح الصغير ولذلك أشار إلى أن مقدمة المطمح التي أوردها هي من المطمح الصغير. (وهو المطمح المطبوع المتداول الآن). ولا ندري هل كان يعرف المطمح الكبير أو المتوسط أم لا. على أن ما نعتقده هو أنه تابع ابن خلكان في الإشارة إلى المطمح ونسخه، وأورد ما أورده من المطمح، ونعته بالصغير لصغر حجمه فقط، وإلا لو عرفه لعرف غيره من المؤلفات التي أشار إليها المترجمون واستدركها عليه (إسماعيل باشا البغدادي في هدية العارفين) حيث ذكر ترجمة الفتح وأشار إلى مؤلفاته فقال: [3] (... من تصانيفه بداية المحاسن وغاية المحاسن في مجموع مراسلاته. وقلائد العقيان في محاسن الأعيان في مجلد مطبوع وكتر الفوائد، ومطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس، ثلاث نسخ صغرى وكبرى ووسطى).

فقد استدرك عليه بداية المحاسن الذي ذكره غيره تحت عنوان راية المحاسن، واعتبره هو المجموع الذي يضم ترسيله كما استدرك كتاب (كتر الفوائد). وهي إشارة تفرد بها البغدادي. والمعتقد أنه كان ينقل عن شذرات الذهب لابن العماد، فحرف بعض كلمات ابن العماد عن غير قصد- حين وصف كتاب الفتح مطمح الأنفس بقوله (... وهو كتاب كثير الفوائد...) فظن أنه يعني كتابا اسمه (كتر الفوائد) وليس كذلك، إذ لو كان موجودا لذكرته المصادر المغربية والأندلسية.

1- كشف الظنون 1304/2.

2- هدية العارفين 814/1.

3- كشف الظنون 1721/2.

2) ونذكر من فهارس الأعلام كتاب الزركلي (الأعلام) الذي أشار أيضا إلى مؤلفاته فقال[1]. (... من تصانيفه قلائد العقبان في أخبار شعراء المغرب، ومطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس، وراية المحاسن وغاية المحاسن، ومجموع رسائله، ورسالة في ترجمة ابن السيد البطليوسي، أوردها المقري في أزهار الرياض...). فذكر من تصانيفه خمسة كتب هي التي ورد ذكرها في المصادر القديمة غير أنه وقع في بعض الاضطراب الذي وقع فيه غيره، وخاصة في:

- أن قلائد العقيان كتاب اختيارات تتناول محاسن الأعيان شعرا ونثرا وليس موضوعة أخبار شعراء المغرب.
- لم يشر إلى نسخ المطمح كما فعل سابقوه.
- لم يشر إلى حديقة المآثر التي تفرد بها ابن عبد الملك.

وعلى كل فقد كان الزركلي أكثر دقة من غيره في هذا المعنى.

3) كما نذكر في فهارس المؤلفين كتاب معجم المؤلفين لرضا كحالة، الذي عرض لترجمة الفتح والحديث عن آثاره حين قال[2]: (...من تصانيفه قلائد العقبان ومحاسن الأعيان، وبداية المحاسن وغاية المحاسن، وكتر الفوائد، ومطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس...).

والظاهر أنه كان ينقل عن البغدادي نقلا غير منضبط. فقد نسي الإشارة إلى مجموع مراسلاته كما ذكر له كتاب (كتر الفوائد) وقد ناقشنا موضوعه سابقا.

4) ومن المستشرقين الذين اهتموا بالموضوع المؤرخ الألماني كارل بروكلمان[3] الذي أشار من مؤلفاته إلى قلائد العقيان في محاسن الأعيان ومطمح الأنفس في ملح أهل الأندلس وسيرة شيخه ابن السيد البطاليوسي مع مختارات من قصائده، ومقامه عن شيخه ابن السيد البطليوسي، ثم المنتخبات العبقريات. ويبدو أن بروكلمان قد أشار إلى المشهور من آثاره، بدليل أنه أرشد إلى مكان وجود كثير من النسخ الخطية من القلائد والمطمح. ونفرد بالإشارة إلى رسالته في أستاذه ابن السيد وما يصحبها من قصائد ملحقة بها. وكأني به يريد التأكيد على زيادات خارجة عما أورده المقري في أزهار الرياض.

---

[1]- الأعلام 322/5.

[2]- تاريخ الأدب العربي 107/6.

[3]- معجم المؤلفين 49/6.

كما تفرد بالإشارة إلى المقامة التي نسبت إلى الفتح واعتبرها من أثاره مع أن أحدا من القدماء أو المحدثين لم يؤكد ذلك أو يثبته بل لم يتجاسر أحد من مترجميه على نسبتها له[1].

وتفرد أيضا بالإشارة إلى مؤلف ثالث له وهو الصفائح المنتخبات العبقريات ذكر أنه طبع بالرباط سنة 1920. ولا نعرف للفتح كتابا بهذا الاسم ولعل هناك خطأ في الموضوع إذ أن عنوان الكتاب لا يحمل معنى مما اعتدناه، في كتب الفتح فما هي هذه الصفائح أولا، ثم إن ما نعرفه حول هذا الاسم هو كتاب المنتخبات العبقرية الذي طبع بالرباط سنة 1920 والذي يضم مجموعة من المختارات الأدبية اختارها محمد بن عبد السلام بن عبد الرحمان السايح. وقررت إدارة المعارف آنذاك أن تجعلها مقررا لطلبة المدارس الثانوية بالمغرب، وفيه ترجمة للفتح ابن خاقان مع بعض المختار من آثاره.

وعلى هذا الأساس فقد وقع خلط في نسبة الكتاب لا ندري من كان وراءه هل هو المؤلف أم المترجم.

5) ومن المستشرقين الذين تناولوا آثاره بالحديث. المستشرق الإسباني أنجيل بلانسيا وقد تناول مؤلفاته بقوله: [2] (... وقد رويت للفتح قطع قليلة من الشعر... وكتب عن بعض الأمراء بعض المكاتبات. ولكن شهرته ترجع إلى كتابيه الجليلين مطمح الأنفس ومسرح التأنس، وقلائد العقبان ومحاسن الأعيان. أما الأول فقد قصره على أعيان الأندلس وذوي السماحة والظرف من أهله وجعله ثلاث نسخ كبرى ووسطى وصغرى، يذكر فيها نفرا من الذين ذكرهم في القلائد ومن غيرهم الذين كانوا قبل عصرهم... أما قلائد العقيان فهو تكرار للمطمح في بعض أجزائه، ويبدو أن (بلانسيا) قد وقف عند حدود ضيقة في الحديث عن آثاره إذ لم يرو منها إلا إشارة إلى شعره وبعض مكاتباته ومؤلفيه المشهورين القلائد والمطمح. وقد وقع في خلط حين جعل القلائد تكرارا للمطمح، لأن المشهور عند المترجمين أن القلائد كانت سابقة على المطمح لا العكس. ولعل السبب فيما وقع فيه من هذا الخلط أنه لم يستطع أن يتحقق من تاريخ تأليف الكتابين، فظن أن احتواء المطمح الكبير أو المتوسط على بعض تراجم القلائد يفيد أن القلائد كانت ذيلا عليه. وليس كذلك.

1- سنعود إلى مناقشة الموضوع عند الحديث عن آثاره متفردة.

2- تاريخ الفكر الأندلسي 297.

ومن خلال العرض السابق تتبدي لنا أمور هامة هي:

أولا: أن هناك كتابين اتفق جميع المؤرخين على نسبتهما إلى الفتح وهما القلائد والمطمح، وإن اختلفوا في نسخ المطمح هل هي ثلاث على رواية ابن خلكان ومن تبعه أم هي اثنين على رواية المقري نقلا عن ابن الخطيب وابن خاتمة.

ثانيا: وأن هناك كتابا نسبه القدماء للفتح وليس له وجود مادي بين أيدينا هو كتاب راية المحاسن وغاية المحاسن، أورد ذكره ابن الأبار ونقله عنه غيره[1].

ثالثا: وأن هناك كتابا آخر نسبه ابن عبد الملك إلى الفتح هو حديقة المآثر ولم يذكره غيره.

رابعا: وأن هناك رسالة كتبها حول شيخه ابن السيد البطليوسي رواها المقري في أزهار الرياض، وأشار إليها بعض المحدثين.

خامسا: وأن هناك ترسيلا مدونا ذكره له غير واحد من المترجمين وهو من آثاره المفقودة الآن، ولا توجد منه إلا بعض الرسائل المتناثرة في بعض كتب التراجم والاختيارات لا يتعدى عددها ثمان عشرة رسالة.

سادسا: وأن هناك كتابا أطلق عليه بعضهم اسم كتر الفوائد، أشرنا إلى التحريف المتعلق به ونفينا أن يكون للفتح كتاب بهذا الاسم.

سابعا: وأن له مجموعة أشعار متناثرة في كتابيه القلائد والمطمح وفي بعض كتب التراجم سنعرض لها.

ثامنا: ونسبت إليه من طرف بعض القدماء والمحدثين مقامة في شيخه لابن السيد البطليوسي سنعرض لها في فصل خاص بها.

[1]- ذكر البغدادي أنه هو عنوان ترسيله المدون (هدية العارفين: 814/1).

الفصل الثاني

قلائد العقيان في محاسن الأعيان

يعتبر الكتاب أشهر ما ألف الفتح من كتبه بالإضافة إلى المطمح بل لعل اسمه قد ارتبط بالقلائد ارتباطا كاملا فذكر بمؤلفه (صاحب القلائد) تمييزا له عن غيره ممن يحمل اسم الفتح به خاقان[1] ولعل شهرة القلائد ترجع إلى مجموعة عوامل يمكن حصرها في الآتي:

1) أنها تمثل إلى جانب الذخيرة خير ما أنتجه الأندلسيون من كتب التراجم الأدبية والمختارات في القرن السادس الهجري.

2) أنها اعتنت بالترجمة لفترة تاريخية معينة هي نهاية القرن الخامس وبداية السادس عن طريق التعرض لرجال تلك المرحلة على اختلاف طبقاتهم السياسية والاجتماعية والفكرية من أمراء ووزراء وقضاة وفقهاء وشعراء.

3) أنها اعتنت بجميع كمية هامة من المختارات الشعرية والقطع النثرية حتى أصبحت المصدر الوحيد بالنسبة لبعض أعلام الأندلس.

4) أنها اعتنت بإيراد مجموعة من الأخبار عن تلك الفترة وعن نمط الحياة الذي عاشه الأندلسيون خلالها والذي تخلو كثير من المصادر منه لسبب من الأسباب.

5) أنها بسطت وجهة نظر مجموعة من المتذوقين الذين كان الفتح يمثل صورة عن اتجاههم الفني والنقدي، سواء في تعاملهم مع الآثار الأدبية أو في موقفهم من دور الأدب بصفة كلية، أو من أساليب تذوقه بصفة جزئية.

6) أنها تمثل لوحدها لوحات نثرية ذات جماليات خاصة ترتبط بصاحبها من جهة وبمذهبه الفني ومدرسته النثرية من جهة أخرى، حتى لتتحدى هذه اللوحات بجمالها مجموعة الآثار المختارة التي تضمها القلائد بصفة كلية. وقد بدا أعجاب معاصريه بها واضحا فيما ذكرناه سابقا عن علاقته برجال عصره من خلال مؤلفاته.

---

[1]- الفتح بن خاقان وزير المتوكل العباسي.

تاريخ تأليفه:

لو عدنا إلى الكتاب وبحثنا عن تاريخ تأليفه وصلة ذلك التاريخ بحياته ومراحلها. لوجدنا أن التنصيص على تاريخ معين عن المؤرخين والمترجمين له غير وارد. إذ الجميع يربط هذا الحديث بما احتوته مقدمة القلائد من ربط تأليفه بشخصية الأمير أبي إسحاق إبراهيم بن يوسف حين تقول[1]: (... ولم يزل شخص الأدب وهو متوار، وزنده غير وار، وجده عاثر، ومنهجه داثر، إلى أن أراد الله إعلاء اسمه وإنارة أفقه، ووإعادة رونقه، فبعث من الأمير الأجل أبي إسحاق إبراهيم بن يوسف بن تاشفين ملكا عَليا، غدا لَلبته المجد حليا، وهمى على الأمة وسميا ووليا...، ولما أنارت به تلك الآفاق وعاد به كساده الفضل إلى النفاق، رأيت أن أخدم مجلسه العالي بزف الكتاب إليه...).

فهو يربط تاريخ تأليفه للقلائد باتصاله بأبي إسحاق أثناء ولايته على مدينة المرية ثم إشبيلية[2]. على أن النص لا يفيد أن التأليف بدأ في عصر ولاية الأمير إبراهيم، لأن ما ورد فيه إنما يفيد أنه يريد أن يخدم حضرته بتقديم الكتاب إليه[3]. (... رأيت أن أخدم مجلسه العالي بزف الكتاب إليه وأشرف محاسنه بالمثول بين يديه...) مما يفهم منه أنه ألف الكتاب قبل ذلك الوقت – وقت تقديم الكتاب – وأراد أن يجعله هدية لمجلس الأمير. ولعله رأى من غيره ما يدعوه إلى ذلك.

وتوجد إشارة إلى موضوع التأليف وردت عرضا في القلائد يطري فيها ابن السيد الكتاب وما سيضمه حين يقول: (... وله رقعة يصف فيها هذا التنصيف: تأملت فسح الله لسيدي ووليي في أمد بقائه، كتابه الذي شرع في إنشائه...) ففي الرقعة أشارة إلى أن الكتاب لم ينته وأن الفتح قد شرع في إنشائه. ولعل لكلمة (شرع) دلالتها المعجمية الخاصة التي تفيد الخوض في الشيء[4].

لكن هذه الرقعة لا تحدد تاريخ هذا الشروع، وليس عليها تاريخ نستفيد منه ما يجعلنا نعرف تاريخ البداية. ولكننا نعلم أن علاقة الفتح بابن السيد لم تكن وثيقة إلا بعد (515) التي ذكر ابن الآبار أن ابن السيد أجازه فيها[5].

---

[1]- القلائد 3.

[2]- القلائد 3.

[3]- القلائد 222.

[4]- قاموس المحيط 44/3 مختار الصحاح 335.

[5]- معجم أصحاب الصدفي 313.

وتوجد إشارة أخرى إلى الموضوع في رسالة كتبها الفتح إلى ابن السيد يخبره فيها بإتمام الكتاب ويطلب منه أن يراجعه كما يخبره بشخوصه إليه حيث يقول[1]:

(أطال الله بقاء الفقيه الأجل، غمامي المنهل، وحسامي المستل... وسأوافيك فاهصر افنان تحفيك، والفظ الدر من فيك، وقد أتممت الكتاب الذي كنت بدأته، وطوقت به العصر وقلدته، وأتى كالبدر في لبته، ونسيم المسك في هبته... وقد ضمنت خطابي وصفك فيه وأنت بطولك تتأمله وتجتليه فتعلم به إخلاصي وتتحقق غاية اختصاصي، ولك الفضل في مراجعة تطلعها بدرا علي، وأجدها نورا يسعى بين يدي). فهو يخبره بأنه قد أتم الكتاب الذي صحح منه أبو محمد فصولا[2]، ويذكر له أنه قد ضمن الكتاب وصفه، ولكنه لا يذكر شيئا عن تاريخ إتمام هذا التأليف. وإنما يربط إتمامه بقدومه إليه من الجزيرة (وقد أنقذته من الجزيرة وقد ابتسم ثغر الصباح...) ولعله يقصد الجزيرة الخضراء وقدومه منها إليه. وعلى كل فمن الصعب تحديد تاريخ قدومه من الجزيرة الخضراء، أو من غيرها، لأن هذه المرحلة من حياته عرفت كثيرا من الترحال والتطواف بغية البحث عن مادة الكتاب، وبغية الاتصال بالرواة الذي روى عنهم.

إن تاريخ انتهائه من تأليف القلائد ينبغي أن يكون محصورا في نظرنا بين سنتي 511 التي تولى فيها الأمير إبراهيم إمارة إشبيلية وسنة 516 وهي السنة التي عزل فيها، لأن هذا التاريخ ينسجم مع مضمون مقدمة الكتاب التي يشير فيها إلى ارتباط الكتاب وصاحبه بالمهدَى إليه.

أما تاريخ بداية تأليفه فليس هناك ما يدل عليها دلالة مادية واضحة إلا ما كان من بعض رسائله التي بعث بها إلى المشاهير من رجال عصره. كالرسالة التي بعث بها إلى أبي عبد الله ابن أبي الخصال مثلا والتي نجد فيها أصداء لعمله الذي كان يرجو تحقيقه، وهو تأليف كتاب حول الأندلس ورجالها، حيث يقول فيها[3]:

(... وكتبت إليه عندما وصل أميل المسلمين وناصر الدين إلى إشبيلية صادرا عن غزوة طلبيرة سنة ثلاث وخمسمائة، ووصل في جملته ونزل بمحلته، واتفق لي شغل توالى واتصل إلى أن رحل أمير المسلمين أيده الله وانفصل. فسألت عنه فأعلمت أنه سار معه وما

[1]- مخطوط 488 لو 50 فهرس الغزيري.

[2]- القلائد 223.

[3]- القلائد 201.

فارق مجتمعه، فكتبت إليه مستدعيا من كلامه ما أثبته في الديوان، وأنبته في ظهر بستان. فوافاه رسولي من البلد على مرحلة، في ليلة من ضياء البدر ممحلة، فكتب إلي مرجعا...).

ففي النص تصريح بتاريخ معين هو سنة ثلاث وخمسمائة أي السنة التي أراد الاتصال فيها بأبي عبد الله بن أبي الخصال بغية الحصول منه على جزء من المادة التي يريد جمعها ليضعها في مؤلفه. فهل كان هذا التاريخ هو البداية الحقيقية لمرحلة التأليف أم أن هناك تاريخا سابقا.

وهناك رسالة بعثها إليه أبو عبد الله بن حمدين ردا على رسالة كتبها الفتح إليه في نفس الموضوع السابق يقول فيها[1]:

(...وصل الكتاب الكريم ففضضته عن در، ومعان غر، تبين سبقك لهذه العثرة، وأنافتك عن هذه الزمرة، ويوجب بذلك الاعتراف وتوطأ لكل من الرعي أرحب الأكناف، ورأيت ما ذكرته من وضع كتاب يكون لمحاسن أهل الأندلس ناظما، ولأخبارهم جامعا. فقدرت قدرة مترعك، وشكرت زمانا أطلعك. ولاشك أنك ستجلوه في أحسن صورة، ولا تألوه إحسانا تحسده الشمس نوره، فتتغاير عليه الأعصار وتتهافت إليه الأبصار. فخذ أعزك الله في إظهاره، وأسلخ ليله من نهاره. وأهب عليه أنفاس العراق، وأنسنا بسببه محاسن تلك الآفاق، وعندي من العون لك على محاولته ما يشعرك نشاطا، ويورث خاطرك إيناسا وانباسطا، إن شاء الله عز وجل).

فإذا كانت وفاة ابن حمدين قد تمت سنة (508) فلاشك أن الرسالة كانت سابقة لهذا التاريخ بكثير لأن فيها ما يوحي بأن في الرجل سعة وقدرة على مساعدة الفتح على تأليفه (حتى ينسيه محاسن العراق...) رغم أنها لا تحمل تاريخا مضبوطا. بل إن الرسالة تأكيد واضح على أن بداية التأليف قد انطلقت مع بداية القرن السادس وهي شهادة أخرى تنضاف إلى رسالة الفتح السابقة التي يتعلق تاريخ التأليف فيها بسنة ثلاث وخمسمائة.

دواعيه إلى تأليف القلائد:

تحدث الفتح عن الأسباب التي دفعته إلى تأليف القلائد في المقدمة التي وضعها لكتابه وأقام هذه الأسباب على جملة قضايا متعددة تنحصر في عاملين:

أ – موقفه من تخلف الأدب.

---

[1]- مطمح الأنفس المخطوط 805 المكتبة الملكية – ترجمة ابن حمدين.

ب ـــ الافتخار بمجموعة من رجال الأندلس الذين لم تسمح الظروف بإظهار أعمالهم وأثارهم.

فبالنسبة للعامل الأول: يبدو الفتح — وهو أكثر شعورا بالمسؤولية من غيره متحمسا لإحياء وإنعاش الوضع الأدبي في الأندلس عن طريق عرض آثار السلف وإظهارها للخلف، لينطلقوا منها في بناء حاضر أدبي مشرق إشراق ما انتقاه واختاراه وضمه في ديوانه. وهو بهذا يضرب عصفورين بحجر واحد، حين يستنهض الهمم، وحين يحيي آثاره السلف ويحفظها في ديوان لم تجمع فيه من قبل. وهذا ما عناه حين قال[1]: (... ولما رأيت عنانة في يد الامتهان، وميدانه قد عطل عن الرهان... تداركت منه الذماء الباقي وتلافيت له نفسا قد بلغت التراقي، وانتخبت منه لمعا كالسيوف المرهفة، والشفوف المفوفة...وانتقيت من توليده المخترع وتجديده المبتدع لمحا يهز لها الزمان عطفه انتشاء... وضممتها إلى صوان يحفظها ويبديها للعيون فتلحظها...).

وبالنسبة للعامل الثاني: فقد انتهى الفتح إلى تعليل ما أورده من آثار غيره في كتابه، بالافتخار بمجموعة من الآثار والرجال الذين لم تسمح الظروف بإظهار مفاخرهم ومحاسنهم حين قال[2]:

(... ليعلم أن بالأوان افتنانا جرت له العوائق بنانا وبيانا، وأبقت منه أثرا لا عيانا، ورجالا لم تفسح لإبداعهم مجالا، فتلفعت محاسنهم بنقابها، وتوارت كالأراقم في أنقابها، فأظهرت ما خفي من فخارهم...).

ولسنا ندري ما الذي عناه بالعوائق هل قصد ظروف التأليف في الأندلس وميل الأندلسيين عن ذلك مجاريا في هذا الرأي الفقيه ابن الربيب التميمي القيرواني فيما نعاه على الأندلسيين من تخوفهم من ولوج باب التأليف[3]، أم أنه قصد ظروف المجتمع الأندلسي في ظل زوال دول الطوائف وحلول المرابطين محلهم، بكل ما يعنيه هذا التغيير من أبعاد.

إن الظاهر هو أن ما أخفاه الفتح من حقائق في ثنايا هذين العاملين هو غير ما أظهر. ذلك أن ما تعرض له العامل الأول يفرض أن الوضع الأدبي قد تردى، وأن السبب قد يعود إلى انعدام المشجع. لأن الملوك الأندلسيين الذين كانوا وراء النهضة الأدبية السابقة قد ثلت

---

[1]- القلائد 2.

[2]- القلائد 3.

[3]- النفح 157/3.

عروشهم وزالت ممالكهم[1]. (... ثم تقلص ذلك البرد الضافي، وتكدر ورد الأمل الصافي، وزهد في اقتناء المعارف، وعريت الهمم عن تلك المطارف، ورمت المحاسن أغراض المطالب فما أصابت، وهمت البدائع فلم توقع لها الرغائب حين صابت، وكلت الخواطر وأقشعت سحائبها المواطر، فأصبح الأدب قد دجت مطالعه وخوى طالعه...).

فانعدام المشجع هذا هو ولا شك سبب من الأسباب التي وقفت في وجه ازدهار الأدب. وكأني به يوجه أصبع الاتهام إلى الوضع الحالي ويعتبره مسؤولا عن تخلف الأدب وانحساره. لأن التعريض الذي بسطه يفيد أنه كان يشعر شعور الأندلسيين _ والأدباء منهم خاصة _ تجاه الوافدين الجدد بنوع من عدم الاطمئنان.

وحين شعر بأن هذا لا يستجيب لوضعه وهو مزمع على مخاطبة الأمير إبراهيم بن يوسف، استثناه من هذا الحكم واعتبره سبيلا إلى استرداد ما ضاع في قوله[2]: (... ولم يزل شخص الأدب وهو متوار، وزنده غير وار. وجده عاثر، ومنهجه دائر، إلى أن أراد الله أعلاء اسمه. وإحياء رسمه، وإنارة أفقه، وإعادة رونقه، فبعث من الأمير الأجل أبي إسحاق إبراهيم بن يوسف بن تاشفين ملكا عليا...) فربط النهضة العلمية والأدبية بوجوده، وفي هذا من التوجيه والتذكير ما فرض على الأمير المرابطي أن يكون في مستوى المهمة الخطيرة التي انتدبه الفتح إلى تطويقه بها، لاسيما وقد قدم في كلامه السابق ما يفيد أن الازدهار الأدبي والعلمي كان مقرونا بتشجيعات الملوك والأمراء.

أما ما تعرض له العامل الثاني. فهو مرتبط بأسباب خفية أخرى قد لا تتعلق بمحاكمة الوجود المرابطي بقدر ما تتعلق بمحاكمة العقلية الأندلسية التي تخشى الظهور وتخاف أن تؤلف فتخالف[3].

لقد أراد الفتح أن يشارك في إظهار مفاخر الأندلسيين ورجالهم بعدما نمى إلى سمعه وعلمه ما نعاه التميمي على الأندلسيين من تقاعسهم في إظهار مفاخر رجالهم وفضائل أهل أمصارهم. فاستغلها فرصة وأضاف إلى ما أجاب به أبو محمد بن حزم في رسالته، أضاف كتابيه (القلائد والمطمح) وعرض في مقدمتها ما يتناول هذا الموضوع فقال في القلائد[4].

1- القلائد 2.
2- القلائد 3.
3- نفح الطيب 157/3.
4- المطمح 2.

(... ليعلم أن بالأوان افتنانا جرت له العوائق بنانا وبيانا، فأبقت منه أثرا لا عيانا. ورجالا لم تفسح لإبداعهم مجالا، فتلفعت محاسنهم بنقابها وتوارت كالأراقم في أنقابها...) وقال في المطمح[1] (... فإنه كان بالأندلس أعلام فتنوا بسحر الكلام ولقوا منه كل تحية وسلام، فشعشعوا البدائع وروقها وقلدوها بمحاسنهم وطوقوها، ثم هووا في مهاوي المنايا وانطووا بأيدي الرزايا، وبقيت مآثرهم غير مثبتة في ديوان ولا مجملة في تصنيف أحد من الأعيان...).

ولعل مصدر هذا الشعور بالمسؤولية تجاه الأندلس وسمعتها، ونموه في نفسه يرجع إلى نمو الحس القومي عند الأندلسيين عامة، فقد كانوا يشعرون بحسرة ما بعدها من حسرة والجند المرابطي يرابط في أبواب المدن، وكأن في وجوده انتقاصا من شأنهم، وإخضاعا قسريا لهم. والدليل على ذلك ثورة أهل قرطبة على الأمير المرابطي سنة 515، هذه الثورة التي قامت لأتفه الأسباب وأحقرها وكلفت أهل قرطبة غاليا[2].

فكان من الضروري أن تتجاوز مواقف الخاصة من الأندلسيين الظروف العسكرية، وتصعد هذا الحس عن طريق استعراض تاريخ الأندلس ورجالها، وما قاموا به في كافة المجالات. بغاية التعويض عما كانوا يشعرون به تجاه أصحاب العدوة المغربية. وهي نفس الفكرة التي بنى عليها أبو الحسن علي بن بسام كتابه الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة. وقد أدى هذا المركب النفسي بهم إلى أن يسعوا إلى تقديم إنجازاتهم إلى الحكام الجدد، بغية التأكيد على تفوقهم الفكري. وظل هذا الشعور يتردد في نفوسهم حتى بعد زوال الحكم المرابطي بدليل ما أشار إليه صاحب النفح من أمر المناظرة التي قامت بين أبي يحيي بن المعلم الطنجي وأبي الوليد الشنقندي[3].

وقد تكون هناك أسباب أخرى تتعلق بدوافع ذاتية تتصل بالفتح خاصة، وتعني اهتمامه بإثبات الذات، حين طلب من وراء تأليف القلائد أن يخلد نفسه إلى جانب غيره، لذلك أورد كثيرا من الأخبار المتعلقة به، وجملة من نثره وقطعة من شعره لا يرجو من ذلك كله إلا ما ذكرناه. كما تعني اهتمامه بمنافسة غيره من كتاب العصر ومؤلفيه كابن أبي الخصال وابن زهر وابن باجة وابن السيد.

1- القلائد 3.

2- البيان المغرب 66/4/ نظم الجمان 32/ الحلل الموشية 70.

3- النفح 186/3.

توثيق نسخة القلائد:

ليس من السهل الحديث عن نسخة موثقة من قلائد العقيان لأن الكتاب لم يأخذ بعد من المحققين ما يستحقه من اهتمام لأسباب نجهلها، أو نجهل أغلبها.

ربما كان بعضها يعود إلى كثرة النسخ المخطوطة المتوفرة في كل المكتبات المشهورة في العالم مما يستعصي معه جمع نسخة موحدة، أم، تأخذ من مميزات النسخ الأخرى بالنصيب الأوفر، وتصبح مرجعا جاهزا للتحقيق.

أو ربما يعود إلى استغناء الدارسين المحدثين بكتاب الذخيرة عن القلائد لأنها أكثر مادة وأسهل في التناول من معاصرتها.

وللتدليل على كثرة النسخ نشير على سبيل المثال إلى ما ذكره (بروكلمان) في تاريخ الأدب العربي[1]. منها رغم أننا نومن أن إمكاناته لم توصله إلى كل ما هو موجود. فقد ذكر من النسخ:

جوتا 2130 و2132/ المتحف البريطاني أول 366 و530: 2/ المتحف البريطاني ثاني 604/ باريس أول 3318 و3320/ كمبريدج ثالث 996/ ما نشتسر 668/ بطرسبورج ثان 247/ الأوسكوريال ثان 375/ الأمومر وزيانا 74 الرباط 352[2]/ القرويين 1274[3]/ تونس الزيتونة 4634 و4637/ الجزائر 1727 و1728 / أيا صوفيا 2359/ عاشر افندي 868/1/ جامع يني 884 وهو مخطوط بقلم الصفدي يرجع إلى سنة 719 هـ/ نور عثمانية 4144/ قولة 209/2 بنكبور 802/12/ باتنة 321/2: 2484.

ولعل هذه النسخ التي أشار إليها هي التي وصلت إلى معرفته والتي توجد في الخزائن المشهورة والمفهرسة. وإلا فان النسخ المتوفرة من القلائد عديدة وكثيرة كثرة مطلقة يصعب إحصاؤها أو إحصاء مميزاتها نظرا للأسباب الآتية:

1) أن الكتاب صغير الحجم يسهل نسخه.

2) أنه مجتمع في مجلد واحد فلا يتعرض لضياع أو نقص كبير.

1- تاريخ الأدب العربي 107/6.

2- توجد الآن أربع نسخ ليس منها هاته التي ذكرها وهي: 2423 ك و350 ك و821 ج و370 ج. وليس منها نسخ المكتبة الملكية والمكتبات الخاصة.

3- توجد الآن نسختان ليس منها هاته التي ذكر وهي: 549 و1249.

3) أن مادته مغرية إذ يضم مجموعة من التراجم المختلفة التي ترضي بتنوعها كل الأذواق.

4) أنه مكتوب بأسلوب فني جذاب حتى لقد قيل عن أسلوبه[1]. (أنه أراد أن يفضح الشعراء الذين ذكرهم بنثره). وقد أصبح نثره التأليفي الفني مدرسة نثرية تتحدى من طرف الأدباء الذين جاءوا بعده كابن الخطيب مثلا. ومثل هذا جعل الناس يطلبون الكتاب لأجل مادته النثرية أولا، كما يطلبونه لما ورد فيه من المعارف والأخبار ثانيا.

ولو حاولنا البحث عن نسخة مغربية متكاملة، لوجدنا أنفسنا مضطرين إلى البحث عن النسخ المشهورة والمتوفرة في الخزائن العامة، لأن البحث في الخزائن الخاصة لا يؤدي النتيجة المرجوة نظرا لصعوبة التعرف على ما فيها.

أ ــ وهكذا فبالنسبة للخزانة العامة بالرباط فهي تضم أربع نسخ مهمة هي:

1) النسخة رقم 2423 (نسخة الكتاني) وأهم مواصفاتها:

● تقع النسخة في نحو 360 صفحة، كل صفحة منها مشتملة على 22 سطرا وكل سطر يحتوي على معدل عشر كلمات تقريبا.

● كتبت بخط مغربي مجوهر، وميزت عناوين التراجم بخط أكبر وبلون مغاير.

● النسخة مصححة إذ نجد من حين لآخر تصحيحات لبعض الكلمات وبعض الإشارات.

● تبتدئ النسخة بما ابتدأت به النسخة المطبوعة من المقدمة، دون أن تصدر هذه المقدمة بما هو معتاد من ذكر اسم الكتاب وصاحبه في صدر الورقة الأولى. وقد ترك فراغ خاص بذلك ويظهر أن الكاتب كان مستعجلا فلم يثبت ذلك، أو أن العناوين والزخرفة كانت من عمل شخص آخر غير الخطاط الكاتب.

● تنتهي النسخة بقوله (كمل القسم الرابع من قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، وبتمامه تم جميع الديوان، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين وإمام المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين)، ثم تاريخ الاستنساخ (في واحد وعشرين جمادى الأولى عام 1271 غفر الله لكاتبه ومن تعلق به آمين).

---

[1]- ابن الأبار. معجم أصحاب الصدفي 313

خصائصها:

●تتميز هذه المخطوطة بمجموعة مميزات تجعلها ضرورية لمن يريد تحقيق كتاب القلائد أو البحث عن نسخة كاملة منه. وذلك لما تحتوي عليه هذه النسخة من زيادات مختلفة سواء في بعض التراجم أو في المختارات الشعرية والنثرية.

●كما تتميز بخلوها من ترجمة أبي عامر بن أرقم (وهو مثبوت في غيرها من النسخ المخطوطة والمطبوعة.

●وهناك اضطراب في ترتيب التراجم الخاصة بالوزراء، حيث يتم تقديم بعضهم، وتأخير البعض الآخر، خلافا لما هو موجود في النسخ المخطوطة الأخرى أو المطبوعة.

●عند ترجمة ابن سارة: هناك تفريق بين ابن سارة البكري وابن سارة الشنتريني ولكل منهما ترجمة ومختارات، وهو أمر غير وارد في النسخ الخطية الأخرى أو في النسخ المطبوعة.

●ترجمة ابن عطية (الابن) تختلف تحليتها عن التحلية الموجودة في النسخ المطبوعة.

●ترجمة ابن بقي تختلف تحليتها عن التحلية الموجودة في النسخة المطبوعة أيضا.

●على أن بالنسخة زيادات جد مهمة في المختارات الشعرية لا يمكن الاستغناء عنها لمن يريد نسخة كاملة من القلائد.

وترجع أهمية هذه الإضافات الشعرية في نظرنا إلى أحد أمرين أساسيين.

أ ــ إلى ما يمكن أن تكون نسخة القلائد قد تعرضت له من الاختزال والاختصار في المختارات الشعرية الخاصة حين يعمد الناسخ ــ عن جهل أو علم ــ إلى الاستغناء عن قصيدة كاملة بأبيات منها أو عن قطعة بنتفة دون الإشارة إلى ما حدث أو التنبيه على أن النسخة مختصرة.

ب ــ أو تكون القلائد نفسها قد كتبت على مرحلتين كانت الثانية منهما أكمل من الأولى. وهو ما سنجد له تسويغا فيما سيعرض لنا من أمر الزيادات التي نجدها في المختارات والاختلافات التي نجدها في التراجم.

2) النسخة رقم 350 ك (نسخة الكتاني أيضا). ومواصفاها:

● تقع النسخة في نحو 385 صفحة من القطاع الكبير، تحتوي كل صفحة على نحو 13 سطرا.

● كتبت النسخة بخط مغربي مجوهر.

- ميزت عناوين الكتاب، وكذا عناوين الفقرات وأسماء الشعراء بحروف غليظة.
- تبتدئ النسخة بما ابتدئت به النسخ المطبوعة، من خطبة الكتاب (المقدمة) وتنتهي بما نصه (تم جميع الديوان بحمد الله وحسن عونه وبتمامه تنتهي...(بياض).

خصائصها:

- في النسخة اضطراب كبير في ترتيب التراجم مداخل الأقسام.
- وفيها أوراق أجنبية عنها مختلفة عن الورق الأصلي وعن الخط الذي كتبت به. ولعل السبب في ذلك يرجع إلى ضياع ملزمات من النسخة الأصلية. فعوض مالك النسخة ما ضاع من هذه الملزمات رجاء الحصول على نسخة كاملة.
- وفيما يتعلق بالترتيب المنطقي الذي التزمه الفتح والقائم على تقديم الأمراء ثم الوزراء، ثم الفقهاء والشعراء فإن النسخة لم تلتزم ذلك، وصورة ذلك مثلا أن تجعل ترجمة ابن شرف مع الوزراء والحالة أن النسخ الأخرى تجعلها مع الشعراء، وأن تجعل ترجمة ابن سارة مع الوزراء مع أنها مذكورة بين الشعراء.
- وبالنسبة لمضمونها فإنها تحتوي ما تحتويه النسخ المطبوعة مع نقص واضح في المختارات الشعرية والنثرية. وحذف لبعضها بصورة كلية. كما أن بها إضافة تتعلق بما ورد عن ابن باجة في المطمح (المفقود) وما تشير إليه بعض المصادر الشرقية[1] من انصراف عما وصفه به في القلائد، وإضافة أخرى تتعلق بحكاية جرت لهما بفاس. والمعتقد أن هذا من عمل الناسخ لا من عمل المؤلف، إذ كيف يجمع الفتح بين الشيء ونقيضه، بين دم ابن باجة وامتداحه.

3) النسخة رقم 821 ج (نسخة الجلاوي) ومواصفاتها:

- تحتوي النسخة على 165 ورقة، تحتوي كل صفحة منها على عشرين سطرا وكل سطر على ما يقارب خمسة عشرة كلمة.
- كتبت النسخة بخط مغربي جميل مجوهر وكتبت عناوين الفقرات وأسماء المترجم لهم بنفس الخط وبلون مغاير.
- توجد في أول النسخة إشارة إلى مالكها الأول وهو (محمد الكبير بن إبراهيم بن محمد بن هاشم لطف الله به في الدارين).

---

[1]- معجم الأدباء 186/16.

- تبتدئ النسخة بقوله:

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله

قال الوزير: أبو نصر الفتح بن محمد الخاقاني ثم القيسي عفا الله عنه (الحمد لله الذي راض لنا البيان حتى انقاد في أعنتنا، وشاد مثواه في أجنتنا...).

- تنتهي بالترجمة لأبي بكر بن ماجه (بالميم عوض الباء)
- ينتهي الكتاب بقوله (كمل القسم الرابع من قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، وبتمامه كمل جميع الديوان والحم لله على ما من به من الفضل والإحسان والقوة والامتنان وصلى الله على محمد وآله الطيبين وسلم تسليما).

مميزاتها:

- لا توجد بها مجموعة من التراجم المشهورة والواردة في النسخ المطبوعة مثل ترجمة أبي محمد عبد الله بن سماك، وترجمة أبي محمد بن سارة الشنتريني وترجمة أبي بكر يحيي بن بقي.
- هناك اضطراب في عرض التراجم فلم يراع الترتيب الموجود في النسخ المطبوعة ولا الموجود في النسخ الخطية المشهورة لمترجميه، كما أن هناك نقصا في كثير من المقطعات والقصائد يتراوح بين بيت وأكثر.
- يظهر جهل الناسخ بموضوع الكتاب ومادته واضحا في غير ما مناسبة، وآية ذلك أن يخلط بين الشعر والنثر مثلا، وأن لا يميز البحور عن بعضها فيجعل البحر المجزوء كاملا (مثل قصيدة ابن زيدون السينية التي يخاطب فيها ابن برد).
- في النسخة أخطاء رسمية ولغوية كثيرة تثير مجموعة من التساؤلات حول أهميتها على صعيد التحقق من النصوص.

4) النسخة رقم 370 ج (نسخة الجلاوي أيضا).

مواصفاتها:

تشتمل النسخة على 348 صفحة تحتوي كل صفحة على 22 سطرا ويحتوي كل سطر على معدل 13 كلمة.

- مكتوبة بخط مغربي مبسوط متوسط الجودة، وكتبت العناوين بلون مغاير.
- تبتدئ النسخة بقوله:

بسم الله الرحمن الرحيم   وصلى الله على سيدنا محمد وآله

قال الشيخ أبو نصر الفتح بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن خاقان القيسي الإشبيلي عفا الله عنا وعنه آمين...

الحمد لله الذي راض لنا البيان حتى انقاد في أعنتنا...)

- تنتهي النسخة بالترجمة لأبي بكر بن باجة مذيلة بتاريخ كتابة النسخة ونص ذلك (انتهى ديوان جميع قلائد العقيان ومحاسن الأعيان تأليف الشيخ الإمام الأديب البارع أبا (هكذا) الفتح بن خاقان. ووافق الفراغ من هذا المجلد المذكور أعلاه ظهر يوم الأربعاء من المحرم الحرام عام 1187 هـ على يد أحوج العبيد إلى مولاه، الغني به عن سواه، المرتجي عفوه ورحماه، المؤمل مغفرة سره ونجواه. محمد بن أحمد، دعي متجنوش الأندلسي نسبا الرباطي دار (هكذا) ومنشأ. غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين آمين.)
- كتب على غلافه (سيدي أحمد بن العربي الخواص) في 6 ربيع الأول عام 26... (بياض).

مميزاتها:

- امتلأت النسخة بالأخطاء النحوية والرسمية واللغوية حتى غدا من العسير الاستفادة منها أو التأكد مما ورد فيها بصفة كلية دون مقارنتها بنسخ أخرى- وفيما أوردناه قبل، خير دليل ـ
- لا تنفرد بشيء زايد عن النسخ الأخرى الخطية أو المطبوعة بل تخضع في ترتيبها للترتيب المتداول المعروف في النسخ المطبوعة.

ب ـ أما **المكتبة الملكية** فتحتوي على خمس نسخ من القلائد لكل نسخة طابعها الخاص ومميزاتها الذاتية. وقبل أن نعرض للحديث عنها كما رأيناها وتفحصناها، ونبرز

مميزاتها نشير إلى أن الأستاذ عبد الله عنان قد عرض للحديث عنها في الفهرسة التي وضعها لمخطوطات المكتبة الملكية تحت عنوان: فهارس المكتبة الملكية[1] وقال عنها:

1) النسخة 475: تقع في 158 ورقة (5، 5/17، 22) وفي الصفحة 25 سطرا مكتوبة بخط مغربي ملون، وتمت كتابته في رجب 1127 هـ وبه خروم.

2) النسخة 2863 تقع في 103 ورقة (5، 26/19) وفي الصفحة 29 سطرا مكتوبة بخط مغربي، وتمت كتابتها في جمادى الاخر 1244 هـ وهي تطابق النسخة السابقة، في محتوياتها وينقصها فقط في البداية عنوان القسم الأول. وتختلف في نهايتها في ترتيب التراجم الأخيرة من تقديم وتأخير.

3) النسخة 1061 / تقع في 100 ورقة (16/22) وفي الصفحة 21 سطرا مكتوبة بخط مغربي ومبتورة الآخر بورقة. وهي تطابق النسخة الأولى في محتوياتها وترتيبها بداية ونهاية، مع نقص في ختام التراجم الأخيرة بسبب الورقة المبتورة.

4) النسخة: 5850/ تقع في 187 ورقة (18/32) وفي الصفحة 21 سطرا. مكتوبة بخط مغربي ملون ومكمل آخرها بورقة من خط آخر مكان الورقة المبتورة منها. وبها خروم كثيرة وهي تطابق الأولى في ترتيبها ومحتوياتها بداية ونهاية.

5) النسخة 5851/ تقع في 183 ورقة (5/24، 17) وفي الصفحة 18 سطرا مكتوبة بخط مغربي ملون، وبورقتها الأولى قطعة مقطوعة. نسخة شديدة الخروم، متآكلة الأطراف وهي تطابق النسخة الأولى في ترتيبها ومحتوياتها بداية ونهاية).

ويبدو من هذا الوصف الظاهري لهذه النسخ أن الأستاذ عنان قد وقف في الحديث عنها عند قراءة الورقة الأولى والأخيرة وإحصاء عدد الأوراق وعدد الأسطر وربما قابل عدد التراجم في نسخة بعددها في النسخ الأخرى. وهو عمل غير كاف لمن يريد البحث في حقيقة النسخ وصورها ومميزاتها ليستخلص من هذا الوصف وهذه المميزات الصورة الكبرى لحقيقة النسخ وواقعها. ولذا وجدنا أنفسنا مضطرين إلى إضافة ما قد أغفله ومراجعة ما وضعه.

[1]- فهارس المكتبة الملكية 393/1.

وهكذا فبالنسبة للنسخة 475:

- تشير الصفحة الأولى من النسخة إلى مالكها الأصلي: (تملك هذا السفر المبارك بالإجازة على نسخة عبيد ربه... (ذنبه كاتبه عبد الرحمان بن محمد بن المهدي بن عبد الكبير بن أحمد بن محرز كان الله له بتاريخ أواسط صفر الخير من عام 1129 هـ.
- بها اختصار قي القصائد الطويلة حيث تحذف أبيات من وسط القصيدة ويحتفظ باخرها للتدليل على نهايتها مثلا قي تراجم (ابن عمار، ابن زيدون، ابن خفاجة...) وكذا الأمر في الرسائل.
- أما عن الخروم التي توجد بها فهي جانبيه لا تمس الأصل إلا فيما نذر. على عكس ما أشار إليه الأستاذ عنان في تعميمه.

2) النسخة 2863.

* تنتهي النسخة بقوله (... على يد كاتبه أحمد بن محمد بن إبراهيم... العماري نسبا. لمن نسخ له هذا العلم المنيف، والأرفع الشريف، حافظ زمانه، وواحد عمره. السيد ابن عبد الله بن الشيخ المشرفي أيده الله. وكان الفراغ منه عند زوال اليوم السابع عشر من جمادى الأخيرة، الذي هو عام 1244 هـ من القرن الثالث عشر. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين).

* الملاحظ أن النسخة تعمل على حذف الأشعار المحمضة التي بها غزل بالمذكر مثلا (ابن وهبون).

* بها اضطراب في ترتيب بعض المختارات الشعرية.

* يتصل تنظيم وترتيب المختارات فيها بما هو موجود في النسخة الخطية من المطمح (805) المكتبة الملكية.

3) النسخة 1061

* نسخة مكتوبة بخط مغربي رقعي وبها تصحيحات من حين لآخر. ومن خلال هذه التصحيحات يبدو أن المصحح والناسخ كانا يملكان نسخا أخرى أو يعرفان مضمونها. وقدمت إليهما نسخة بعينها لينقلا عنها، فكانا يصححان ما وجداه مخالفا من حين لآخر، وهكذا نجد في هامش ترجمة ابن سارة الشنتريني مثلا (... من أوله إلى هنا ما رأيت اختلافا بين القلائد مثل ما في هذه الترجمة. فقد اتفقت كلها على الترجمة لابن سارة،

واختلفت في جميع ما أثبتت له، بل وفي وصف المصنف له (التحلية) وأنا تحريت إحداها وسلخت منها).

وفي نهاية المختارات- على ما تحتويه من اختصار واضح بالنسبة للمعروف في النسخ المطبوعة- يقول الناسخ في الهامش (...هذا آخر ما لابن سارة في النسخة. سلخت منها. وهنا ترجمت لأبي جعفر الا(عمى) وها آنا أترك بياضا لمن أراد أن يسلخ من أخرى). وقد ترك بياضا، ولكنه لا يكفي لما ينقص الترجمة من المختارات. ولكنه تنبيه على كل حال.

* تبتدئ النسخة بقوله قال الشيخ الإمام الفصيح البليغ الصدر الرئيس أبو نصر محمد بن عبد الله بن خاقان القيسي الإشبيلي[1] رحمه الله وأسكن فسيح جناته).

* وفي الهامش (هامش الصفحة الأولى) وبخط مغاير عن خط المصحح وبالناسخ، إشارة إلى اسم الكتاب (قلائد العقبان ومحاسن الأعيان) ويظهر أنه من عمل من تحصل الكتاب بيده و لم يتعرفه.

5) النسخة 5850

* تبتدئ النسخة بمقدمة لا تدخل في صميم الكتاب ولكن أهميتها تتحدد في الإشارة إلى مكانته في الأوساط العلمية والأدبية، وما كان يحظى به من قيمة كبرى تبلغ حد أن يصبح مادة للتدريس، ويتولى ذلك شيوخ لهم ما لهم من سعة معرفة وكبير علم. وتقول هذه المقدمة: (نحمدك يا من شرح صدورنا بقلائد العقيان وتحصيل المعاني، ونور قلوبنا بالسوطع البيان على عبوس زماني، ونصلي على من جاء بقواطع البرهان والسبع المثاني. الذي بعثه الله بشيرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا. وبعد فإن من النعم التي لا يمكن عدها ولا يطاق شكرها التوفيق لقراءة قلائد العقيان للفتح ابن خاقان، الجاري في ميدان البلاغة بغير عنان، الجامع للطائف المعاني والبيان، الذي حل في القلوب مكانا سريا، بعد إن كان نسيا منسيا، فأعلى الله اسمه وأحيى رسمه بوجود منتهى البيان المطاول لسحبان المعارض لصعصعة بن صوحان. الذي اطلع الكلام زاهرا، ونزع فيه مترعا باهرا. وأظهره رائقا وجاء به متناسقا. عالم الأوان ومصنفه، ومقرطه ومشنفه، نخبة العلاء وبقية الآلاء، الشامخ الرتبة، العالي الهضبة... (بياض) الأقذاذ والأنداد، وراتب رقة ما تحتويه العراق وبغداد، صاحب الأدب الرائق البهيج، والمذهب العاطر الأريج، حامل لواء النظم الغيث في الورق النضر، المعتكف على تلاوة القرآن والذكر مولانا الشاذلي أبو بكر شرح الله صدره

[1]- وقع الناسخ في خطأ حين جعل اسم الفتح هو محمد. وكلمة الإشبيلي فوق السطر.

وأطال عمره. ولما ظهر علينا من بركته ما ظهر، وأينع غرسنا وأثمر. طلبنا من شيخنا المذكور النحرير المشهور، أن يضع يده على الكتاب لأتبرك بها في كل أوان وأفوق بها سائر الأقران، بجاه محمد صلى الله عليه وسلم فأجاب من غير روية ولا عقد نية).

نص الإجازة:

الحمد لله وحده وصلى الله على من لا نبي بعده

ما رسمه الشاب النجيب اللوذعي الأريب من قراءة هذا المدعو لقلائد العقيان على العبد الفقير المضطر إلى رحمة مولاه... القلب الكبير حق لا مرية فيه. قرأه قراءة بحث وتحقيق... وتدقيق. ختم الله للجميع بحق أتم السعداء. وأنالنا... العميم وكرمه العميم أوفر... قال هذا... وخطه بيده وقيده عبيد ربه وأشهد نبيه محمد بن محمد... كان الله له في المقام والرحيل، والسلام. وصلى الله على مولانا محمد).

- وفي هامش الصفحة الأولى إشارة إلى مالك النسخة. ولسنا ندري هل مالكها هو صاحبها الأصلي الذي أجازه شيخه الإجازة أعلاه أم هو مالك آخر. ونص التملك هو:

(ملك لله بيد عبده محمد بن عبد القادر بن المعطي القادري القوري وفقه الله... آمين آمين ولطف به. بالشراء الصحيح من محروسة فاس آمنها الله من كل هم وبأس آمين).

- أما عن مضمون النسخة فإن أهم ما اشتملت عليه هو مجموعة من الشروح والتعليقات والإضافات والتخريجات التي يمكن أن تصبح شرحا مستقلا لو أخرجت بكاملها وفصلت عن المتن. وقد عمل تسفير الكتاب على بتر مجموعة من التعاليق التي لا تخلو من أهميته. كما احتوت النسخة على ورقة غريبة عنها تمت بها نهايتها، وقد كتبت بخط مغاير.

- أما مضمون التراجم فإن المشكل الموجود فيها هو نفس المشكل الموجود في بعض نسخ القلائد المغربية، حيث تبنى على اختصار بعض القصائد والمقطعات. وتقع في نفس المشكل الذي تناولته النسخ الأخرى في ترجمة ابن سارة. حيث تروي له ترجمة مختلفة عما هو معروف في النسخ المطبوعة، ومختاراته لا تشكل إلا جزءا يسيرا مما ورد في النسخ المطبوعة. بالإضافة إلى ما يدخل هذه المختارات من اضطراب في الترتيب، بالنسبة لما بين أيدينا من النسخ المطبوعة.

6) النسخة 5851

* تشبه النسخة السابقة في جودة خطها وسلامة نصها وما تحتويه من هذه الحواشي التي امتلأت بشروح وإضافات وتعليقات لا تخلو من أهمية. وللتدليل على ذلك نذكر مثلا الهامش المصاحب لترجمة ابن عبدون وما يحتويه من تعليقات، وكذا الهامش المصاحب لرائيته في بني الأفطس.

* رغم أن الأرضة أتت على أغلب ما جاء في كثير من الهوامش إلا أن المتن ظل سليما في مجموعه، وسلمت أجزاء من هذا الهامش فأعطت فكرة واضحة عما يتضمنه من فوائد قيمة.

* وعن مضمون النسخة فإنه يشبه مضمون النسخة السابقة، وخاصة في الجزئية المتعلقة بابن سارة، حيث نجد الترجمة والمختارات متشابهتين.

* في هامش الصفحة الأولى إشارة إلى مالك النسخة وكاتبها ونص ذلك: (هذا الحمد لله من منة الله على عبده عبد العزيز بن العربي الصقلي الحسيني وهذا شكل كاتبه) ثم العلامة أي التوقيع الذي يعرف للموثقين والعدول وفي آخرها (لطف الله به).

ج ــ أما عن **خزانة القرويين** فتحتوي على نسختين لا تخلوان من أهمية: الأولى وهي نسخة قديمة جددت بعض أوراقها وتحمل الرقم (0549) والثانية نسخة قديمة أيضا ولكنها مبتورة في الأول والآخر وأكملت من طرف شخص في القرن الحادي عشر وتحمل رقم 1249.

أولا: النسخة 549

وصفها:

- نسخة من القطع الكبير (20/32) وعدد الأسطر فيها يقارب الثلاثين بحسب الأوراق ونوع كتابتها. وعدد الأوراق يبلغ 132 ورقة مكتوبة بخطين متغايرين: أحدهما أندلسي وهو الأصل وثانيهما شرقي رقعي.
- النسخة من تحبيس (الشرايبي) على القرويين حسب ما جاء في الوجه الأول من الورقة الأولى في أعلى الركن الأيسر.
- تحتوي الورقة الأولى على عنوان الكتاب وهو: (كتاب قلائد العقيان ومحاسن الأعيان (بلون أحمر) تأليف الوزير الأديب الفاضل المنشئ البليغ الناظم أبي النصر الفتح بن

محمد القيسي الإشبيلي الأندلسي رحمه الله برحمة واسعة، وامطر جدثه بشآبيب رحمته... وصلى الله على سيدنا محمد وكرمه وعلى آله وصحبه وسلم).

- تحتوي الورقة الأخيرة على ما يلي: (كمل القسم الرابع من قلائد العقيان ومحاسن الأعيان وبتمامه تم جميع الكتاب والحمد لله الهادي للصواب وصلى الإله على سيدنا محمد وعلى جميع... الأصحاب وكان الفراغ من كتابة هذه النسخة وقت ظهر يوم الأحد المبارك رابع عشر شهر صفر الفرد، الذي هو من شهور عام أربع وثلاثين بعد مائة وألف خلت من هجرة النبي عليه الصلاة والسلام. على يد أسير ذنبه الحقير عبد الله بن عبد الله بن سلام الموزن الأذكاوي بلدا الشافعي الأشعري غفر الله له ولوالديه وصلى الله على محمد خير خلقه وعلى آله وصحبه وعشرته وحزبه وسلم).
- تتكون النسخة من فصلين أحدهما أحدث من الثاني.

الأول وهو الأصل. مكتوب بخط أندلسي مبسوط وجميل وقد بلغ من قدم هذا الأصل أن اسودت جنبات الكتابة وبليت الأوراق وتلاشت، فضاعت أجزاء منها داخل الكثير من الأوراق. والظاهر أنه يعود على الأقل إلى القرن التاسع بالنظر إلى الأصل الثاني الملحق الذي يفصل بيننا وبينه أكثر من قرنين ونصف. ويبتدئ هذا الأصل بترجمة المعتصم بن صمادح وينتهي بترجمة أبي الحسن بن أضحى.

الثاني وهو المضاف الذي أشارت إليه الورقة الأخيرة وهو أحدث، بدلالة نوع الورق وجدته. مكتوب بخط شرقي رقعي جميل عليه مجموعة من التعليقات والتصحيحات ويشمل القسم الخاص بالأمراء إلى بداية ترجمة المعتصم بن صمادح (16 ورقة) كما يشمل القسم الأخير ما بعد ترجمة ابن أضحى (أي ابتداء من ترجمة اللوشي إلى النهاية (الورقة 105).

خصائصها:

- تتفق في عمومها مع النسخة التونسية المطبوعة.
- تتميز بمجموعة من الهوامش أهمها الهامش الذي يخص ترجمة ابن سارة. فقد ألمع فيه الناسخ أو المصحح إلى أن الترجمة الموجودة ضمن الكتاب هي الموجودة في نسخة قديمة بخط مغربي وهي: (نادرة الدهر وزهرة الأيام المثبت في الأعناق من ذمة أو مدحه مياسم كاطواق الحمام...) وهذه الترجمة هي المعروفة لابن سارة البكري في المخطوطة (2423 ك) أما ما رآه في غيرها ـــ وهو الموجود في القلائد المطبوعة – فهو (ثم يأتي بالترجمة المعروفة فيقول):

(اعلم أيها الواقف على ما كتبته في ترجمة ابن سارة. أنه هو الموجود في نسخة قديمة بخط مغربي. وموجود في غيرها كما قد رأيته ما نصه: الأديب أبو محمد بن سارة الشنتريني، سابق الحلبة وعقد تلك اللبة. لا يشق غباره في ميدان نظام، ولا تنسق أخباره في قلة ارتباط وانتظام. أعان على نفسه. واستجلب لها الخمول والحرمان فلا يطير إلا وقع، ولا يرقع خرقا من حاله إلا خرق ما رقع. وهو اليوم مكتتم في كسر تواريه، متقنع بقلة تنعشه وشملة تواريه. وكانت له أهاج سددها نبالا وأورث بها خبالا، إلا أنه قد قوض اليوم عن فنائها ونفض يده من اقتنائها، وله بدائع تستحسن وتستطاب كأنها الوسن... ثم أورد له مؤلف الكتاب في هذه الترجمة ما ليس في تلك الأبيات الفرائد والنوادر الشوارد فأحبت أن أجمع ما احتوت عليه وتلك، وانظم أشعار الترجمتين في سلك. وها أنا ان شاء الله بحوله فاعل ما أردت مستعينا عليه سبحانه في إتمام ما قصدت. كاتبه عبد الله الموزن الأذكاوي عفا الله عنه).

وهكذا جاءت المختارات الشعرية كثيرة ومختلفة في تنظيمها عن ما هو معتاد في القلائد المطبوعة بسبب ما أراده الناسخ من الجمع بين المعروف في الترجمة الأولى (الأصل) وبين ما هو موجود في نسخة أخرى من القلائد.

- كما تثبت النسخة اسم ابن زنباع كما هو لا كما ترويه بعض المخطوطات الأخرى تحت (ابن بياع).
- ثم أن هناك اضطرابا في تراتيب تراجم بعض الشعراء حيث ترجم لأبي بكر يحيي بن بقي بعد أبي عامر بن المرابط، وترجم لأبي الحسن باق بن أحمد قبل أبي بكر بن الصائغ مباشرة.

ثانيا: النسخة 1249

وصفها:

- النسخة من القطع الصغير (15/20) وعدد الأسطر في الورقة 18 سطرا وعدد أوراقها (160 ورقة) مكتوبة بخط مغربي مجوهر ودقيق.
- كانت النسخة في ملك علي بن أحمد الحراق الحسني (كان الله له آمين) حسب ما جاء في جانب الورقة الأولى، الوجه الأول.

• يحتوي الوجه الأول من الورقة الأولى في الوسط عنوان الكتاب وهو: (هذا كتاب قلائد العقيان ومحاسن الأعيان في ملوك بني زيان (وتحتها بخط أندلسي جميل) بل في تراجم جملة من الرؤساء والوزراء وجماعة من أعيان القضاة والعلماء وأجلة الشعراء ونبهاء الأدباء بالأندلس. وفي أعلى الصفحة وبخط دقيق باهت (هذا كتاب فيه من الكتب قلائد العقيان، ورسالة ابن زيدون وشرحها للعالم بن نباتة سماه العيون في رسالة ابن زيدون... سماه مستودع العلامة في خبر بقي مرين والموحدين وغيرهم ورسائل وقصائد فيها) هكذا.

• النسخة مبتورة في أولها وآخرها، وقد عوض بترها الأول بأوراق ثمان مكتوبة بخط مغربي مجوهر، على ورق أحدث من الورق الأصلي الذي كتبت عليه النسخة. كما أكملت النسخة بورق أجنبي أيضا تمم ما كان ينقص ترجمة أبي بكر بن الصائغ. وفي آخر النسخة إشارة إلى من قام بهذا العمل وهو (محمد بن عبد الله بن يعقوب المدعو الصغير الماجري...(خروم) من ذرية الشيخ الصالح سيدي محمد بن صالح الماجري صاحب آسفي... (خروم)، وصادف تمامه وتاريخه يوم الاثنين الثاني... (خروم) من رمضان المعظم من عام (ثلاثين)[1] وألف.

خصائصها:

• لا تختلف النسخة من غيرها من النسخ المغربية فيما احتوته من التراجم والأخبار وما قامت عليه من اختصار المختارات والأشعار. وآية ذلك ما نلاحظه في ترجمة ابن سارة مثلا: حيث مالت إلى إثبات نص الترجمة المعروفة في القلائد المطبوعة. ثم اختصرت المختارات والأشعار اختصارا مس الكم والنوع.

• كما يوجد بها اضطراب في ترتيب التراجم الخاصة بالقسم الرابع وخاصة بعد تراجم المشهورين من الشعراء كابن خفاجة وابن وهبون وابن اللبانة.

د ـــ النسخة الأميرية:

وهي النسخة التي توجد في حوزة صاحب السمو الملكي (المرحوم) الأمير مولاي عبد الله، شقيق جلالة الملك الحسن الثاني(رحمه الله). وقد كشف عنها (المرحوم) الدكتور عبد الهادي التازي في الملتقى العلمي الخاص بتاريخ الأندلس من خلال آثار ابن حيان الأندلسي المنعقد بالرباط أيام 19-20-21/11/1981.

1- يظن الأستاذ المرحوم العابد الفاسي في الجذاذة الخاصة بالنسخة أن الكلمة هي ثلاثين.

ووضع عليها تعليقا يقول في مقدمته (... إنه وقف طويلا أمام هذه النسخة واستشار في أمرها كثيرا من أصدقائه وزملائه الباحثين في الشرق والغرب وترجح لديه أنها نسخة فريدة فعلا من قلائد العقيان. وقد حصر مميزاتها في ثلاثة نعوت:

1) أن ناسخها[1] تعمد أن يحذف الديباجة التي أعتدناها في النسخ المعروفة للقلائد. وهكذا فهو ينتقل توا من عنوان المترجم له إلى الآثار التي تركها[2].

2) يلتزم عدم إيراد الأشعار التي دأبنا على قراءتها في القلائد

3) أن بهذه النسخة زيادات وإضافات لم يعثر عليها فيما وقف عليه من النسخ الخطية في الشرق والغرب، بل أنه لم يجد هذه الزيادات حتى في المصادر الأندلسية التي عاد إليها كالذخيرة والنفح[3]. يضاف إلى ذلك أن هذه النسخة تقدم تصحيحا لكثير من الألفاظ التي توجد في النسخ المتداولة مما يحتاج إلى ضبط.

ثم يشير إلى مضمون النسخة وما فيها من زيادات فيذكر أن بالأوراق ترجمة لابن رزين[4] ورسائل له كتبها إلى المعتمد وإلى المأمون بن ذي النون وعبد الرحمان بن طاهر. وهذا لا يوجد لا في الذخيرة ولا في القلائد. وفي ترجمة ابن الدباغ هناك رسالة منه إلى القاضي بن حمدين وليس لابن حسداي. وفي ترجمة ابن الجد هناك حذف لقطعة العينية واهتمام بما كتبه ابن الجد عن أمير المسلمين في شأن تقديم أبي الفضل عياض. وفيها نقص للتراجم التي ليس فيها نثر كابن رحيم مثلا. ويتساءل الدكتور التازي أخيرا هل نحن أمام نسخ مختلفة من القلائد على شاكلة الاختلاف الموجود في نسخ المطمح. ويجيب على تساؤله بأن الأمر محتاج إلى بحث مقارن.

ونقول إننا لم نطلع على النسخة التي أشار إليها الدكتور التازي لنتخذ منها موقفا. ولكننا من خلال وصفه لها نعتقد أن من الضروري للباحث العلمي أن يتجنب إصدار الأحكام المسبقة وأن يحتاط في وضع التساؤلات التي يمكن أن تصرف الباحث في الموضوع

---

[1]- يعتقد الدكتور التازي أن الحذف من عمل الناسخ. وهذا يتعارض مع النتيجة التي انتهى إليها وهي وجود نسخ متنوعة من القلائد.

[2]- ما يوجد في القلائد ليس هو ما تركه المترجم له، بل هو ما اختاره الفتح.

[3]- كان على الدكتور التازي أن يراجع نسخة المطمح 805 الموجودة في الخزانة الملكية قبل أن يصدر حكمه، لأن بها إشارات وتصحيحات في هذا الموضوع.

[4]- (ترجمة ابن رزين) كلام مخالف لنعته الأول الذي أشار إلى أن الناسخ تعمد عدم إيراد الديباجة أو الترجمة.

عن الطريق الصائب. نقول هذا لأن الدكتور التازي وضع تساؤلات في نهاية (نشرته التي وزعها ونشرها[1] حول وجود نسخ متعددة للقلائد تعددا نوعيا يفترض وجود نسخة تهتم بإيراد النثر كالتي اطلع عليها وأخرى قد تكون مختصة بالشعر أو بغيره.

والحقيقة أن الأمر قد يتصل بعمل تفرد به شخص ما، يفضل النثر على الشعر، أو يقدم النثر على الشعر، لابتعاد أغراضه عن الأغراض المحمضة التي لا تلائم الظروف الاجتماعية والفكرية التي كان يعيشها المغرب في فترة من الفترات. وقد وجدنا نسخة خطية تتعمد الأشعار المحمضة دون أن ترى في ذلك حرجا[2].

ونستخلص من دراستنا للمخطوطات السابقة الخصائص الآتية:

1- مخطوطات المكتب العامة:

إذا قورنت مخطوطات المكتبة العامة ببعضها أو بالنسخة المطبوعة فسيبدو النقص فيها واضحا، هذا النقص الذي يمس التراجم والأخبار والمختارات. وقد أثبتنا ونحن نتناول مميزاتها صورة من هذه الأشياء التي تنقصها والتي تتعلق بما ذكرناه. ولم ننبه على ما يوجد من تقديم وتأخير في ترتيب الأبيات أو القصائد. لأن ذلك من عمل المحققين.

على أنه لو أخذنا من هذه المخطوطات أكبرها حجما وأجدرها بالاهتمام وهي المخطوطة (2423 ك) لوجدنا أنها لم تسلم من هذا النقص الكبير. ويتعلق نقصها بإحدى صورتين:

الأولى: نقص في عدد التراجم فلا توجد بها ترجمة ابن أرقم.

الثانية: اختلاف في نوعية بعض التراجم. فقد اختلفت فيها ترجمة ابن عطية (الابن) واللوشي وابن بقي عما هو معروف في النسخ الأخرى الخطية والمطبوعة بالإضافة إلى مشكل ابن سارة وترجمتيه. ولو حاولنا تعليل ذلك لما تجاوزنا الافتراض، لأن اليقين في مثل هذه المواطن يحتاج إلى ما يدعمه وليس ذلك بأيدينا.

فقد جاء في ترجمة ابن عطية الابن مثلا ما صورته[3]:

---

[1]- العلم: الملحق الثقافي الجمعة 1981/11/26.

[2]- المخطوط 2863 المكتبة الملكية.

[3]- مخطوط 2423 ك الخزانة العامة ص 239.

(فتي العمر كهل العلا، حديث السن قديم البناء، لبس الجلالة بردا ضافيا، وورد ماء الأصالة صافيا. وأوضح للفضل رسما عافيا، وثنى في ذهنه للأغراض فنا قاصدا، وجعل فهمه لها شهابا راصدا، فسما إلى رتب الكهولة صغيرا، وشن كتيبة ذهنه على العلوم مغيرا، فسباها معنى وفضلا، وحواها فرعا وأصلا، وله أدب يسيل رضوضا، ويستحيل ألفاظا مستبدعة وأغراضا. وقد أثبت له...).

فهذه الترجمة لا يوجد لها عنوان في المخطوط، ولولا أن المختارات التي تضمها هذه الترجمة وصلتها بما هو معروف لأبي محمد لاستعصى علينا التعرف على صاحبها بنوع من التدقيق. ثم إننا نجهل السر الذي يختفي وراء وجود ترجمتين اثنتين لابن عطية. والظاهر أن ما يفسر به هذا هو ما يجب ان تفسر به ظاهرة وجود ترجمتين مثبتتين في نسخة (2423ك) لابن سارة البكري، وابن سارة الشنتريني. مع أن الشخصية واحدة[1]. والذي نعتقده هنا هو أن الفتح أملى القلائد مرات كثيرة، وربما كان قد اضطر إلى تغيير بعض الترجمات تغييرا مس أصلها و لم يتناول مختارات إلا بنوع من التغيير الخفيف المرتبط بالتقديم والتأخير.

أما الزيادات الخاصة بالمختارات، والتي اشتملت عليها (2423 ك) فهي كثيرة ومن الصعب الإشارة إليها كلها، ويكفي القول عنها أن كل تحقيق لنسخة القلائد لا يراعي هذه الزيادات يعتبر تحقيقا لاغيا لا فائدة فيه، لأن هذه الزيادات بلغت درجة من الأهمية في بعض التراجم أن ترددت بين البيت الواحد والأبيات الكثيرة، وبين قطع وقصائد برمتها، ليس لها وجود في النسخ الخطية الأخرى أو النسخ المطبوعة.

2 ـــ مخطوطات المكتبة الملكية:

وترجع أهمية هذه المخطوطات إلى ما تضمنته من شروح وتعاليق وخاصة تلك التي تهم بعض التراجم كترجمة ابن سارة الموجودة في المخطوط (1061) والتي علق الناسخ في هامشها بأنه وجد ترجمة أخرى غير التي ذكر في مخطوطة مغربية[2].

كما تعود أهمية هذه المخطوطات إلى ما يمكن أن يكون ملحقا بنسخ القلائد السالفة الذكر مما تضمنته المخطوطة (805) والتي تحمل عنوان مطمح الأنفس، لما يوجد بها من

[1]- توجد ترجمة ابن سارة البكري المختلفة عن الترجمة الموجودة في النسخ المطبوعة في(2423ك) وفي(821ج) مع التنصيص علي البكري وي (370 ج) مع خلط في المختارات. وفي الملكية 549 مع الإشارة إلى اختلافها عن الترجمة المعروفة.

[2]- سبق الحديث عن هذه النقطة في الفصل السابق الخاص بتوثيق نسخ القلائد.

التراجم المشابهة لمضمون القلائد، ولما تحتوي عليه من زيادات هامة تتعلق بمضمون التراجم تارة وبالمختارات تارة أخرى.

فمن الزيادات التي تهم التراجم يمكن الحديث فيها عن ترجمة أبي محمد بن السيد البطليوسي، وأبي عبيد البكري وأبي الوليد أحمد بن زيدون.

* ففي ترجمة ابي محمد عبد الله بن السيد البطليوسي نجد أنها مختلفة عما هو موجود في القلائد (المطبوعة والمخطوطة) وعن ما هو موجود في الرسالة التي ألفها عنه والتي روتها أزهار الرياض ونص الترجمة هو[1]:

(... أمام الأوان ومعلم النحو، وعلم الإثبات فيه والمحو، به يدرك غامضه ويستثار رابضه، وهو بالأندلس في الآداب كالجاحظ بل أرفع درجة، وأنفع لمن سام برقه أو شم أرجه، وشلب بيضته ومنها كانت حركة أبيه ونهضته. وفيها كان استقرارهم وعنها حان عند تغلب البربر فرارهم. ونسب إلى بطليوس لتردده بها أو لمولده في تربتها. حيث كان، فقد طبق الأرض رفعة ذكر، وسبق أهلها بكل نزعة فكر. وتصرف أبو محمد هذا مع الأيام كيف تصرفت وجاراها حين أقبلت وحين انحرفت، فخدم الرياسات وأبرم عرى السياسات. ونفق وكسد وارتفق وتوسد، ونصب نفسه لإقراء النحو، وقنع بتغييم جوه بعد الصحو، ثم برح بذلك الحيف فعدل عن الخيف، وقعد للتدريس واقتعد كاهله اقتصاد الرئيس وكان له في دولة ابن رزين مجال ممتد ومكان معتد. ولما رأى الأحوال واختلالها، والأقوال وانحلالها، وتلك الشموس قد هوت ونجوم الآمال قد خوت، اضرب عن سواه ونكب عن نجواه، وأعرب بلوعة ابن رزين جواه... وعنده توجد غرائب اللغة... وقد أثبت من محاسنه...).

فهذه الترجمة مع ما ذيلت به من المختارات والأخبار التي كان اتصالها بالقلائد واضحا – تبدو محرجة لمن يريد أن يتأكد من ترجمة القلائد الحقيقية، أو أن يهتدي إلى رواية واحد فيها، ولعل السبيل الوحيد للخروج من هذا الإحراج أن نفترض أن الفتح أملى ترجمة ابن السيد أكثر من مرة، وكان يدخل تغييرات على صدر الترجمة، ويحتفظ على المختارات كما هي، وهذا هو السر في اختلاف بنية الترجمة عن ما هو معروف في القلائد. ومن المستبعد أن تكون هذه الترجمة خاصة بالمطمح. لأن الفكرة التي قام عليها المطمح كما

[1]- مطمح الأنفس المكتبة الملكية (805) ص 137.

سنوضح، لا تفرض أن يغير صلب الترجمة وإلا كان عليه أن يسلك نفس السلوك مع بقية التراجم الأخرى التي أورد هناك.

* وفي ترجمة أبي عبيد البكري نعثر على اختلاف يتعلق بمضمون الترجمة ومنهجها، حيث يروي عن ابن حيان أخبارا متعلقة بأسرة البكري كما يروي أخبارا أخرى تتعلق بحياة أبي عبيد لا توجد في القلائد. وبهذا تصبح ترجمة البكري في المخطوطة على الشكل الآتي[1]:

(... ووجدت بخط أبي حيان. كان الأديب الحسيب أبو عبيد الله عبد الله بن عبد العزيز بن المصعب البكري، أمير ساحل كورة لبلة وصاحب جزيرة شلطيش وأونبه. ورث عن أبيه في الفتنة رئاسة مؤتلة في الجماعة. وكان عبيد الله متقدما من أهل البيوتات وأرباب النعم في الأندلس فغلبه ابن عباد صاحب إشبيلية على سلطانه ببلده المذكور فلاذ بقرطبة. ثم صار إلى ابن معن صاحب المرية. فاصطفاه لصحبته وآثره مجالسته والأنس به، ووسع راتبه، ووفر طمعته ومن شعره[2]:

أجد هوى لم يأل شوقا تجددا   ووجدا إذا ما اهم الحب انجدا

وما زال هذا الدهر يلحن في الورى   فيرفع مجرورا ويخفض مبتدا

ومن لم يحط بالناس علما فإنني   بلوهم شتى سواداً وسيدا

وكان رحمه الله معاقرا للراح لا يصحو من خماره، ولا يمحو رسم إدمانه في مضماره، ولا يريح إلا على تعاطيها، ولا يستريح إلا إلى معاطيها. قد اتخذ إدمانها هُجيراه، ونبذ في الإقلاع عنها مسجده ومصلاه. فلما حان انقراض شعبان وانصرامه، طلبه بالإدمان عليها كلفه وغرامه، وخاف من واش يشي، ثم غلبته الصبوة فطاف بكعبتها طواف المنتشى، ولم يتورع عن إتيان الدنية، ولا فزع للتحرج تنيه. وندب نديمين كانا اهتك منه سترا وأقل عن المحجورات صبرا وقال[3].

خليلي إني قد طربت إلى الكاس   ونسرق هذا اليوم سرا من الناس

1- مطمح الأنفس المكتبة الملكية (805) ص 143.

2- الذخيرة 238/2.

3- نفس المرجع

فــإن فطنــوا كنــا نصــارى ترهبــوا وأن غفلــوا عــدنا ســراعا إلى الكــاس
ولــيس علينــا في التعلــل ســاعة وأن وقعت في عقب شـعبان مـن بـاس

ولما خرج ابن السقاء إلى لقاء باديس كتب إليه [1]

كذا في بـروج السـعد ينتقـل البـدر ويحسـن حيـث احتـل آثـاره القطـر
وتقتســم الأرض الخطــوط قبقعــة لهــا وافــر منــها وأخــرى لهــا نــزر
أذل مكــان غــاب عنــه مملكــي وعــز مكــان حلــه ذلــك البــدر

(وآخر هذه المختارات هي):

وله في المعتمد رحمه الله عند إجازته البحر مستجيرا بأمير المسلمين نضر الله وجهه ومستعينا ومتداركا به من الإسلام منبتا ضعينا[2].

يهون علينـا مركـب الفلـك أن نـرى محيا العلـى لمـا نـأى مركـب الجـرد
فجزنــا أجــاج البحــر نبغــي زلالــه وذقنا جنى الشريان تبغـي جـنى الشـهد
يــذكرنا ذاك العبــاب إذا طمــى ندى كفك الهامي علـى القـرب والبعـد
محمــد يــا ابــن الأكــرمين أرومــة ليهنــك تشــييد المكــارم والمجــد
فلــو خلــد الإنســان بالمجــد والتقــى وآلائــه الحســنى لهنئــت بالخلــد

وهكذا يبدو أن الترجمة مختلفة عما اعتدناه في نسخ القلائد وليس على ذلك من تعليل إلا ما عللنا به الزيادة الموجودة في الترجمة السابقة.

* أما عن ترجمة ابن زيدون فهي أيضا تختلف عن ترجمة القلائد وإن كان الاختلاف لا يمس إلا أصل الترجمة على اعتبار أن المختارات كانت فيهما متشابهة. وقد اهتمت الترجمة الموجودة في المطمح بالحديث عن الجانب السياسي من حياة أبي الوليد. وعززت ما

1- الذخيرة 237/2.
2- توجد أيضا في الذخيرة 238/2.

أوردته من الأخبار بنصوص واستشهادات لم ترد في الترجمة المطبوعة والمعروفة. ونص الترجمة هو[1]: (زعيم الدولة القرطبية، وعظيم الفتية الأدبية، الذي توج الأوان تاجا من المحاسن، وورد ماء الإحسان غير آسن (...) دولة الجهاورة، واصطفته اصطفاء الأساورة. واختص بأبي الوليد منهم اختصاص الفرح بالنور، وارتبط بهم ارتباط الإفاضة بالفور، وأبو الحزم بن جهور إذ ذاك رأس الجماعة، وأصل تلك الأسرة المطاعة، من رجل أدهى من فقير عمان، وأجرأ من ليث بخفان، وأدهى من عمر بن عامر ذي الجنان. وكان ابن زيدون متصلا بأبي الوليد جهور، أطول حقبة، اتصال ابن الزبير بالوليد بن عقبة، وكان بينهما تآلف أحرما بكعبته وطافا، وتصافيا من تصافيهما نطافا. فكان ابن زيدون يعتد ذلك حساما مسلولا، ويرى أنه يريه به صعب الخطوب ذلولا. إلى أن طولب عند أبيه أبي الحزم بطلب، حصل به بين ناب البغي ومخلب. فاستشفع بأبي الوليد وتوسل، واستدفع به تلك الأسنة المشرعة والأسل. فما ثنى إليه عنان عطفه، ولا كف عنه استنان صرفه. مع استعطافه له في كل مقال يحل سخائم الأحقاد، واستعطافه إياه بما يرد الصعب سلسل القياد. فمن بديع ذلك وحسنه ومستلطفه ومستحسنه.

أيـــه أبـــا الحـــزم واهتبـــل عـــدة ألســـنة الشـــكر عنـــها فصـــاح
لا طـــار بي حـــظ إلى غايـــة إن لم أكـــن منـــك مـــريش الجنـــاح
يمنـــاك بعـــد العتـــب منيـــة مـــالي علـــى الـــدهر سـواها اقتـــراح
لم يثـــني عـــن أمـــل مـــا جـــرى قـــد يرقـــع الخـــرق وتوســـى الجـــراح

ومنها:

إن ســـحاب الأفـــق منـــها والحيـــا والحمـــد في تأليفهـــا للريـــاح

وله أيضا:

أتوحشـــني الأيـــام في بلـــد الأنـــس وأشكو ظلام الـــدهر في مطلـــع الشـــمس

---

[1]- مطمح الأنفس المكتبة الملكية (805) ص 149.

[2]= القلائد

ولما لم تنفع رقاه، ولم يدفع عنده أبو الحزم الذي أبعده وأصماه، أضجره ذلك وأحقده، وحل من ارتباطه ما كان عقده. وعاتبهم بأخشن عتاب، ونأى عنهم بجانب من الثقة مرتاب وقال:

بـــني جمهـــور أحـــرقتم بجفـــائكم فـــؤادي فمـــا بـــال المـــدائح تعبـــق

تظنـــوني كـــالعنبر الـــورد إنمـــا تطيـــب لكـــم أنفاســـه حـــين يحـــرق

وكتب إليه: (حنانيك قد بلغ الماء الزبى، ونالني من حسبي به وكفى، وما أراني إلا أني أمرت بالسجود لآدم فأبيت واستكبرت، وقال لي نوح عليه السلام اركب معنا...)[1].

وهكذا ننتهي في هذا الشأن إلى الاعتقاد بأن الفتح قد أملى الترجمتين خلال فترتين مختلفين كما حدث في الترجمتين السابقتين.

أما الزيادات التي تهم المختارات فهي كثيرة ومتنوعة وكثرتها تعود إلى النسخ التي نقل الفتح عنها، أو تعود إلى ما بقي في ذهنه من المحفوظات حولها.

وهكذا جاءت كثير من هذه المختارات مختلفة عما وجدناه في فصول القلائد متنوعة تنوع الإشكال الفنية التي عرضها.

وسنكتفي هنا بنموذجين اثنين من الزيادات النوعية التي تميزت بها هذه المخطوطة.

1) ترجمة أبي عبد الله بن أبي الخصال. فقد أوردت المخطوطة بعد المختارات الأولى (... وبات ببلنسية بموضع تأنس بحضوره، واقتبس فيها ما شاء من نور سروره. وتعاطى فيها كؤوس الراح، واكتسى شموس الأفراح. ثم نهض إلى سرقسطة. واتفق لهم افتتاحها وأشرق بأعينهم صباحها. إلا أن خيمهم فيها تنغض، وزعيمهم شرق فيها بالحمام وغص. ولما قتل أبو يحيي ودثر له من الاعتباط لاحبه كر صادرا، وأنكر عنها متحيزا. والطلب يزعجه والخوف يوثر له منهجه. فذكر ليلة وحسنها وشكر الزمان الذي فرضها وسقاها وأسف على فواتها وانتقاله منها إلى أنياب الحوادث ولهواتها فقال:

يـــا حبـــذا ليلـــة لنـــا ســـلفت أغـــرت بـــنفس الهـــوى ومـــا عرفـــت

[1]- البقية في القلائد 79.

زارت بظلمائهـــــا المـــــدام فكـــــم نرجســـــة مـــــن بنفســـــجه قطفـــــت

ففي الزيادة هذه جملة إفادات:

أولها إن ابن الخصال لم يكن بالصورة الملائكة التي يصور بها من رجل الدين والمروءة فقط، بل كان رجل العصر بما يحتويه العصر من خير وشر وفجور ونسك.

وثانيها: الاتصال الذي كان قائما بينه وبين أبي يحيي بن الحاج، ودرجته ونوعيته من وجهة نظر الفتح.

ثالثها: موقف ابن أبي الخصال بعد وفاة صاحبه، هذا الموقف الذي حددته الأبيات الشعرية التي رواها الفتح.

2) ترجمة أبي عبد الله بن حمدين: فقد أوردت الترجمة رسالة منه إلى الفتح يقول فيها:

(ومن رقعة كتبها إلي: وصل الكتاب الكريم، ففضضته عن در، ومعان غر. تبين سبقك لهذه العثرة وأنافتك عن هذه الزمرة، ويوجب لك بذلك الاعتراف، وتوطد لك من الرعي أرحب الأكناف، ورأيت ما ذكرته من وضع كتاب يكون لمحاسن أهل الأندلس ناظما، ولإخبارهم جامعا. فقدرت قدرة مترعك، وشكرت زمانا أطلعك. ولاشك أنك ستجلوه في أحسن صورة، ولا تألوه إحسانا تحسده الشمس نوره. فتتغاير عليه الأعمار، وتتهافت إليه الأبصار، فخذ أعزك الله في إظهاره، وأسلخ ليله من نهاره، وأهب عليه أنفاس العراق، وأنسنا بسببه محاسن تلك الآفاق. وعندي من العون لك على محاولته ما يشعرك نشاطا ويورث خاطرك إيناسا وانبساطا، إن شاء الله عز وجل).

فهذه الرسالة أيضا تحمل مجموعة فوائد لا تخلو من أهمية منها:

أ ـــ تأكيد ما أشار إليه المؤرخون[1] من أن الفتح حين عزم على وضع كتابه أرسل كتبه إلى المشهورين من الأدباء والعلماء يطلب منهم إنفاذ بعض إنتاجهم[2].

ب ـــ الإشارة إلى العلاقة التي كانت قائمة بينه وبين ابن حمدين

1- معجم الأدباء 186/17.

2- أشار إلى ذلك في ترجمة ابن أبي الخصال القلائد 201.

ج ــ موقف رجال العصر من تأليف كتاب خاص عن الأندلس ينسي الناس في العراق ومحاسنه (يتيمة الثعالبي).

د ــ شعور الأندلسيين تجاه الفتح وأنه قادر على القيام بهذه المهمة لكفاءته،من جهة، ولما سيبدلونه له من المساعدات في سبيل بلوغ ذلك.

ومن خلال هاتين الإشارتين والإشارات السابقة تبدو الصعوبة التي أشرنا إليها في مقدمة هذا الفصل، والتي تعترض من يريد إعداد نسخة كاملة من القلائد تستوعب الشاذ والفاذ، وتقف على كل النصوص الواردة فيها دون أن يكون هناك بتر أو نقص أو حذف. مع العلم بأننا لم نطلع إلا على النسخ الخطية المغربية الموجودة في الخزائن العامة التي يستطيع الباحث الرجوع إليها، ولاشك أن مكتبات شمال إفريقيا العامة، وبعض المكتبات الخاصة تحمل من المفاجآت مالا ينبغي إغفاله. لذلك لم نعمد إلى إثبات ما اعتمدناه نقصا ووجدنا أصولا منه في النسخ الخطية، ظنا منا أننا لا نقوم إلا بدور التنبيه. على أن النسخة المطبوعة لا تحتوي على كل ما جاء في القلائد الأصلية. وأن المفروض على من يريد أن يحقق الكتاب أن يعود على الأقل إلى النسخ الخطية الموجودة في المكتبات العامة في شمال إفريقيا وبعض المكتبات المشهورة في الشرق والغرب من أجل الوصول إلى نسخة كاملة.

كما أنه من خلال ما تقدم أيضا يمكن القول بأننا نتعامل مع صورتين للقلائد إحداهما مطولة، والثانية مختصرة:

فالمطولة هي النسخة التي اعتمدها الفتح في نهاية الأمر ورضيها وأجاز فيها من أجاز. وهي في نظري غير محددة بما هو وارد في النسخ المطبوعة أو حتى المخطوطة من القلائد لأنها ينبغي أن تضم كل التراجم المشهورة فيها وبنصوصها المختلفة سواء تلك التي وجدت فيها أو التي وجدت في غيرها من نسخ المطمح، لأن تراجم القلائد التي تضمنها المطمح هي في أصلها من القلائد، ودخلت عرضا فيه لغرض من الأغراض التي أرادها الفتح، وبعبارة فالمطولة نسخة تحتاج إلى جمع ومقارنة وإعادة ترتيب وتأليف.

والمختصرة هي النسخة الرسمية التي قدمها الفتح لأبي إسحاق إبراهيم بن يوسف ولم يكن خلالها قد راجع ما ينبغي مراجعته، ولم تكن آفاق اتصالاته ومعارفه قد اتسعت كما حصل فيها بعد، فجاءت مشتملة على ما انتهى إليه آنذاك، تخدم الغرض الذي ألفت من

أجله. وقد تبين لنا من خلال ما عرضناه من النماذج السابقة للقلائد أن هناك اختلافا بينها مس الكم كما مس الكيف.

بل نذهب إلى أبعد من هذا فنزعم أن أغلب النسخ المخطوطة والمتداولة من القلائد هي النسخ المختصرة فقط، بدليل أن جل ما هو موجود ومتوفر منها يشتمل على هذه الصفات التي وصفنا بها النسخة المختصرة.

كما نستنتج من خلال ما تقدم أن هناك تفاوتا في أقدمية النسخ بعضها عن بعض. ولو حاولنا ترتيبها وفق نسق زمني يبتدئ بالقديم فالذي بعده لوجدنا أن النسخة الملكية (475) هي أقدم النسخ لأنها كتبت سنة 1127 هـ وأن نسخة القرويين (459) تليها لأنها كتبت بعدها أي سنة 1134 هـ ثم تأتي بعدهما نسخة الجلاوي (370 ج) المكتوبة سنة 1187 هـ ثم تأتي بعدهما نسخة الجلاوي سنة 1244 هـ ثم نسخة الكتاني (2423 ك) بالخزانة العامة المكتوبة 1271 هـ. على أنه يجوز أن يكون هذا التاريخ غير مضبوط، لأن كثيرا من النسخ لم يوضع عليها تاريخ نسخها، وإن كانت حالتها تدل على أنها لن تتجاوز القرن بدليل نوع الورق وحالته.

كما نستنتج أن هناك زيادات لا تخلو من أهمية تدعو إلى إعادة النظر فيما ينبغي إثباته في القلائد الكبرى أو المطولة.

أما النسخ المطبوعة: فقد عرض للحديث عنها غير واحد من الذين درسوا آثاره من أصحاب كتب الفهارس والدارسين المحدثين، وقد أشار كارل بروكلمان إلى طبعات القلائد فقال: [1] (... نشره سليمان الحرايري بمجلة البرجيس في باريس سنة 1277هـ وطبع في بيروت سنة 1283 هـ وفي بولاق 1283 و1284 هـ).

ويبدو أنه لم يذكر النسخ المطبوعة في بداية هذا القرن. وقد استدرك محمد العنابي هذا النقص فأشار في المقدمة التي كتبها لنسخة القلائد- المصورة عن نسخة باريس السابقة_ إلى طبعاته فقال[2]:

[1]- تاريخ الأدب العربي 107/6.
[2]- قلائد العقيان ط توس المقدمة

(... طبع الكتاب أربع طبعات. طبع أولا بعناية رشيد الدحداح بباريس سنة (1860-1277) في صحائف (353) وقام بتصيحه الشيخ أبو الربيع سليمان بن علي الحرائري الحسني التونسي.. وطبع كتاب القلائد ثانيا ببولاق في عهد إسماعيل لملتزم طبعه الشيخ محمد صالح أكرم بتصحيح محمد الصباغ في العشر الأول من صفر سنة 1213 في صحائف 304، وطبع رابعا بمطبعة التقدم العلمية بالقاهرة في النصف الثاني من شوال سنة 1320هـ في صحائف 220. قام بطبعه محمد عبد الواحد بك الطوبي بتصحيح الشيخ علي بن أحمد الهواري).

ويظهر أن الأستاذ العنابي قد أغفل الإشارة إلى طبعة بولاق التي ذكرها بوكلمان، كما نسي الإشارة إلى طبعة بيروت 1283 والتي ذكرها بروكلمان أيضا. والظاهر أنه أغفلها لأنه أشار إلى الرابعة و لم يذكر الثالثة. وعلى كل فإن طبعات القلائد لم تخرج عن ما ذكره بروكلمان والعنابي، وكل هذه الطبعات تكاد تصبح في حكم المخطوط نظرا لقدمها كما أنها لم تحقق التحقيق العلمي المطلوب وإنما صححت من جانب مجموعة من الفضلاء. وإن كنا لا ندري صورة هذا التصحيح. هل هو تصحيح تعلق بالمخطوط الذي نقل عنه، أم بالمطبوع الذي روجع.

كما لا ندري الأصول التي اعتمد عليها في هذه المطبوعات.

وحين نقيم مقارنة بين هذه النماذج المطبوعة. نجد أن مجال الاتصال بينها أو بين جلها[1] كامل، ما خلا بعض الاستثناءات وتهم خاصة ترجمة أبي القاسم بن العطار[2] إذ توجد في نسخة الطوبى زيادات بالنسبة لنسخة العنابي التونسية تبتدئ بعد المختارات، الخامسة وتهم أربع قطع:

الأولى: ثلاثة أبيات في وصف يوم ركب فيه النهر[3].

مالي على سطوات النهر من جلد ... ألقيت نحو تباريح الهوى بيدي

جليت عن منهل السلوان من رشا ... بجيده حلية من صنعة الغيد

---

[1]- لم نطلع على طبعة بيروت التي أشار إليها بروكلمان.

[2]- القلائد 328.

[3]- القلائد (نسخة الطوبي) 298.

مـــذ قـــادني طرفـــه للحـــين اعلمـــني   أن العيـــون لهـــا قتلـــى بـــلا قـــود

الثانية: قطعة شعرية خاطب بها الفتح حين رحلوا إلى قرطبة:

كتبـــت أليـــك يـــارب الكتابـــة   حروفـــا خطهـــا قلـــم الكتابـــة

وبـــين جـــوانحي للشـــوق نـــار   تجـــول بـــين أجفـــاني ســـحابة

لـــئن تاهـــت بـــك الـــدنيا بهـــاء   لقـــد هامـــت بـــك العليـــا صـــبابة

ولـــو رفعـــت عيـــون المجـــد بنـــدا   تلقـــى منـــها رايتـــها عرابـــة

بقرطبـــة البيـــان تعـــب عبـــا   ولـــيس بحمصـــنا منـــه شـــبابة

عـــبرت إلى المكـــارم بحـــر بيـــد   علـــى وجنـــاء ســـارية ســـحابة

وأمـــا حمـــص منـــذ رحلـــت عنـــها   فيـــأبى وجههـــا إلا كآبـــة

الثالثة: قطعة يصف فيها عشية أنس:

مـــا كالعشـــية في رواء جمالهـــا   وبلـــوغ نفســـي منتـــهى آمالهـــا

ما شئت شمـــس الأرض مشـــرقة الســـنا   والشـــمس قـــد شـــدت مطـــي رحالهـــا

مـــن حيـــث تنســـاب الميـــاه أراقمـــا   وتعـــيرك الأفيـــاء بـــرد ضـــلالها

الرابعة: قطعة شعرية غزلية في الشوق إلى المحبوب:

هـــب النســـيم مـــع العشـــي فشـــاقني   إذ كـــان مـــن جهـــة الحبيـــب هبوبـــه

وكأنـــه إذ هـــب مـــن تلقائـــه   عـــرف القرنفـــل والعـــبير يشـــوبه

قـــد كنـــت ودعـــت الصـــبا بوداعـــه   وأخـــو الصـــبابة لا تفيـــق ندوبـــه

فـــدعا الهـــوى لي دعـــوة لم أعصـــها   والصـــب راحـــة قلبـــه تعذيبـــه

لو لم أجـــب داعـــي الهـــوى وعصـــيته   لغـــدت جفـــوني بالـــدموع تجيبـــه

فهذه المختارات هي الاستثناء الوحيد الذي يفصل بين مضمون الطبعات المختلفة. وتوجد إشارة إلى هذا الاستثناء فيما لاحظناه في النسخة الخطية 2423 ك حيث تروي مختارات ابن العطار على هذه الكيفية، أي بدون أن تحذف شيئا كما فعلت نسخة العنابي.

ولو اتجهنا إلى تحقيق وتوثيق القلائد عن طريق المقارنة بينها وبين ما ورد عنها من نقول في المصادر والمراجع وكتب المختارات لاستعصى علينا الأمر. نظرا لكثرة هذه النقول من جهة، ونظرا لكثرة هذه المصادر والمراجع من جهة أخرى. على أن هذا لم يمنعنا من الإشارة إلى بعضها أو إلى أهمها في نظرنا، وهي المصادر التي جعلت القلائد ركيزة اعتمدتها وحدها أو مع غيرها. وفي مقدمة هذه المصادر:

1) خريدة القصر وجريدة العصر: فقد أفرد صاحبها جزءا خاصا من القسم الرابع المتعلق بشعراء إفريقيا والأندلس للحديث عن شعراء القلائد فذكر منهم ثلاثة وخمسين شاعرا جلهم موجود بنسخة القلائد (المخطوطة والمطبوعة) ما عدا شاعرين اثنين هما أبو محمد عبد الرحيم بن عبد الرازق[1] وأبو القاسم بن أبي بكر بن عبد العزيز[2]:

أما الأول: فقد كان من وزراء عبد الله بن بلقين صاحب غرناطة كما ذكر صاحب المغرب[3] وقد نقلت الخريدة عن الفتح أخبارا عنه تختلف عما رواه صاحب المغرب، تجعله من أهل العلم المتبحرين فيه، كما أنه اشتغل في آخر أيامه بطلب الكيمياء حتى حصل له منها ضرر في عينيه دون أن يحصل منها على طائل. ويبدو من ثنايا ما نقلته الخريدة أن هذه النقول، تحمل نفس الفتح في قلائده من اشتمالها على غريب الخبر ومأثور الشعر، رغم أن الخريدة لا تعتني بنقل لفظ الفتح أو صورة ترجمته.

أما الثاني: فتسكت المصادر عن ذكره. ويشير محققا الخريدة[4] إلى افتراض أنه هو علي بن أبي بكر بن عبد العزيز (519-584) الذي ترجم له ابن دحية في المطرب، ويحتجان على ذلك باضطراب الكنى والألقاب في الأندلس. ولست مع ما ذهب إليه في تحديد حقيقته لأن تأليف القلائد تم قبل تاريخ ميلاد هذه الشخصية التي افترضها وحتى لو

1- الخريدة 2/ 420.

2- المغرب 115/2.

3- الخريدة 439/2.

4- الخريدة الهامش 439/2.

افترضنا أن الفتح أضاف شيئا فيما بعد. فإن وفاته المتقدمة (529) تجعل من العسير أن يترجم لطفل لم يبلغ الحلم.

أما عن مضمون ما نقله صاحب الخريدة عن القلائد. فهو لا يختلف في عمومه عما نعرفه عنها وعن نفس الفتح فيها، سواء في التراجم وما تحتويه من أخباره، أو في المختارات وما فيها من تنوع. ويظهر أن العماد الأصفهاني كان من المعجبين بالقلائد وأسلوبها فسار على خطتها. ونقل عنها نقلا يكاد تاما وخاصة في المختارات، لأنه كان يميل إلى التصرف في مادة الترجمة ويطوعها لأسلوبه الخاص وبهذا تظل أهمية الخريدة محصورة في تصحيح النصوص وتحقيقها. أما عن مختارات الشخصيتين السابقتي الذكر، فالجديد فيها أنها تقدم لنا نماذج لشخصيات نجهلها أو نجهل عنها الشيء الكثير، على قلة هذه النماذج وضعف شأنها المادي.

2) أما عن مغرب ابن سعيد. فقد ضم مجموعة من النقول التي لا تخلو من أهمية، إذ جمع جزآه واحدا وأربعين ترجمة نقل أغلب ما فيها عن القلائد، بالإضافة إلى نقول أخرى لا تمس تراجم الأفراد، وإنما تمس أخبار المدن والحصون، مثل ما نقله عن بلدة روندة مثلا[1]. وتبدو النقول التي رواها ابن سعيد مطابقة في الجوهر لما ورد في القلائد، رغم أنه كان يمارس عملية اختيار على ما ورد في الترجمة التي ينقل عنها، فيختار ما يلائم مزاجه ومنهج ترجمته على العموم. وقد كان يشير في بعض الأحيان إلى صورة ما وجد في النسخة التي ينقل عنها. وخص ذلك ترجمة أبي بكر محمد بن عبد الملك بن عيسى بن قزمان القرطبي (الأكبر) [2] حيث أشار إلى ما اختاره له الفتح بقوله: (ولم يورد له إلا قولة:

ركبوا السيول من الخيول وركبوا ... فوق الموالي السمر زرق نطاف

وتجللوا الغدران من ماذيهم ... مرتجة إلا على الأكتاف

والظاهر أن ابن سعيد كان ينقل عن نسخة مختصرة من القلائد، بدليل أننا نجد في النسخة 2423 ك إضافات أخرى تتمثل في مقطوعة من ثمانية أبيات يقول في مقدمتها:

قلت للعين حين أدرت على الخدو ... د دموعا ما تستفيق انهمالا

1- القلائد 22.

2- المغرب 100/99/1.

ومقطوعة أخرى من ثلاثة أبيات يقول فيها:

وشمس كسوناها ببدر صيانة وقد عاد وجه الأرض أسود حالكا

أطرنا بها طير الدجى عن بلاده إلى أن رأت عيناه فيها المسالكا

حججنا بها بيتا من اللهو لم نزل عكوفا بها حتى قضينا المناسكا

على أنه لا توجد زيادات أخرى عن ما ورد في القلائد، لأن الذي يبدو أن ابن سعيد كان ينقل عن النسخة الرسمية التي أشرنا إليها سابقا والتي لا تحتوي على خصوصية جديرة بالذكر.

3) أما ابن الخطيب فقد ضمت كثير من مؤلفاته نقولا عن القلائد لا تخلو من أهمية على قلتها. وترجع هذه الأهمية إلى اعتماده مؤلفات الفتح مصدرا من مصادره[1]، كما ترجع هذه الأهمية إلى إعجابه بالطابع الفني لنثر الفتح في مؤلفاته، كما تدل على ذلك بعض مؤلفاته وخاصة (النفاية بعد الكفاية) التي جرت على نسق القلائد وإن لم تصلنا[2]، وكذلك كتابه (الكتيبة الكامنة). وعلى كل فإن من يراجع الإحاطة وأعمال الأعلام (قسم الأندلس) يجد صورة مما ذكرنا. فقد استعان بنصوص من القلائد في كتاب الإحاطة في سبع تراجم تتعلق بباديس بن حبوس، وأبناء القبطورنة، والمعتمد بن عباد، وابن أبي الخصال، وابن قزمان، وأبي محمد بن مالك، وعمر بن المظفر. ولعل السر في قلة استعانته بالقلائد يعود إلى ضيق مجال كتابه الإحاطة المخلص لأخبار غرناطة ومن سكنها أو مر بها...

وفي كتاب أعمال الأعلام كان مخلصا للتاريخ أكثر من أي شيء آخر. لذلك كان اعتماده على المصادر التاريخية البحتة (كالبيان المغرب والمقتبس...) أكثر من اعتماده على غيرها. ورغم ذلك فقد نقل عن القلائد وفي القسم الأول منها خاصة، وظهر أثر ذلك في ترجمة المعتمد[3] وعلاقته بابن عمار، وفي جزء من ترجمة المتوكل بن الأفطس[4]، وفي بعض

---

[1]- مقدمة الإحاطة 1/4 النفح 220/2.

[2]- الإحاطة 63/1.

[3]- أعمال الأعلام 160.

[4]- أعمال الأعلام 180.

أخبار المعتصم بن صمادح[1]، وفي بعض أخبار ابن طاهر[2]، ثم في أخبار عبد الملك بن رزين[3].

ولم يلتزم في نقوله منهجا معينا نستطيع الاعتماد عليه في المقابلة، لأنه كان ينقل تارة نقلا صريحا، فيورد ما هو موجود في القلائد بنصه (ابن الأفطس، ابن صمادح، ابن رزين) وكان ينقل تارة أخرى نقلا بالمعنى فلا يورد نص القلائد، وإنما يورد مضمونه ويشير إلى ذلك. وليس بين ما أورده في أعمال الأعلام وما هو موجود في القلائد اختلاف يذكر. لأن موطن الاختلاف بين نسخ القلائد لا يشمل هذه التراجم ولا يعني هذه الشخصيات.

4) أما الأزدي فقد كان في بدائع البدائه قليل الاعتماد على القلائد رغم تأثره بمنهجها واهتمامه ببعض أعيانها.

وهكذا كان اعتماده عليها على صورتين:

الأولى رواية كلام الفتح بصورته الأصلية، دون أن يدخل عليه تغييرا يذكر.

الثانية رواية كلامه بالمعنى مع النسج على منواله وقالبه وإيراد المختار من الشعر والنثر الذي استشهد به الفتح أو رواه لصاحب ترجمته. ولا يصادف الباحث اختلاف يذكر بين ما أورده الأزدي وما هو موجود في القلائد. لاسيما حين كان يميل عن رواية كلام الفتح بالمعنى.

5) أما المقري فيظهر أن اعتماده على القلائد كان كبيرا. فقد استفاد منه استفادة واسعة شملت الجزئيات والكليات التي اشتمل عليها الكتاب. وليس المجال هنا مجال تحديد مواطن الاستفادة بقدر ما هو مجال ارتباط المادة المنقولة بأصلها الوارد في النسخ المطبوعة.

فقد أورد المقري أخبارا ونقولا كثيرة تجاوز الصريح منها الأربعين وتعلقت مادتها بما استوعبه المقري في موسوعته. وقد تركزت هذه النقول خاصة في الجزء الأول والرابع والثالث والثاني[4] لأن هذه الأجزاء هي التي اهتم موضوعها ببعض ما رواه في النفح عن

[1]- أعمال الأعلام 191.

[2]- أعمال الأعلام 201.

[3]- أعمال الأعلام 206.

[4]- الترتيب هنا قائم على كثرة ما روي من المنقول عن القلائد.

القلائد، بينما كان كتاب أزهار الرياض أقل اتصالا من سابقه فيما اشتمل عليه من هذه النقول. لأن موضوعه وإن ارتبط بالعصر الذي كتبت فيه القلائد. إلا أن المجال الذي تناوله يحمل على ضرورة وقوف هذه النقول عند حدود معينة ولهذا لم ترد هذه النقول إلا في مواطن محدودة لا تتعدى السبعة أغلبها محصور في المجال الذي يتعلق ببعض شيوخ القاضي عياض كابن حمدين وابن السيد... من الذين وردت تراجمهم في القلائد وأقلها متعلق بالاتصالات التي كانت تربط عياضا ببعض رجال عصره.

وليس هناك اختلاف بينما أورده المقري في النفح أو في الأزهار منقولا عن القلائد وبين أصله إلا في مواطن محدودة لا أهمية لها، تتعلق ببعض المفردات فقط[1] ولهذا وجدنا محققي النفح والأزهار يعتمدون النسخ المطبوعة من القلائد، مع أن عملهم في التحقيق كان يفرض عليهم الرجوع إلى نسخ القلائد المخطوطة ليتعرفوا فيها على بعض مواطن الاختلاف إن كانت، وكذا إلى ما نقل عنها.

وأخيرا نعرض لقضيتين على جانب كبير من الأهمية في هذا المجال الأولى: تتعلق بما ورد من نصوص القلائد في كتاب الذخيرة لمعاصره ابن الحسن على بن بسام.

والثانية: تتعلق بالشرح الذي وضعه الشاعر ابن زاكور الفاسي على القلائد.

* أما النقطة الأولى فتتعلق بما وجد من النصوص في كتاب الذخيرة منقولا عن القلائد. وقد نبه محقق الذخيرة إلى ما يمكن أن يكون قد حصل من دس لهذه النصوص داخلها، عن قصد أو غير قصد لاسيما وأن أغلب هذه المدسوسات تورد في صدر ما كتبه ابن بسام حولها. وهذه النقول لا تتعدى أصابع اليد[2]. كما علل هذا الدس بما تلعبه الهوامش من دور في هذا المجال، لاسيما بالنسبة للنساخ الذين يجهلون المادة المنقولة فيضيفون ما في الهوامش على أساس أنه تصحيح لأخطاء أو تكميل لنقص.

* وبالنسبة للنقطة الثانية فمن المعلوم أن الشاعر المغربي ابن زاكور الفاسي وضع شرحا للقلائد، عكس به صورة من اهتمام المغاربة بقلائد الفتح. وقد تخلفت لنا من هذا الشرح نسخ غير قليلة هي:

---

[1]- انظر مثلا ترجمة القاضي عياض 18/3.

[2]- الذخيرة: 420/1 و648/3 و784/3 و786 و806 و882 و193...

1) نسخة بالمكتبة الملكية (319) تحت عنوان (تزيين قلائد العقيان بفرائد البيان) تبتدئ بقوله[1]: (الحمد لله الذي سقانا من البيان عللا بعد نهل..) وتنتهي بقوله انتهى ما كنا علقناه في غابر الأزمان على قلائد العقيان. والحمد لله المجزل الإحسان.... وكان الفراغ من نسخها بعد صلاة الجمعة لأربع خلون من رمضان عشر بعد المائة وألف. وكتب مؤلف ذلك وجامعه محمد بن قاسم بن محمد بن عبد الواحد المعروف بابن زاكور الفاسي. ألان الله قلبه القاسي آمين، ولا حول ولا قولة إلا بالله العلي العظيم. قال كاتبه المذكور. وكتبته برسم الفقيه النبيه أبي عبد الله سيدي محمد بن أبي عزة الدهر، آمنه الله من غوائل الدهر آمين).

وقد كتب الأستاذ عنان تعليقا على هذه المخطوطة قال فيه[2] تزيين قلائد العقيان بفرائد البيان تصنيف محمد بن قاسم بن محمد بن عبد الواحد المعروف بابن زاكور الفاسي المتوفي سنة 1120-1708 م 319 مجلد يقع في 441 صفحة (15/21) في الصفحة 15 سطرا، مكتوب بخط مغربي وتمت كتابته بخط مؤلفه في رمضان سنة (1110ه) وفيه يحاول المصنف ان يقوم بتفسير ما غمض من العبارات والكلمات الواردة في تراجم الملوك والوزراء والعلماء والأدباء والشعراء الذين يضمهم كتاب قلائد العقيان للفتح بن خاقان. وذلك على نفس الترتيب الذي جرى عليه صاحب القلائد. بيد أنه ادمج القسمين الأول الخاص بالرؤساء والثاني الخاص بالأعيان والوزراء في قسم واحد. والثالث الخاص بالعلماء والرابع الخاص بالأدباء والشعراء كذلك في قسم واحد.

2) ومنها نسخة أخرى في نفس الخزانة تشبه سابقتها شبها كاملا كتب عنها أيضا فقال[3]:

(... 154 نسخة أخرى تقع في 133 ورقة (21/29) وفي الصفحة 31 سطرا، مكتوبة بخط مغربي ملون واسم مؤلفه في رأس الديباجة في طرة مذهبة وفي نهايتها أنه تم نسخها في صفر (1117هـ) وهي تطابق النسخة السابقة في ترتيبها ومحتوياتها بداية ونهاية. ولكنها فقط تنقص عنها ترجمتين لأبي الحسن بن أضحى، وأبي جعفر الأعمى التطيلي).

---

[1]- فوائد التبيان ص 2.

[2]- فهرس الخزانة الملكية 103/1.

[3]- فهرس الخزانة الملكية 103/1-104.

3) وتوجد بالمكتبة العامة بالرباط، قسم المخطوطات والوثائق نسخة ثالثة كتبت في نفس العصر الذي كتبت فيه النسختان السابقتان[1].

وهي وإن لم تكن بخط المؤلف إلا أن ما ذيلت به يفيد أنها خضعت لمراقبته.

وصفتها:

- تقع النسخة في 135 ورقة من القطاع الكبير تشتمل كل ورقة على 27 سطرا كل سطر يحتوي على معدل 16 كلمة.
- كتبت بخط مغربي مبسوط داخل إطار مخطط. وخارج الإطار توجد التصحيحات والملاحظات التي أجراها المؤلف أو غيره عليها، وقد ميز بين النص والشرح بلون المداد الذي كتبت به النصوص.
- تبتدئ النسخة بقوله (الحمد لله الذي سقانا من البيان عللا بعد نهل...) شأن كل النسخ.
- تنتهي بالإشارة إلى كاتب النسخة وهو ولد المؤلف، كما تشير إلى أن المؤلف قابلها بنسخته كراسة كراسة، حتى كانت كاملة غير ناقصة (.. كتبها ولدي أحمد بحضرتي سنة 1117) وبالغ في الشهادة على نفسه بصحتها.
- وفي نهاية الصفحة الأخيرة نجد (... قال مؤلف هذا الكتاب أبو عبد الله محمد بن زاكور رحمه الله في كتابه أزاهر البستان ما نصه: وسأل يعني الأديب أبا الحسن الحاج علي مندوصة الفقيه الإمام سيدي الحاج علي بركة. كتاب قلائد العقيان فبعثه إليه مع رقعة فيها:

أبشـــر أبـــا حســـن بوصـــل دان ... واهنـــأ بنقعـــك علـــة الظمـــآن

وازفـــف خرائـــد طالمـــا قـــد أهملـــت ... مـــن فقـــدها لقلائـــد العقيـــان

..........حـــل نحورهـــا كـــي تجتلـــى ... أقمـــارهم في الســـر والإعـــلان

لا تختشـــي صـــرما لمـــا قـــد نلتـــه ... والـــثم وعـــانق دائـــم الســـلوان

لا زال مجـــدك صـــاعدا في أوجـــه ... وتحـــيتي تتـــرى مـــدى الأزمـــان

[1]- المخطوطة رقم 1049 ج.

انتهى بنقل الأنيس المطرب للشريف العلمي في ترجمة الحاج علي مندوصة رحم الله الجميع ونفعنا ببركتهم آمين).

خصائصها:

❖ تتميز النسخة بمجموعة هامة من الهوامش التي تقدم تعليقات ترتبط في معظميها بالمادة المشروحة.

❖ توجد بها كل التراجم الموجودة في القلائد بدون استثناء

❖ في هامش الصفحة الأولى توجد ترجمة ابن زاكور، وترجمة الفتح

❖ ميزت أقسام الكتاب عن بعضها تمييزا واضحا بالعناوين المثبتة في بداية كل فصل.

ونستخلص من خلال ما سبق أنه من الصعب استخلاص نصوص القلائد من خلال هذا الشرح، لأن ابن زاكور لم يلتزم في الشرح أن يتتبع كلام القلائد تتبعا مستقصيا وإنما نهض منهجه على فكرة الشرح الخاصة به، والقائمة على شرح ما يراه ضروريا وترك مالا يراه كذلك. ولم يكن شرحه شرحا لغويا كما اعتقد بعضهم[1]، وإنما امتد إلى غير ذلك من أسماء المدن والأشخاص، والتعليق على الصورة البلاغية والتنبيه على الاقتباسات والتضمينات. كما أنه من الصعب أيضا أن نستدرك ما فات من المختارات لأن المؤلف لم يلتزم إيراد وشرح كل الأشعار، الأمر الذي يصبح معه من العسير التعرف إلى نوع النسخة التي شرحها ابن زاكور.

المنهج العام لكتاب القلائد

لم يعرض الفتح في مقدمة القلائد لمنهجه العام فيه، كما فعل في مقدمة المطمح حين أشار إلى الأقسام التي قسم الكتاب إليها[2] ولعل مصدر ذلك يعود إلى أنه لم يعرض في المقدمة لشكل التأليف كما فعل في المطمح، بل اهتم فقط بعمله فيه والقائم على الانتخاب والانتقاء والتشنيف. على أننا لو حاولنا أن نحمل نصوص المقدمة فوق ما تحمل لوجدنا طريقا إلى الإشارة إلى منهجه في الشكل حين قال[3]: (... فأظهرت ما خفي من فخارهم، ودللت على مراتبهم في المعارف وأقدارهم...) وهي إشارة لا تذكر تقسيمه الكتاب إلى

[1]- فهرس الخزانة الملكية 103/1.

[2]- مطمح الأنفس 2.

[3]- قلائد العقيان 3.

أربعة أقسام: قسم خاص بالأمراء، وقسم خاص بالوزراء والكتاب...، بل تضم تنبهها إلى الهدف من عمله وهو القائم على التدليل على مواطن الفخار وذكر للمراتب والأقدار المتصلة بالعلم فقط.

وعلى أي فقد قسم كتابه إلى الأقسام الأربعة المذكورة، ونحا بتقسيمه هذا نحوا لم يسبق إليه، إذ لم يقمه على معايير نقدية، ولا على أقسام جغرافية، ولا قصره على طبقة بعينها دون غيرها، ولا حسب مضامين المختارات. وإنما أقامه على أقسام تتعلق بالمهنة أو المهمة التي يشغلها المترجم كالأمراء والوزراء والكتاب والعلماء والقضاة والشعراء ليجاري مدلول الأعيان الذي قصده في عنوان كتابه.

ولما كان الهدف من الكتاب هو مفاخرة الشرقيين بما وصل إليه الأندلسيون في ميدان العلم والفن، وفي أسلوب التأليف. فقد كان من الضروري أن لا يجري في منهجه على نسق شرقي، وأن يجتهد غاية الاجتهاد في البلوغ بمنهجه إلى ما أراده من الكتاب وما هدف إليه من تأليفه.

والملاحظ أنه لم يراع في اختياره لهؤلاء الأعيان على اختلاف طبقاتهم حيثيات عرقية مثلا، فترجم لابن عباد العربي ولابن رزين البربري الهواري، ولا اهتم بجانب النفوذ والسلطة فترجم للوزراء الذين مارسوا السلطة وكذلك للذين كانوا يحملون لفظ الوزير حملا صوريا[1]. ولا احتفل بطبقة من العلماء دون غيرها. فترجم لأبي عبيد البكري وترجم للقاضي عياض. ولا فضل اتجاها شعريا على آخر، فترجم لابن خفاجة، وترجم لابن البنى، وإنما كان يراعي شيئا واحدا هو ما قدمه هؤلاء الأعيان من نتاج أدبي يصلح أن تفاخر به الأندلس غيرها.

منهجه في الترجمة

ليست من الصعب الكشف عن الأجزاء العامة التي تتركب منها الترجمة في القلائد. فإن القارئ يستطيع بواسطة مراجعة سريعة للكتاب أن يقف على أقسامها الكبرى التي تنقسم إليها وهي: التحلية (ويسميها بعضهم بالديباجة) ثم الأحداث الكبرى في حياة المترجم له، ثم المختارات مع مقدماتها وما يتخللها من أخبار ومناسبات.

---

[1] - انظر خطة الوزارة عند الأندلسيين في النفح 216/1.

ورغم أن الفتح لم يشر إلى هذا المنهج الذي التزمه في مقدمة الكتاب، إذ ترك الأمر للملاحظة. فإن الذي يبدو أنه لم يكن مخيرا فيما ذهب إليه في هذا الموضوع ما دام يحدوا فيه حدو من سبقه في ميدان الترجمة من الشرقيين (اليتيمة مثلا) حين قامت الترجمة عندهم على هذه الأصول، مع بعض الاختلاف والخصوصيات.

وهكذا فإن من يراجع تراجم القلائد يجد أنها خضعت في أقسامها المختلفة إلى هذا المنهج، ولكنها قامت على بعض الخصوصيات التي تتصل بمضمون التحلية، وبنوع الأحداث التي تروى عن المترجم له، وبنوع الاختيارات التي تثبت له.

الخصوصية الأولى: وهي متعلقة بالتحلية ومضمونها.

فمن خلال تتبع واستقصاء نماذجها تبدو وكأنها في نظر الفتح بوابة للنفاد إلى شخصية المترجم له. والمراد بذلك أنها تقدم لك الشخصية المترجم لها هذا التقديم الذي تستطيع بعده أن تضعها في إطارها الخاص بها بين أندادها وطبقتها من الأمراء والوزراء أو الفقهاء أو الشعراء. بل وتستطيع من خلاها أن تتعرف على جزئيات وخصوصيات هامة عن المترجم له بواسطة هذه التعميمات التي تقوم عليها التحلية.

وليس معنى هذا أنه كان يملك قوالب جاهزة وصالحة لكل طبقة، تنطبق على كل الشخصيات التي تندرج تحتها، وإنما المقصود أنه يقدم الشخصية من خلا ما اشتهرت به بين الناس، سواء بالحسب أو بالعلم، أو بالسلوك الطيب أو بغيرها، وبهذا تصبح التحلية المسورغ الأول لاختيار الفتح المنسجم مع موضوع الكتاب وغايته.

وقد عرض لذكر هذه التحلية باصطلاحها هذا الذي استعملناه، وهو يتناول شخصية ابن أضحى حين قال عنه[1]: (... فبماذا أصفه وقد بهر وبدا فضله كالصبح إذا اشتهر وبماذا **أحليه** وعنه تقصر الحلى وبه يتزين الدهر ويتحلى).

ورغم أن استعمال الفتح هنا للتحلية يدخل في معنى التزيين والتجميل فإن هذا المعنى لا ينفصل عن الإطار العام الذي تدخل فيه كافة التراجم، وهي أنها تراجم أعيان، يفترض أن تتوفر فيهم الشروط الكمال وعناصر الامتياز.

[1]- القلائد 248.

– وهكذا فإن من يرجع إلى تراجم القسم الأول الخاص بالأمراء يجد صورة لما ذكرناه. فهو يقيم تحلية المعتمد على أهم ما اشتهر به من الشجاعة المقرونة بالأدب الرفيع حين يقول[1]: (ملك قمع العدا، وجمع البأس والندى، وطلع على الناس بدر هدى، لم يتعطل يوما كفه ولا بنانه، آونة يراعه وآونة سنانه..) فهو يشير إلى سطوته السياسية وشجاعته وكرمه ويمن طالعه، واتصال الشجاعة في حياته بالأدب. ولم يشر إلى غير هذا من أخلاقه. لأن هذه الخصال هي التي جعلته في نظره عينا من الأعيان.

ومن يرجع إلى تحليته لابنه الرضي[2] يجده قد ركزها على أصله وما أخذه عن هذا الأصل من عراقة نسب وتدبير لشؤون السياسة وتفوق في ميدان الأدب. وكذا الأمر في تحلية ابن الأفطس[3] وابن صمادح[4] وابن رزين[5] وابن طاهر[6]، حيث قامت كلها على تتبع خصوصيات المترجم لهم فقدمت لنا كل شخصية من خلال ما اشتهرت به وما عرف عنها.

ويبدو أن مفهوم العين بالنسبة لهذا القسم الأول، أن تجتمع للشخصية عناصر الامتياز السياسية مضافة إليها عناصر الامتياز الأدبية.

– ومن يراجع تراجم القسم الثاني الخاص بالوزراء وأعيان الكتاب يجده قد ركز تحلية ابن زيدون مثلا على مكانته في قرطبة وأفضاله على الدولة الجهورية، وعلى مكانته الأدبية وخصوصيات فنه الشعري حين قال[7]: (زعيم الفئة القرطبية، ونشأة الدولة الجهورية، الذي بهر بنظامه، وظهر كالبدر ليلة تمامه. فجاء من القول بسحر، وقلده أبهى نحر. لم يصرفه إلا بين ريحان وراح.. ولا تردى منه إلا حظوة كالشمس عند الدلوك. فشرف بضائعه وأرهف بدائعه وروائعه،...)

[1]- القلائد 35.
[2]- القلائد 53.
[3]- القلائد 4.
[4]- القلائد 31.
[5]- القلائد 58.
[6]- القلائد 64.
[7]- القلائد 79.

فقد حدد معالم شخصيته التي لا يمكن أن تنطبق على شخص آخر، وفيها من خصوصياته المادية والمعنوية ما يعطي فكرة عنه قبل أن تعرض أحداث حياته التي يرويها أو يروي بعضها، وقال عن غيره من الوزراء والكتاب مثل هذا. بمعنى أنه حاول أن يجعل التحلية إطارا صالحا لفهم الشخصية المترجم لها وأن يعرض بتركيز تام لمعالمها وآفاقها السياسية والأدبية والعلمية. وبهذا كان مفهوم العين في هذا القسم يرتبط بالحيثيات السياسية والأدبية.

– ومن يراجع تراجم القسم الثالث الخاص بأعيان القضاة وكبار العلماء يجده قد ركز تحليات هذا القسم على ما اشتهر به أصحابه وتميزوا به عن غيرهم من أصحاب الطبقتين السابقتين. فأبوا مروان عبد الملك بن سراج[1] مثلا (... أحد أعيان البيان وخاتم أعلام الكلام ومعين الانتخاب والانتداب على طموس رسم اللغات والآداب...)

فقد ركز هذا الجزء من التحلية على مكانته الأدبية والعلمية وقارن بينه وبين أصحاب طبقته. وأبو الوليد الباجي[2] (هو بدر العلوم اللائح...) وأبو عبيد البكري[3]. (عالم الأوان ومصنفه ومقرظ البيان ومشنفه... وأما الأدب فهو كان منتهاه ومحل سهاه، وقطب مداره وفلك تمامه وأبداره...) وأبو عبد الله بن حمدين[4]. (حامي دمار الدين وعاضده، وقاطع ضرر المعتدين وخاضنه...) وابن السيد البطليوسي[5](شيخ المعارف وأمامها ومن في يديه زمامها...) وبهذا يصبح العين في هذه الطبقة من جمع العلم والعمل، وبلغ فيهما الكمال.

– وفي تحليلات القسم الرابع الخاص بالأدباء والشعراء تتصدر التحلية الإشارة إلى مكانة المترجم له على الصعيد الفني أولا، ثم الإشارة إلى صور إبداعه وإشكالها ثانيا، وقد تتخللها خطرات نقدية تحدد بعض مواقف الفتح من الشاعر ثالثا.

ورغم أنه لم يلتزم بهذه الأصول التزاما كليا ومع كل الشعراء. فقد حاول أن يعطي لكل تحلية صبغتها الخاصة بها والملائمة لصاحبها حتى لا يسقط في التكرار من جهة وحتى

[1]- القلائد 215.
[2]- القلائد 219.
[3]- القلائد 218.
[4]- القلائد 218.
[5]- القلائد 221.

تكون آراؤه منسجمة مع المترجم له وإنتاجه من جهة أخرى. وقد كانت هذه الأصول هي الركيزة التي اعتمدها في تحديد حقيقة العين بالنسبة لقسم الشعراء.

فلو أخذنا تحلية أبي إسحاق بن خفاجة مثلا، لوجدناه يقيمها على الإشارة إلى مكانته الفنية ثم على صور إبداعه ومجالاتها ثم ما بلغه فنه في نظره حيث يقول[1]:

(مالك أعنة المحاسن وناهج طريقها، العارف بترصيعها وتنميقها الناظم لقعودها، الراقم لبرودها، المجيد لإرهافها، العالم بجلائها وزفافها. تصرف في فنون الإبداع كيف شاء، وأبلغ دوله من الإجادة الرشاء. فشعشع القول وروقه ومد في ميدان الإعجاز طلقه، فجاء نظامه أرق من النسيم العليل، وآنق من الروض البليل،... إن شبب فغمزات الجفون الوطف، أو إشارات البيان التي تكاد تعقد من اللطف، وإن وصف سراه والليل بهيم ما فيه وضوح، وخد الثريا بالندى منضوح. فناهيك من غرض انفرد بمضماره، وتجرد لحمى ذماره.. وإن تصرف في فنون الأوصاف. فهو فيها كفارس خصاف...) وقريب من هذا ما حلى به ابن وهبون[2]، واختلف الأمر عنه في تحلية ابن اللبنانة. ولم يختلف حتى في ترجمتي ابن سارة[3].

وعلى العموم فالتحلية في القلائد لها أصول ثابتة رغم اختلاف الأقسام التي انقسمت إليها تراجم الكتاب، إذ لابد فيها من الإشارة إلى مكانة المترجم له في الوسط الذي يعيش فيه. ثم لابد من الإشارة إلى أهم ما اشتهر به، وكان لأجله عينا من الأعيان. ثم لابد من الإشارة إلى الأسلوب الفني الذي اعتمده في بلوغ ما وصل إليه. وقد تتخلل ذلك خطرات نقدية تقوم على المقارنة تارة، وعلى تحديد بعض الأصول العامة في الإنتاج الأدبي مما سنذكره عند حديثنا عن النقد الأدبي في كل آثاره.

الخصوصية الثانية: وتتناول أخبار المترجم له مما يذكر في ثنايا الترجمة وأهم ما يلاحظ في هذا المجال أن الفتح لا يعتني باستقصاء الأخبار استقصاء تاما، والوقوف عند الجزئيات والكليات، بل يهتم بنوع معين من الأحداث، هي التي كان لها تأثير على حياة المترجم له. كالتي وجهت سلوكه نحو غاية معينة، أو فرضت عليه موقفا خاصا، أو ما شاكل هذا. وفي إطار هذا الاهتمام، تتقاسم هذه الأحداث اتجاهات مختلفة هي:

[1]- القلائد 266.

[2]- القلائد 278

[3]- القلائد 299 والمخطوطة 2423 ك. وبين الترجمتين اختلاف سبق ذكره.

1- اتجاه يرتبط بإحداث التاريخ الكبرى.

2- اتجاه يرتبط بإحداث محلية خاصة بالأندلس.

3- اتجاه يتعلق بإحداث ذاتية متصلة بحياة المترجم له ومحيطها الضيق.

فبالنسبة للاتجاه الأول: هناك مجموعة من التراجم كان لأصحابها دور خطير على صعيد الحياة السياسية في الأندلس، وأحداثها المحلية والخارجية. وأهم ما يتناول في هذا المجال، الأخبار المتعلقة بحياة المترجم لهم في القسم الأول. فعن طريق ترجمة المعتمد عرفنا الدولة العبادية في شخصه وبلاطه وما كان يتميز به هذا البلاط في الوسط الأندلسي[1]. (... وكانت حضرته مطمحا للهمم، ومسرحا لآمال الأمم، وموقفا لكل كمي. ومقذفا لذي أنف حمي. لم تخل ومن وفد. ولم يصح جوها من انسجام رفد... وطلع في سمائه كل نجم متقد. وكل ذي فهم منتقد. فأصبحت حضرته ميدانا لرهان الأذهان. وغاية لرمي هدف البيان...).

وعن طريق الترجمة عرفنا نهاية المعتمد ومعها نهاية الدولة العبادية. وتبينا موقف الأندلسي في شخص الفتح من هذه النهاية[2]. (... ثم انحرفت الأيام فألوت بإشراقه، وأذوت يانع إيراقه... فسحقا لدنيا ما رعت حقوقه. ولا أبقت شروقه... وكان قومه وبنوه لتلك الحلبة زينا، ولتلك الجملة عينا...).

وعن طريق ترجمة ابن الأفطس عرفنا نهاية دولة بني الأفطس، هذه النهاية التي أطال الفتح في وصفها والتحسر على أصحابها، مستعينا بما كان يعرف من تفاصيلها تارة، وبما رواه عن أبطالها تارة أخرى[3]. منتهيا إلى نفس الحكمة التي انتهى إليها في ترجمة ابن عباد وهي أن الأيام لا يؤمن جانبها[4].(... وهي الأيام هذه شيمها، تسيء وإن همت بالإحسان ديمها...) ومختتما أخبار هذه النهاية بقصيدة ابن عبدون الرائية المشهورة[5].

1- القلائد 4.

2- القلائد 5.

3- القلائد 42.

4- القلائد 42.

5- القلائد 58.

وعن طريق ترجمة ابن صمادح[1]، عرفنا مثل ما عرفناه في ترجمتي المعتمد والمتوكل بن الأفطس وكذلك في ترجمتي ابن رزين[2] وابن طاهر[3].

ومن الممكن أن نجد صورة من هذه الأحداث في تراجم بعض الوزراء وكبار الكتاب، وخاصة أولئك الذين كانت لهم اتصالات وثيقة بهؤلاء الملوك أو بغيرهم، أو بالمرابطين. كابن أبي الخصال، وابن الجد، وابن القصيرة، وابن زيدون، وابن عمار... وغيرهم.

وهكذا نلاحظ أن الفتح خص بعض التراجم بصورة من هذه الأخبار التي تناولت جزءا من تاريخ الأندلس، وعلاقات دولها ببعضها أو بغيرها، بل لقد استطاعت عن هذه التراجم أن تقدم لنا بعض التفصيلات التي لا نجدها حتى في كتب التاريخ التي أرخت لتلك الفترة. لأن أغلبها نظر إلى الأحداث من وجهة نظر المرابطين، أو من زاوية العداء لهم. و لم يكن الفتح أحد هاذين لأنه ألف الكتاب وأهداه للمرابطين، فمن الضروري أن يراعي الموقف وأن يذكر الأفضال. ولأنه كان أندلسيا يحب الأندلس ويتعصب لتاريخها ورجالها. فكان من الضروري أن تتصارع في كتابه ضرورات الظرف ومقتضيات الهوى والميول وأن تظهر بين ثنايا هذا الصراع الحقيقة التاريخية. وليس المقام هنا مقام الحكم على الخبر التاريخي عند الفتح بقدر ما هو مقام التنبيه على أهمية ما تحمله الترجمة من صور هذا الخبر وآفاقه.

وبالنسبة للاتجاه الثاني: وأعني به ما يتعلق بالأحداث التاريخية ذات الصبغة المحلية. فإن تراجم الفتح والقسم الثاني منها يحتوي على مادة خبرية مهمة تتعلق بتاريخ الإمارات الأندلسية وما قام من علاقات بينها عامة وبين رجالها ووزرائهم وكتابهم وشعرائهم ويحمل القسم الثاني من الترجمة حيزا هاما من هذه الأخبار.

ففي ترجمة أبي عبد الرحمان بن طاهر[4] عرفنا أن نهاية دولته كانت على يد ابن عمار، وأنه التجأ إلى بني عبد العزيز في بلنسية، ثم إلى شاطبة...

1- القلائد 42.

2- القلائد 53.

3- القلائد 64.

4- القلائد 64.

وفي ترجمة ابن زيدون[1] أدركنا صورة العلاقة التي كانت قائمة بين بعض دول الطوائف، وخاصة تلك التي كان لابن زيدون صلة بها.

وفي ترجمة ابن عمار[2]. عرفنا تطور العلاقة بين المعتمد ووزيره وعرفنا حقيقة ما كان بينهما وسمعنا رأيا عاصر الأحداث ورواها[3] (... ولقد رأيت عظمي ساقيه قد أخرجا بعد سنين من حفر في جانب القصر المبارك وأساورهما بهما ملتفة، وللبتهما مشتفة. ما فغرت أفواجها ولا حلت التواءها، فرمق الناس العبر وصدق للمكذب الخبر...).

وفي ترجمة أبي الوليد الباجي[4] عرفنا ما قام به أمراء الطوائف من جهود لتنشيط الحركة العلمية وتشجيع أقطابها، وعن طريق احتواء العلماء واسترخاص الغالي والنفيس في سبيل استرضائهم (... ثم استدعاه المقتدر بالله فسار إليه مرتاحا، وبدا في أفقه ملتاحا، وهناك ظهرت تواليفه وأوضاعه، وبدا وخده في سبيل العلم وإيضاعه. وكان المقتدر يباهي بانحيازه إلى سلطانه وإيثاره لحضرته باستيطانه، ويحتفل فيما يرتب له ويجزيه، ويترله في مكانه متى يوافيه...).

ومثل هذا نجده في ترجمة البكري[5]. (... وكان كل ملك من ملوك الأندلس يتهاداه تهادي المقل للكرى والآذان للبشرى...).

والأمر أجل من أن يحصر في شخص بعينه أو أشخاص بل أن كل من كان لهم شأن في تاريخ الأندلس ممن ترجم لهم، تجد الفتح قد حاول أن يعطي نبذا عن تاريخهم. وضمن هذه النبذ تظهر مثل هذه الأخبار التي تهتم بحياة الأندلس السياسية وما قام بين دولها ورجالها من علاقات، كما تظهر تلك الأخبار التي تتناول جوانب من الحياة الاجتماعية والعلمية والأدبية والفنية.

وبالنسبة للاتجاه الثالث: فإنه كما ذكرنا متصل بالأحداث التي يرويها الفتح والتي كانت لها علاقة بحياة المترجم له، وارتباط أضيق وألصق بحياته. كالأخبار المتعلقة بالنشأة

---

[1]- القلائد 93.

[2]- القلائد 215.

[3]- القلائد 79.

[4]- القلائد 94.

[5]- القلائد 218.

وظروفها، أو الأحداث المتصلة بمرحلة العلم والتعلم أو بالمتعلقة بأخلاقه وسلوكه مع الناس. وهذا الاتجاه يكاد يكون مشتركا بين جميع المترجم لهم داخل القلائد. فقد وجدنا الفتح في القسم الأول مثلا وفي ترجمة الراضي صورة عن نشأته وأخلاقه حين قال[1]: (... وتصرف أثناء شبيبته بين دراسة معارف وأفاضه عوارف، وكلف بالعلم حتى صار ملهج لسانه وروضة أجفانه، لا يستريح منه إلا على مثل سائل الغرة ميمون الأسرة، يسابق به الرياح ويحاسن بغرته البدر اللياح...)، فقد ذكر من خصوصيات هذه النشأة طلبه للعلم وإقباله عليه، وشغفه بالفروسية وميله إليها. وما كان لهذا الاهتمام من دور في حياة الراضي الفنية والعلمية والسياسية، إذ أصبح شاعرا كأبيه، وواليا من ولاة الدولة العبادية على الجزيرة الخضراء ورندة. ولسنا ندري هل كان الفتح يطلب من وراء التركيز على هاذين الجانبين أن يوجد نوعا من الانسجام بين عناصر شخصية الراضي ومكوناتها وبين سلوكه أم أن الأمر جرى اتفاقا دون سابق تحديد. إن الذي يبدو من دراسة كثير من النماذج التي سنعرضها أو نشير إليها أن الفتح كان يعي حقيقة الدور التي تلعبه النشأة في حياة الفرد، كما يعي أهمية المؤثرات التي تؤثر على الشخصية فتجعلها نموذجا متفردا عن غيرها.

فالراضي هو نموذج من النماذج، يشبه ابن رزين[2] الذي كان (...لا يعرف جبنا ولا خورا، ولا يتلو غير سور الندى سورا...، إلا أنه يتشطط على ندامه ولا يرتبط في مجالس مدامه، فربما عاد أنعامه بؤسا، وتقلب ابتسامه عبوسا، فلم تتم معه سلوة، ولا فقدت في ميدانه كبوة، وقليلا ما كان يقيل، ولا يناجي المذنب عنده إلا الحسام الصقيل، ومع هذا فإنه كان غيثا للندى، وليثا على العدا، وبدرا في المحفل، وصدرا في الجحفل...) ويشبه ابن طاهر[3] الذي (إن جد رأت الطود وقارا، وإن هزل خلته يعاطيك عقارا...).

ونفس هذا الأسلوب نجده في تراجم القسم الثاني من القلائد الخاص بالوزراء وأعيان الكتاب مع ابن عمار، وابن لبون، والباجي، وابن القاسم، وابن أرقم، هذا الذي كان أكثر التزاما معه في قوله عنه[4] (... فنبت أبو عامر في تربة العلم ونشأ في حجره، وشدا بين سحر البيان ونحره. ثم لم يزل على كد الطلب وتعبه، أصبر من عود قد عضت جنباه بخلبة،

[1]- القلائد 35.

[2]- القلائد 58.

[3]- القلائد 64.

[4]- القلائد 150.

حتى ارتوى من صافي الأدب ونميره، واحتجن من مصوحه ونظيره، فجمع حفظه بين الغريب الحوشي والمولد الرياضي...) والأمثلة أكثر من أن تحصي.

وفي القسم الثالث استوعب النشأة وظروفها وركز على دورها الفعال في بناء شخصية المترجم له تركيزا قد لا تجد له نظيرا في التراجم السابقة واللاحقة. لأن جل الفقهاء والقضاة والعلماء مر من حياة الطلب، وكان لها تأثير على أخلاقه وسلوكه ومكانته، مما يجعلنا نقدر أهمية هذا العامل ودوره، وما يمكن أن يؤدي وجوده في الترجمة من خدماته، وما يمكن أن نصل على ضوئه من نتائج. وأشار أيضا ضمن هذه الجزئيات إلى أخلاق المترجم له وسلوكه في الناس. وبدت أهمية هذه الإشارة هنا في ارتباطها بطبقة الفقهاء القضاء الذين كان لهم اتصال بالجمهور، وكان لسلوكهم تأثير عليه.

ولم يمنعه هذا المنهج من الإشارة إلى بعض الخصوصيات التي ميزت كل شخصية كأبي مروان بن سراج[1] مثلا الذي (... كان يضجر عند السؤال فما يكاد يفيد، ويتفجر غيظا على الطالب حتى يتبلد ولا يستفيد...) وأبي عبيد البكري[2]. (... على هناة كانت فيه. فإنه_ رحمه الله _ مباكر للراح ولا يصحو من خمارها، ولا يمحو رسم إدمانه في مضمارها، ولا يريح إلا على تعاطيها ولا يستريح إلا إلى متعاطيها...)

وفي القسم الرابع ركز على خصوصيات كل شاعر من الذين ترجم لهم واهتم في هذه الخصوصيات بما اشتهر عن كل أديب من نكت في حياته. ورغم أنه كان يعلم أن ذكر هذه النكات أو اللوثات لا يروق أصحابها، فإنه لم يتورع عن ذكرها أو الإشارة إليها فقد ذكر عن ابن خفاجة[3] مثلا أنه (... كان في شبيبته مخلوع الرسن في ميدان مجونه، كثير الوسن بين صفا الانتهاك وحجونه، لا يبالي بمن التبس ولا أي نار اقتبس...)، رغم أنه كان يعلم أن ابن خفاجة لا يروقه ذكر ذلك، ويعتبره من حماقات الشباب التي ينبغي الانصراف عن ذكرها[4]. ويذكر ابن وهبون، ويروي في مختاراته صورة مما نقله عن انحراف صديقه[5] وكذا مع ابن العطار وابن البني وابن الصائغ.

---

[1]- القلائد 218.

[2]- القلائد 217.

[3]- القلائد 266.

[4]- القلائد 267 المختارة الثانية.

[5]- القلائد 322.

على أنه قد ذكر غير هذا من الخصوصيات فتناول علاقة هؤلاء الشعراء ببعضهم (ابن خفاجة وابن وهبون)، أو علاقاتهم بغيرهم من رجال السياسة والأدب والعلم (ابن صهيب مع أبي أمية بن عصام) أو حياتهم الخاصة كأبي بكر يحيي بن بقي[1]. (... ضفا عليه حرمانه وما صفا له زمانه. فصار قعيد صهوات، وقاطع فلوات، مع توهم لا يضفر بأمان، وتقلب ذهن كواهن الجمان). وبعبارة فإنه انتهى إلى ذكر مجوعة من الأخبار المتنوعة عن هؤلاء الأدباء كل حسب ما اشتهر عنه، دون أن يراعي في هذه الخصوصيات إلا الحقيقة ودون أن يهتم إلا بما يعتقده مهما وضروريا لفهم شخصية المترجم له.

الخصوصية الثالثة: وأعني بها ما يتعلق بالمختارات. فقد اعتبر الفتح هذه المختارات من الغايات الأساسية التي قام عليها تأليف الكتاب، إذ بها سيبرهن على ما بلغه الأندلسيون في ميدان الشعر والنثر وعن طريقها يعتقد أنه (... يتدارك الذماء الباقي ويتلاقى نفسا قد بلغت التراقي...) على حد قوله في مقدمة القلائد[2].

ولما كانت المختارات بهذه الأهمية. فقد قدرها الفتح قدرها وهو يمارس عملية الاختيار، فذكر في المقدمة الخطوات التي خطاها في هذا السبيل قائلا[3]: (... **وانتخبت** منه لمعا كالسيوف المرهفة، والشفوف المفوقة، قد ثقفت تثقيف القداح، وأبرزت كالنواهد الرداح. **وانتقيت** من توليده المخترع، وتجديده المبتدع لمحا يهز لها الزمان عطفه انتشاء، وتروق كالنجوم طلعت عشاء **وضمتها** إلى صوان يحفظها وديوان يبديها للعيون فتلحظها...) فقد مارس عملية انتخاب بما تعنيه الكلمة عنده من معنى الاختيار وما يقوم عليه الاختيار من انتقاء النصوص التي تستجيب لمفهوم الاختراع والابتكار الذي تتحدد به الأصالة، ويظهر به استقلال شخصية الأندلس عن الشرق، وبلوغها شأوا بعيدا في الميدان الأدبي بالنسبة له_ وهو هدف من الأهداف التي ركز عليها عملية التأليف_. ثم جمع هذه الاختيارات بعد ذلك في ديوان، وقدم لها بما يجعلها مقبولة حسنة في عين من يقرؤها[4].

(... **وانتخبت** ما جلبت **وشنفت** ما صنفت) والتشنيف كما نعلم، مظهر من مظاهر التزيين. ويقصد به هذه المقدمات التي قدم بها للنصوص، والتي تكون لها إطارا

1- القلائد 3.

2- القلائد 281.

3- القلائد 2.

4- القلائد 3.

مقبولا يجعل فهمها متيسرا. وهكذا ومن خلال ما أشارت إليه مقدمة القلائد حول هذه الاختيارات، وما عرض في الكتاب منها نجد أنه أقام منهجه فيها على أصلين:

1- الأصل الأول: تقديم هذه المختارات تقديما عاما مرتبطا بالترجمة.

2- الأصل الثاني: إيرادها مصحوبة في أغلب الأحيان بمناسباتها الخاصة بكل نص فيها.

أ ــ بالنسبة للأصل الأول:

فإن تقديم هذه المختارات ارتبط عند الفتح بصور متعددة هي:

1) ارتباط التقديم بتحديد القيمة الفنية للمختارات. فهو يعمد إلى التعليق على بعض المختارات تعليقا نقديا يتصل بصورة النقد الانطباعي، الذي يكتفي في التعامل مع الأثر الأدبي بوصف ما خلفه هذا الأثر في النفس من إحساس دون تعليل أو تبرير. وقد انتظم هذا النوع من التقديم أكثر من سبع وثلاثين ترجمة. وهذا العدد الضخم يفيد أن هذا الأسلوب كان هو الإطار العام الذي بنى عليه تقديم المختارات. بينما كانت الأساليب الأخرى التي سنذكرها ثانوية في أهميتها.

وقد تميزت أحكامه النقدية بالكثير من التعميم. فقد أثبت لابن عمار[1]. (... ما تستهديه النفوس، وترتديه الشموس..) ولابن القصيرة[2] (... ما تتخذه سميرا، وتجعله على الكلام أميرا) ولابن رحيم[3] (... ما ترتشفه ريقا، وتبصر له في سماء الإحسان شروقا...) ونفس هذا الأسلوب أتبعه مع أبي محمد بن الحاج، وابن عبدون، وأبناء القبطورنة، وابن جبير، وابن عبد الغفور، وابن عبد العزيز، وأبي جعفر بن أحمد، وابن اليسع، وابن أبي الخصال، وابن عبد البر، وابن حسداي، وابن ينق، وابن قزمان، وابن الملح، وابن مروان بن سراج، والبكري، وابن حمدين، وابن السيد، وأبي الحسين بن سراج، وابن خفاجة، وابن وهبون، وابن اللبانة، وابن شرف، وابن سارة، والتطيلي، وابن بقي، وابن عيشون، وغلام البكري، وابن الفخار، وابن المرابط، وبقي بن أحمد، وابن البني.

1- القلائد 118.

2- القلائد 94.

3- القلائد 130

ومن الملاحظ أنه كان يعمد في كثير من الأحيان إلى تقديم هذا النقد الوصفي الانطباعي ممزوجا بالحديث عن مكانة صاحب الترجمة في ميدان الأدب، فيأتي هذا الوصف منطبقا على ما أسلفه من نعت صاحبه. ومثال ذلك ما نجده فيما قدم به لمختارات ابن سفيان السابق الذكر[1] حين قال (... وله أدب غض المقاطف، ربط المعاطف، أن نثر فالنجوم في أفلاكها، أو نظم فالجواهر في أسلاكها، قد أخذ بمجامع القلوب كلمه، وأغذ في طرق الإبداع قلمه...) فقد تحسس مواطن الجمال المتمثلة في سهولة كلماته وسلالة أسلوبه. ومثل هذا المذهب كان من أحب المذاهب إلى الفتح وأقربها إلى نفسه، بدليل أنه أنكر على ابن عبد الغفور[2] تقعره ووعورة منهجه، وأعجب بابن عمار فأطرى انسياب طبعه[3].

كما نراه في أحيان أخرى يقدم لهذه المختارات بالحديث عن الاتجاه الذي سلكه الأديب في إنتاجه خلال مرحلة من حياته قبل أن تستوي شخصيته كما فعل مع ابن خفاجة[4] الذي (... كان في شبيبته مخلوع الرسن في ميدان مجونه...) وكما فعل مع ابن سارة[5] ومع أبي القاسم بن العطار[6]. ولعله كان يرجو من وراء هذا أن يبرر ما اختاره من شعر محمض لهؤلاء، مادام هذا الشعر قد بلغ مرحلة من الجودة يحسن معها أن يكون في صنف المحاسن.

2) ارتباط التقديم بنوع المختارات وعددها وقيمتها الفنية. فهو قبل أن يقدم هذه المختارات **يشير إلى نوعها** أولا هل هي من الشعر أو النثر، ثم **يشير إلى ما اختاره منها** هل هو قليل أم كثير ثم **يشير بعد ذلك إلى قيمتها الفنية** على الأسلوب النقدي الانطباعي السابق الذكر. وهكذا ففي ترجمة ابن رزين يقدم الفتح لمختاراته بقوله[7]:

1- القلائد 154.
2- القلائد 94.
3- القلائد 294.
4- القلائد 182.
5- القلائد 266.
6- القلائد 328.
7- القلائد 58.

(... وله نظم ونثر ما قصرا عن الغاية، ولا أقصرا عن تلقي الراية، وقد أثبت منهما نبذا تروق شموسا وتكاد تشرب كؤوسا) فقد أشار إلى نوع الآثار الأدبية التي تختلف عنه، وأشار إلى ما سيثبته منها، ثم حدد موقفه من قيمتها الفنية.

وفي ترجمة ابن طاهر أيضا[1] (... وقد أثبت من نثره ما ترده عذبا نميرا وترووده روضا نضيرا). وكذلك الأمر في ترجمة ابن الجد[2] وأبي محمد بن قاسم[3] وأبي عامر بن أرقم، وأبي الحسن بن الحاج، وأبي محمد بن مالك، وأبي القاسم بن السقاط، وأبي الوليد الباجي، وابن عطية، وابن أضحى، واللوشي، وعياض، وابن زنباع، وابن الصائغ. أي أن عدد تراجم هذا الجزء يبلغ سبع عشرة ترجمة.

والمعتقد أنه كان في هذا الأسلوب أكثر انضباطا وأشد ارتباطا بصورة منهجه في الاختيارات الذي أشار إليه في المقدمة، لأنه استوعب فيه الهدف الأساسي من الكتاب مضمونا وشكلا:

ففي المضمون حين أشار إلى قيمة المختارات، وفي الشكل حين أشار إلى عددها، ونوعها، وارتباطها بأسلوب معين من أساليب التعبير.

3) ارتباط التقديم بمضمون النصوص التي سيوردها للمترجم لهم، مع الإشارة إلى قيمتها الفنية أيضا. ولا يوجد هذا إلا في ترجمتين اثنتين ذهب فيهما إلى ربط تقديم النصوص بما تحتويه من مضامين غالبة عليها. ويخص هذا الأمر ترجمتي الراضي وابن العطار. فقد أشار في ترجمة الراضي[4] وهو يقدم مختاراته إلى أنه (أثبت من كلامه في بث آلامه، واستجابة عذله وملامه، ما تستبدعه وتحله النفس وتودعه...) بمعنى أنه لم يختر من إنتاجه إلا الذي بث فيه آلامه، واستعطف فيه المعتمد حين كان يسخط عن عمل يقوم به. وبالفعل فقد أثبت أغلب القصائد والمقطعات التي رويت للراضي في الموضوع، بل ربما كانت مروياته مصدرا أساسيا في الموضوع.

1- القلائد 64.

2- القلائد 124.

3- القلائد 145.

4- القلائد 36.

كما أشار في مختاراته لأبي القاسم بن العطار[1] إلى أنه أثبت له (... مما يرتجله في أوقات أنسه وساعاته، وينفث به أثناء زفراته ولوعاته...) بمعنى أنه لم يختر له إلا القطع التي تترجم عن سلوكه الذي اشتهر به في الناس. وهو سلوك وضح صورة عنه فيما نقله من أخباره التي بسطها في صدر ترجمته، وفي المختارات التي اختارها له على وجه العموم، ما عدا قصيدة الرثاء التي خص بها الوزير أبا حفص الهوزني، الذي مات في نهر طلبيرة عند افتتاحها[2]. وعلى العموم فهو في هذا الاتجاه، يعمد إلى سرد شيء من أخبار المترجم له قبل الحديث عن المختارات التي سيختارها، حتى إذا أوردها قدم لها بما يتناسب مع مضمونها.

ولسنا ندري السبب المباشر الذي دفعه إلى مثل هذا السلوك في ترجمتين فقط، إذ لو تعلق الأمر بنوع الأشخاص أو سلوكهم لكان من الضروري إدراج طائفة من المترجم لهم داخل هذا التعميم لتشابه سلوكهم ومواقفهم بالسابقين، كابن البني مثلا وابن وهبون، ممن عرف عن أخلاقهما بعض الاضطراب والانحراف.

4) ارتباط التقديم بنوع الاختيارات والأخبار التي يوردها مع الإشارة إلى قيمتها الفنية. حيث يعرض ضمن هذا التقديم فكرة عن طبيعة المختارات التي سيختارها دون الإشارة إلى مضمونها وكأن الأمر يتعلق بالأشكال الفنية بغض النظر عن مضامينها. ففي ترجمة المعتمد مثلا [3] يقول:

(... وقد أثبت من نظمه العذب الجنى، الرائق السنا، الفائق اللفظ والمعنى، ما يمتزج بالنفوس والقلوب، ويتأرجح به مسرى الصبا والجنوب، وذكرت أثناءه من مآثره المخترعة ومفاخره، ومشاهده المستبدعة ومحاضره، ما يهون الدنيا وزخرفها ويلين تقلبها وتصرفها...). فقد أوقف اختياراته للمعتمد على جيد إنتاجه، وذكر أثناء ذلك من الأخبار ما يهون أمر الدنيا وزخرفها... بمعنى أن الهدف من المختارات أن تخدم الغاية الفنية أولا، والغاية الاتعاظية التي أشار إليها في تحسره على مآل دولته ثانيا. فالأخبار والمختارات التي أثبتها إذن هي من نوع خاص وربطت بغاية خاصة.

1- القلائد 329.

2- القلائد 231.

3- القلائد 501.

وكذلك الأمر عند ابن زيدون فقد أورد في صدر اختياراته له قوله[1]: (... وقد أثبت من مقاله، في سراحه واعتقاله، ومقامه وانتقاله، ما هو أرق من النسيم، وأشرق من المحيا الوسيم...)، فهو لم يختر له إلا ما ذكره في صدر ترجمته من أنه خص شعره بطبقه الملوك... وأنه ما اختار له إلا ما ارتبط بحاله في سراحه واعتقاله ومقامه في قرطبة أو انتقاله إلى إشبيلية، وهو يريد بهذا الإشارة إلى نوع الاختيارات والأخبار التي سيوردها له. فالسراح والاعتقال حالتان ملازمتان لأحداث خاصة عاشها ابن زيدون، وكذا الاستقرار والانتقال. فهو لن يذكر كل شيء لأنه يختار أولا، ولأنه في اختياره يركز على أهم ما أثر للأديب وارتبط بحياته ارتباطا خاصا. وعلى هذا الأساس كان أهم ما أثر له مرتبطا بحالتي الحب والسياسة. فالحب قلب حياة السراح إلى الاعتقال، والسياسة قلبت حياة الاستقرار إلى الانتقال، و لم يرو له شيئا في غير هاتين الحالتين.

ولو حاولنا أن نربط بين الاتجاه وسابقه لوجدنا أن مجال الاتصال بينهما غير قريب، فقد ركز الاتجاه السابق على المضمون مع نوع من التعميم، وراهن في هذا على نوع خاص من هذا المضمون ففي الأول تعميم وفي الثاني تخصيص.

5) وقد يترك المختارات غفلا من التقديم، بمعنى أن لا يذكر شيئا عما سيورده من مضامينها ولا يقومها تقويما فنيا. وقد حدث هذا في تراجم ابن الأفطس، وابن صمادح، وأبي عمر الباجي، وابن الدباغ.

ففي ترجمة المتوكل بن الأفطس مثلا استغرقت أخبار النكبة ووصفها أغلب الترجمة. وانتهى هذا الوصف إلى بسط رائية ابن عبدون التي أصبحت جزءا من شعوره العام، حتى إذا أنهاها لم يعرج على ذكر الاختيارات أو تقديمها إلا بعد أن أورد منها الشيء الكثير حيث قال[2] (... ومن كلامه الحر ونثره المزري بالدر...) و لم يكن يريد بهذا إلا وصف الرسالة التي كتبها المتوكل إلى المعتمد متشفعا لديه في شخص وكان الأمر كذلك في ترجمة ابن صمادح[3]، وأبي عمر الباجي[4]، وابن الدباغ[5]، فقد روى من أخبارهم ما أنساه ذكر

[1]- القلائد 80.
[2]- القلائد 50.
[3]- القلائد 115.
[4]- القلائد 53.
[5]- القلائد 120.

إنتاجهم وتقريضه بما يستحق. ولست أرى لذلك سببا إلا أنه أغفل ذكر ذلك وتعمده، نظرا لقيمة المختارات التي اختارها لهؤلاء، أو لمكانتهم بين الشعراء والكتاب إذ لا مقارنة بين شاعرية المعتمد مثلا وشاعرية ابن الأفطس أو ابن صمادح مثلا.

وإذا افترضنا أن هذه المقارنة مجحفة بحق ابن الدباغ وأبي عمر الباجي، فإن الذي أغرى الفتح بالانصراف عن تقريض إنتاجهما إنما هو ميل الأيام عنهما، وقد كان الفتح من المعجبين بأصحاب النفود، حريصا على مصاحبتهم، منصرفا عمن أدبرت عنهم الأيام. وقد تمثل هذا في غير ما صورة من أخباره في القلائد.

ب ــ وبالنسبة للأصل الثاني: وأعني به إيراد المختارات.

فإن إيرادها قد خضع لعملية الاختيار التي مارسها الفتح على مجموعة الآثار الأدبية التي اجتمعت له لكل من ترجم لهم. كما خضع للتنوع الذي عرفناه في تقديمه للمختارات. بمعنى أن المختارات قد خضعت في مضامينها وشكلها لما أراد الفتح إيراده، وبالطريقة التي أرادها.

وبين يدي الحديث عن هذه المختارات لابد من الإشارة إلى مجموعة من الملاحظات التي ترتبط بالإطار الذي تدور فيه هذه المختارات، والذي سنطلق منه في الحديث عنها.

وأولى هذه الملاحظات أن مجموع المختارات الشعرية يفوق مجموع المختارات النثرية.

وثاني هذه الملاحظات أنه لا يلتزم بتقديم الشعر على النثر أو العكس كما فعل صاحب الذخيرة حين التزم بتقديم النثر على الشعر. ولعله أراد بتحرره من هذا الالتزام أن يورد المختارات على حسب ما اتفق له حتى لا يحرج نفسه مع الكتاب الذين لم تتوفر لديه أشعار لهم، أو الشعراء الذين لم يتوفر على آثارهم النثرية ــإن كانت ــ.

وثالث هذه الملاحظات أنه غالبا ما يقدم للمختارات بإيراد مناسباتها، إلا إذا جهل المناسبة، فهو يستعيض عنها بتقويم النص تقويما نقديا –ستتناوله عند الحديث عن آرائه النقدية –. على أنه قد يترك المختارات غفلا من التقديم. ولا يحدث هذا إلا عندما يورد مجموعة كثيرة من المختارات.

ورابع هذه الملاحظات أن الأغراض الشعرية التي أوردها كثيرة كثرة تجعل الغرض الأساسي من إيرادها، وهو الاستشهاد على ما بلغه الأندلسيون من تفوق في ميدان الفن الشعري، واضحا وملموسا.

وهكذا يبدو أن هذه الملاحظات ترتبط بأبعاد ثلاثة في هذه المختارات.

البعد الأول متعلق بالمناسبات التي تتقدمها.
البعد الثاني متعلق بشكلها.
البعد الثالث متعلق بمضمونها.

أما البعد الأول: فإن من يراجع القلائد والمختارات منها خاصة، يجد أن الفتح قد حلى كثيرا منها بمجموعة من الأخبار التي ترتبط بمناسباتها.

1) فأورد **الخبر التاريخي** الذي ينسجم مع مناسبات كثير من قصائد المدح والاعتذار والحنين والاستعطاف والوصف والرثاء، كما نجد مثلا في ترجمة المعتمد.

2) وأورد **الخبر الاجتماعي** المتعلق بحياة الأفراد وسلوكهم وعلاقاتهم المختلفة سواء مع الأمراء، أو مع عامة الناس. وهذا الخبر ينسجم مع بعض قصائد الوصف والغزل والحنين والشكوى والعتاب والإخوانيات والهجاء والتحذير والتحريض والمواساة والتطمين والشوق...

3) وأورد بعض **الأخبار الفنية** التي تتعلق بازدهار فن من الفنون النثرية أو الشعرية كفن الرسائل[1].

4) كما أورد بعض **الأخبار العلمية** التي تتعلق بالتشجيع الذي عرفه العلم وحملته على يد طائفة من الأمراء[2].

5) وقد خرج عن هذا الأسلوب في التقديم وعرض المناسبات بإيراد مجموعة من الآراء النقدية التي كانت مترددة في عصره أو التي تتعلق بذوقه الخاص وموقفه من بعض الأشعار أو الأساليب[3]. ولكن هذا الجانب لا يشكل إلا نسبة ضئيلة من المجموع. إذ الغالب أن تتقدم القصائد أو الرسائل أخبار تتعلق بمناسبتها.

[1]- القلائد 146.
[2]- القلائد 218-295.
[3]- القلائد 350.

ولو تساءلنا عن الأسباب التي دفعته إلى إيراد هذه المناسبات والإكثار منها لأرجعنا ذلك إلى مجموعة عوامل هي:

- منهجه في التأليف: فقد أشار في مقدمة القلائد إلى صورة من هذا حين قال[1]: (... وشنفت ما صنفت...) والتشنيف التزيين[2]، وقد ورد حديثه عن هذا التشنيف بعد حديثه عن الاختيار والتأليف والتنظيم، بمعنى أنه بالإضافة إلى ما حرص عليه من الاختيار حرص على تضمين هذه المختارات مجموعة من الأخبار التي زينتها وقرطتها، فلم تعد بتراء إلا في القليل النادر، وقد تفرد بهذا الأسلوب عن معاصره صاحب الذخيرة الذي كان يورد المختارات عارية من مناسباتها إلا في القليل النادر.
- وضعه الاجتماعي حيث قامت حياته على الرحلة والاتصالات فتكونت له من هذا حصيلة مهمة من الأخبار، بسطها في كتابه ونسب أغلبها إلى أصوله، حتى بلغت هذه الأصول ثمان عشرة شخصية، بعضها من رجال عصره من الذين تناولهم كتابه.
- وضعه السياسي: فقد كان وزيرا بل ذا وزارتين – بالمدلول الأندلسي- يغشى المجالس ويتهافت على حضوره الأمراء والوزراء. فتوفرت له من أخلاق النديم هذه الأخبار والطرائف والأشعار وخفة الروح، الشيء الذي تبدو آثاره واضحة في هذه المناسبات.
- موقفه من العصر ورجاله وأحداثه، فقد أورد تراجم رجال العصر وكلهم من أهل الأندلس مع اختلاف طبقاتهم السياسية وحيثياتهم العلمية. واختار من حياة هؤلاء جوانبها المختلفة، وحرص على التأكيد على الجانب اللاهي حرصه على الجانب الجاد- في إطار رفض إيديولوجية العصر- والتأكيد على مميزات العصر السابق ورجاله.
- ثقافته الدينية وتأثره بمنهج رجال الحديث في التدقيق والتأكد من صحة المرويات والأخبار. فقد كان تلميذا لأبي علي الصدفي ولغيره من محدثي العصر- كما بينا- وكان من الضروري أن تظهر صورة من مناهج المحدثين في إنتاجه. لاسيما في رواية الأخبار ونسبتها إلى مصادرها قبل رواية الآثار. وهي الصورة التي يوجد عليها مؤلفه وتقوم عليها مختاراته.

وهكذا يبدو أن هذه الأسباب تنقسم إلى قسمين، قسم واضح وارد في مقدمة الكتاب (السبب الأول) وقسم يستنتج من ثنايا الكتاب ومن آفاق حياة صاحبه (بقية الأسباب).

1- القلائد 4.

2- انظر قاموس المحيط 160/3- مختار الصحاح 348.

أما البعد الثاني: والمتعلق بشكل هذه المختارات، فقد سبق أن أشرنا إلى أن هذه المختارات توزعت بين مختارات شعرية وأخرى نثرية. ولم يراع الفتح في تقسيمه الكتاب أن يخص كل قسم بشكل معين من أشكال التعبير كالأمراء والشعراء بالشعر والوزراء والفقهاء بالنثر مثلا أو القسم الأول والثاني بالشعر والثالث بالنثر بل حاول أن يزاوج الشعر والنثر مزاوجة لم تبخس حق النثر ولا حق الشعر.

وهكذا أورد في القسم الأول خمسا وعشرين مختارة نثرية من مجموع مائة وسبع عشرة مختارة شعرية ونثرية، أي ما يعادل السدس.

وكان السبب في ضآلة هذه النسبة أنه لم يورد في ترجمة المعتمد وابنه الراضي مختارات نثرية. بينما بلغت المختارات النثرية في القسم الثاني واحدا وستين مختارة من مجموع مائتين وواحد وستين مختارة. ويرجع السبب في ارتفاع نسبة النثر في هذا القسم إلى أن أغلب رجاله، اشتهروا في ميدان الكتابة اشتهارهم بالشعر. وبدعة العصر يومئذ أن يكون الكاتب شاعرا، مجاراة للسنة التي سار عليها كتاب القرن الرابع الهجري في الشرق.

وبلغت المختارات النثرية في القسم الثالث الثلث، (واحد وعشرون مختارة من مجموعة أربع وستين مختارة شعرية ونثرية).

ولعل السبب في ارتفاع نسبة الشعر في هذا القسم أن أغلب رجاله لم تطلق عليهم صفة الفقه إلا من باب التغليب، أو من باب الفقه بالعلوم والمعارف، لاسيما وأن من بينهم أمثال أبي الحسين بن سراج، وأبي محمد بن السيد البطليوسي... وكانا إلى اللغويين والأدباء أقرب منهما إلى الفقهاء والقضاة. كما يرجع السبب أيضا إلى منافسة هؤلاء الفقهاء للشعراء في أساليب تعبيرهم التي راق الفتح كثير منها[1].

بينما كانت المختارات النثرية في القسم الرابع لا تتعدى ست مختارات من مجموع مائتي مختارة شعرية ونثرية. والسبب واضح في ذلك إذ أن القسم خاص بالشعراء. فناسب أن لا يَذكر من الآثار النثرية شيئا. ورغم ذلك فقد روى في ترجمتي ابن خفاجة وابن شرف مختارات نثرية لاشتهارهما بالشعر والنثر.

[1]- انظر ما قدم به لإنتاج أغلب رجال هذا القسم.

وعلى هذا الأساس بلغت المختارات النثرية ثلاث عشرة ومائة مختارة، بينما كان عدد المختارات الشعرية ثمانية وسبعين وخمسمائة مختارة، تضم من الأبيات أربعة آلاف ومائتين وتسعة وخمسين بيتا شعريا[1].

وهذه الأشعار تتقاسمها أغراض كبرى تتجاوز العشرين غرضا، منها ما هو تقليدي معروف كالمدح والغزل والرثاء والفخر والوصف والهجاء، ومنها ما يدخل في عموم بعض هذه الأغراض (أغراض الإخوانيات) كالحنين والشكوى والاعتذار والعتاب والاستعطاف والحكمة. ومنها ما استجد في العصور العباسية اللاحقة، ودعت إليه ظروف الحياة، كشعر المؤاخات، والترحيب والتهنئة والتحذير والاستدعاء والتوديع والشكر والتحريض والمواساة والفخر بالذات.

ولو عدنا إلى هذه الأغراض التي استأثرت باهتمام الفتح، وقمنا بعملية إحصاء واستنتاج لها، لوجدنا أن غرض الوصف كان أكثرها شعبية (تسع وتسعون مختارة)، ثم الغزل (تسع وثمانون مختارة)، ثم المدح (اثنان وثمانون مختارة)، ثم الشوق الحنين (واحد وخمسون مختارة)، ثم الرثاء (أربع وأربعون مختارة)، ثم العتاب (ست وعشرون مختارة)، ثم الشكوى (عشرون مختارة)، ثم الإخوانيات (عشرون مختارة) ثم الحكميات (واحد وعشرون مختارة)، ثم الذاتيات (أربع عشرة مختارة)، فالاستعطاف (أربع عشرة مختارة)، فالتوديع (عشر مختارات)، فالاعتذار (تسع مختارات)، فالفخر (سبع مختارات)، ثم الهجاء (أربع مختارات) ثم بقية الأعراض الأخرى.

على أنه بالنسبة لعدد الأبيات التي تتكون منها المختارات فإن المدح كان أوفاها نصيبا ثم الوصف فالرثاء فالغزل...[2]. ونظرة سريعة إلى هذه المختارات وتوزيعها تنتهي بنا إلى الملاحظات الآتية:

1) أن غرض الوصف الذي كان أكثر ترددا في ديوان القلائد فرض وجوده من جوانب متعددة منها:

- جانب فني محض ينطلق من أن الوصف يمس كل الموجودات ويتناول كافة المعروضات. والشاعر حين يقرض الشعر إنما يقوم بعملية وصف لما يختلج في باطنه تجاه

[1] - انظر الجدولين الموضحين لتوزيع المختارات في القلائد صحبته.

[2] - انظر الجدول الخاص بتوزيع الأغراض الشعرية في الديوان.

المحسوسات والمعقولات. وقد نظر القدماء إلى الوصف بنفس هذا المنظار[1]. لذلك لم يكن للفتح بد من أن يتناول هذا الغرض الذي تعرف وتقاس به شاعرية الشاعر. لاسيما وهو يمارس عملية اختيار دقيقة. وفيما يلي جدول إحصائي خاص بتوزيع الأغراض النثرية داخل القلائد مع ملاحظة الوقوف عند المشهور منها.

الموضوعات	القسم الأول	القسم الثاني	القسم الثالث	القسم الرابع	المجموع
الإخوانيات	12	18	14	3	47
السياسات	3	9	1	–	13
الوصفيات	2	6	–	–	8
التوصيات	2	–	2	–	4
التهاني	1	2	1	–	4
الشكوى	1	2	–	–	3
التشفع	1	1	–	–	2
الاستعطاف	1	–	–	–	1
التحذير	1	–	–	–	1
مواضيع مختلفة	1	23	2	3	30

جدول إحصائي يخص المختارات الشعرية الواردة في قلائد العقيان يبين عدد هذه المختارات، وعدد أبياتها في كل غرض من الأغراض.

1- انظر: نقد الشعر 130 الصناعتين: 259 / العمدة 294/2.

الأغراض الشعرية	القسم الأول	القسم الثاني	القسم الثالث	القسم الرابع	المجموع
	ع. الأبيات / ع. المختارات	ع. الأبيات / ع. المختارات	ع. الأبيات / ع. المختارات	ع. الأبيات / ع. المختارات	**4200** / **614**
الوصف	42 / 12	129 / 29	136 / 14	192 / 44	499 / 99
الغزل	18 / 7	152 / 27	34 / 5	210 / 50	418 / 89
المدح	140 / 12	494 / 26	123 / 9	490 / 35	1237 / 82
الشوق	34 / 7	175 / 30	58 / 7	31 / 7	298 / 51
الرثاء	212 / 13	27 / 5	36 / 6	204 / 20	298 / 51
العتاب	27 / 3	136 / 18	10 / 2	21 / 3	204 / 21
الحكمة	8 / 4	26 / 9	7 / 1	21 / 7	62 / 21
الشكوى	55 / 11	71 / 7	-	9 / 2	135 / 20
الإخوانيات	29 / 5	34 / 10	27 / 2	26 / 3	116 / 20
الاستعطاف	27 / 4	41 / 4	11 / 3	19 / 3	98 / 14
الذاتيات	-	10 / 2	-	92 / 12	63 / 10
التوديع	2 / 1	34 / 5	13 / 2	14 / 2	64 / 10
الفخر	15 / 3	4 / 1	-	21 / 3	50 / 7
الاعتذار	3 / 1	17 / 4	-	-	20 / 0
الهجاء	-	0 / 16	-	14 / 2	19 / 4
أغراض أخرى	91 / 13	204 / 33	107 / 30	53 / 32	455 / 108
المجموع	702 / 96				

– جانب اجتماعي يرتبط بسلطان الوصف على مظاهر الحياة الاجتماعية، إذ لو عدنا إلى الموصوفات التي تضمنها ديوان القلائد لوجدناها تتناول جوانب من حياة المجتمع الأندلسي في جده وهزله، وحربه وسلمه، وما قام بين هذا المجتمع وإطاره الطبيعي والإنساني من صلات.

– جانب ذاتي يرتبط بموقف الفتح وهو يمارس الاختيار ويهدف إليه ويرضي به ذوقه وميوله. وأغلب هذه الأوصاف تناولت موضوعات نزه معاصروه مؤلفاتهم عنها اعتقادا منهم أن ذكرها يسيء إلى صاحبها أو إلى كتبهم أو إلى الأخلاق بصورة عامة (الذخيرة مثلا).

2) أن غرض الغزل ــ الذي يتلو غرض الوصف من حيث عدد المختارات ــ كان من أكثر الأغراض الشعرية قربا إلى نفس الفتح لأسباب منها:

أنه ألف الكتاب وهو في شرخ الشباب وأوجه، فمن الضروري أن يتأثر بمغرياته لاسيما إذا وجد من رجال العصر ومن آثارهم ما يحفزه على ذلك.

ومنها أنه أراد أن يعكس الجانب الخفي من حياة المجتمع ورجاله – وقد عاصر أكثرهم – فبسط كثيرا من أشعار الغزل لرجال اشتهروا بالورع. وقد لقي عمله هذه رفضا من بعضهم حين بلغه أنه ذكر شيئا من ماضيه[1].

ومنها أنه يرفض الزيف الذي يعيش عليه المجتمع ورجاله وحكامه. فأكثر من هذا الغرض، وقدم كتابه إلى أمير مرابطي يلي أمور الدين والدنيا نيابة عن أخيه، ويمثل فلسفة الحكم التي دعا إليها المرابطون وطبقوها، ليبرهن على أن التقوى والصلاح لا يتنافى مع معايشة الحياة والتخلق بأخلاق العصر، وفيما أورده من مختارات بعض الفقهاء ما يشهد على ذلك.

ومنها أن بعض هذا الشعر الغزلي كان يقصد من وراء إثباته الانتقام من أصحابه الذين كانوا على صلة غير قريبة من نفسه كابن باجة وتغزله بغلام أسود، وكان مثل هذا الغزل يعتبر من الشذوذ غير المرغوب فيه.

3) أما غرض المدح الذي يعتبر أكثر الأغراض الشعرية عدد أبيات فإن وجوده ينسجم مع مجموعة من المعطيات التي تمس المؤلف وظروف التأليف.

[1]- القلائد 267.

أ ــ فالمدح هو صورة الاتصال التي تقوم بين المادح وممدوحه. وكان الفتح يعيش عقدة نفسية ترتبط بمركب الأنا وحب الذات والشعور بالكمال. فالمدح إذن من الأعراض التي ترضي هذا الغرور، حيث يرى في الممدوح شخصه، ويرى في الصفات التي تسبغ عليه صفاته، ويرى في تعلق المادح بالممدوح تعلقا به. أليس هو الذي تحدث عن نفسه في مقدمة القلائد قائلا (الحمد لله الذي راض لنا البيان حتى انقاد في أعنتنا، وشاد مثواه في أجنتنا، وذلل لنا من الفصاحة ما تصعب فملكناه، وأوضح لنا من مشكلاتها ما تشعب فسلكناه، فصار لنا الكلام عبدا يجيب إذا ناديناه، وسهما يصيب الغرض إذا رميناه).

ب ــ كانت الظروف التي جمع الفتح فيها مادة الكتاب قد حتمت عليه الاتصال بكثير من شخصيات العصر من أمراء ووزراء وقضاة وشعراء، وكان عليه وهو يجمع المادة أن يبحث عن أشهر ما تخلف لهؤلاء الرجال. وطبعا كان المدح أهم ما أثر عنهم، لأنه السبيل المزدوج الذي يتسلق منه الأمراء والوزراء والشعراء سلم الشهرة، فيبلغ الملوك به غايتهم في نفوس الرعية، ويبلغ به الوزراء والشعراء المناصب السياسية والفنية التي يطمحون إليها.

ج ــ كان الحديث عن أمراء العصر ينتهي إلى الحديث عن مجالسهم، ومن كان يحضرها، وما كان يروج فيها من أشعار المدح التي كانت تلقى في كثير من المناسبات. ومن يرجع إلى التراجم التي وضعها يجد المدح في مقدمة المختارات التي توجد في كل ترجمة تقريبا.

د ــ تنافس الأمراء كان عاملا من عوامل تشجيع الشعراء على المدح، بما كانوا يغدقونه على الشعراء من هبات، وما كانوا يبذلونه في سبيل استرضائهم، فتنطلق الألسنة بالشكر والحمد والمدح، واللها تفتح اللها على حد تعبير بعضهم.

4) أن غرض الحنين يستجيب لموقف الفتح من العصر الذي يعيشه والعصر الذي سبقه. فنفسه كان مع الأندلس في عهد طوائفها لا في عصر فقدان عروشها. ولقد آلمه أشد الألم ان يصرع ملوك الطوائف، فتأسف لذلك وحزن وروى ذلك بنوع من التحسر والأسف، وانتهى به أسفه أن روى ذكريات عصر الطوائف في أشعار الأمراء والوزراء وبعض القضاة والشعراء. وليس معنى هذا أنه قد اقتصر في هذا الغرض على الحنين إلى الماضي السياسي فقط، بل ترددت لمسات من حنين المحبين إلى الديار وساكنها (ابن

زيدون). ولكننا نشعر بأن إيرادها لم يكن إلا لغاية فنية، بينما كان الجانب الذاتي هو العماد الأساسي في الموضوع.

5) أن غرض الرثاء لاقى من نفس الفتح استجابة خاصة مرتبطة بشعوره الذاتي تجاه الأندلس ورجالها. ويكفي في هذا المجال الإشارة إلى مرثيات ابن اللبانة، وابن عبد الصمد، وابن عبدون لملوك الطوائف للدلالة على ما يعنيه الرثاء بالنسبة له. على أنه لا ينبغي أن ينسحب هذا الحكم على كل مراثي القلائد، فإن هذا الجانب الذاتي يظهر في أسلوب آخر يخدم أغراضا شخصية يطلبها الفتح، كالتشهير بسلوك بعض الأفراد (ابن باجة ورثاؤه للغلام الأسود المعروف به) أو الإشارة إلى مراثي بعض الأمراء اللمتونيين الذين كان للفتح صلة بهم.

6) أما غرض الهجاء فقد كان أقل الأغراض الشعرية تداولا في الديوان، إذ لم تتعد مختاراته الأربع، ولم يبلغ عدد أبياتها العشرين، تتناول في مجموعها ذم العصر وبعض رجاله. ولم يرو في القسم الأول والثالث منها شيئا. ولعل السر في ذلك يعود إلى أن طبيعة من ضمهم هذان القسمان، من الذين لا يمكن أن يصدر عنهم شيء من ذلك، وعلى العموم فإن السر في ضمور هذا الغرض في ديوان القلائد ربما يعود إلى أن الفتح كان يكرهه، بل يكره الانتقاد جملة لما فطر عليه من علو النفس وبعد الهمة، وتحصينا لنفسه من أن تتناولها الألسنة، خصوصا وقد تذوق طعم الانتقاد فيما يروى حين سخر منه ابن باجة في مجلس أقرانه[1].

أما عن موقفه المنتقد لبعض معاصرين فلا يدخل في عموم الهجاء، لأنه لم يهج ابن باجة، ولا ابن عبد الغفور، وإنما عرض لتصوير سلوك ونفسية كل منهما.

7) على أن باب العتاب كان مفتوحا في الديوان حتى بلغت مختاراته ستا وعشرين مختارة. والإكثار من العتاب لا يعني أن هذا النوع من الشعر قد عرف نشاطا موازيا لنمو شعر الإخوانيات، بقدر ما يعني أنه كان يرتاح له ويضعه بديلا عن اللوم والهجاء.

8) قلنا أن عدد المختارات النثرية كان قليلا إذا ما قورن بعدد المختارات الشعرية[2]، وكان السبب راجعا إلى ما أشرنا إليه من انتشار فني الشعر والنثر بين أوساط العلماء والأدباء، مما أصبح معه ضروريا أن يأخذ كل باحث عن الشهرة بنصيب منهما، وأن تبرز

[1]- الإحاطة 249/4.

[2]- انظر الجدول الخاص بالنثر صحبته.

موهبته واضحة في ميدانهما. ولذلك نشطت الحركة الأدبية وحدث تداخل في الأغراض التي يعبر عنها الشعر والنثر.

وإذا كنا قد وجدنا المدح والرثاء والغزل والوصف والعتاب والحنين من أكثر الأغراض الشعرية تداولا في الديوان، فقد وجدنا في النثر الإخوانيات (سبع وأربعون مختارة) والسياسات (ثلاثة عشر مختارة) أهم ما تناولته مختاراته النثرية من أغراض.

ولعل السبب في كثرة ما اختاره من الرسائل الإخوانية يعود إلى عوامل متعددة منها:

ازدهار الحركة الأدبية النثرية، مما أصبح معه النثر وسيلة من وسائل التعبير العاطفي، بعد أن كان الأمر مقصورا على الشعر في العصور السابقة.

ومنها المنافسة التي قامت بين كتاب العصر وشعرائه، هذه المنافسة التي أصبح التباهي فيها بالعبقرية في الميادين المختلفة وسيلة من وسائل أثبات الذات.

ومنها أخيرا التبعية الفنية التي حتمت على الأديب الأندلسي أن يجاري الظرف وأن يسير في المسار الذي اختطه كتاب القرن الرابع في الشرق.

ولست مع من يقصر موضوع الرسائل الإخوانية على جانب العتاب الذي يتبادله الأدباء في رسائلهم[1]، لأن المدلول الذي يؤخذ من مصطلح الإخوانيات أوسع من أن يحصر في هذا الجانب العاطفي الضيق، وقد اعترف ضمنيا بقصور مصطلحه حين روى مذهب من يعمم مدلول المصطلح.

9) تعتبر الرسائل السياسية من المواضيع التي استأثرت باهتمام الفتح واختياره.

ورغم أن موضوعها يبتعد عن الجوانب العاطفية المغرية، فإن للرسائل قيمة فنية لا تنكر بعد أن أصل عبد الحميد الكاتب أصولها في القرن الثاني الهجري وطورها من جاء بعده. ويبدو أن العدد الذي تضمنته القلائد منها كان محترما بكيفية واضحة، وقد أطلقنا عليها مصطلح الرسائل السياسية إطلاق تغليب، لأن موضوع السياسة أعم من الإدارة ولأن الرسائل الموضوعة في هذا الباب لا تقف عند حدود الرسائل الديوانية المرتبطة بالتعيينات والظهائر، بل تتصل أيضا بشؤون سياسة الخلق وتوجيه الرعية[2].

---

[1]- النثر الفني في القرن الرابع الهجري 200/1.

[2]- رسالة ابن الجد عن الأمير إلى أبي محمد بن فاطمة: القلائد 127.

رسالة ابن القصيرة إلى طائفة متعدية: القلائد 118.

10) تأتي الرسائل الوصفية ضمن الأغراض المطروقة في الاختيارات (ثمان رسائل) وهي وإن لم تكن كثيرة كثرة الإخوانيات والسياسات، فإنها كانت مطبوعة بطابع التحدي الفني قبل كل شيء. فرسالة ابن طاهر في وصف القصور[1] ورسالة عياض التي يذكر فيها النجوم[2] وغيرهما هي نماذج لا يستهان بها، بل تعتبر امتدادا إيجابيا لحركة الوصف التي عرفها النثر العباسي. وكان على الفتح أن يختار بعض الوصفيات لجنان الأندلس (ابن خفاجة) ولكنه لم يفعل، ولسنا ندري سببا لذلك.

11) لم يرو من المقامات إلا جزءا من مقامة مدحية أنشأها أبو عامر بن أرقم يمدح بها الأمير تميم بن يوسف[3] وكان عليه أن يروي مقامة أبي محمد بن مالك التي أورد جزءا منها معاصره ابن بسام[4] أو مقامة أبي عبد الله بن أبي الخصال التي عارض بها مقامة الحريري[5] ولعل انصرافه عن فن المقامات يفيد أنه كان لا يرى في هذا الأسلوب سبيلا إلى التحدي، مادام ائمته قد بلغوا فيه مبلغا لم ير غيرهم من أهل الأندلس قد وصل إلى شيء منه.

وفي جانب الشكل أيضا تطرح قضية طول المختارة. فقد ترددت مختاراته الشعرية بين البيت الواحد والنتفة والقطعة والقصيدة.

ورغم أن الأبيات الفرادى لم تكن كثيرة. فإن النتفة شملت أغلب الحكميات والغزليات والاعتذار والعتاب والاستعطاف والشكوى وبعض الوصفيات. واهتم بتقسيم القصيدة الطويلة إلى قطع مجزأة فأورد من هذه القطع الجزء الصالح الذي يتناسب وآفاق المختارات. فالقصيدة المدحية مثلا ذات المقدمة تجده يورد منها مقدمتها إذا رأى ذلك لازما، وقد يتبعها ببيت أو أبيات في المدح[6]. أو في أغراض أخرى[7]. ولعل غايته من ذلك أن يقدم ما يرضي الذوق ويكون في مستوى الغاية التي ألف الكتاب من أجلها.

[1]- القلائد 71.
[2]- القلائد 146.
[3]- القلائد 153.
[4]- الذخيرة 739/1.
[5]- تاريخ الأدب الأندلسي/ عصر الطوائف والمرابطين 317.
[6]- القلائد 319.
[7]- القلائد 292.

وبالنسبة للقصائد الطوال فقد أورد منها عددا محدودا من أشهرها قصيدة ابن عبدون في رثاء بني الأفطس[1] وقصيدة الأعمى التطيلي في رثاء أحد فتيان إشبيلية[2] وقصيدة ابن خفاجة في مدح الأمير إبراهيم بن يوسف[3] وتهنئة ابن رحيم لعلي بن يوسف[4].

وفي جانب النثر اهتم بإيراد أغلب الرسائل والقطع النثرية كاملة. فإن لم تتوفر له كاملة أشار إلى أنها مبتورة فقال[5]: (وله فصل من رسالة في جانبي، في علمك...) أو قدم لها بخبر تاريخي تأتي بعده[6] (... ولما تغلب العدو على ميورقة كبته الله وجبرها وتحققت الكافة خبرها، خاطب الفقيه أحدَ زعماء الدولة، وأدرج طي خطابه هذه المدرجة والشعر الموصول بها. وأني، أقر الله عينك، لا تردد وقد قصر عن تململي السليم، واتجلد وفي نفسي المقصد المقيم)، ولم يورد من القطع النثرية إلا جزءا من مقامه صنعها أبو عامر بن أرقم[7] في مدح الأمير تميم بن يوسف ووصلها بالقرطبية. قال (... ومن كلامه في مقامه أنشأها في الأمير تميم بن يوسف...).

أما البعد الثالث: والمتعلق بمضامين هذه المختارات فإن الحديث عنه يجر إلى الحديث عن الأغراض التي ترددت في هذه المختارات شعرية كانت أو نثرية، إذ عن طريقها يتم الحديث عن المضامين التي ترددت في هذه المختارات عموما.

ففي جانب الشعر. أشرنا سابقا إلى أهم الأغراض التي تضمنتها المختارات الشعرية، وعرضنا للأسباب التي قد تكون دافعة إلى هذا الاختيار، ونضيف إلى ذلك أن هذه الأغراض يمكن تقسيمها إلى نوعين: أغراض تقليدية مرتبطة بمضمون القصيدة العربية وما يتردد فيها من معاني المدح والهجاء والرثاء والفخر والوصف والغزل والحكمة. وأغراض جديدة متفرعة عن هذه الأغراض التقليدية، تعالج مضامينها ماجد في الحياة العباسية

1- القلائد 42.
2- القلائد 316.
3- القلائد 275.
4- القلائد 131.
5- القلائد 256.
6- القلائد 244.
7- القلائد 153.

كالعتاب والشكوى والشوق والحنين والغزل بالمذكر والتوديع والاستعطاف والاعتذار والزهد والشعر الذاتي والإخوان والتحايا والتعازي والتحريض والتطمين والاستدعاء.

ووجه جدة هذه الأغراض ان شعراء العباسيين خرجوا بالأغراض التقليدية إلى موضوعات متفرعة عنها فرضها الواقع عليهم، واستوحوها من أصولها، القديمة فجاءت في صورها قريبة من أصلها. كما جاءت في مضمونها مستقلة عن التبعية التي يفرضها الترابط القائم بين القديم والجديد.

فالعتاب والشكوى والشوق والحنين والتوديع والاستعطاف والاعتذار مثلا، كلها صفات ينبغي أن يتضمنها الغزل والنسيب والتشبيب. ولكن دور الشاعر الجديد أنه فصل هذه المعاني عن بعضها وأعطى لها كيانا مستقلا في الشكل وفي المضمون. والأمثلة على ذلك كثيرة ومتعددة.

وتبقى الإخوانيات وحدها هي الأثر الجديد الذي فرضته ظروف العصر، ومقتضيات الصراع الذي قام بين الشعراء والكتاب، هذا الصراع الذي انتهى إلى تداخل مواد الشعر والنثر تداخلا كانت الإخوانيات صورة له.

لقد اهتم الفتح بالبحث عن المحاسن في إطار هذه الأغراض معتمدا في ذلك على ثقافته التي هي ثقافة العصر، وعلى تذوقه الأدبي الذي يرتبط بعناصر ذاتية أكثر من ارتباطه بعناصر موضوعية. فتبدى لنا أنه لم يكن يميل إلى المعاني الغامضة، ولا إلى الألفاظ الغريبة الموحشة، ولا إلى التطويل والهدر. ولم يلتزم بنمط خاص في إيراد القصائد. بل كان يهتم بما يمكن أن ينسجم مع معطيات الهدف الذي توخاه في تأليفه.

ففي المختارات الوصفية اتجه إلى الموصوفات التي ترتبط ببيئة الأندلس الاجتماعية (مجالس اللهو مثلا) والطبيعة (وصف الحدائق والزهور والنار والأشجار والفواكه...) والسياسية (وصف الحرب وأدواتها...) ولم يهتم في هذه الموصوفات بإيراد القصيدة التي تتضمنها، بل اهتم فقط بالموصوف في ذاته ولو أدى به إلى إثبات البيت أو البيتين اللذين يتضمنان هذا الوصف.

وفي مختارات الرثاء اهتم بإيراد القصيدة كاملة في الغالب، وأغلب مراثيه كانت ذات مناخ سياسي، فقد أورد من مراثي الدول، بكائيات ابن اللبانة وابن عبد الصمد في الدولة

العبادية ومعتمدها، ومرثية ابن عبدون في رثا بني الأفطس، وعرض مرثيات أخرى لشعراء آخرين في مناسبات مختلفة مرتبطة في الغالب بوفاة الأبطال المرابطين أو استشهادهم في حروبهم مع الممالك النصراينة المجاورة. بينما ارتبطت المراثي الأخرى برباط ذاتي متصل بحياة المترجم لهم وعلاقاتهم الاجتماعية. وتتردد في هذه المراثي المعاني التي تتردد في مراثي الشعراء العباسيين عموما ابتداء بالهلع الذي يصيب الشاعر لفقده المرثي، ومرورا بالحديث عن المصاب، وانتهاء بالإشارة إلى مناقب الهالك والتماس العزاء لأهله والدعاء لهم بالصبر والسلوان. وربما دخل عنصر المدح الموضوع إذا دعت المناسبة إلى ذلك. على أن المراثي الذاتية لا يهتم فيها بعرض المعاني السابقة الذكر، بل يكتفي بالحديث عن اللوعة التي أصابت الشاعر بعد فقده للمرثي.

وإذا كان من عنصر جديد في بعض المراثي السياسية فهو بكاء الدول والملوك وأبطال الجهاد، وهو مما لم يشع في الشرق شيوعه في الغرب.

وليس في قصيدة المدح جديد في اختياراته لأن الغاية التي بنى عليها الاختيارات حتمت عليه أن يبحث عن الجديد، ولم يكن هذا الجديد إلا ما نما في الأندلس من تيار البداوة المتحضرة المتصل بمذهب المتنبي، وما انصرف إليه الشعراء من تمثيل هذا الاتجاه في شعرهم تمثيلا متعلقا بالشكل وبالمضمون. فعادت المقدمات إلى قصائد المدح على اختلاف أنواعها، كما ارتبطت المعاني المدحية بشخصية الممدوح عامة وبأقانيم المدح المعروفة خاصة.

وكان الغزل في مختاراته على نوعين: غزل طبيعي ساير فيه الأندلسيون غيرهم من الشعراء القدماء، وغزل شاذ تأثروا فيه خاصة بمذهب أبي نواس ومن شايعه من شعراء المجون في القرن الرابع، وقد كان كل من هذين النوعين واضح الظهور في مختاراته.

ورغم أن ظهور الغزل الشاذ في القلائد كان يعتبر خروجا عن المألوف من الحشمة والوقار، فإن الفتح لم يكن يهتم بإرضاء طبقة معينة من الجمهور على حساب ما كان يرجوه من غايات هدف إليها من وراء تأليفه.

وفي مختارات الشوق والحنين ما يدل على أن هذا اللون من الشعر قد عرف ازدهارا في الأندلس خلال هذه الفترة التي كتب الفتح عنها، بدليل هذه الكثرة الكثيرة من المختارات التي عرضها منه. ولعل تعاطفه معه كان عاملا مساعدا أيضا على هذه الكثرة.

وقد ارتبط الحنين ببعض الشخصيات السياسية خاصة وبعهد الطوائف عامة، مما يفيد أن تعاطف الفتح مع هذا الشعر كان تعاطفا معتمدا على نفس سياسي مرتبط بعصر سابق.

وأغلب مختارات الحنين متصلة بالقسم الأول والثاني، وأصحابها هم الطبقة التي كانت تتصل اتصالا مباشرا بأمور السياسة واستقرار الدول واستمرارها أو انهيارها. على أنه لا ينبغي أن يفهم من هذا التعميم أن هذه القصائد قد ارتبطت كلها في موضوعها الأساسي بغرض سياسي، بل الذي ينبغي أن يفهم هو أن المناسبات التي عرض فيها الفتح هذه المختارات هي التي أعطت لبعضها هذا التلون السياسي، وإلا فإنها في حد ذاتها لا يمكن أن تخرج عن طابعها الظاهري الذي وضعت من أجله. وصورة ذلك مثلا رائية المعتمد[1] التي يتحدث فيها عن حاله في منفاه ويحن إلى ماضيه ويقول:

غريب بأرض المغربين أسير ... سيبكي عليه منبر وسرير

وتندبه البيض الصوارم والقنا ... وينهل دمع بينهن غزير

مضى زمن والملك مستأنس به ... وأصبح منه اليوم وهو نفور

إلى أن يقول:

فيا ليت شعري هل أبيتن ليلة ... أمامي وخلفي روضة وغدير

بمنبتة الزيتون مورثه العلا ... يغني حمام، أو تدن طيور

بزاهرها السامي الذري جاده الحيا ... تشير الثريا نحونا ونشير

ويلحظنا الزاهي وسعد سعوده ... غيورين والصب المحب غيور

تراه عسيرا أو يسيرا مناله ... ألا كل ما شاء الإله يسير

فقد وضع الفتح هذه المختارة العاطفية في إطارها السياسي، فإذا هي ذات نغمة سياسية خاصة وزائدة عن كل قصائد الحنين، ترتبط بحنين الشاعر إلى عرشه، وبنكبته السياسية التي أطاحت بملكه وعصفت بدولته. وحين تخرج هذه المختارات عن هدفها

---

[1]- القلائد 27.

السياسي إلى موضوعها العاطفي تبدو أقرب إلى طبيعة شعر الحنين المرتبط ببيئته الاجتماعية والطبيعية والإنسانية. يقول ابن عبدون[1]:

سقاها الحيا من مغان فساح فكم لي بها من معان فصاح
وحلى أكاليل تلك الربى ووشى معاطف تلك البطاح
فما انس لا نس عهدي بها وجريَ فيها ذيول المراح
ونوم على حبرات الرياض تجاذب بردي مر الرياح
بحيث لم أعط النهي طاعة ولم أصخ سمعا إلى لحي لاح
وليل كرجعة طرف المريب لم أدر له شفقا من صباح

فقد أخلص الشاعر للنمط الطبيعي في الحنين القائم على استحضار الذكريات وتذكر مواطنها. ولم تتقدم هذه المختارة مقدمة تصرفها عن هدفها العاطفي فجاء مضمونها منسجما مع الأصول الطبيعية للشوق والحنين. والأمر أجل من أن يحصر في مثال واحد، فالأمثلة كثيرة والمضمون غير مختلف عما ذكرناه.

أما قصائد الشكوى فقد مسها ما مس سابقتها حين ترددت معانيها بين شكوى سياسية وأخرى غير سياسية، فالأولى هي التي يشكو فيها الشاعر من حالته التي أصبح عليها بعد أن كان في حالة أفضل منها وأغلب أشعار هذا النوع من الشكوى يتضمنها القسم الأول، وترجمة المعتمد منه خاصة. كما أن أغلب أشعار النوع الثاني من هذه الشكوى يتضمنها القسم الثاني وترجمة ابن زيدون وابن عمار وابن لبون خاصة. وليس هناك جديد في الشكوى السياسية إلا ارتباطها بوضع صاحبها كقول المعتمد[2]:

تبدلت من عز ظل البنود بذل الحديد وثقل القيود
وكان حديدي سناها ذليقا وعضبا رقيقا صقيل الحديد

[1]- القلائد 166.
[2]- القلائد 250.

فقــــــد صـــــــار ذاك وذا أهمـــــــا يعـــــض بســـــاقي عـــــض الأســـــود

أما أشعار النوع الثاني فليس لها مضمون مشترك إلا ما يمس غرض الشكوى في حد ذاته. فشكوى ابن زيدون ليس لها طبيعة شكوى ابن عمار أو ابن لبون أو ابن العطار. فقد شكا ابن زيدون وضعه في السجن[1] ثم وقد فر منه[2]. وشكا ابن عمار حاله وقد تهافت الأعداء على رأسه[3]، وشكا ابن لبون رحيل أحبابه[4] ثم حاله وقد آل مآله إلى ما آل إليه[5]، وشكا ابن العطار وجده وغرامه[6]. والمعتقد أن الفتح كان يميل إلى هذا الغرض وجانبه السياسي خاصة، ويجد فيه إرضاء سلبيا لمشاعره تجاه تغير الأوضاع في الأندلس. والدليل على ذلك ما يقدم به لهذه المختارات[7] مما يجعلنا نشعر بأنه يعايش الشاعر في مصابه. ولعل السبب في ميله هذا يعود إلى اتصالاته وهو يؤلف القلائد، إذ أغلب رجال كتابه من أعيان العصر السابق الذين ذهبت دولتهم ودالت حكومتهم، فأثروا بحديثهم وأخبارهم عليه، فطعم مختاراته بما يربطه بالعصر السابق من أغراض شعرية كالحنين والشكوى وغيرها.

أما الإخوانيات فهي منصرفة عند بعض النقاد إلى موضوع المراسلات النثرية المتبادلة بين الخلان والأحباب، والتي تتناول في جوهرها تبادل عواطف المحبة والإخاء والصداقة وما يجري في مجراها. ولكنها خرجت في العصر العباسي الثاني وما بعده من شكلها النثري إلى الشعر بفعل تداخل عناصر التعبير في هذا العصر، وسيطرة جماعة الكتاب الشعراء على فنون القول، مما أصبح معه مستبدعا أن تتناول الأغراض الشعرية نثرا، والأغراضُ النثرية شعرا. وقد جارى الأندلسيون هذه بالشعر. فالدعوات والمراسلات الشعرية ذات الطابع الأخوي والتهاني وغيرها مما يدخل في عموم الأخوة، كلها معان انصرف إليها الشاعر الأندلسي في

[1]- القلائد 86.
[2]- القلائد 89.
[3]- القلائد 103.
[4]- القلائد 112.
[5]- القلائد 114.
[6]- القلائد 330.
[7]- القلائد 29 و86 و114.

إخوانياته بفعل تقليده للشرق وتحديه لشعرائه وكتابه، وهذا هو الهدف الذي رمى إليه الفتح من إثبات هذه الإخوانيات.

وليس في بقية الأغراض الشعرية الأخرى غريب عن ما عرف لشعراء الأندلس.

فالحكميات ارتبطت في جملتها بالزهد والدعوة إلى الاتعاظ بمصير الدنيا وويلاتها.

والهجاء ـــ الذي يعتبر أقل الأغراض تداولا ـــ لم يكن فيما تردد فيه جديد، إلا هجاء الأوضاع أو الأشخاص[1].

في حين أن الاستعطاف والاعتذار والعتاب والشعر الذاتي كلها أغراض لا تخرج عن المطلوب منها وليس فيها جديد إلا ارتباطها ببيئتها الأندلسية.

ولو عدنا إلى محاولة الربط بين الشكل والمضمون في عملية الاختيار لوجدنا أن الأوزان والإيقاعات هي العنصر المهم في هذا الباب، ذلك لأن نجاح الأديب في التعبير عما يريده لا يتم له إلا إذا اختار لتعبيره قالبا فنيا ملائما لمضمون أفكاره. ولما كان الشعر قائما على ثنائية الكلمة والإيقاع، فإنه من الضروري دراسة المدى الذي وصل إليه الفتح في عملية الاختيار بالنسبة للإيقاع، بعد أن درسنا الكلمة وأبعادها المختلفة فيما سبق.

إن مراجعة متأنية للديوان توقفنا على مجموعة من الحقائق الخاصة بهذه النقطة، ترتبط في مجموعها باستغلال الفتح لمعارفه النقدية في هذا الباب ولذوقه المهذب، وهذه الحقائق وهي:

أ ـــ يعتبر البحر الطويل أكثر البحور الشعرية تداولا في اختياراته فقد بلغت مختاراته منه أربعا وثمانين ومائة مختارة. وهذا العدد الضخم الذي يقارب ثلث المختارات، يفيد أن الفتح كان يعي أهمية هذا البحر عند العرب في تقويم الأشعار الجيدة وتمييزها عن غيرها. فالبحر الطويل كما يرى الدكتور عبد الله الطيب[2] إلى جانب البسيط يعد أن (أطول بحور الشعر العربي وأعظمها أبهة وجلالة وهما من الأوزان العربية بمترلة السداسي عند الإغريق... والطويل نغما، ذلك بأن أصله متقاربي، وأصل البسيط رجزي، ولا يكاد وزن رجزي يخلو

[1]- القلائد 325.

[2]- المرشد إلى فهم أشعار العرب 362/1.

من الجلبة مهما صفا...) ويقول عنه أيضا[1] (وقد أخذ الطويل من حلاوة الوافر دون انبتاره، ومن رقة الرمل دون لينه المفرط، ومن ترسل المتقارب المحض دون خفته وضيقه، وسلم من جلبة الكامل وكزازة الرجز، وإفادة الطول جلبة وجلالة. فهو البحر المعتدل حقا ونغمه من اللطف بحيث يخلص إليك وأنت لا تكاد تشعر به....) ونضيف فنقول عنه أنه البحر الثنائي الذي جمع بين فعولن الخماسية الخفيفة المتقاربية، وبين مفاعلين السباعية الرصينة الهزجية العذبة، فهو يجمع الخفة والرصانة والعذوبة. وهذا البحر أكثر البحور ملائمة لأشعار المدح والفخر والرثاء لما تتطلبه هذه الأغراض من رتابة ورصانة ووقع طيب على النفوس. ونظرا لتقارب معاني هذه الأغراض كان إيقاع الطويل ملائما لها جميعا، وربما كان لهذه الأسباب ولغيرها اختيار الشعراء له سبيلا للتعبير عن مشاعرهم بصورة مجملة، وكان لهذه الأسباب أيضا ولغيرها اختيار النقاد له طريقا للتعرف على جودة الشعر وتفوق الشعراء.

ب ـــ والبحر الكامل هو البحر الثاني من حيث كثرة المختارات التي نظمت عليه. وقد شملت مختاراته أغراضا غير محصورة ارتبطت بالرثاء والمدح والوصف والغزل والحنين والعتاب والشكوى والاستعطاف وقد بلغت مختاراته منه تسعا وعشرين ومائة مختارة. وليس ظهور هذه الأغراض فيه من باب الصدفة. ذلك لأن هذا البحر كما يرى النقاد العروضيون[2] (أكثر بحور الشعر جلجلة وحركات، وفيه لون خاص من الموسيقى يجعله – أن أريد به الجد – فخما جليلا مع عنصر ترنمي ظاهر. ويجعله أن أريد به إلى الغزل وما بمجراه من أبواب اللين والرقة، حلوا مع صلصلة كصلصلة الأجراس، ونوع من الأبهة يمنعه أن يكون نزقا أو خفيفا شهوانيا. وهو بحر كأنما خلق للتغني المحض سواء أريد به جد أم هزل...). لذلك كان للاختيار الذي مارسه الفتح عليه أكثر من دلالة على تذوقه لجيد الشعر.

ج ـــ وكان البحر البسيط ثالث البحور الشعرية تداولا في الديوان فقد بلغت مختاراته منه إحدى عشرة ومائة مختارة. وأغلبها يتناول المدح والوصف والاعتذار. ورغم أن البسيط يعتبر في عرف المتذوقين من النقاد، من البحور الرصينة إلى جانب الطويل. فإن

1- نفس المصدر والصفحة.

2- المرشد إلى فهم أشعار العرب 246/1.

تداوله لم يكن واسعا بالنظر لفخامة موسيقاه، وكان الكامل أوسع منه انتشارا. وإذا كان القدماء قد خصوا البسيط ببعض الأغراض الشعرية الخاصة فذلك لأن طبعه الموسيقي كما يرى الدكتور عبد الله الطيب[1]. (لا يكاد يخلو من أحد النقيضين العنف واللين. وتكاد صبغته على وجه الإجمال تكون إنشائية إذ افترضنا في الطويل صبغة خبرية وهذا مجرد تقريب وتمثيل...)، ولهذا كانت الأغراض الناجحة في هذا البحر محدودة لأنه يجمع بين مستفعلن الرجزية السريعة وبين فاعلن الخببية الرتيبة، فهو بحر يجمع بين الجموح وضده. وهذه الصعوبة هي التي جعلته ميدان تنافس بين الشعراء، ومحسا يعرف به صاحب الطبع النقي من صاحب الصنعة المتكلف.

د ـــ ثم تأتي البحور الخفيفة التي تتقارب أهميتها داخل الديوان انطلاقا من الوافر (واحد وخمسون مختارة) ومرورا بالمتقارب (خمس وأربعون مختارة) ثم الخفيف (ثمان وعشرون مختارة) وكلها من البحور السريعة رغم وجود الخفيف بينها بحرا من البحور المركبة لأن تركيبه ذو صبغة لا تشد عن البحور الخفيفة. فأجزاؤه تجمع بين تفعيلة الرمل وتفيعلة الرجز وكلها خفيفة سريعة.

وقد استغرقت هذه البحور أغراض المدح والوصف والغزل وتوابعه ورغم أن اعتماد المدح على بحور رصينة يكاد يكون سنة لا يشد عنها إلا المتحدي، فإن هذا التحدي في نظرنا هو الذي دفع بصاحب القلائد إلى إثبات هذه القصائد التي تشد في إيقاعها عن المألوف.

هـــ ـــ وتناولت مختاراته أيضا البحور الناقصة كمجزوء الكامل والخفيف والرمل والوافر ومخلع البسيط. وليس في استعمال هذه الإيقاعات الناقصة عيب يذكر، وإنما هي اختيار موسيقي قائم على اقتناع خاص بالميل إلى هذه البحور واستعمالها قصيرة لغايات خاصة تكمن داخل القصيدة نفسها. ولو شئنا البحث عن هذه الغايات لوجدنا أنفسنا مضطرين إلى الرجوع إلى الأسباب التي حدث بالناظم إلى هذا الاختيار، لا إلى الأسباب التي دفعت الفتح إليه، لأن اختيار الفتح لها اعتمد الجودة. والجودة ليس وراءها سبب واحد فحسب، بل تقف وراءها أسباب كثيرة ومتعددة، ترتبط بالشاعر من جهة، وبالغرض الذي

[1]- نفس المرجع 414/1.

يتناوله من جهة ثانية، ثم بالبحر الشعري الذي يختاره قالبا موسيقيا لهذا الغرض، ثم بالمعاني المترددة فيه.

ويعتبر البحر المديد والمجتث من أقل البحور تداولا في الديوان فلم تتعد مختاراته من الأول أربع مختارات. ومن الثاني ثلاث مختارات. ولعل السبب واضح بالنسبة للمديد، فقديما استثقله القدماء وكانت شواهده عند العروضيين واحدة، وقد علل الدكتور عبد الله الطيب ذلك بقوله[1]: (... فبحر المديد فيه صلابة ووحشية وعنف. ولا يستبعد أن تكون تفعيلاته قد اقتبست في الأصل من قرع الطبول التي كانت تدق في الحرب...، وبحر المديد على بساطة نغمه يعسر على الناظم، لأن تفعيلاته تطلب كلمات متقطعة... وأحسب أن هذا العسر هو الذي جعل الشعراء يتحامونه...، ثم أن مثل هذا التقطيع في ذاته شيء لا يقبله الذوق إلا في الحالات الناذرة كموقف الغضب الشديد الذي يسبب التمتمة والعي). أما المجتث فهو من البحور القصيرة العذبة كما عبر عن ذلك العروضيون القدماء، ورأى المحدثون فيه حركية أشبه ما تكون بحركية مجزوء الرمل والهزج[2]، ولم يكن للفتح عذر في عدم الإكثار منه في نظرنا إلا قلة المختارات الجيدة التي تجتمع فيها الشروط التي حددها لمختاراته.

ز ـــ هناك بحور لم يكن لها ذكر في الديوان كالمضارع والخبب والهزج والمقتضب، وبحور كان ذكرها قليلا قلة لافتة للنظر كالرجز، ولست أرى سببا لغياب هذه الأوزان إلا غلبة الأغراض الشعرية الجادة على الأغراض الأخرى، فقد نمت أغراض المدح والرثاء والوصف والغزل على غيرها من الأغراض الأخرى التي تتطلب خفة في الإيقاع مما لزم غلبة البحور الرصينة على البحور الخفيفة، كما أنه قد يرجع السبب إلى خلو المختارات من الموشحات التي تتطلب هذا النوع من الإيقاع، نوع البحور المجزوءة والمقطوعة[3].

جدول أخصائي خاص بالبحور الشعرية التي تتضمنها مختارات قلائد العقيان، مرتبة حسب كثرة تداولها فيها

1- المرشد إلى فهم أشعار العرب 75/1.

2- نفس المصدر 94/1.

3- انظر الجدول التفصيلي الخاص بتوزيع البحور الشعرية في القلائد.

البحور	القسم الأول	القسم الثاني	القسم الثالث	القسم الرابع	المجموع
الطويل	28	68	31	56	184
الكامل	16	48	21	44	129
البسيط	19	40	17	39	111
الوافر	4	19	10	18	51
المتقارب	12	18	4	11	45
الخفيف	3	13	2	10	28
مخلع البسيط	3	6	4	3	16
مجزوء الكامل	5	8	1	2	16
المنسرح	2	3	2	6	13
الرمل	3	3	3	–	9
السريع	–	3	1	4	8
مجزوء الرمل	2	3	–	3	8
مجزوء الوافر	–	6	–	–	6
المديد	1	–	–	3	4
المجتث	–	–	–	3	3
الرجز	2	–	–	–	2
مجزوء الخفيف	–	–	–	1	1
المتدارك	–	–	–	–	–
المضارع	–	–	–	–	–
الهزج	–	–	–	–	–
المقتضب	–	–	–	–	–

الفصل الثالث
مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس

يعتبر المطمح ثاني كتاب ألفه الفتح بعد القلائد، إذ يرجع تاريخ تأليفه له فيما نظن إلى ما بعد سنة (ست عشرة وخمسمائة) وذلك لمجموعة اعتبارات:

أولها: متعلق بموضوع المطمح نفسه والذي كان أكثر شمولا واستيعابا من القلائد. فبعد أن ألف قلائد العقيان وتحدث فيها عن رجال العصر وعرض محاسنهم، وأطلع على سر المهنة. انطلق في تجربة جديدة أعم وأشمل من الأولى تخص رجال الأندلس جميعا أو من يعرف منهم بوجه أخص.

ثانيها: متعلق بالشخصية التي أهدي إليها الكتاب أو ألفه بإلحاح منها كما أشار في المقدمة، وهي شخصية نكرة إذا ما قورنت بشخصية الأمير إبراهيم بن يوسف بن تاشفين. وهذا يدل على أن الفترة التي ألف فيها المطمح كانت فترة فراغ سياسي في حياته. ولم تعرف حياته هذا الفراغ إلا في مرحلة ما بعد وفاة حامية السابق الأمير إبراهيم.

ثالثها: أن الفتح اضطر إلى الارتزاق بمؤلفه السابق عن طريق املائه على بعض من كان يهتم بموضوعه، فاضطر إلى توسيع الكتاب بتأليف ملحق له وفي موضوعه وهدفه هو كتاب مطمح الأنفس.

وبهذا يكون كتاب المطمح مهما أهمية القلائد ويزيد عليها:

1) أنه اشتمل على مجموعة من التراجم لم يسبق أن ذكرت في القلائد.

2) أنه عرض فيه لذكر رجال الأندلس المشهورين في حقب مختلفة فلم يخصه بفترة خاصة كما فعل في القلائد.

3) أنه صرح في مقدمته بالهدف الأساسي من تأليفه حين قال[1]:

(... وأبقيتها لذوي الآداب ذكرا، ولأهل الإحسان فخرا، يساجلون به أهل العراق، ويحاسنون بمحاسنها الشمس عند الإشراق.) فصرح بأنه هدف من وراء الكتاب إلى مساجلة أهل العراق بما وصل إليه أهل الأندلس. ولم يفعل مثل هذا في كتابه السابق، بل

[1]- المطمح 2.

مال إلى الإيماء والإشارة فقط حين قال[1]: (... ليعلم أن بالأوان افتنانا، جرت له العوائق بنانا وبيانا فأبقت منه أثرا لأعيانها، ورجالا لم تفسح لإبداعهم مجالا... فأظهرت ما خفي من فخارهم...).

4) أن مضمون الكتاب يسمح للفتح أن يضيف إليه من مؤلفه الأول، دون أن يبدو ذلك بعيدا عن الهدف الذي ألف من أجله، ودون أن يخرج ذلك أيضا عن المنهج العام للكتاب.

ومن هنا يبدو أن هذه الأهمية التي اكتسبها بفضل هذه العوامل هي التي جعلت اسم الفتح يذكر مقرونا بالمطمح كما ذكر مقرونا بالقلائد.

ويبدو لمن يتصفح مقدمة المطمح المطبوع أن الفتح قد قسمه إلى أقسام ثلاثة رئيسية:

= قسم أول يشتمل على سرد غرر الوزراء وتناسق درر الكتاب والبلغاء وقد بلغت التراجم فيه ثمان عشرة ترجمة.

= وقسم ثان يشتمل على محاسن أعلام العلماء وأعيان القضاة والفهماء وقد بلغت تراجمه تسع عشرة ترجمة.

= وقسم ثالث يشتمل على سرد محاسن الأدباء النوابغ النجباء وبلغت تراجمه أربع عشرة ترجمة.

فاختصر في أقسامه الثلاثة ما سبق أن فصله في أقسام القلائد الأربعة.

توثيق النسخة:

من الصعب الحديث عن نسخة موثقة من المطمح. ذلك لأن اختلاف القدماء في تحديد نوع النسخ المشهورة من الكتاب وعددها جعل من الصعب الحديث عن نسخة نموذجية متكاملة منه. ولقد سبق أن أوضحنا – ونحن نتحدث عن آثار الفتح – أن المطمح على نوعين كما ذكر ذلك المقري[2] وأوردنا من الحجج ما يشفع لذلك. وهذان النوعان هما المطمح الصغير والمطمح الكبير.

1- القلائد 3.

2- نفح الطيب 35/7.

1)**فالمطمح الصغير**- في اعتقادنا ــ هو نسخة المطمح الأولى التي ألفها الفتح وأهداها للوزير أبي العاص حكم بن الوليد ــ

وقد أشار إلى هذا في مقدمة الكتاب حين قال[1]: (... إلى أن أراد الله إظهار إعجازها... فحللت من الوزير أبي العاص حكم بن الوليد عقد من رحب وأهل بمكارمه واهل، وندبني أن أجمعها في كتاب، وأدركني من التنشيط إلى إقبال ما ندب إليه...).

وهي النسخة المشتملة على مجموعة من التراجم القصيرة التي لا يتعدى نطاقها ما هو موجود في المطمح المطبوع[2] مع بعض الإضافات. و لم تتخلف لنا نسخ خطية كثيرة منه. إذ لا تتعدى نسخه المعروفة ما أشار إليه بروكلمان[3] حين قال (مطمح الأنفس... في ثلاث نسخ صغرى ليبزج أول 546 وبطرسبرج ثان 776 ووسطى: المتحف البريطاني أول 367. وكبرى مخطوط أيضا في ليدن 1021 والقاهرة ثان 359/3) والظاهر من أشارته إلى نسخه، أنه يجاري ما هو معروف عند بعض الشرقيين في حديثهم عن أقسام المطمح[4]. وقد سبق أن بينا تهافت هذه الرواية وأشرنا إلى بطلانها، ونضيف إلى ذلك أن ما تناوله بروكلمان في حديثه عن النسخة الكبيرة المتطورة عن النسخة المختصرة، إنما هو ما يمكن أن نستدركه على النسخة المطبوعة من الإضافات الواردة في المصادر التي نقلت عن المطمح كبغية الملتمس ونفح الطيب. وبعض المصادر الأخرى التي اعتنت برواية كلامه بالمعنى.

أ ــ التراجم المنقولة في بغية الملتمس:

- فقد أورد صاحب البغية في الترجمة رقم 1554 ترجمة أبي عامر بن الحمارة[5] وهي لا توجد في النسخة المطبوعة، وذكر أنه كان أديبا مجيدا خبيث الهجاء وأن الفتح ذكر ذلك في كتابه المطمح له وأنشدني من قوله مما كتب به إليه...
- وأورد أيضا في الترجمة رقم 1500 ترجمة أبي الطاهر الأشتركوني وقال عنه: قال فيه الفتح سرقسطي البقعة، عراقي الرقعة، وأثنى عليه وأنشد من شعره.

1- مطمح الأنفس 2.

2- طبع في الإستانة 1302 وفي القاهرة 1320 و1325 و1328.

3- تاريخ الأدب العربي 107/6.

4- وفيات الأعيان 24/4.

5- انظر ترجمته في المطلوب 109 والمغرب 120/2 والنفح 517/2.

- وأورد إشارة إلى ترجمة أبي الفضل بن شرف في المطمح (الترجمة رقم 1560) حين قال (ذكره الفتح في كتاب المطمح واطنب في الثناء عليه وأنشد من قوله...) ولا توجد الأبيات المروية في ترجمة القلائد المطبوعة، مما يفيد أنه أعاد ترجمته في المطمح، وروى له ما لم يذكره في القلائد.
- وأورد ترجمة ابن حمديس الصقلي[1]. (الترجمة رقم 1562) وأشار إلى أن الفتح أورد ترجمته، وروى له قصيدة طويلة في مدح القاضي أبي الحسن علي بن القاسم بن عشرة. ورغم أن الضبي لم يشر إلى المكان الذي ترجم فيه الفتح لابن حمديس، إلا أن السياق يفيد أنه قد ذكره في المطمح، لأن التراجم السابقة لم يشر فيها إلى نقل عن القلائد أو غيرها.

ب ــ التراجم المنقولة في النفح: أورد المقري مجموعة من التراجم المنقولة عن المطمح في أجزاء متفرقة من نفحه. وقد كان يشير إلى نوع النسخة التي كان ينقل عنها من حيث لآخر كما حصل مثلا في ترجمة ابن حبيب السلمي، التي أشار إلى أنها من المطمح الصغير[2]. والذي يجعلنا ندرج تراجم النفح على أنها من المطمح الصغير هو سياق التراجم التي ينقلها والتي توجد مرتبة كذلك في المطمح المطبوع. ثم أيضا ما يتضح في هذه التراجم من التشابه الكلي بينها وبين التراجم الموجودة في المطمح (المطبوع) شكلا ومضمونا- مما سنوضحه عند حديثنا عن منهج الفتح في الترجمة ــ

وهذه التراجم المنقولة على نوعين: نوع غير موجود في المطمح المطبوع، ونوع موجود ولكنه يختلف عما هو موجود في المنقول.

النوع الأول: التراجم المحذوفة وهي:

1) ترجمة عز الدولة أبي مروان عبد الله بن المعتصم بن صمادح[3]. وهو أخ أبي يحيي رفيع الدولة، وقد أورد من أخباره وأشعاره ما يجعل ترجمته قريبة من ترجمة أخيه أبي يحيي.

2) ترجمة أبي بكر الغساني[4] وقد ذكر ما أورده الفتح له دون أن يذيل ذلك بما اختاره له من شعره.

1- في النسخة المطبوعة ابن حمريش وكذا في الهامش.

2- النفح 8/2.

3- النفح 40/7.

4- النفح 46/7.

3) ترجمة أبي بكر بن بقي وهو من رجال القلائد[1] ولكنه أيضا من رجال المطمح حسب ما روى صاحب النفح[2] حيث أورد ترجمته في المطمح وترجمته في القلائد، وبينهما من البون ما بينهما.

4) ترجمة المنصور بن أبي عامر وأخباره[3] ولا توجد هذه الترجمة في المطمح المطبوع، وقد رواها أيضا عن المطمح صاحب البيان المغرب[4].

5) ترجمة ابن باجة. لا توجد في المطمح وقد أورد صاحب النفح[5] ما يفيد أن الفتح ترجم له في المطمح، وإن لم يذكر المطمح ذكرا صريحا حين قال (... وأين هذا من تحليته له في بعض كتبه بقوله فيه ما صورته نور فهم ساطع وبرهان على كل حجة قاطع...) والدليل على ذلك أنه في الصفحة الموالية قال (وأورد له في المطمح أنه استأذن على المستعين بالله..)

النوع الثاني: ويضم التراجم المختلفة في مضمونها عما هو موجود في المطمح. وهذه التراجم هي:

1 ــ ترجمة ابن جودي (أبو الحسن علي) [6] وهي أكمل مما هو موجود في النسخة المطبوعة سواء فيما صدرت به التحلية والأخبار أو فيما نقله من المختارات والآثار، حيث نجد في ترجمة النفح ثلاث مختارات منها تخميس. وكان ترتيب المختارات مختلفا عن الموجود في المطمح.

2 ــ ترجمة رفيع الدولة بن صمادح[7]، وهي مختلفة عن ترجمته الموجودة في المطمح من جهتين: الأولى متعلقة بصدر الترجمة. فما ورد في النفح أطول وأوسع. والثانية متعلقة بالمختارات حيث روى له النفح بيتين في رثاء الفتح، حين بلغه موته، كما أورد له خبر المناسبة التي هنأ فيها الفتح: وهو غير موجود في المطمح أيضا.

1- القلائد 322.

2- النفح 236/4.

3- النفح 403/1.

4- البيان المغرب 244/2.

5- النفح 24/7.

6- النفح 57/7.

7- النفح 43/7.

3 ـــ ترجمة أبي القاسم المنيشي[1] وهي في المطمح المتبي وبها زيادة في صدر الترجمة.

4 ـــ ترجمة أبي الحسن البرقي[2]. وبها أيضا زيادة تخص صدر الترجمة.

5 ـــ هناك أيضا مجموعة من المختارات التي نسبت في النفح إلى المطمح ولا توجد فيه مثل:

+ نصوص وأخبار حول علاقة ابن شهيد بالمنصور بن أبي عامر[3]. والملاحظ أن الخبر المنسوب إلى المطمح لا يناسب ترجمة أبي عامر أحمد بن شهيد الشاعر المشهور، وإنما يلائم أباه أبا مروان عبد الملك و لم ينبه على هذا محقق النفح.

+ أبيات للمصحفي ذكر صاحب النفح[4] أن الفتح أنشدها له في المطمح ولا توجد فيه.

ج ـــ وتوجد تراجم منقولة عن المطمح في مصادر أخرى، لكن هذه المصادر لم تعتن برواية كلام الفتح بنصه، بل كانت تتصرف فيه تصرفا كاملا، الأمر الذي جعل من المستحيل الاستفادة منهما في تحقيق نصوص المطمح. ونخص بالذكر هنا كتاب خريدة القصر التي أورد تراجم كثيرة بلغت ثمان ترجمات[5].

أما أزهار الرياض فقد كان ما فيه نقلا واضحا لما هو في النفح، ولذلك لم نضعه ضمن لائحة المصادر المستدرك منها، وكذا الأمر بالنسبة للمغرب الذي لم يشر إلى أخذه عن المطمح إلا في ترجمة أبي مروان عبد الملك بن شهيد[6]، ولعل السبب يعود إلى أنه لم يكن يحمل معه نسخة منه أثناء تأليفه للمغرب.

2) أما المطمح الكبير: فهو في نظرنا ما يمكن أن نطلق عليه مجموع المطمح والقلائد، أي أنه يضم جل تراجم القلائد وجل تراجم المطمح. وكان عمل الفتح فيه أنه كان يملي الكتابين معا بمقدمتهما ومضمونهما في جلسات مختلفة، فتخلف لنا عن هذا الإملاء ما

---

[1]- النفح 53/7.

[2]- النفح 55/7.

[3]- النفح 585/1.

[4]- النفح 604/1.

[5]- الخريدة 98/2 و166 و177 و220 و491 و494 و606 و635

[6]- المغرب 203/1.

يعرف بالمطمح الكبير. والدليل على صحة ما نذهب إليه أنه سبقت لنا من هذا الشكل نسخة خطية تحمل اسم مطمح الأنفس[1] وتضم بين دفتيها ثمانا وأربعين ترجمة من القلائد وسبعا وأربعين من المطمح، أي ما مجموعه خمس وتسعون ترجمة من أصل ثمان عشرة ومائة ترجمة التي هي عدد تراجم القلائد والمطمح المطبوعين.

ولو عدنا إلى دراسة مضمون ما ورد في هذه المخطوطة لوجدنا أنها تخلو من الإشارة إلى نوع هذا المطمح أهو كبير أم صغير أم متوسط.

وصف النسخة:

- توجد في الورقة الأولى وبخط دقيق مغاير للخط الذي كتب به الكتاب، فهرسة لمن تم ذكرهم داخله، والظاهر أنها من عمل الناسخ.
- ثم هناك أيضا وفي الوجه التالي عنوان الكتاب وهو:

مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس.

تأليف ذي الوزارتين أبي نصر الفتح بن محمد بن علي بن عبد الله القيسي رحمة الله عليه وغفرانه. قيد فيه من الرجال ملوكا ووزراء وقضاة. وأدباء وكتابا وحكماء من ذكر بمتنه وانتقاه مؤلفه فأثبته.

والظاهر أن هذا العنوان أيضا من عمل الناسخ إذ لم يشتهر مثل هذا التفصيل في عنوان من عناوين كتب الفتح، بالإضافة إلى ما فيه من تحريف اسمه.

- تلي هذا مقدمة القلائد بنصها مردوفة بتراجم أمراء الطوائف كما وردت في القلائد ابتداء بالمعتمد فالراضي فالمتوكل فالمعتصم فابن رزين. و لم يورد ترجمة ابن طاهر مع الأمراء، بل وضعها مع الوزراء بجانب ابن عمار، ووضع بدلها ترجمة ابن لبون التي أنهى بها القسم الأول[2].

أما القسم الثاني فيبتدئ بخطبة المطمح ثم يعقبها بمجموعة من تراجم المطمح والقلائد التي تدخل في قسم الوزراء ليصبح مجموع تراجم القسم الثاني تسعا وثلاثين ترجمة، أولها ترجمة المصحفي من المطمح وآخرها ترجمة أبي محمد بن القاسم. والملاحظ أنه لم يلتزم بما

[1]- مطمح الأنفس المكتبة الملكية رقم 805.

[2]- مطمح الأنفس المكتبة الملكية رقم 805 ص 70.

ورد في قسم الوزراء بل أضاف طائفة من الفقهاء كابن الدوس وابن سيدة وابن القوطية من المطمح وابن السيد والبكري وابن الحسين بن سراج من القلائد. وهكذا ينتهي القسم الثاني[1] ليبتدئ القسم الثالث بترجمة عبد الملك بن حبيب السلمي، وينتهي بترجمة أبي بكر عبد المعطي بن عبد المعين. ويضم تراجم الفقهاء في القلائد والمطمح وتراجم الشعراء فيهما، وبعض الوزراء الذين أغفل ذكرهم في القسم السابق كابن ابي الخصال وابن عبد العزيز وابن عبد الغفور.

وقد مارس عملية اختيار أدت به إلى إسقاط عشر ترجمات من مجموع تراجم القسمين في المطمح والقلائد فلم تفضل له إلا خمسون ترجمة في هذا القسم.على أن الملاحظ أن الناسخ قد وقع في خلط وهو يقسم هذا القسم الثالث ذلك أنه بعد الترجمة الخامسة والعشرين وضع فصلا أشار فيه إلى بداية القسم الثالث الخاص بالشعراء، مع أن هذا القسم قد ابتدأ قبل بترجمة ابن حبيب كما أشرنا. فهل قسم هذا القسم إلى جزئين.

- وفي نهاية الصفحة الأخيرة نجد خاتمة الكتاب التي يقول الفتح فيها[2]. (... إلى هنا انتهى الأملاء والذكر، وبهذا سمح الخاطر المقسم والفكر، وله الحمد المردد والشكر، ولولا حوادث أزعجت وكوارث أحرجت لأسلت للبديع سيلا (للبدائع) سيلا، وأزجيت إليها إبلا وخيلا. لكني اكتفيت بهذه الملح، واقتصرت على ما جاد لي به الخاطر وسمح والله ولي التوفيق).
- وقد ذيل الناسخ الكتاب بقوله (توسلنا يا من له القدرة والأمر كله إليه ولا حول ولا قوة إلا به. انتهى وكفى وسلام على عباده الذين اصطفى. نجز الكتاب المبارك بحمد الله تعالى وحسن عونه وتوفيقه، وكان الفراغ منه يوم الاثنين عند صلاة الظهر في التاسع والعشرين من شهر الله المبارك شعبان عام إحدى وثلاثين ومائة وألف عرفنا الله خيره ووقانا ضيره وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.
- يبدو من خاتمة النسخة أن الفتح قد أملى هذا الكتاب في ظروف حرجة تحدث عنها بإيجاز واختصار شديدين، لعلها هي التي نجهل عنها الشيء الكثير والتي تمتد من تاريخ وفاة إبراهيم بن يوسف إلى نهايته في مراكش سنة 529 هـ. كما كان يعلم أنه قد قصر

1- مطمح الأنفس رقم 805 ص 212.

2- نفس المرجع ص 335.

في حق الكتاب ومضمونة، فاعتذر عن ذلك بقوله[1] (وبهذا سمح الخاطر المقسم والفكر... ولولا حوادث أزعجت، وكوارث أحرجت..).

سبب تأليف المطمح الكبير:

قد يتبادر إلى الذهن السؤال عن السبب الذي حذا بالفتح إلى إملاء المطمح الكبير على الشكل الذي عرفنا. والجواب أن المؤرخين وأصحاب التراجم لم يتطرقوا إلى ذكر هذا السبب ولا عرض له الفتح في مقدمة من المقدمات أو خاتمة أو رسالة. ولكنا قد نستطيع أن نحدس السبب أو الأسباب التي دفعته إلى ذلك ونرجعها إلى:

1) الظروف السيئة التي عاشها الفتح بعد تخلي الأمراء المرابطين عنه. وقد رمز إلى هذا في خاتمة الكتاب حيث قال (ولولا حوادث أزعجت وكوارث أحرجت...) مما يفيد أن الرجل ألحث عليه ظروف دفعته إلى الارتزاق بأسلوب أو بأخر، وربما جعلته يشتغل بإملاء كتابيه وجمعهما في مؤلف وتقديمهما لمن يرغب في ذلك بعوض، يكبر ويصغر فيكبر معه حجم الكتاب أو يصغر. وهذا هو السر في تعدد نسخ المطمح، وتفاوت ما فيها من الأخبار والمختارات، لأنه كان يملي إملاءات مختلفة حسب العرض والطلب، وهذا ما سيبدو واضحا فيما سنستدركه على هذه النسخة من زيادة أو ما سنشير إليه من نقص فيها.

2) ارتباط موضوع الكتابين ببعضهما. فموضوع القلائد هو البحث عن محاسن الأعيان وإظهارها، وموضوع المطمح أيضا البحث عن ملح أهل الأندلس وإبرازها. ولما كان موضوع القلائد مرتبطا بمرحلة تاريخية محدودة، وكان موضوع المطمح أشمل وأوسع، كان من الضروري أن يدمج أحدهما في الآخر، أي الخاص في العام، دون أن يبدو موضوع أحدهما بعيدا عن الآخر.

3) المحافظة على آثاره. ذلك أن هذه الآثار ستضيع لو كانت موزعة في كتب متفرقة، فكثيرة هي الكتب التي ضاعت أجزاء منها وبقيت أجزاء بفعل هذا العامل، لذلك رأى الفتح في ظننا أن يجمع هذه الآثار في كتاب واحد، وقد ضاعت بعض آثاره ولم يبق لنا منها إلا الاسم، كحديقة المآثر التي أشار إليها ابن عبد الملك[2] وراية المحاسن وغاية

---

[1]- مطمح الأنفس (الملكية 805)، ص 335.

[2]- الذيل والتكملة 530/5.

المحاسن التي أشار إليها ابن الآبار[1] كما ضاع ترسيله و لم يبق منه إلا بضع رسائل متفرقة هنا وهناك في المصادر المختلفة، لا تصل إلى العشرين رسالة.

توثيق النسخة:

يجد الباحث المقارن بين مضمون مخطوط الملكية، وبين ما هو وارد في النسخ المطبوعة من القلائد والمطمح والملحقات التي أشرنا إليها سابقا، يجد أنه أمام بعض الاختلافات في مضمون ما هو وارد في المطمح الكبير، وهذه الاختلافات يمكن تقسيمها إلى قسمين:

1- اختلافات ترتبط بزيادات وإضافات متصلة بالمختارات في الغالب وتمس بعض الترجمات.

2- اختلافات ترتبط بنقصان واضح في المختارات التي يشملها المخطوط.

والمظنون أن هذا النقصان متصل بما اعتذر عنه الفتح في خاتمة الكتاب من اضطراب الأحوال وتقسيم الخاطر وانشغال البال.

أما ما يتعلق باضطراب ترتيب المختارات بالتقديم أو بالتأخير فلن نشير إليه لقلة شأنه وعدم مساسه بما لاحظناه سابقا من نقصان أو زيادة، على أنه يؤكد ما سبق أن أشرنا إليه من أن المطمح الكبير هذا هو عبارة عن إملاءات اختلفت ظروفها ومناسباتها باختلاف ظروف الفتح المادية والاجتماعية، مما جعله يخرج على هذه الصورة التي لم ترقه واعتذر عنها.

أما التغيرات التي تتعلق بالزيادة فتتصل بثمان ترجمات هي:

أ ـــ ترجمة أبي بكر بن الملح[2] وتوجد بها عشر مختارات زائدة هي:

- ص 106 قطعة ذاتية من المتقارب
- ص 106 قصيدة في أخذ سبتة وهي الدالية التي توجد أبيات منها في القلائد ص 214 من البحر الكامل.
- ص 107 قطعة ذاتية عينية من البحر البسيط.
- ص 107 رائية يصف فيها حلوله عند المعتضد.
- ص 107 حائية في المعتمد.

1- معجم أصحاب الصدفي 313.

2- مطمح الأنفس المخطوط ص 805.

- ص 107 رائية من الطويل
- ص 108 رائية موصولة بالهاء في الغزل.
- ص 108 ميمية في الغزل.
- ص 108 قافية يصف فيها شمامة.
- ص 108 نونية في العتاب.

ب ــ ترجمة أبي محمد عبد الله بن السيد البطليوسي[1] وفيها جزء لا يوجد في ترجمته في القلائد، كما لا يوجد في رسالته التي ألفها عنه وفي هذا الجزء يقول عنه (أمام الأوان ومعلم النحو، وعلم الإثبات فيه والمحوه به يدرك غامضه، ويستنار رابضه. وهو بالأندلس في الآداب كالجاحظ بل أرفع درجة، وأنفع لمن سام برقه أو شم أرجه، وشلب بيضته زمنها كانت حركة أبيه ونهضته، وفيها كان استقرارهم، وعنها حان عند تغلب البربر فرارهم، ونسب إلى بطليوس لتردده بها أو لمولده في تربتها. حيث كان فقد طبق الأرض رفعة ذكر، وسبق أهلها بكل نزعة فكر. وتصرف أبو محمد هذا مع الأيام كيف تصرفت، وجاراها حين أقبلت وحين انصرفت، فخدم الرياسات، وأبرم عرى السياسات. ونفق وكسد، وارتفق وتوسد، ونصب نفسه لإقراء النحو وفنع بتغييم جوه بعض الصحو. ثم برح بذلك الحيف، فعدل عن الخيف وقعد للتدريس واقتصد كاهله اقتعاد الرئيس. وكان له في دولة ابن رزين مجال ممتد ومكان معتد. ولما رأى الأحوال واختلالها، والأقوال وانحلالها، وتلك الشموس قد هوت، ونجوم الآمال قد خوت، أضرب عن سواه، ونكب عن نجواه، وأعرب بلوعة ابن رزين جواه...)، ثم بقية الترجمة في القلائد.

ج ــ ترجمة أبي عبيد الله البكري[2] ولا توجد بنصها في القلائد بل هناك زيادات في صدر الترجمة وفي المختارات.

فبالنسبة للترجمة يقول (... ووجدت بخط ابن حيان. كان الأديب الحبيب أبو عبيد الله بن عبد العزيز ابن أبي المصعب البكري أمير ساحل كورة لبلة وصاحب جزيرة شلطيش وأونبه. ورث عن أبيه في الفتنة رياسة مؤثلة في الجماعة. وكان عبيد الله متقدما في أهل البيوتات وأرباب النعم في الأندلس، فغلبه ابن عباد صاحب إشبيلية على سلطانه ببلده

[1]- مطمح الأنفس (الملكية) ص 137.

[2]- نفس المرجع ص 143.

المذكور، فلاذ بقرطبة ثم صار إلى ابن معن صاحب المرية، فاصطفاه لصحبته وآثر مجالسته والأنس به، ووسع راتبه، ووفر طعمته ومن شعره:

أجد الهوى لم يبل هرا مجددا   ووجدا إذا ما اهم الوجد أنجدا

وما زال هذا الدهر يلحن في الورى   فيرفع مجرورا ويخفض مبتدا

ومن لم يحط بالناس علما فإنني   بلوقم شتى مسودا وسيدا

وكان رحمه الله معاقرا للراح لا يصحو من خماره، ولا يمحوا رسم إدمانه من مضماره، ولا يريح إلا على تعاطيها، ولا يستريح إلا إلى معاطيها، وقد اتخذ إدمانها هجيراه، ونبد من الإقلاع عنها مسجده ومصلاه. فلما حان انقراض شعبان وانصرامه، طلبه بالإدمان عليها كلفه وغرامه، وخاف من واش يشي، ثم غلبته الصبوة فطاف بكعبتها طواف المنتشي، ولم يتورع عن إتيان الدنية، ولا فزع للتحرج ثنية، وندب نديمين كانا أهتك منه سترا، وأقل عن المحجورات صبرا. وقال:

خليلي أني قد طربت إلى الكاس   وتقت إلى شم البنفسج والآس

فقدما بها نلهو ونستمع الغنا   ونسرق هذا اليوم سرا من الناس

فإن فطنوا كنا نصارى ترهبوا   وإن غفلوا عدنا سراعا إلى الكاس

وليس علينا في التعلل ساعة   وإن وقعت في عقب شعبان من باس

ولما خرج ابن السقاء إلى لقاء باديس كتب إليه:

كذا في بروج السعد ينتقل البدر   ويحسن حيث احتل آثاره القطر

وتقتسم الأرض الحظوظ فتلعة   بها وافر منها وأخرى لها نزر

أذل مكان غاب عنه مملكي   وعز مكان حله ذلك البدر

أما آخر المختارات فهي: (... وله في المعتمد رحمه الله عند إجازته البحر مستجيرا بأمير المسلمين نضر الله وجهه ومستعينا ومتداركا به من الإسلام منبتا ضمينا:

يهون علينا مركب الفلك أن ترى محيا العلا لما نأى مركب الجرد
فجزنا أجاج البحر نبغي زلاله وذقنا جنى الشريان نبغي جنى الشهد
يذكرنا ذاك العباب إذا طما ندى كفك الهامي على القرب والبعد
محمد يا ابن الأكرمين أرومة ليهنك تشييد المكارم في المجد
فلو خلد الإنسان بالمجد والتقى وآلائه الحسنى لهنئت بالمجد

د ــ ترجمة ابن زيدون[1] وهي ترجمة مختلفة عما هو موجود في القلائد المطبوعة والمخطوطة. وصورة ما هو موجود هو:

(... زعيم الدولة القرطبية، وعظيم الفتية الأدبية، الذي توج الأوان تاجا من المحاسن، وورد ماء الإحسان غير آسن... دولة الجهاورة، واصطفته اصطفاء الأساورة. واختص بأبي الوليد منهم اختصاص الفرح بالنور وارتبط بهم ارتباط الإفاضة بالفور. وأبو الحزم بن جهور إذ ذاك رأس الجماعة، وأصل تلك الأسرة المطاعة. ناهيك من رجل أدهى من فقير عمان، وأجرأ من ليت بخفان، وأدهى من عمرو بن عامر في الجفان، وكان ابن زيدون متصلا بأبي الوليد جهور أطول حقبة، اتصال ابن الزبير بالوليد بن عقبة، وكان بينهما تآلف أحرما بكعبته وطافا، وتساقيا من تصافيهما نطاقا، فكان ابن زيدون يعتد ذلك حساما مسلولا، ويرى أنه يرد به صعب الخطوب ذلولا، إلى أن طولب عند أبيه أبي الحزم بطلب حصل به بين ناب البغي ومخلب. فاستشفع بأبي الوليد وتوسل، واستدفع به تلك الأسنة المشرعة والأسل، فما ثنى إليه عنان عطفه، ولا كف عنه استنان صرفه، مع استعطافه له بكل مقال يحل سخائم الأحقاد، واستعطافه إياه بما يرد الصعب سلسل القياد، فمن بديع ذلك وحسنه ومستلطفه ومستحسنه:

إيه أبا الحزم واهتبل عدة ألسنة الشكر عنها فصاح
لا طار بي حظ إلى غاية إن لم أكن منك مريش الجناح
يمناك بعد العتب أمنية مالي على الدهر سواها اقتراح

[1]- مطمح الأنفس (الملكية) ص 149.

لم يثـــنني عـــن أمـــل مـــا جـــرى   قـــد يرقـــع الخـــرق وتوســـى الجـــراح

ومنها:

أن ســـحب الأفـــق منـــها الحيـــا   والحمـــــد في تأليفهـــــا للريـــــاح

وله أيضا (ثمانية أبيات)

أتوحشـــني الأيـــام في بلـــد الأنـــس   وأشكو ظلام الـــدهر في مطلـــع الشـــمس

ولما لم تنفع رقاه، ولم يدفع عنه أبو الحزم الذي أبعده وأصماه، أضجره ذلك وأحقده، وحل من ارتباطه ما كان عقده، وعاتبهم بأخشن عتاب، ونأى عنهم بجانب من الثقة مرتاب، وقال:

بـــني جمهـــور أحـــرقتم بجفـــائكم   فـــؤادي فمـــا بـــال المـــدائح تعبـــق

تظنـــوني كـــالعنبر الـــورد إنمـــا   تطيـــب لكـــم أنفاســـه حـــين يحـــرق

وكتب إليه: حنانيك قد بلغ الماء الزبى، ونالني ما حسبي به وكفى، وما أراني إلا أني أمرت بالسجود لآدم فأبيت واستكبرت، وقال لي نوح عليه السلام اركب معنا...).

ثم تبتدئ بعد ذلك جمل القلائد (وقد أثبت من مقاله...) [1].

هـــ ـــ ترجمة أبي الوليد سليمان بن خلف الباجي[2] والترجمة متشابهة مع القلائد تقريبا مع اختلاف بسيط مع خاتمتها، أما مختاراتها فهي أطول بمقدار ثلاث مرات عما هو في القلائد. والقطع الزائدة هي:

- قطعة ميمية في وصف القلم.
- خبر دخوله بغداد مع مدحه للقاضي ناصح الدين السمتاني.
- قطعة من مدحيته السابقة.
- ميمية في مدح المعتضد.

1- القلائد 80.

2- مطمح الأنفس (الملكية) ص 238.

– لامية في مدح معز الدولة أبي علوان بن سيد الدولة.

– نونية في مدح معز الدولة أيضا.

والجدير بالملاحظة أنه قد أشار في نسخة المطمح هذه إلى البائية الواردة في النسخة المطبوعة والتي أنشأها في رثاء أمه وأخيه، مع أنه ذكر في القلائد أنها في رثاء ابنين له ماتا مغتربين[1].

و ــ ترجمة أبي عبد الله بن حمدين[2] وهي مشابهة لترجمة القلائد إلا أن بها رسالة بعثها ابن حمدين إليه سبقت الإشارة إليها[3].

ز ــ ترجمة أبي أمية إبراهيم بن عصام[4] وبها بعض المختارات الزائدة وهي:

– مقدمة المختارة الأولى الموجودة في القلائد (... النصر لا يفارق ألويته، والسعد لا يتعزل أبنيته، وأنا أستمد نعمته واستجد رحمته، وأسأل له أيده الله تأييدا وتوفيقا وتسديدا. ووصل فلان فشكر ما أوليته...) البقية في القلائد.

– رائية في نهاية المختارات ذات موضوع ذاتي.

– فصل من رسالة يهنئ فيها ابن عبد الملك بقضاء المرية.

ح ــ ترجمة أبي عبد الله بن أبي الخصال[5]، والترجمة مشابهة لما هو موجود في القلائد إلا أن بها خبرين ذيل بهما الترجمة قبل أن يصل إلى المختارات، وبالنسبة للمختارات ففيها بعض زيادات.

فبالنسبة للأخبار يقول في الخبر الأول (... وبات ببلنسية بموضع تأنس بحضوره، واقتبس فيها ما شاء من نوره وسروره، وتعاطي فيها كؤوس الراح، واكتسى شموس الأفراح، ثم نهض إلى سرقسطة، واتفق لهم افتتاحها، وأشرق بأعينهم صباحها. إلا أن خيمهم فيها تنغص وزعيمهم شرق فيها بالحمام وغص...).

وفي الخبر الثاني يقول: (... ولما قتل أبو يحيي ودثر له من الاغتباط لاحبه، كر صادرا، وأنكر الزمان الذي تحدر له غادرا، فمر على بلنسية مستوفزا، وصار عنها متحيزا،

1- القلائد 216.

2- مطمح الأنفس (الملكية) ص 243.

3- انظر الفصل الخاص بتوثيق نسخة القلائد.

4- مطمح الأنفس (الملكية) ص 247.

5- نفس المرجع ص 253.

والطلب يزعجه، والخوف يؤثر له منهجه، فذكر ليلته وحسنها، وشكر الزمان الذي فرضها وسنها، وأسف على فواتها، وانتقاله منها إلى انياب الحوادث ولهواتها فقال:

يـــا حبـــذا ليلـــة لنـــا ســـلفت   أغـــرت بنفســـي الهـــوى ومـــا عرفـــت

زارت بظلمائهـــا المـــدام فكـــم   نرجســـة مـــن بنفســـج، قطفـــت

أما الزيادات المرتبطة بالمختارات، فهي التي تتصل بفصل من الرسالة التي أثبتها الفتح له مراجعا بها ابن بسام، ثم الرسالة التي كتبها ابن بسام إليه، والرسالتان معا توجدان في الذخيرة، ولعلها من زيادة الناسخ، إذ لم يعرض الفتح مطلقا لذكر ابن بسام في أي أثر من آثاره.

أما التغييرات التي تتعلق بالنقصان، فإن الملاحظ هو أن نقصانها يمس المختارات فقط. ونشير هنا إلى الترجمات التي وقع فيها هذا النقصان وهي:

1) ترجمة المصحفي: وتنتهي عند الصفحة السادسة من النسخة المطبوعة من المطمح.
2) ترجمة ابن اللمائي: ينقصها خبر وشعر وتنتهي عند الصفحة الخامسة والعشرين.
3) ترجمة ابن الجبير، ترجمة مختصرة حذفت منها مختارات شعرية ونثرية كثيرة.
4) ترجمة أبي القاسم بن السقاط: بها اختصار بسيط في المختارات.
5) ترجمة أبي محمد بن عبد البر: ومختاراتها الأخيرة غير تامة.
6) ترجمة أبي الفضل بن حسداي: بها حذف ونقص واضح عن القلائد.
7) ترجمة أبي الحسين بن سراج: بها حذف لمختارتين.
8) ترجمة ابن عمار: بها اضطراب كبير في ترتيب المختارات ونقص في بعضها.
9) ترجمة ابن عبد ربه: بها نقص في المختارات
10) ترجمة ابن أبي الخصال: بها اختصار ونقص في المختارات
11) ترجمة أبي محمد بن عبد الغفور: تختلف مختاراتها عن مختارات القلائد
12) ترجمة الرمادي: تنقصها مجموعة من المختارات
13) ترجمة ابن وهبون: بها نقص في المختارات
14) ترجمة ابن اللبانة: بها اختصار في المختارات.
15) ترجمة ابن سارة: بها نقص كبير في المختارات.

16) ترجمة ابن باجة: ترجمة مختصرة جدا.
17) ترجمة الأعمى التطيلي: بها اختصار شديد في المختارات.
18) ترجمة ابن البني: بها اختصار في المختارات.
19) ترجمة ابن العطار: بها اختصار في المختارات.
20) ترجمة ابن المرابط: بها اختصار شديد في المختارات.
21) ترجمة غلام البكري: بها اختصار شديد في المختارات
22) ترجمة ابن الفخار المالقي: بها اختصار شديد في المختارات.
23) ترجمة ابن عيشون: بها اختصار شديد في المختارات

ومن هنا يبدو أن مضمون هذه المخطوطة لا يضيف جديدا إلى الفرضية التي ذهبنا إليها سابقا حول المطمح الكبير بل يؤكدها ويثبت صحتها.

وما سبق أن أشرنا إليه من رأي بروكلمان الذي بسطه في الجزء السادس من تاريخ الأدب العربي حول المطمح وأقسامه ينفيه مضمون نسخة الملكية، ويؤكد صحة ما ذهب إليه ابن خاتمة وابن الخطيب والمقري من أن المطمح كان على نوعين كبير وصغير، على أنه لا يلتفت إلى ما استدركه المقري[1] من أن الكبير والأوسط يضمان الملوك والسلاطين لأنه يتعارض مع ما أكد عليه سابقا من أنه نسختان صغير وكبير[2].

منهجه في الترجمة من خلال المطمح:

لم يحدد الفتح في مقدمة المطمح المنهج العام الذي سيسير عليه في عملية الترجمة كما فعل في القلائد حين تحدث عن منهجه فيها، والقائم على الاختيار وأبعاده (التنقيح والتزيين والتشنيف) [3] وإنما أشار إلى أهمية بعث آثار السابقين من رجال الأندلس، رابطا بين ذلك وبين تشجيع الوزير أبي العاص حكم بن الوليد. ثم اتبع ذلك بالإشارة إلى الأقسام التي ينقسم إليها الكتاب، وختم المقدمة بالغاية التي رجاها من تأليفه. وهكذا يبدو أن العنصر الوحيد الجدير بالاهتمام في هذه المقدمة هو الإشارة إلى التقسيم العام الذي قسم إليه الكتاب، حين فصل بين قسم الوزراء وقسم الفقهاء العلماء وقسم الشعراء. وطبعا فهذا غير كاف في الإشارة إلى المنهج العام الذي اتبعه أثناء عملية الترجمة. لأن من يدرس المطمح

1- نفح الطيب 61/7.
2- نفح الطيب 25/7.
3- القلائد 3.

دراسة شاملة يستقصي فيها التراجم ويحاول أن ينتهي إلى منهج محدد، يجد نفسه مع الفتح في تصور خاص لعملية الترجمة يستجيب لأصول كبرى هي:

أ ــ ارتباط الترجمة بموضوع الكتاب وهو التركيز على ملح أهل الأندلس بصورة عامة، لذلك لم يلتزم بعصر معين ولا بأنماط خاصة من التراجم ولا بطبقة دون طبقة.

ب ــ ارتباط منهجها التجزيئي بالتركيز على النقط التي تبرز هذه الملح سواء في اختيار النماذج الإنسانية التي ترمز لها، أو في الآثار التي تخلفت لها واختارها وفضلها على غيرها من المختارات، أو في الأخبار التي تتخلل الترجمة.

ج ــ الميل إلى الإيجاز والاختصار في أغلب التراجم التي يحتويها الكتاب. هذا الإيجاز الذي يتصل بالترجمة كما يتصل بالمختارات، حيث ينصرف إلى تقديمها دون أن يحليها بذكر الأخبار والمناسبات في الغالب ما خلا بعض الترجمات الطوال.

وهذه الأصول في عمومها لم تجعل عملية الترجمة بعيدة عن نظيرتها في كتابه السابق، فالترجمة عنده في أغلبها تقوم على الأصول التي قامت عليها في القلائد والتي تشتمل على التحلية، وأخبار المترجم له مع عناية بالأهم فيها، ثم المختارات.

فبالنسبة للتحلية هي كما أشرنا سابقا تعتبر مفتاحا للاتصال بالشخصية المترجم لها، بل تعتبر التصوير الدقيق والجامع والمركز للنموذج المترجم له. وتهتم التحلية في الغالب بالتركيز على مجموعة من الاعتبارات تبعا لنوعية المترجم له، وطبقته الاجتماعية والسياسية والعلمية والفنية. أو تبعا لما اشتهر به من المواهب الشخصية.

ويبدو أنه في القسم الأول قد اهتم بالجانب السياسي والفني أكثر من اهتمامه بالجانب الشخصي أو الأسري، وذلك لأن هذا القسم يضم مجموعة من تراجم الأمراء والوزراء، فناسب أن يعطي للجانب السياسي دوره، وكذا للجانب الفني المرتبط بالمكانة الأدبية التي يحتلها المترجم له على صعيد الكتابة والأدب بصورة عامة. ولكن هذا لم يجعله يتناسى التأثير الأسري على نشوء بعض الشخصيات وظهورها كابن أبي عبيدة[1] وابن مسلمة[2] وأبي الحزم بن جهور[3].

1- المطمح 29.

2- المطمح 26.

3- المطمح 16.

أما القسم الثاني فإن اهتمامه بالحديث عن الفقهاء والعلماء لم يجعل التحليات تقف عند حدود الإشارة إلى المكانة العلمية فقط، بل وجدناه يركز تركيزا واسعا على ما بلغته الشخصيات من مكانة في عالم المعرفة، وفي ميادين مختلفة أخرى، كما فعل مع الخشني[1]، وابن الفرضي[2]، وابن القوطية[3].

وفي القسم الثالث المشتمل على محاسن الأعيان من الأدباء، استقطبت المكانة الفنية التي بلغها بعض الأدباء جل التحليات، وتوزعت في هذه التحليات المميزات والخصائص.

فالرمادي[4] (شاعر مفلق، انفرج له من الصناعة المغلق) وابن هانئ[5] علق خطير وروض أدب مطير). والجياني[6] (محرز الخضل، مبرز في كل معنى وفضل...)، وقلما ركز في التحلية على جانب السلوك أو الميزات الشخصية، مثل ما فعل مع أبي عبد الله بن عائشة[7]. كما أنه قلما ركز أيضا على عنصر اجتماعي مثل ما فعل مع أبي الحسن البرقي[8]. وعلى العموم فقد توخى في هذه التحلية جانب الاختصار، فلم تتعد أطول التحليات الجملتين أو الثلاث.

وبالنسبة للجزء الخاص بأخبار المترجم له فقد خضع من حيث الشكل لما عرفناه سابقا في القلائد من التركيز على أهم الأحداث التي كان لها تأثير معين على حياة صاحب الترجمة كيفما كان نوع هذا التأثير. وغالبا ما تأثرت هذه الأخبار بالإطار الذي وضعت فيه الترجمة. فأخبار المترجم لهم في القسم الأول أغلبها سياسي متعلق بقضايا الحكم والسلطة والاتصالات بين الوزراء والكتاب والأمراء. وأخبار المترجم لهم في القسم الثاني، ترتبط بالحياة العلمية، وقد يشير خلال ذلك إلى ارتباط هذه المعارف بالمراكز والمناصب التي احتلها صاحب الترجمة، كما فعل مع أبي عبد الله محمد بن عيسى[9].

---

[1]- المطمح 56.
[2]- المطمح 57.
[3]- المطمح 58.
[4]- المطمح 78.
[5]- المطمح 84.
[6]- المطمح 89.
[7]- المطمح 96.
[8]- المطمح 101.
[9]- مطمح الأنفس 52.

أما أخبار المترجم لهم في القسم الثالث، فتتعلق في الغالب بالإطار العملي الذي كان الشاعر يدور فيه أيما تعلق، بارتباطه بقصور الحكام أو عدم ارتباطه. وأغلب الأخبار حاولت أن تستقطب هذا الجانب وأن تركز عليه. وشذت عنها بعض الترجمات التي انصرفت إلى الحديث عن نوع الشخصية المترجم لها كأبي القاسم المنيشي[1] وابي الحسن بن جودي[2]، وانفردت ترجمة ابن عبد المعين في آخر الكتاب بالانصراف عن هذا الجانب كلية، فلم ترد فيها أخبار عن المترجم أو عن اتصالاته إلا في حدود الحديث عن مختاراته. وعلى العموم فإن جانب التركيز والاختصار قد طغى على هذه الأخبار حتى أصبحت هدفا ثانويا إذا قورن بالهدف الأساسي الذي هو المختارات وما بداخلها من الأخبار والملح.

أما بالنسبة للمختارات فإن الحديث عنها يرتبط بالحديث عن مضمونها جملة، هذا المضمون الذي يتصل بواجهات متعددة بعضها يتعلق بتقديم المختارات، وبعضها الآخر يتعلق بالمادة الخبرية التي قد تتضمنها، وبعضها الآخر يتعلق بمضمونها.

وقبل الحديث عن هذه الواجهات لا بأس من الإشارة إلى بعض المختارات التي وردت عرضا في ثنايا هذه المختارات والتي تعطي فكرة عن عمل الفتح فيها.

فقد جاء في ترجمة أبي عامر بن عقال[3] مثلا إشارة إلى عمله في ميدان الترجمة، حيث تحدث عن الانتقاء والاختيار فقال: (... وقد أثبت له بعض ما انتقيت. والذي أخذته مباين لما نفيت) ففي هاتين الجملتين يلتقي منهجه في الاختيار داخل المطمح بمنهجه السابق في القلائد.

وجاء في ترجمة أبي القاسم المنيشي[4] إشارة إلى التزامه بإيراد مادة شعرية معينة هي المادة التي لا تحتوي على بذاءة أو إحماض حين قال: (وليس من شرط كتابي هذا إثبات بذاءه، ولا أن أقف حذاءه) ولسنا ندري مذلولا للبذاءة التي يقصدها. هل يعني بها الهجاء المفحش، أم يقصد ألفاظ السفه، أم يقصد الأغراض الماجنة. على كل فإنه التزم برفض نوع معين من الشعر لعله الشعر الذي يتصل بالكلام الفاحش، الذي يعرض ألفاظ المناكح

[1]- نفس المرجع 100.
[2]- نفس المرجع 102.
[3]- المطمح 98.
[4]- المطمح 100.

والسوآت بنوع من التصريح. وإلا فلو تعلق الأمر ببعض أغراض الغزل لوجب عليه أن لا يورد منه في ترجمة أبي الحسن البرقي شيئا، أو في ترجمة ابن ابني[1].

ونعود إلى المختارات لنقف أولا على العنصر الأول فيها وهو عنصر تقديمها. فقد حاول الفتح وكما فعل في القلائد أن يقدم هذه المختارات تقديما مرتبطا بأصول عامة هي:

1) ارتباط التقديم بالحديث عن نوع المختارات وقيمتها النقدية. وفي هذا الباب يفصل الفتح في أمر المختارات التي يختارها لينطلق بعد ذلك إلى تقويمها التقويم النقدي المعروف، أي المتصل بالنقد الانطباعي. يقول في تقديم مختارة ابن عبد ربه[2] و(... له شعر انتهى منتهاه، وتجاوز سماك الإحسان وسهاه) ويقول عن أبي بكر بن العربي[3]. (... وقد أثبت من بديع نظمه ما يهز أعطافا، ويرد الأفهام مطافا)

فقد لاحظنا أنه يركز على نوع الإنتاج، ثم ينتهي إلى الحديث عن قيمة الإنتاج. وقد استقطب هذا الأسلوب في التقديم عشر ترجمات فقط.

2) ارتباط التقديم بتقويم الآثار تقويما تأثريا. فهو في هذا الجانب لا يذكر شيئا عما سيثبته للأديب بقدر ما ينصرف إلى أطراء هذا الإنتاج جملة، حيث يقول عن ابن شهيد مثلا[4] و(... قد أثبت له ما هو بالسحر لاحق، ولنور المحاسن ملاحق) ويقول عن إنتاج رفيع الدولة ابن صمادح[5]. (... وله أدب كالروض إذا زهر، والصبح إذا اشتهر). وقد كان هذا النوع من التقديم أوسع الأنواع انتشارا حيث استقطب واحدا وعشرين ترجمة من تراجم المطمح.

3) ارتباط التقديم بتحديد غرض المختارات. وهو في هذا الجانب لا ينصرف إلى تقويمها بعد ذلك. ولست أدري لذلك سببا إلا قلة المختارات التي كانت بين يديه والتي أثبتها، ففي ترجمة ابن القوطية[6] يقول: (... وكان له شعر نبيه، أكثره أوصاف وتشبيه)

---

[1]- المطمح 101 و103.
[2]- المطمح 58.
[3]- المطمح 72.
[4]- المطمح 19.
[5]- المطمح 35.
[6]- المطمح 67.

وفي ترجمة يونس بن معتب[1] (ومن شعره قوله...) وقد استقطب هذا الجانب خمس ترجمات فقط.

4) ارتباط التقديم بحجم المختارات ومضمونها فهو يشير إلى ما اختاره من إنتاج الأديب في غرض أو أغراض كثيرة كما فعل مع أبي الحسن البرقي حين قال:[2] (... وقد أثبت له بعض ما وجدته في الغلمان).

5) ارتباط التقديم بحجم مبهم من المختارات مع تحديد قيمتها. وهذا الأسلوب فرض على الفتح أن يقوم بعملية فرز وفصل، فاختار ما لاءمه، ورفض ما لم يستجب لمقاييسه، يدل على ذلك ما أشار إليه في ترجمة أبي عامر بن عقال[3] حين قال عنه (... وقد أثبت له بعض ما انتقيت، والذي أخذته مباين لما نفيت). وشبيه بهذا قوله عن ابن الحداد[4] وقد أثبت له بعض ما قذفه من درره وفاه به من محاسن غرره.

6) أن يترك المختارات غفلا من التقديم، بحيث لا يشير إلى نوع المختارات ولا إلى مقدارها ولا إلى تقريضها. ولعل السبب في ذلك يعود إلى نوع الشخصيات التي تتناولها هذه التراجم، كابن حبيب، والبلوطي والخشني، وابن الفرضي، وابن سيدة، وابن جودي. هذه الشخصيات التي اشتهرت بالعلم والفقه أكثر من اشتهارها بالشعر، فتوخى في أمرها الاختصار، وانصرف إلى تناول إنتاجها تناولا عاما كما في قوله عن ابن حبيب السلمي[5] في مقدمة ترجمته. (... وله أدب واسع مداه، يانع كالروض بلله نداه).

أما بالنسبة للمادة الخبرية التي تحتويها المختارات فإن المقصود بها كل مادة خبرية وردت ضمنها، سواء ارتبطت بأخبار المترجم له وبسيرته ودخلت ضمن مختاراته، أو كانت أخبارا متصلة بالتمهيد للمختارات فقط، ويقف دورها عند هذا الحد.

● فأخبار المترجم له وسيرته، لا تستوعبها التراجم كلها بل تختص بها طائفة من التراجم نذكر منها المصحفي، والمعتضد العبادي، والبلوطي، ومحمد بن عيسى، ومحمد بن عائشة.

---

[1]- المطمح 68.
[2]- المطمح 101.
[3]- المطمح 190.
[4]- المطمح 91.
[5]- المطمح 102.

فالأول تحدث في مختاراته عن نكث حياته أيام عزه وسلطانه وأيام نكسته، وأورد ضمن ذلكمن المختارات والملح الشعريةوالخبرية ما جعل الترجمة مؤدية للغرض الذي وضعت من أجله. وفي ترجمة البلوطي تناول أهم مأثورات الفقيه القاضي منذر بن سعيد البلوطي، وخاصة منها موقفه يوم استقبل الناصر سفير الإفرنج. ونفس هذا فعله مع القاضي أبي عبد الله محمد بن عيسى، حيث ذكر مناقبه في القضاء وفي معايشة الناس، وكذا فيما أشرنا إليه قبل مع المعتضد العبادي، وابن عائشة.

- أما الأخبار المرتبطة بتقديم المختارات، فنستطيع تصنيفها إلى أخبار سياسية، وأخبار اجتماعية، وأخبار فنية.

– الأخبار السياسية: والمقصود بها تلك التي تحدثت عن علاقات المترجم له بالسلطان أو مساعديه والتي تنتهي إلى ذكر المناسبة التي نظمت فيها مختارة من المختارات، كما هو الحال في ترجمة أبي عبدة حسان بن مالك[1] (... واستوزره المستظهر عبد الرحمان بن هشام بالخلافة أيام الفتنة، فلم يرتض بالحال و لم يمض في ذلك الانتحال، وتثاقل عن الحضور في كل وقت، وتغافل في ترك الغرور بذلك المقت، وكان المستظهر يستبد بأكثر تلك الأمور دونه وينفرد بها ويلي شؤونه...) فأصبح الخبر على هذا سبيلا إلى عرض موقف ابن أبي عبيدة.

– الأخبار الاجتماعية: والمقصود بها تلك التي تتعلق بحياة المترجم له وعلاقاته الإنسانية. ومن ذلك مثلا ما رواه في ترجمة أبي عامر بن مسلمة[2] حين قال (... واجتمع بختنه بخارج إشبيلية مع إخوان له عليه، فبينما هم يديرون الراح، ويشربون من كأسها الأفراح والجو صاح، إذا بالأفق قد غيم، وأرسل الديم بعد ما كسا الجو بمطارف التلاذ، وأشعر الخصون زهر قباد. والشمس منتقبة بالسحاب، والرعد يبكيها بزمرة كالانتحاب فقال...). ومثل هذا ما رواه في ترجمة أبي الفضل يوسف بن الأعلم[3]. فادت مثل هذه الأخبار غرضها وزيادة...

– الأخبار الفنية: والمقصود بها تلك الأخبار التي تحدثت عن التطور الأدبي أو الفني لشخص من الأشخاص، أو تناولت حادثة أدبية اشتهرت وأصبحت قضية من القضايا

[1]- المطمح 26.
[2]- المطمح 23.
[3]- المطمح 74.

المذكورة بين الناس. ومثال ذلك ما أشار إليه في ترجمة الوزير الفقيه أبي أيوب ابن أبي أمية[1] حين عرض إلى تأليف وضعه ولد ابن عبد الغفور معاصره فقال: (...وضع ولد ابن عبد الغفور رسالة سماها بالساجعة، حذا بها حذو أبي العلاء المعري في الصاهل والساجح وبعث بها إليه وعرضها عليه فأقامت عنده أياما، ثم استدعاها منه فصرفها إليه وكتب معها..)، فهذا خبر قدم به الفتح رسالة لابن أبي أمية بعثها إلى ابن عبد الغفور حول موضوع ليست له علاقة بالحياة السياسية أو الاجتماعية بل هو يتناول حركة التأليف في الأندلس وارتباطها بالتنافس الذي كان قائما بين الشرق والغرب.

وفي ترجمة ابن عبد ربه[2] إشارة إلى قصة قدم بها لشعر اشتهر لابن عبد ربه في الشرق وأعجب به المتنبي في جملة من أعجب به حيث قال (أخبرني بعض العلية أن الخطيب أبا الوليد بن عباد حج، فلما انصرف تطلع إلى لقاء المتنبي واستشرف، ورأى أن في لقيته فائدة يكتسبها وجلة فخر لا يحتسبها. فصار إليه فوجده في مسجد عمرو بن العاص. ففاوضه قليلا ثم قال أنشدني لمليح الأندلس يعني ابن عبد ربه فأنشده:

يا لؤلؤا يسبي العقول أنيقا ... ورشا بتقطيع القلوب رفيقا

ما إن رأيت ولا سمعت بمثله ... درا يعود من الحياء عقيقا

وإذا نظرت إلى محاسن وجهه ... أبصرت وجهك في سناه غريقا

يا من تقطع خصره من رقة ... ما بال قلبك لا يكون رقيقا

فلما أكمل إنشاده استعادها منه وقال: يا ابن عبد ربه لقد تأتيك العراق حبوا...).

وفي ترجمة ابن عبد ربه أيضا، لون آخر من الأخبار الفنية، يتصل بتطور شعره وخروجه من إطار اللهو والعبث إلى إطار الوقار والتوبة، حيث قال: [3] (... وبلغ سن عوف بن محلم واعترف بذلك اعتراف متألم، عندما وهت شدته وبليت جدته، وهو آخر شعر قال، ثم عثر في أذيال الردى وما استقال....)، وقال في نفس الترجمة[4] (... وفي أيام

---

[1]- المطمح 33.
[2]- المطمح 59.
[3]- المطمح 51.
[4]- المطمح 52.

إقلاعه عن صبوته، وارتجاعه عن تلك الغفلة وأوبئته وانثنائه عن حجون المجون إلى صفاء توبته، محص أشعاره وقص من قوادمها وخوافيها، بأشعار في الزهد على أعاريضها وقوافيها، منها القطعة التي أولها: هلا ابتكرت لبين أنت مبتكر محصها بقوله:

يا قـــادرا لـــيس يصـــفو حـــين يقتـــدر ماذا الذي بعـــد شـــيب الـــرأس تنتظـــر)

فهذا الخبر يمس نوعا من أخبار حياة المترجم له وتطورها وأثر ذلك على شعره.

على أنه من الملاحظ أن هذه الأخبار لم تكن كثيرة ولا شاملة لكل المختارات لأنه نهج في المطمح منهج الاختصار على وجه العموم.

أما ما يتعلق بمضمون المادة الأدبية في المختارات فنستطيع أن نتناول ذلك من خلال واجهتين: واجهة النثر وواجهة الشعر.

أ ــ فبالنسبة للنثر: لم يحتو المطمح المطبوع على مختارات نثرية كثيرة، إذ لم يعتد عددها أربع مختارات: رسالتان لأبي جعفر بن اللمائي[1]، وأخرى لأبي أيوب بن أبي أمية[2]، ووصفيات مختلفة لأبي الفضل يوسف بن الأعلم[3]، ثم رسالة لأبي عامر بن عقال[4].

وهذه المختارات مجتمعة لا يمكن أن ينظر إليها بعين الكثرة مادامت معدودة على رؤوس الأصابع، ولا يمكن أن تقدم دليلا على ما أراده الفتح من المختارات جملة والنثرية منها بصفة أخص.

فالرسائل الإخوانية التي أثبتها لابن اللمائي ولابن أبي أمية لا تصل إلى مستوى الرسائل الإخوانية التي أوردها لكتاب الكبار الذين ترجم لهم في القلائد. ولعل هذه النقطة من بين النقط التي دفعت به إلى أن يضع في المطمح الكبير خليطا من التراجم لرجال القلائد والمطمح.

---

[1]- المطمح 25.

[2]- المطمح 28.

[3]- المطمح 64.

[4]- المطمح 86.

والوصفيات التي أثبتها لابن الأعلم كانت عبارة عن نتف مبتورة من أصولها، لا تقدم دليلا على ظهور صاحبها في ميدان الكتابة إلا في إطار ضيق هو إطار الصور الفنية التي تزخر بها. ولو وضعت في إطار أصولها لكانت أكثر أهمية – في نظرنا– في تحقيق ما كان الفتح يريده.

وفي وصف أبي عامر بن عقال لمجاز أمير المسلمين، يبدو نفس الهدف الذي أثبتت من أجله وصفيات بن الأعلم واضحا. فقد كان الغرض من إثبات هذا الوصف هو ذكر البحر، ووصف هدوئه، وذكر السفينة ووصفها، ومقارنتها بالجواد الذي يركب على اليابسة.

وإذا كانت الرسالة قد أدت الغاية المطلوبة منها في مجال الإشارة إلى ملح الأندلسيين، فإنها في اعتقادي لا يمكن أن تشكل دليلا على ما وصل إليه الأندلسيون في ميدان الوصف بصورة عامة، لأنها نموذج متفرد، ولأن الكتاب الأندلسيين قد اشتهروا في ميدان الوصف اشتهارا لم يقم الفتح عليه دليلا في مطمحه مثل ما فعل في قلائده.

ب ـــ وبالنسبة للشعر فالحديث عنه على وجهين: وجه الأغراض الشعرية ووجه مضمونها.

1) الأغراض الشعرية: استقطبت مختارات المطمح جل الأغراض الشعرية المعروفة عند الشعراء القدماء والمحدثين. فتناولت المدح والهجاء والرثاء والفخر والغزل والوصف والحكمة من الأغراض القديمة، كما تناولت من الأغراض الحديثة ما تفرع عن بعض هذه الأغراض القديمة، كالعتاب والحنين والشوق والاعتذار والشكوى والاستعطاف... (انظر الجدول بعده).

لكن شعبية هذه الأغراض مجتمعة لم تكن متوازنة. فبقدر ما رأينا غرضا كالغزل يكتسح جزءا مهما من المختارات، بقدر ما وجدنا بعض الأغراض لا تظهر إلا ظهورا محتشما كالاستدعاء والتوديع، ولو حاولنا أن نقوم بدراسة إحصائية لديوان المطمح فسنجد.

- أن غرض الغزل يعتبر أكثر الأغراض الشعرية ظهورا في الديوان حيث بلغت مختاراته (64 مختارة) أكثر من نصفها يضمه القسم الثالث. ولعل لظهور الغزل بهذه الكثافة ضمن المختارات أكثر من معنى ودلالة. فقد وجدناه في القلائد يحتل أيضا صفا متقدما بين الأغراض، وهذا يعني أحد أشياء ثلاثة:

جدول إحصائي خاص بتوزيع الأغراض الشعرية داخل المطمح مع بيان عدد المختارات والأبيات الشعرية في كل قسم.

الأغراض	القسم الأول	القسم الثاني	القسم الثالث	مجموع المختارات	مجموع الأبيات
الغزل	85/20	26/9	104/33	69	365
الوصف	62/20	19/6	66/17	43	147
الحنين	27/6	55/10	52/11	27	134
المدح	7/4	21/4	63/7	15	91
الشكوى	32/2	–	22/4	6	54
الزهد	4/2	44/7	–	–	48
الرثاء	28/2	–	18/2	4	46
الحكمة	5/2	33/7	5/1	10	34
الداتيات	24/5	12/3	4/8	10	41
العتاب	16/1	8/2	8/3	7	32
الاستعطاف	5/1	19/3	5/5	5	29
الخمريات	5/1	–	14/2	3	19
التهنئة	3/1	–	14/1	2	17
التطمين	7/3	=	–	3	16
الالتماس	7/3	–	3/1	4	10
الإخوانيات	4/2	5/1	–	3	9
الهجاء	½	7/2	–	3	9
الاعتذار	½	–	5/2	3	7
الفخر	3/1	2/1	–	2	5
التوديع	–	–	3/1	1	3
المجموع	336/80	254/57	440/86	223	1027

ـ إما أن الأندلسيين برعوا في هذا الغرض براعة استدعت الفتح أن يذكر لهم ذلك.

ـ وإما أنه كان معجبا بهذا الغرض فأكثر منه.

ـ وإما أن المقاييس النقدية التي اعتمدها كانت تفرض عليه أن يجعل من هذا الغرض أساسا في التقويم والتفضيل باعتبار أنه ميدان صالح للابتكار، وقادر على تحقيق صورة المنافسة.

● ويأتي الوصف في الدرجة الثانية بعد الغزل حيث بلغت مختاراته منه (43 مختارة).

وقد كان هذا الغرض أكثر الأغراض تداولا في القلائد لأسباب بسطناها هناك، ولعلها هي التي تقف وراء ظهور غرض الوصف هنا أيضا.

● ثم يأتي غرضا الشوق والحنين، وهما في نظر بعضهم جزء من الغزل، ولكننا فصلناهما عنه لأن الشوق قد لا يرتبط بالشوق إلى المحبوب بل يتصل بالمكان أو غيره. وقد بلغت مختاراته منه (27 مختارة).

ويبدو أن ظهور هذا الغرض على ساحة المختارات في المطمح يكشف جانبا من نفسية الفتح التي ألمعنا إليها سابقا في تعليلنا لظهور هذا الغرض في القلائد. والدليل على ذلك هو طائفة الشعراء الذين اختار لهم من هذين الغرضين. فالمصحفي، وابن عباد، وأبو الوليد، وابن حزم... كل هؤلاء وغيرهم إذا جردت قصائدهم في الحنين عن مناسباتها التي وضعت فيها وجدتها ترمز لما يعاني الفتح من واقعه، خاصة والظروف التي ألف فيها المطمح لم تكن تشبه الظروف التي ألف فيها القلائد. فمن الضروري أن يغضب ويتأسف ويحن ويشتاق، ويجد في كل شعر يتناول هذه المعاني ما يرضيه، حتى ولو لم يكن الموضوع متشابها والظرف متقاربا.

● ويأتي المدح بعد هذه الأغراض وقد بلغت مختاراته منه (15 مختارة) أغلبها يضمه القسم الثالث، وهذا طبيعي، لأن الشعراء هم الذين كانوا أقرب إلى الانتفاع من البلاطات، خصوصا بالنسبة للأندلس التي أفرد أمراؤها للشعراء أرزاقا ثابتة معلومة.

وفي شعر المديح مظهر من مظاهر التفوق وسبيل من سبيل المفاخرة، لأن معانيه الكثيرة والمترددة على الألسنة تجعل المتفوق فيه ظاهرا بارزا، وتجعل المعاني المستحدثة مطلوبة مذكورة لصاحبها.

● وفي شعر الحكمة اختار الفتح (10 مختارات) أغلبها يضمه القسم الثاني. وهذا أمر طبيعي فالقسم الثاني مشتمل على تراجم الفقهاء والعلماء. وهم أوفر الناس اطلاعا على تجارب غيرهم، المسموع منها والمقروء، وأكثر الناس ميلا إلى الوقار والاتعاظ.

● ومن الأغراض التقليدية غرض الرثاء ولم يكن عدد مختاراته كثيرا، (4 مختارات) اثنتان منها تخصان والدة الفتح (رثاها المنيثي وابن لبال[1]). والمعتقد أن إثباتها ارتبط بشروط لا تدخل ضمن الجانب الموضوعي الذي يظهر في باقي المختارات جملة.

أما بقية الأغراض فلم تكن كثيرة كثرة لافته للانتباه، أو تعتبر من أجلها ظاهرة من الظواهر، وإنما اللافت للنظر فيها أنها كانت محاولة من الفتح لإبراز سبق الأندلسيين في فنون الشعر المختلفة[2].

2) مضمون الأغراض: وليس المقصود هنا أن نرصد المعاني والأفكار التي تضمنتها الأغراض بقدر ما نعني بالحديث عن بعض الملاحظات التي تكشف عن نفسها ويبدو التعليق عليها ضروريا.

+ فالغزل مثلا تردد في المختارات بين غزل بالمذكر وغزل بالمؤنث. ولعل ظهور الغزل بالمذكر في مختارات المطمح لم يكن مثيرا لو لم يقصده الفتح قصدا ويذكره تصريحا حين قال في ترجمة أبي الحسن البرقي[3] (... وقد أثبت له بعض ما وجدته في الغلمان، وأنشدته في ذلك الزمان...) وعرض في ترجمة ابن البني[4] مختارات غزلية شبيهة بمختارات البرقي. على أنه التزم جانب الحشمة فلم يذكر بداءة في هذه الغزليات، ولم يعرض شيئا مما يمكن أن يعاب عليه، لاسيما والغزل بالمذكر كان في عصره ظاهرة اجتماعية مألوفة[5].

أما الغزل بالمؤنث: فإن أهم ما تناوله أنه جسد فيه معاني الغزل المختلفة[6]. (...ومن شعره الذي صرح به تصريح الصب وبرح فيه من وقائع اسم الحب قوله...) وغلبت عليه

---

[1]- المطمح 88 و93.

[2]- انظر الجدول صحبته

[3]- المطمح 89.

[4]- المطمح 91.

[5]- تكملة المعاجم / دوزي 346/1.

[6]- المطمح 51.

معاني العفة فلم يطهر فيها مجون امتثالا للشرط الذي اشترطه على نفسه في ترجمة أبي القاسم المنيشي[1].

+ وفي الوصف اهتم بالموصوفات جملة سواء منها المذكورة المشهورة عند القدماء كالسيف والفرس والمرأة. أو المستجدة كالحديث عن النفس وما تعانيه ووصف الطبيعة الأندلسية التي برع الأندلسيون فيها براعة مفرطة، كوصف السفرجلة للمصحفي[2] أو وصف الربيع لابن القوطية، أو تفضيل الورد لأبي الحزم بن جهور.

والجدير بالملاحظة ظهور قصائد في وصف بعض الأعياد الفارسية الشرقية كوصف المهرجان لابن أبي عبيد[3] ووصف النيروز لابن عبد المعين[4] وليس هناك من تعليل لظهور هذه القصائد إلا مجاراة الأندلسيين لأهل الشرق. وإلا فإن تأثير العنصر الفارسي كان ضعيفا في الغرب الإسلامي عموما.

+ أما المديح فهو في عمومه لم يخرج عن الطابع العام للمديح ولكن الفتح كان يحبذ فيه بعض المواصفات التي أعجب بها في مدائح ابن هانئ حيث قال[5]: (... فأفرط في مدحه وزاد، وأفرغ عن تلك المزاد، ولم يتورع، ولا ثناه ذو ورع، فله بدائع يتحير فيها ويحار، ويخال لرقتها أنها أسحار. فإنه اعتمد التهذيب والتحرير، واتبع في أغراضه الفرزدق مع جرير، وأما تشبيهاته فخرق فيها المعتاد، وما شاء منها اقتاد...)، فهو هنا يقدم صورة عن منهج ابن هانئ في المدح والمتمثل خاصة في مبالغاته التي تحدى فيها الفحول، وفي انعطاف معانيه إلى ما لا يرضاه منه أهل الورع، وفي خروجه عن المعتاد في الصور دون أن يكون متعملا في ذلك. ولهذا كانت مختارات التي اختارها له (... تحن لها الأسماع، ولا تتمكن منها الأطماع...).

+ وفي الزهد نلاحظ أن فكرة التوبة والتمحيص تكاد تهيمن على جل الأشعار التي عرضها في هذا الغرض. وليس لذلك من سبب في نظرنا إلا العامل النفسي الذي دفع الفتح إلى الشعور بالذنب كلما قرأ هذه المختارات، لاسيما وهو الرجل الذي لم يكن متورعا في التخلق بأخلاق العصر. والجدير بالملاحظة أن أغلب المختارات الزهدية يضمها القسم

1- المطمح 88.
2- المطمح 5.
3- المطمح 74.
4- المطمح 26.
5- المطمح 98.

الثاني، قسم العلماء والفقهاء. وكأني به من هذا الجانب يشعر بالمسؤولية التي كان الفقهاء يتحملونها في مجتمع غني بالخير والشر، فأعطى لهذه المسؤولية بعدها الوعظي.

وفي زهديات البلوطي، وابن زمنين، وابن عبد ربه، وابن معتب، ويوسف بن الأعلم، ومقصورة يوسف بن عبد البر، خير شاهد على ذلك. ولست أظن أنه قد مال في هذه الزهديات إلى الموازنة بينها وبين مختارات الغزل والخمريات وغيرهما من الأغراض المنحرفة، لأنه لم يكن من الذين يقيمون الاعتبار لمثل هذه الأمور، فهو لا يخاف أحدا. بل الجميع كان يخافه لأنه كان (...مرهب الشبا قادرا على إظهار المثالب...) على حد تعبير صاحب أزهار الرياض[1].

+ ولم يكن في الخمريات جديد يذكر فخمرية ابن شهيد[2] لا تخرج في إطارها عن خمريات أبي نواس التي تذكر الراهب والدير والأصحاب... ولم تخرج خمرية ابن هانئ عن الارتباط الذي كان قائما بين الساقي والخمرة. ولعل عدم الإكثار من الخمريات يدخل ضمن الشرط الذي اشترطه الفتح على نفسه من الابتعاد عن الأحماض في مختاراته.

+ وكان الهجاء من أضعف الأغراض الشعرية ترددا في الديوان، حيث لم تخرج المختارات عن إطار أصحابها وما اشتهروا به.

فهجاء ابن أشهب أقرب إلى العتاب واللوم منه إلى الهجاء، وكذا هجاء منذر بن سعيد، وابن عبد البر. ومن هنا لم يكن في ما اختاره إضرار يذكر. ورغم أن الفتح اشتهر بين المؤرخين بقدرته على إظهار المثالب، فإنه لا يبدو أنه كان يحمل نفسية خبيثة تتخذ الهجاء مطية إلى الانتقام. بدليل أن مجموع مختاراته في القلائد والمطمح معا، لا يتعدى (7 مختارات).

أما عن الصلة بين الشكل والمضمون: فإن أهم ما يمثلها هو الإيقاع الذي اختاره الفتح عنصرا يلائم بين طبيعة المضامين وآفاق الأغراض. وهكذا لاحظنا أنه صار على نفس الخط الذي نهجه في القلائد[3]. فيما يتعلق باختيار البحور حيث كان بحر الطويل أوسع البحور انتشارا وتلاه الكامل فالبسيط فالوافر فالخفيف فالسريع فمجزوء الكامل ومجزوء الرمل والمتقارب ومخلع البسيط.

1- أزهار الرياض 99/5.
2- المطمح 19.
3- انظر الجدول صحبته الخاص بتوزيع البحور الشعرية داخل المطمح.

وهذا يدل على اتزان ذوقه ودقة اختياره. وقد بينا الأصول الكبرى التي جعلت هذا الاختيار في الإيقاع أكثر منطقية وأقرب إلى الذوق السليم فيما عرضناه سابقا في تعليقنا على مختارات القلائد.

جدول إحصائي خاص بالأوزان الشعرية

داخل المطمح

البحور الشعرية	القسم الأول	القسم الثاني	القسم الثالث	المجموع
الطويل	28	19	34	81
الكامل	19	12	15	36
البسيط	13	11	9	33
الوافر	3	2	9	14
الخفيف	2	2	6	10
المتقارب	5	2	2	9
السريع	1	4	4	9
مجزوء الرمل	5	2	1	8
مجزوء البسيط	2	1	2	5
مجزوء الكامل	-	-	5	5
الرمل	1	1	-	2
مخلع البسيط	-	1	1	2
المجموع	79	57	88	224

الفصل الرابع

رسالة في ترجمة أبي محمد بن السيد البطليوسي

من المؤلفات التي أشار إليها بعض مترجمي الفتح ونسبوها إليه رسالة في شيخه أبي محمد عبد الله بن السيد البطليوسي. وقد تفرد بالإشارة إليها من القدماء المقري في نفح الطيب[1] ورواها في أزهار الرياض[2]. أما المحدثون فقد ذكرها منهم بوركلمان[3] والزركلي[4].

وهي رسالة وضعها الفتح وخص بها أستاذه أبا محمد، حيث ترجم له فيها وذكر جزءا كبيرا من آثاره الشعرية التي لم يذكرها في تراجمه التي وضعها له في كل من القلائد والمطمح. وقد اهتم الفتح فيها بامتداح أستاذه والإشادة بعلمه وفضله وشاعريته وفنه الكتابي. وقد احتفظ لنا المقري بها كاملة في أزهار الرياض. وظن بروكلمان أنها تضم أيضا مجموعة من أشعار أبي محمد التي روتها الذخيرة والتي توجد في المخطوط (488 فهرسة الغزيري بالأوسكوريال).

وفي اعتقادنا أن ما هو موجود من أشعار أبي محمد في رسالة أزهار الرياض هو الذي أثبته المقري. أما ما روي في المخطوطة السابقة الذكر فهو مما يمكن أن يدخل في باب الإضافات التي أضيفت إلى الرسالة من لدن من جمع المخطوطة وتدارك فيها ما اعتقد أن الفتح قد نسبه أو تناساه. والدليل على ذلك أن للرسالة التي أثبتها المقري بداية ونهاية. وفي نهايتها اعتذار واضح من الفتح على التقصير الذي عرفته الرسالة في حق أستاذه أبي محمد[5]، وبدليل ما أشار إليه المقري في مقدمة الرسالة التي أثبتها، مما يفيد أنه أتى عليها كاملة حين قال[6] (... ورأيت تأليفا بديعا للفتح صاحب القلائد والمطمح، ضمنه التعريف بهذا الإمام ابن السيد خاصة، وها أنا أورده بجملته لغرابته وفصاحته وبلاغته...).

1- نفح الطيب 35/7.
2- أزهار الرياض 102/3.
3- تاريخ الأدب العربي 109/6.
4- الأعلام 322/5.
5- أزهار الرياض 130/5.
6- أزهار الرياض 103/3.

صورة الرسالة:

تتكون الرسالة من مقدمة يشرح فيها الفتح ظروف التأليف ثم تليها تحلية مطولة، تلي ذلك ترجمة أبي محمد، مع ذكر أهم مآثره العلمية، ثم تلي الجميع مختاراته المختلفة. وتنتهي الرسالة بخاتمة.

- ففي المقدمة يبدأ الفتح المقدمة بالحمدلة على ما أصبغ الله عليه من النعم، وفي مقدمتها ما هداه إليه من اليقين، وما أزال عن قلبه من الشك، وما أنار له من الهدى، ثم يثني بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم الذي بعثه الله لينقذ الأمم من الضلالة ويريها طريق الحق والرشاد. وكأني به يريد الإشارة إلى استقامة مذهبه ومذهب صاحبه وموقفهما في الدفاع عن الدين، ورفض مذاهب المتفلسفين المتشككين.

ثم يشير بعد ذلك إلى كتاب أنجزه في مفاخر الأندلسيين ومآثرهم يضم محاسنهم وبدائعهم، وما قصد، من أظهار فضل الأواخر على الأوائل ومن تحدي أيمة البلاغة القدماء، وكيف أنه طوى الكتاب طي السجل، وأخفاه إخفاء السيف في الغمد، بعد أن كان الجميع متشوقا إليه. ثم خشي عليه أن لا يرى النور، فتذوب نفسه عليه كمدا، فاستخرج من جواهره ما يدل عليه دلالة اللفظ على المعنى. واللحظ على المغنى. وهذا الذي استخرجه مرتبط بتاج مفرق هذا الكتاب وهلال أفقه أبي محمد عبد الله بن السيد، الذي هو في نظره أعلم العلماء، وأصدق الناس وأعمهم إحسانا.

والرسالة مفردة لأخباره، ومخلصة لبيان أفضاله، ووسيلة إلى معرفة ما أودع فيها من أخبار غيره. فهي قطرة من غمام وذرة من نظام... على حد تعبيره.

ويبدو من هذه المقدمة أنه ألف كتابا خاصا بالمآثر وعيونها، ضاما للمحاسن وأشكالها، وضح فيه فضل الأواخر على الأوائل، استعرض خلاله من فنون بلاغته ما يجعله أبلغ من سحبان وائل. ولكنه لم ينشره بين الناس ـــ وقد كانوا ينتظرونه – واكتفى بأن أفصح عن مضمونه بما وضعه في هذه الرسالة عن أستاذه.

وتستوقفنا في هذه المقدمة تساؤلات هامة هي:

1) ما اسم الكتاب الذي وضعه للغاية السابقة الذكر. أهو كتاب القلائد الموجود بين أيدينا والذي يخضع للمواصفات التي وصف بها أثره هذا. أم هو حديقة المآثر الذي أخبرنا عنه ابن عبد الملك والذي يعتبر إلى الآن مفقودا. أم هو راية المحاسن وغاية المحاسن الذي ذكره له ابن الآبار والذي يعتبر أيضا في حكم المفقود.

إننا نستبعد أن يكون كتاب القلائد هو المقصود، وإن كان يحمل من مواصفات ما ذكره الفتح الشيء الكثير، وذلك لأنه أهداه للأمير أبي إسحاق واشتهر ذكره بين الناس. ونعتقد أنه ربما كان يعني كتاب راية المحاسن الذي يفضح عنوانه الأوصاف التي حددها لهذا الكتاب.

2) ما هي الأسباب التي جعلته يخفي الكتاب، ثم جعلته بعد ذلك يتخوف على مصيره فيظهر جزءا منه. لا نجد في كلامه ما يشرح ذلك صراحة ولكننا نجد في خاتمة الرسالة وفي ثناياها شعورا بالتضايق والتبرم، تجلى خاصة في خاتمة الرسالة وفي ثناياها، تجلى خاصة في تعليقه على أبيات وصف فيها ابن السيد الخمر وساقيها وفائدتها فقال الفتح معلقا[1] و(لله هو: فقد ندب إلى المندوب، وذهب إلى مداواة القلوب، من الندوب، وإبرائها من الآلام، وإهدائها كل تحية وسلام، وإبهاجها بآصال وبكر، وعلاجها من هموم وفكر، في زمن حلي عاطله، وجلي في أحسن الصور باطله، ونفقت محالاته، وطبقت أرضه وسماءه استحالاته، فلبيبه كاسد، وذيبه مستأسد، وأخفاشه تنمر، وبغاته قد استنسر، فلا استراحة الافي معاطاة حميا، ومؤاخاة وسيم المحيا.) فهو ولاشك قد كان يجتاز مرحلة عسيرة من حياته، جعلته يخاف على مصيره أو على سلوكه أو على كل ما يصدر عنه. وفي مقدمة ذلك مؤلفاته. أو لعله كان ينتظر فرصة يتعرف فيها على أمير أو وزير أو صاحب خطوة وجاه، بعد أن فقد من كان يحميه، فلما طال عليه الأمد ومل الانتظار أخرج من هذا الكتاب ما يدل عليه، ويصرف الانتباه إليه، وكتب في مقدمة الرسالة ما ينبئ عن قصده منه.

3) لماذا اختار ابن السيد من شخصياته بالذات. لعل سبب الاختيار يعود إلى شهرة أبي محمد في الأوساط العلمية والأدبية والفلسفية. فهو صاحب الشروح اللغوية، وصاحب التنبيه، والحدائق، وشروح سقط الزند، وديوان المتنبي، والمقالات الخمسة الفلسفية، والموطا. بالإضافة إلى كتبه في النحو. فشخصية كهذه ستكون مكانتها محفوظة بين كل الأوساط. واختيارها لن يثير حفيظة أو حقدا بين الذين لم يخصهم بالحديث.

أو لعل السبب يعود إلى أن شخصية أبي محمد كانت وسطا في مواقفها السياسية، فقد تخلت عن الخوض في الأمور الجادة من السياسة، وقنعت بممارسة التعليم ومسالمة المرابطين، فليس في اختيارها شبهة. أو لعل السبب يعود إلى أن هذه الرسالة قد وضعت بعد

---

[1]- أزهار الرياض 109/3.

حدث معين حدث لابن السيد، فاشتغل الفتح الفرصة للإشادة بأفضاله وذكر منجزاته، والغالب أنها جاءت بعد وفاة أبي محمد، فاعترف الفتح بتأليفها، بإفضاله عليه.

● وبعد المقدمة تأتي الترجمة وقد ابتدأها بالحديث عن اسمه ونسبه ومحل إقامته وإقامة أبيه، ثم انتهى إلى تحليته فبالغ في التخوف من ذلك وذكر أنه لو ملك بيان سحبان وتأييد حسان وفصاحة ابن صوحان وإيضاح خالد بن صفوان، لما استطاع أن يعرب عن مقداره الرفيع، فكيف وهو دون كل هذا. لذلك فحسبه أن يقتصر على لمحة من ذكره، ويقصر على نفحة من عطره.

ثم انطلق في الحديث عن علمه ومعرفته وأشهر مؤلفاته. ولم يكن في هذه الترجمة جديد يذكر بالنسبة لما وضعه قبل في ترجمته له في القلائد والمطمح (الكبير) فقد مالت هذه الترجمة إلى الاختصار والإيجاز، في الموطن الذي كان يحمد فيه البسط والتطويل. ولم يكن هناك من جديد إلا أسماء بعض مؤلفاته التي أشار إلى بعضها في المطمح[1].

أننا نعتقد أن الفتح سلك في هذه الترجمة مسلك الجمع والتلفيق، فقرن بعض ما ورد في القلائد إلى ما وضعه في المطمح، وجعل لهذه الحصيلة تحلية بالغ فيها في إطراء علم وفضل وخلق صاحبه.

● ثم تأتي بعد الترجمة مرحلة المختارات. وهي النقطة الأهم في عمله. إذ ركز فيها على الاحتجاج على صحة ما انتهى إليه في إطراء أستاذه وما نعت به أدبه وعلمه وخلقه.

ونقف في هذه المختارات على مجموعة من الأصول التي تهم في شكلها ومضمونها جوهر المنهج الذي قامت عليه صورة الاختيار.

فهناك تقديم المختارات أولا. ثم هناك الأخبار التي تتصدر الاختيارات ثانيا. ثم هناك شكل ومضمون هذه الاختيارات ثالثا.

أولا: فأما تقديم المختارات فيتناول أمرين اثنين: التقديم العام الذي قامت عليه الاختيارات. والتقديم الجزئي الذي يتصدر كل مختارة من المختارات الواردة.

أ ــ التقديم العام: وهو غير غريب في شكله عما عرفناه له في القلائد والمطمح من قيامه على الإشارة إلى نوع المختارات التي سيوردها وكميتها. كما أنه لم يكن غريبا عن مضمون ما لمسناه في تقديم المختارات من الإشارة إلى عنصر التأثير الذي تتركه في نفس المتذوق بصورة عامة. فقد اختار من محاسنه تلك التي تدور بين المتذوقين دوران الخمر بين

1- المطمح (الملكية) ص 237.

الشاربين فينتشون بها، والتي تتلقفها الروايات والكتب فتحمدها، كما يحمد الوسمي طالب الكلا، وكأني به يريد أن ينبه إلى تأثير هذه المختارات في طوائف المتذوقين جملة، سواء منهم أولئك الذين يشترطون في الشعر تأثيره السريع، أو أولئك الذين يطلبون اللذة المتأنية التي تنتج عن معالجة المعاني معالجة متأنية تنفذ إلى الأغوار وتستكشف المجاهل. ومعنى هذا أن هذه الاختيارات ترضي أذواق المطبوعين والمتصنعين.

ب ـــ التقديم الجزئي: وهو مرتبط في الرسالة بمجموعة من الصور المختلفة هي:

– التقديم المرتبط بالتاريخ: ويتصل بما أورده الفتح من أخبار تتناول علاقات أبي محمد ببعض رجال الأندلس، وما كان يعرضه من أخبار عن بعض الدول والأشخاص أثناء ذلك. كالتقديم الذي وضعه لوصف مجلس الناعورة[1]، والتقديم الذي وضعه لمدح المستعين[2]، ولمدحه لابن رزين[3]، ولرثاء عبد الملك بن عبد العزيز[4]، ولمدح الظافر بن ذي النون[5].

– التقديم المرتبط بمواقف نقدية: والمقصود بذلك ما حلى الفتح به بعض المختارات من الكشف عن بعض مواطن الجمال فيها، أو تحديد موقفه الشخصي منها، أو مقارنتها بغيرها، أو تصحيح بعض المغالط التي تتصل بها.

وهكذا قد نجده يحدد مواطن الجمال في القصيدة عن طريق مقارنة معانيها بما تعارف الناس عليه في تذوقهم لبعض الأغراض، وما كانوا يشترطونه فيها، مثل ما قدم به لوصف الفرس[6]، وما قدم به لمختاراته في الغزل[7]، وفي وصفه لمجلس الأنس[8]. وفي زهديته[9] وفي غزليته[10]. وفي تشبيبه[11].

1- أزهار الرياض 107/3.

2- أزهار الرياض 121/3.

3- أزهار الرياض 123/3.

4- أزهار الرياض 125/3.

5- أزهار الرياض 127/3.

6- أزهار الرياض 108/3.

7- أزهار الرياض 112/3.

8- أزهار الرياض 115/3.

9- أزهار الرياض 116/3.

10- أزهار الرياض 129/3.

11- أزهار الرياض 131/3.

وقد تجده يعرض موقفه من بعض القصائد، فيذكر قيمتها النقدية وارتباطها بالحياة[1]، أو يعرض لعناصر الجمال فيها، مثل ما قدم به لمدحه لبعض الأعيان[2]، أو في وصف الليل[3]، أو في وصفياته الأخرى[4].

وقد تجده يقارن موقفه من بعض القصائد، بما ورد عند غيره في معناها. و لم يكن يقصد بذلك التنقيص من قدر شاعرية أستاذه، بقدر ما كان يريد التنبيه على عناصر التقارب والتباعد بين المقارن والمقارن به، كما حدث في قصيدة ابن السيد في وصف الخمر[5].

وقد نجده أثناء تقديمه للمختارة يصحح بعض الأخبار المتعلقة بها، مثل ما فعل في القصيدة التي مدح فيها ابن السيد بعض الأعيان[6]. حيث أشار إلى أن (... السيء الاعتقاد، الغبي الفهم والانتقاد، الكافر الملحد المنافر لمن يعظم الله ويوحد، الذي ما نطق متشرعا، ولا أقر بباريه، ولا قر عن سريه في ميدان الغي وتباريه، يدعي مدحها ويقول أنه إليه بعث نفحها... وحاشا لقائلها ان يمدح بها المذمم، وينضح بكوثرها نفح سموم، أو يشرف بها وضيعا، ويرضع ثديها من غدا لللوم رضيعا.

تقديم المختارة عارية من كل تحلية، كما كان الحال بالنسبة لأسلوبه في مختارات المطمح. ولعل السبب يعود إلى أنه كان يجهل المناسبة التي قيلت فيها هذه المختارات.

على أن هذا لم يكن ليمنعه من تحديه موقفه النقدي من هذه المختارات لو أراد. وقد بدا هذا واضحا في المختارة التي مدح فيها ابن لبون[7]. وفي الكافية التي مدح فيها الظافر[8]، وفي رده على ابن عريب[9]، وفي مراجعته لبعض إخوانه[10]، وفي وصفه للتين الأسود المكتب[11].

---

[1]- أزهار الرياض 109.

[2]- أزهار الرياض 3/ 110.

[3]- أزهار الرياض 3/ 127.

[4]- أزهار الرياض 134/3 و135.

[5]- أزهار الرياض109/3.

[6]- أزهار الرياض 111/3.

[7]- أزهار الرياض 120/3.

[8]- أزهار الرياض 128/3 و129

[9]- نفس المرجع 132/2.

[10]- نفس المرجع 133/3.

[11]- نفس المرجع 134/3.

ثانيا: الأخبار التي تُصدر بها المختارات، ويدخل هذا في عموم ما أشرنا إليه ونحن نتحدث عن تقديمها. ونضيف فنقول أنه كان يستغل المناسبة فيعرف ببعض الرجال، ويذكر من أخبارهم ما يرى ضرورته. كما فعل بعد رائيته في مدح ابن لبون[1]، وفي مقدمة النونية التي مدح بها المستعين[2]، وفي الدالية في مدح ابن رزين[3] وفي المرثية التي رثى بها ابن عبد العزيز[4]. ونضيف أيضا إلى جانب التاريخ ما عرضه من وصف المجالس والنوادي والمنتزهات.

ولعل الاستطراد وإعجابه بهذا النوع من الحياة هو الذي دفعه إلى الاهتمام بالحديث عنها واستقصاء وصفها وذكر أخبارها (مجلس الناعورة، مجلس الظافر[5].).

ونضيف أيضا أنه اهتم بالحديث عن المدن وأحوالها، وإن لم يقصد ذلك قصدا، مثل ما فعل عند وصفه لسرقسطة أيام المستعين[6]. ولعل الدافع له إلى وصفها هو شعوره تجاهها بعد أن سقطت راية الإسلام عنها، فأخذ يذكرها متحسرا، ويصف صورا من أيام مجدها في ظل المستعين بالله ابن هود.

ثالثا: المختارات:

وتعد مختارات الرسالة أوسع ما جمعه لابن السيد. فقد ضمت ثلاثا وثلاثين مختارة شعرية، فكانت أكثر عددا من مختارات القلائد التي بلغت أربع عشرة مختارة بما فيها النثرية، ومن مختارات المطمح الكبير التي بلغت عشر مختارات بما فيها النثرية أيضا. ولكنها من حيث النوع والمضمون تتفق معها في أشياء وتختلف عنها في أخرى.

فمن مختارات القلائد توجد داليته في مجلس النعورة، ونونيته في مدح المستعين، ولاميته في وصف الفرس. بمعنى أنه لا توجد إلا ثلاث مختارات من أصل إحدى عشرة مختارة شعرية.

1- أزهار الرياض 120/3.
2- نفس المرجع 123/3.
3- نفس المرجع 123/3.
4- نفس المرجع 125/3.
5- نفس المرجع 107/3 و110 و127.
6- نفس المرجع 121/3.

ومن مختارات المطمح الكبير توجد رائيته في وصف طول الليل، ولاميتاه في صوف الفرس، وداليته في مجلس الناعورة، ونونيته في مدح المستعين، وبائيته في وصف الراح. أي أنه توجد ست مختارات من أصل التسع المكونة من المختارات الشعرية التي تضمنها المطمح وهذا يطرح مجموعة تساؤلات هي:

لماذا تكررت بعض مختارات القلائد والمطمح دون غيرها. وما هو السر في كثرة مختارات الرسالة وقلتها في القلائد والمطمح، مع أن الهدف من الجميع متقارب. ثم لماذا لا نجد في الرسالة أثرا للمختارات النثرية، مع أنه لم يحدد في تقديمه للمختارات نوع ما سيختاره منها.

يبدو أن الجواب عن هذه الأسئلة سيكون فيه من المغامرة الشيء الكثير. ذلك لأننا لا ندري سببا رئيسيا لتكرار مختارات القلائد. ولو افترضنا أنه أراد أن يضع في الرسالة أهم ما اشتهر به أستاذه، فإن هذا الافتراض سيكون مهزوزا، لأن ما أورده في القلائد قد خضع عنده لشروط قاسية أشار إليها في مقدمة الكتاب، وأشار إلى غيرها في ثنايا تراجمه وهو يقدم الإنتاج المختار للمترجم لهم. فتكون مختارات القلائد كلها تتمتع بنفس الأهمية على هذا الأساس. وإذا كان يقصد الجودة فإن ما ورد في القلائد هو عينها. وإذا كان يخاف التكرار فلم اختار قصائد وقطعا وترك غيرها، مع أنها غير موجودة في اختيار آخر من اختياراته. ثم لماذا كانت مختارات الرسالة أكثر من مختارات القلائد والمطمح معا. هل يرجع السبب إلى تأخر تأليفها أم يعود إلى الشروط التي التزم بها في عملية الاختيار عند تأليف القلائد والمطمح، أم أن السبب يعود إلى طبيعة الرسالة وأهدافها التي حتمت عليه أن يستقصي المادة المختارة استقصاء، فانتهى فيها إلى ما انتهى.

إن القضية في ظني هي أن الفتح قد ألف رسالته وضمنها كل ما كان يعرف له من أثر شعري. وأن جانبا من هذا الشعر قد ضاع و لم يسلم إلا هذا الجزء الذي تبقى بين أيدينا، بدليل أن أحدا من أصحاب التراجم لم يخبرنا عن هذه الرسالة ومضمونها إلا المقري. والمعروف عن المقري أنه تأخر عن الفتح بأكثر من سبعة قرون.

ورغم أنه أخبرنا بأنه نقل الرسالة برمتها فإنه ليس هناك ما يثبت لنا أن التأليف الذي نقل عنه كان تأليفا كاملا، فلم لا تكون قد سقطت منه ملزمة أو ملزمات هي التي احتوت البقية الباقية من شعره أو احتوت جوانب من نثره. قد يقال بأن الفتح قد اعتذر في خاتمة الرسالة عن تقصيره في حق أبي محمد، مما يحمل على تفسير هذا التقصير بما انتهت إليه

الرسالة. ولكن اعتذاره هذا لا ينفي أنه لم يضمن الرسالة شيئا من النثر، لاسيما وقد كانت علاقات أبي محمد بعصره واسعة تفرض أن تكون رسائله كثيرة كثرة أشعاره على الأقل.

أما عن المختارات شكلا ومضمونا فإن دراسة للأغراض التي ضمتها الرسالة تفيد أن الفتح لم يخرج في مختاراته عن الإطار الذي عرفناه في القلائد والمطمح.

+ فالوصف مثلا سبيل إلى قياس جودة الشعر وقدرة الشاعر لاسيما إذا شمل موصوفات متعددة مختلفة، ولقد وجدنا ضمن المختارات أوصافا لأشياء اعتدنا وجودها عند غيره من الشعراء كالفرس مثلا، كما وجدنا أوصافا لأشياء غريبة أهمها وصف التين المكتب[1]. ووصف الحمام[2]. وإذا علمنا أن عدد مختاراته في الوصف قد بلغت إحدى عشرة مختارة، أدركنا إلى أي حد اهتم بهذا الجانب واعتبره صورة لجودة الشعر وفحولة الشاعر.

+ والمدح غرض اهتم به في مختاراته، وبلغت مختاراته مئة ستا، جرى فيها على غير عادته من الاهتمام بأجزاء خاصة من القصيدة حيث وجدناه يورد القصيدة كاملة أو شبه كاملة. وقد بلغت أبيات هذا الغرض مائة وثمانين بيتا. وهو عدد يوازي أكثر من ثلث المختارات التي تضمنتها الرسالة جملة. ولعل السبب في طول بعض القصائد يعود إلى أنه لم يحاول أن يفصل أغراضها عن بعضها، فتجد القصيدة مشتملة على مقدمة غزلية تنتهي بالمدح، كما هو الحال في مدح الظافر والمستعين وابن رزين.

+ وكان غرض الغزل ثالث الأغراض من حيث التداول وقد اطرى الفتح أسلوبه فيه في غير ما مناسبة، كما نبه إلى ما قام عليه من ارتباطه بأصول الغزل المعروفة[3]، وفصل بينه وبين التشبيب على ما جرى عليه الأمر بين النقاد[4]، كما فصل بين الغزل والمعاني المتصلة به كالشكوى واللوعة[5].

+ وكان غرض الاستدعاء من أهم الأغراض التي أثارت انتباه الشعراء فانطلقوا يحققون فيها ذواتهم، ويسابقون الرسائل النثرية وبراعة الشعراء فيها. ولأجل هذا كانت

1- أزهار الرياض 134/3.
2- نفس المرجع 135/3.
3- أزهار الرياض 129/3.
4- أزهار الرياض 130/3..
5- أزهار الرياض 131/3.

القصيدة الاستدعائية موغلة في التقريرية، مقتربة من أسلوب الخطاب العادي. مبتعدة عن الشاعرية المفروضة في لغة الشعر.

وقد كان نجاح الشعر أو فشله في هذا الغرض إنما يتحقق بتحويل الصبغة التقريرية إلى صبغة عاطفية أو عدم تحويلها. لذلك كانت الدعوات إلى مجلس الخمر، والترغيب في حضوره، والمبالغة في وصف أدواته، سبيلا إلى تحقيق هذه الصبغة الشعرية. وقد نجحت مختارات الفتح، لأبي محمد، في أن تخفف من تأثير ارتباط النثر بهذا الغرض، نظرا لما توفر لها من عناصر النجاح الفني.

+ وتبقى الأغراض الأخرى بعد ذلك متساوية في أهميتها. فالرثاء، والعتاب، والزهد، والإخوانيات، أغراض اعتدنا أن نجدها في تراجم مؤلفيه السابقين، و لم يكن فيما أورده منها جديد بالنسبة لشكلها أو مضمونها، إلا ما كان من الألغاز الذي عرض الفتح فيه محاولات لأبي محمد يستعرض فيها براعته في النظم[1].

أما عن الإيقاع فقد اختار من البحور أكملها وأشهرها كالطويل والكامل ومن البحور المجزوءة مجزوء الكامل والرجز. وقد غلب الطويل على مختاراته حتى وصلت إلى عشرين مختارة، أي ما يقارب ثلثي المختارات في الرسالة جملة. وليس المجال هنا مجال التذكير بأهمية النظم على الطويل أو الكامل فقد فصلنا القول في ذلك في فصل سابق، ونحن نتحدث عن علاقة الشكل بالمضمون في مختارات القلائد. ولكن اللافت للنظر هو استعمال بحر الطويل في جل الأغراض المعروضة، وكأن في الأمر قصدا يرمي من ورائه إلى البرهنة على ذوق أبي محمد من جهة، وعلى سلامة اختياره من جهة أخرى.

أما القوافي فأكثرها تداولا هي قافية الراء (7 مختارات)، ثم الدال والباء (5 مختارات)، ثم القاف والميم والنون (3 مختارات) ثم اللام والحاء (مختارتان) ثم الهمزة والتاء والعين والضاد والكاف. وأغلب القوافي التي اختارها كانت من القوافي الذلل[2]. ما عدا قافية الضاد التي أشار النقاد إلى ما فيها من العسر والعنث.

وأخيرا فإن حجم المختارات قد اختلف وتراوح بين البيتين والقطعة والقصيدة الطويلة. ويرجع السبب في هذا التفاوت إلى عدة عوامل يتصل بعضها بالشاعر الذي لا يتجاوز في غرض ما أبياتا قليلة وتنطلق نفسه مع أغراض أخرى فتطول قصيدته. كما يعود

1- أزهار الرياض 134/3.

2- المرشد في فهم أشعار العرب ج 1 ص 46.

السبب إلى الفتح الذي كان يمارس اختيارا قائما على أسس نجهلها في الغالب. ويعود من جهة ثالثة إلى طبيعة المختارات نفسها، حيث يبدو أن بعض الأغراض لا تتحمل أكثر مما انتهى إليه الشاعر، كما هو الحال بالنسبة للألغاز، وبالنسبة لبعض الموصوفات كالتين والحمام...

الفصل الخامس

رسائل الفتح

تخلفت لنا عن الفتح مجموعة من الرسائل، نقل بعضها جماعة من الذين ترجموا له، وذكروها عنوانا على بلاغته وعلو سهمه في الكتابة وبراعته. ولم يورد أصحاب هذه التراجم الرسائل مجموعة كما أخبروا عن ذلك في ثنايا تراجمهم وهم يتحدثون عن آثاره، وإنما أوردوا بعضا منها، واختلفوا فيما أوردوه كما وكيفا.

ولو عدنا إلى المصادر التي ذكرت أخبار رسائله، لوجدنا ابن الأبار في مقدمتها، إذ أشار إلى رسائله وهو يتحدث عن مؤلفاته فقال [1]: (... وله مجموع من رسائله...) لكنه لم يورد من هذا المجموع شيئا كما أنه لم يخبرنا عن طبيعة هذا المجموع وما يتضمنه من أنواع الرسائل.

وهناك أيضا العماد الأصفهاني في الخريدة، الذي أشار إلى رسائله فقال عنها[2]. (...فأما رسائله فقد أُورد منها ما يغني الوقوفُ عليه عن صفته...) وقد أورد جملة رسائل له، لم ندر عن مصدرها شيئا.

وهناك أيضا ما أشار إليه ابن عبد الملك حين تحدث عن مؤلفاته قائلا[3]: (...وترسيله مدون)، فكان في إشارته هاته غموض، مصدره أننا لا ندري هل يعني أن الفتح دون رسائله وجمعها في مجموع، أم أن غيره جمع هذه الرسائل ودونها.

وهناك أيضا صاحب الإحاطة الذي ذكر ترسيله في معرض حديثه عن آثاره حين قال[4]: (... وترسيله مدون) والعبارة كما يبدو منقولة عن ابن عبد الملك، غير أن ابن الخطيب ميز نثره المرسل عن غيره وهو يختار ما سيثبته في إحاطاته حين قال (... ونثره شهير، ونثبت له من غير المتعارف من السلطانية، ظهيرا كتبه عن بعض الأمراء لصاحب الشرطة. ولا خفاء بإدلاله وبراعته).

1- معجم أصحاب الصدفي 313.

2- الذيل والتكملة 530/5.

3- نفح الطيب 29/7.

4- الخريدة 512/2.

وهناك أيضا ما رواه المقري في كتابيه نفح الطيب وأزهار الرياض، مما نقله عن الإحاطة خاصة وأثبته في النفح[1]، وما أضافه بعد ذلك في أزهار الرياض[2]. وهو يفيد أنه كان للفتح ترسيل مدون، واختار له منه ظهيرا كتبه إلى صاحب الشرطة عن بعض الأمراء. وفي تكرار المقري لرواية الإحاطة المرتبطة برواية الذيل والتكملة، دليل على اطمئنانه للخبر. يدل على هذا ما رواه من رسائله في ثنايا النفح كما سنبين.

و لم يحتفظ لنا التاريخ بهذا المجموع كاملا كما احتفظ لنا ببعض مؤلفاته. والأمر لا يخلو في تعليل ذلك من أحد سببين:

إما أنه لم يجمع رسائله بنفسه، وجمعها بعضهم فيما بعد وفاته، فضاع ما جمعه من تطوع بذلك.

وإما أن يد الحقد قد امتدت إلى هذا الأصل فعملت على تجاهله حتى ضاع بكيفية أو بأخرى.

وعلى العموم فقد تخلفت لنا مجموعة من رسائله وصل عددها إلى ثمان عشرة رسالة توزعت في المصادر الآتية:

1) قسم احتفظت لنا به الخريدة، ويشتمل على ثمان رسائل
2) وقسم آخر احتفظ لنا به نفح الطيب، ويشتمل على سبع رسائل.
3) وقسم احتفظت لنا به المخطوطة (488 بالأوسكوريال) ويشتمل على ثلاث رسائل.
4) وقسم احتفظت لنا به ريحانة الألباب ويشتمل على رسالتين.
5) وقسم احتفظت لنا به الإحاطة ويشتمل على رسالة واحدة.

وإذا حذفنا المكرر من هذه الرسائل في النفح والريحانة، تبقى لنا العدد المشار إليه أعلاه وهو (18 رسالة).

وهذه الرسائل يمكن تقسيمها حسب مواضيعها إلى قسمين هما:

- الرسائل الديوانية.
- الرسائل الإخوانية.

1- الإحاطة 250/4.
2- أزهار الرياض 101/5.

● أما الأولى: فهي الرسائل الديوانية التي كتبها عن بعض الأمراء والتي تتناول قضية من قضايا التسيير، وشأنا من شؤون السياسة. وما نقل لنا منها غير كثير، إذ لا يتعدى الأمر رسالتين: إحداهما رواها صاحب الخريدة[1] والثانية رواها صاحب الإحاطة[2] ثم نقلها المقري بعد ذلك في النفح وأزهار الرياض[3].

ولعل السبب في قلة ما بأيدينا من رسائله الديوانية يعود إلى أنه كان منشغلا عن هذا النوع من الكتابة بسبب حالة عدم الاستقرار التي عرف بها. فلم يثبت عنه أنه كان كاتب ديوان أمير من الأمراء كما هو الحال بالنسبة لبعض المعاصرين كابن أبي الخصال وابن القصيرة وابن الجد. وإنما الذي عرف عنه أنه اتصل ببعض الأمراء كأبي يحيي بن الحاج، وأبي إسحاق إبراهيم بن يوسف. ولا نظن أنه نزل في اتصاله بهما إلى مستوى كاتب في بلاطهما.

كما قد يعود السبب إلى قصر عمره السياسي، إذ لم يشتهر كاتبا ومؤلفا إلا فترة زمنية لا تتعدى خمس عشرة سنة، وهي فترة قصيرة في عمر الكتاب المشهورين أو الذين يطلبون الشهرة عن طريق الكتابة.

كما قد يعود السبب إلى رغبته عن هذا الأسلوب في التعيش، بحكم حالته المادية المرضية التي تظهر آثارها في سلوكه مع من يطلب كرمه ونواله، وفي رحلاته وتطوافه في الآفاق دون أن يكون قد حصل على منصب أو اعطيات تضمن له هذا الاستمرار في الرحيل. على أي فإن معاصريه لم يذكروا له شيئا من رسائله، فلا صاحب الذخيرة، ولا صاحب المسهب، ذكروا شيئا عنه، وإنما بلغتنا أصداء إنتاجه أول مرة فيما رواه لنا صاحب الخريدة من المشارقة.

وأولى هاتين الرسالتين الديوانيتين: تلك التي رواها صاحب الخريدة ضمن مجموع رسائله والتي قال في تقديمها[4] وكتب عن أحد الرؤساء: أما بعد فإن الأيدي قد امتدت، ودواعي التعدي قد اشتدت، وأموال الناس تنتهب، وزواجر كتاب الله لا ترهب، وأنت تنام عن كف هذا الانتهاب، وتلين في موضع السطوة والإرهاب، وتعكف على الراح

[1]- الخريدة 614/2.

[2]- الإحاطة 250/4.

[3]- نفح الطيب 31/7 وأزهار الرياض 101/5.

[4]- الخريدة 614/2.

وروحاها (وتقف بين بكرها وروحاها) وقدما أفسدت الراحة الأحوال. وجرت إلى أهلها الأهوال، فدعها فليس بأوانها. واكتف من صحيفة الشر بعنانها (بعنوانها). (بعنيانها) وأكثر الصولة وأجرد (احدر) أن يكون للمكروه عندك جولة، فلينب عن سوطك سيفك، حتى يرهب خيالك وطيفك..).

فالذي يبدو أن موضوع الرسالة يتناول تعنيفا من رئيس إلى أحد ولاته المكلفين بالسهر على استقرار الأحوال، بعد أن رأى من تراخيه ما وصفته الرسالة. كما يتناول توجيهاته الخاصة بإنقاذ الموقف.

وليس في الرسالة إشارة إلى تاريخ كتابتها أو مكان صدورها أو توجهها. ولعل هذا النموذج الذي رواه صاحب الخريدة، هو نموذج للرسائل الديوانية المختصرة التي حمدت للفتح واعتبرت من حسناته. ولذلك لم يرو غيرها من الرسائل الديوانية.

وعن صناعتها فإنها تستجيب للأسلوب الديواني الذي كان معروفا آنذاك والذي وضح صورة عنه القلقشندي[1] حين تحدث عن أنواع الرسائل الديوانية وضروبها وتناول في الضرب الثاني منها (... أن تعقب البعدية بذكر المقصود إلى آخره...) فتناول ما يتصل بصورة رسالة الفتح، والتي ابتدأها بالبعدية وأردفها بالمقصود منها. ولعل متسائلا يتساءل عن عدم إيراد البسملة أو الحمدلة والصلاة والتسليم على النبي صلى الله عليه وسلم مما هو مشترط في كل كتاب، وما ذكره ابن عبد الغفور[2] في ذلك- في صدر الرسالة التي أوردها صاحب الخريدة. فنقول لعل الأمر مرتبط بما بنى عليه صاحب الخريدة عمله من توخي الاختصار. فاكتفى بإثبات النص دون احتفال بالشكليات المعروفة.

أما الرسالة الثانية فهي عبارة عن ظهير كتبه الفتح عن بعض الأمراء إلى صاحب الشرطة وقد رواها ابن الخطيب ونقلها عنه المقري[3]. وتتناول ظهيرا عين أحد الأمراء بمقتضاه صاحب شرطة.

وهكذا نجد في مقدمة الظهير تحلية يرتبط مفهومها بمضمون الظهير والمقصود منه. فهو (تأكيد اعتناء وتقليد ذي منه وغناء...) ثم يأتي بعد هذا مدلول هذا التأكيد والاعتناء الماثل في توليته (... ليتقدم لولاية المدينة الفلانية وجهاتها ويضرح ما تكاثف من العدوان في

---

[1]- صبح الأعشى 36/7.

[2]- أحكام صنعة الكلام 53.

[3]- الإحاطة 251/4 ونفح الطيب 31/7 وأزهار الرياض 101/5.

جنباهًا...) لما يتوفر فيه من الشروط، وما يشتمل عليه من الخصال (... لما علمه من سنائه وتوسمه من غنائه، ورجاه من حسن منابه، وتحققه من طهارة ساحته وجنابه، وتيقن — أيده الله تعالى أنه مستحق لما ولاه، مستقل بما تولاه، لا يغريه الكسل ولا يثنيه عن المضاء الصوارم والأسل، ولم يكل الأمر منه إلا وَكَل، ولا ناطه بمناط عجز ولا فشل...).

وبعد هذا تأتي فقرة الأوامر والنصائح. والأوامر على نوعين:

أحدهما متعلق بشخصه (أن يراقب الله تعالى في أوامره ونواهيه، وليعلم أنه زاجره عن الجور وناهيه، وسائله عما حكم به وقضاه، وأنفذه وأمضاه، يوم لا تملك نفس لنفس شيئا، والأمر يومئذ لله...).

وثانيها متعلق بسلوكه (... فليتقدم إلى ذلك بحزم لا يخمد توقده، وعزم لا ينفذ تفقده، ونفس مع الخير ذاهبه، وعلى متن البر والتقوى راكبه...) أما النصائح فمنها ما يتعلق بحاشيته ومساعديه (... ويقدم للاحتراس من عرف اجتهاده، وعلم أرقه في البحث وسهاده، وحمدت أعماله وأمن تفريطه وإهماله، ويضم إليهم من يحذو حذوهم، ويقفو شأوهم، ممن لا يستراب بمناحيه، ولا يصاب خلل في ناحية من نواحيه...)، ومنها ما يتعلق معاملة الجناة (... وأن يذكي العيون على الجناة، وينفي عنها لذيذ السنات، ويفحص عن مكامنهم، حتى يغص بالريق نفس آمنهم، فلا يستقر هم موضع، ولا يقر منهم خب ولا موضع، فإذا ظفر منهم بمن ظفر بحث عن باطنه، وبث السؤال في مواضع تصرفه ومواطنه، فإن لاحت له شبهة أبداها الكشف والاستبراء، وتعداها البغي والافتراء، نكله بالعقوبة أشد نكال، وأوضح له منها ما كان ذا أشكال، بعد أن يبلغ أناه، ويقف في طرفه مداه...). ومنها ما يتعلق بتطبيق العقوبة وإصدار الأحكام (... وحد له أن لا يكشف بشره إلا في حد يتعين، وإن جاءه فاسق أن يتبين، وأن لا يطمع في صاحب مال موفور، وأن لا يسمع من مكشوف في مستور، وأن يسلك السنن المحمزد، ويتره عقوبته من الإفراط وعفوه من تعطيل الحدود...). ومنها ما يتعلق بخصوصيات الحاكم ورزانته وصفاته وتواضعه (... وإذا انتهت إليه قصة مشكلة أخرها إلى غده، فهو على العقاب أقدر منه على رده، فقد يتبين في وقت ما لا يتبين في وقت، والمعالجة بالعقوبة من المقت، وأن يتغمد هفوات ذوي الهيئات، وأن يستشعر الإشفاق، ويخلع التكبر فإنه ملابس أهل النفاق، وليحسن لعباد الله تعالى اعتقاده، ولا يرفض زمام العدل ولا مقاده، وأن يعاقب المجرم قدر زلته، ولا يعتز عند ذلته، وليعلم أن الشيطان أغواه، وزين له مثواه، فلشفق من عثاره، وسوء آثاره، وليشكر الله

تعالى على ما وهبه من العافية، وألبسه من ملابسها الضافية، ويذكره جل وعلا في جميع أحواله، ويفكر في الحشر وأهواله، ويتذكر وعدا ينجز فيه ووعيدا، يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود له أن بينها وبينه أمدا بعيدا...)، ومنها ما يتعلق بموقف الأمير من سلوكه في المستقبل وظنه به، فهو ولي له أن أحسن وبرئ منه أن أساء (... والأمير أيده الله ولي له ما عدل وأقسط وبرئ منه أن جار وقسط...)، ومنها أخيرا دعوة إلى طاعة أوامر هذا الولي (... فمن قرأ فليقف عند حده ورسمه، وليعرف له حق قطع الشر وحسمه، ومن وافقه من شريف أو مشروف، وخالفه في نهي عن منكر أوامر بمعروف، فقد تعرض من العقاب لما يذيقه وبال خبله، ولا يحيق المكر والسيئ إلا بأهله).

والذي يظهر أن موضوع هذه الرسالة يختلف عن موضوع الرسالة السابقة. ذلك لأنها ترتبط بأسلوب الظهائر والعهود الذي يختلف في طريقة كتابته عن المعروف في الرسائل الديوانية العادية. ولقد بدا واضحا أن هناك نسقا عاما سارت عليه هذه الظهائر ابتداء من رسالة عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري المشهورة برسالة عمر في القضاء، ومرورا برسالة عبد الحميد على لسان الخليفة مروان بن محمد إلى ولي عهده، وانتهاء بما وصلت إليه هذه الظهائر مع كتاب الدواوين في العصور العباسية اللاحقة لما سبق. ففيها من تقديم موضوع الظهير ما فيها. وفيها من إصدار الأوامر وإسداء النصائح، والتحذير والتبروء من الوقوع في أخطاء القضاء ما يجعلها دستورا من دساتير الحكام في الأندلس، بل في العالم الإسلامي.

أما الثانية: فهي الرسائل الإخوانية: وهي التي كتبها إلى أصدقائه وأمرائه، وتتناول مواضيع عاطفية في الغالب تمس الوصف (ثلاث رسائل)، والشوق (ثلاث رسائل)، والتعزية (رسالتان)، والشكر (رسالتان)، ثم (رسالة واحدة) في كل من التهنئة والتظلم والشكوى والعتاب والالتماس والاعتذار.

ويرجع السر في كثرة هذه الرسائل بالنسبة للرسائل الديوانية السابقة إلى مجموعة عوامل:

العامل الأول: يتعلق بعلاقات الفتح الواسعة التي جعلته يتصل برجال العصر على اختلاف درجاتهم الاجتماعية والسياسية، ابتداء بالأمراء والوزراء وانتهاء بالفقهاء والقضاة والشعراء والكتاب ممن أشرنا إلى علاقاته بهم من خلال مؤلفاته.

العامل الثاني: يتعلق بكثرة تنقلاته التي جعلته يرتبط بطائفة مهمة من أعيان المدن التي زارها، والذين لم يكن لهم وجود فعلي على صعيد السياسة أو العلم (وقد أخبرنا عن بعض هؤلاء عرضا وهو يتحدث عن نزوله في بعض مدن الأندلس)[1].

العالم الثالث: وقد يرجع السبب إلى تقلب أحواله السياسية والاجتماعية بين صاحب نفوذ وسلطان، وبين منبوذ متطوف يبحث عن ما ضاع من شهرته وسلطانه.

والذي يبدو من العوامل السابقة أن علاقات الفتح الواسعة تفرض أن تكون رسائله كثيرة كثرة من ترجم لهم في آثاره، سواء منها المعروفة كالقلائد والمطمح، أو المفقودة، كراية المحاسن، وحديقة المآثر. وكثرة ما أقامه من علاقات واتصالات مع أصحاب النفوذ والسلطان أو الأصدقاء والخلان. وهذا الافتراض يدفعنا إلى الجزم بأنه كان للفتح ديوان رسائل كبير الحجم يجمع كل أثاره في هذا الميدان، وأن ما أثبته بعض المترجمين من رسائله يفيد أنه كان قد اطلع على هذا الديوان واختار منه ما اختار.

وقد تنوعت أغراض هذه الرسائل تنوعا جعلها برهانا على غيرها من الرسائل المفقودة. وضمت هذه الأغراض.

- الوصف: ويشتمل على ثلاث رسائل كما ذكرنا.

فالرسالة الأولى[2] تتناول وصف نزهة وقنص يبتدئها بمقدمة تتناول الغاية من الرسالة (... ما تزال الغرئب – أيد الله الملك الأجل ــ معرضة في منتزهاته، وتثور له في ثنيات متوجهاته، فتزيد الأنس انفساحا، وتورث النفس ارتياحا، فتنطلق من عقالها، ويتدفق بحر مقالها...). حيث تبدو فكرة القنص ومشاركة الأمير فيه دافعة للفتح للانطلاق في وصف هذا الحدث، وتحبير تقرير مفصل عن هذه النزهة وما جرى خلالها من ضروب النشاط، بين طراد وقنص ومجالس خمر وأنس. حتى إذا (... فني اليوم أوهم، وكان وجهه أن يدلهم، فقمنا إلى صهوات الجياد، وما منا إلا من يميل كالغص المياد، فصرنا وما نفرق بين البكر والأصائل، ولا ندري الأواخر من الأوائل، ويمن الملك الأجل يهدينا ونوره يسعى بين أيدينا...)، ثم يختم هذا التقرير بالدعاء للأمير وحاشيته مع المتمنيات باستمرار أحوالهم في أشراق (... فلا زالت ليالينا به مشرقة وغصون أمانينا في جانبه مروقة، ما عبق زهر، وتدفق نهر). ويبدو أن موضوع وصف النزهة والقنص، كان قد اختص به شعر الطرديات

---

[1]- حامة بجانة.

[2]- الخريدة 610/2.

أكثر من اختصاص النثر به، حتى أصبحت له قوانيه المعروفة وتقاليده الخاصة التي ترتبط بوصف الأداة والفرس والكلاب وما شاكل ذلك. واهتمام النثر بهذا الجانب يعود في نظرنا إلى التحدي الذي اندفع إليه الكتاب في معالجتهم للأغراض الشعرية نثرا، فانتهى بهم هذا التحدي إلى أن يحولوا هذا الغرض الشعري إلى النثر، وأن يبزوا فيه الشعراء بزا. ولم يكن الفتح أول من نهج هذا المنهج من الأندلسين، فقد وجدنا ابن الحناط قبله دخل هذا المدخل وخلف فيه أثرا واضحا[1].

أما الرسالة الثانية: فقد رواها صاحب النفح[2]. وعلق عليها بقوله (وما أحسن ما كتب به الفتح إلى بعض الملوك يصف نزهة ببعض منتزهات الأندلس المونقة ويذكر استضاءته فيها بشموس المسرة المشرقة) ويبدو من مضمونها أنها وجهها إلى الأمير إبراهيم بن يوسف، بدليل التحلية التي وضعها في صدر الرسالة، وفيها من التمجيد مالا يليق إلا بمن سمت رتبته وعلت درجته، إذ يقول فيها (... أطال الله سبحانه بقاء ناصر الدولة ومحيي الملة، الذي حسن بلقياه العيش، وتزين بمحياه الجيش، ولاح له الأثر الطامس، وجرى الدهر لسطوته خائف، وغدا السعد بعقوته طائف، والزمان ببرود عياه ملتحف، ولثغور نداه مرتشف، ولازال المجد يتملكه، والسعد يحمله فلكه. أما وقد وافقتني أيامه أيده الله سبحانه وفاقا، ورأيت للبيان عنده نفاقا، فلابد أن أرسل كتائبه أفواجا، واصف ما شاهدته من اقتداره، وعاينته من حسن إيراده وإصداره،... وقد كنت أيده الله تعالى كلفا بالدول وبهائها، لهجا بالبلوغ إلى انتهائها، لأجد دولة ارتضيها وحظوة علياء اقتضيها، فكل ملك فاوضته سرا وجهرا، وكل ملك قلبته بطنا وظهرا، والنفس تصد عنه صدود الجبان عن الحرب، والملائكة الكرام عن الشرب، إلى أن حصلت لديه، ووصلت بين يديه، فقلت الآن أمكن من راح البغية الانتشاء، وتمثلت الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء...) فمثل هذه التحلية لا تلائم إلا الأمير إبراهيم بن يوسف.

وقد انقسمت الرسالة إلى قسمين رئيسين: الأول يتناول مقدمة خاصة عن اتصاله بالأمير إبراهيم أشرنا إليها سابقا. والثاني خاص بوصف النزهة. وهو لا يفترق كثيرا عن ما وصف به نزهته في الرسالة السابقة وخاصة في القسم الأخير منها الذي وصف فيه مجالس الشراب والغناء والأنس.

[1]- الخريدة 223/2.

[2]- نفح الطيب 659/1.

أما الرسالة الثالثة: فهي التي وجهها إلى بعض إخوانه بوصيه فيها بكتب أودعها عنده ويصف أثناء ذلك هرا. وقد رواها صاحب الخريدة[1] ولعل القصد منها لم يكن هو الوصية بقدر ما كان وصف الهر الذي استغرق جل أجزاء الرسالة.

وقد بدأ رسالته كعادته بمقدمة حيى فيها صاحبه ودعا له، ثم عطف بعد ذلك على تحديد ما قام بينهما من التوادد إلى موضوع من مواضيع الرسالة، وهو الأمانة التي استودعها عنده (... وفي علمك ما استودعته أمانتك، واستحفظته صيانتك من كتبي التي هي أنفس ذخائرها وأسراها، وأحفها بالصيانة وأحراها. وما كنت ارتضي منها بالتغريض، لولا الترجي بمعاودة الطلب عن قريب، ولاشك أنها منك تنال، وبمكان التهمم واهتبال...) وعن طريق تحديد أهمية هذه الأمانة تعرض لما يمكن أن يطرأ عليها من عناصر التخريب المرتبطة بالفأر خاصة. (...ولكن ربما طرقها من مردة الفأر طارق، وعاث فيها كما يعيث الفاسق المارق. فيترل فيها قرضا، أو يفسد منها طولا وعرضا).

ومن الحديث عن الفأر تخلص للحديث عن الهر[2] (... إلا أن يطوف عليها هر نبيل، ينتمي من القطط إلى أنجب قبيل، له رأس كجمع الكف وأذنان قد قامتا على صف، ذواتا لطافة وذقة، وبساطة ورقة، يقيمهما عند التشوف، ويضجعما عند التخوف. ومقلة كأنها تقطيعة من الزجاج المجزع، وكأن ناظرها من عيون الباقلاء منتزع، قد استطال الشعر فوق أحداقه وحول أشداقه، كإبر مغروزة على العيون، كما تبرد أطرافه القيون، له ناب كحد مطرد ولسان كظاهر المبرد، وأنف اخنس، وعنق أوقص، وحلق سرق غير ملتصق، أهرث الشدقين، لاحق الأطلين، موشى الساعدين والساقين، منمنم اليدين والرجلين، يرجل بهما وبره ترجيل ذوي الهمم، لما شعت من اللمم، فينفض ما لص به من الغبار، وعلق به من الأوبار، ثم يجلوه جلاء الصيقل للحسام، والحمام للأجسام، فينقي قذاه، ويواري أذاه...).

وقد استمر في وصف حركات هذا القط وأسلوبه في العيش، وطريقته في الصيد، وخصوصا صيد الفئران بأنواعها، وانتهى إلى وصف خروجه عن عادته في هذا الصيد إلى التقاط فتاة الموائد (... إبلاغا في الاحتماء وبروزا في النعماء، فما له عن خصاله ثمن، ولا جاء بمثله زمن...) وقد أنهى الرسالة بالاعتذار عن هذا الاستطراد الذي جره إلى الحديث

[1]- الخريدة 616/2.

[2]- الخريدة 617/2. وما بعدها.

عن القط، كما اعتذر عن هذه اللغة التي عبر بها، ودعا لصديقه كعادته في خاتمة الرسالة (والله تعالى يبقيك لثمر النبل جانيا ولدرج الفضل بانيا، ما طلع في أفق بدر، وانطبق على قلب صدر، إن شاء الله تعالى).

وهكذا تبدو الرسالة طريفة في موضوعها تتقصد غاية عامة هي إظهار البراعة والقدرة على منافسة الشعراء في باب الوصف، عن طريق التعرض لمواضيع ربما صعب عليهم تناولها لسبب أو لآخر. كما تتقصد غاية خاصة هي البرهنة على قدراته الشخصية لمن وجه إليه رسالته. وقد بدا هذا واضحا في خاتمة الرسالة، حين اصطنع التواضع في مخاطبة صاحبه، وحين زعم أنه استعمل لسان أبي عبيد وأبي زيد.

أما عن النسق العام للرسالة، فهو يستجيب للأصول الكبرى التي يقوم عليها فن الترسل عند الفتح والذي ستذكره عند الحديث عن المنهج العام لفن الترسيل عنده.

– الشوق: ومن الأغراض التي تناولتها رسائله أيضا غرض الشوق، وهو شوق مرتبط بما كان له من اتصال بمكاتبيه عموما. وجل ما تبقى من آثاره في هذا الباب يضطرب موضوعه بين التذكر والشوق والحنين، ولم يتخلف لنا في هذا الباب إلا ثلاث رسائل:

الرسالة الأولى: روهَا الخريدة[1] ولا نعرف وجهتها. ويبدو الفتح فيها متأسفا على ذكريات مرت يرجو عودها، ومتحسرا على ما ضاع منه ببعد صديقه عنه حين يقول:

(سقى بلدا أمست سليمي تحله من المزن ما يروى به ويسيم

سقى الله ذلك الجانب الذي حواك، وخص منه بالوابل مثواك، حتى يخلع الربيع فيه سندسيات وروده، ويجمع في النضرة أغوراه بنجوده، فإنه جناب حل فيه الذكاء والنبل، وقل لسقياه عندنا الوبل، ورعيا لأيامنا المعلمات الذيول، المعطلات عرفي الصبا والقبول، وقد نعمنا ببكرها وآصالها، وامتحنا بتواليها واتصالها، فاليوم لم يبق منها إلا ذكرة لها في الفؤاد صدع، وللعراك والسلوة ردع، وعساها تعود، فيورق عود).

فما الذي يقصده بحنيه هذا. ومن يقصد في خطابه. أهو حنين إلى المرحلة الزاهية من حياته السياسية ورجالها، ومنهم مخاطبه، أم هو حنين إلى مكان كانت له به ذكريات.

---

[1]- الخريدة 613/2.

على أن الرسالة كانت موفقة في إبراز ما يراد بها من الناحية الفنية، وذلك عن طريق اختيار أسلوب المقارنة بين مضمون البيت الشعري الذي صدرت به الرسالة، وما يحكي عنه مضمونها.

أما الرسالة الثانية: التي رواها الخريدة[1]، فهي التي وضعها ليودع فيها أحد معارفه ويستغلها لذكر أيام الاتصال واللقاء والحنين إلى ما أمضياه من ألوان البهجة (... فلله أيامنا الموشية وفوقنا بالسراق عشية، وانتشاء من مقلة وكاس، واجتلائي شارب زبر جد أو عذار آس، والتماحي خدا كمورد الشقيق، واستصباحي بثغر كالدر في حق من العقيق... فالآن منازلي اكوار، ومواصلي بطل مغوار، فتلك تضنيني بطول السفار، وذاك ينتضيني للمسلمات انتضاء الشفار، فإنا بين وعر يعيي، وذعر يميت ويحيي، ونوى لا يقال لعاثرها لعا، وهوى، قد حنا بالجوى اضلها، والله يريح مما عرا، ويمن بنظرة إلى قرقرا).

فصورة الحنين والتذكر واضحة وضوحا كاملا فيما يعرضه من ألوان هذه المقارنة التي يجريها بين حاضره وماضيه، فيأسف على هذا الحاضر ويشتاق إلى الماضي ويحن إليه، ويبدو أن الأسلوب الفني الذي نهجه في هذه الرسالة يكاد يكون مشابها لأسلوبه في الرسالة السابقة من قيامه على عنصر المقارنة. وإن كانت المقارنة في الرسالة السابقة هي غيرها في هذه الرسالة.

أما الرسالة الثالثة: فقد روتها مخطوطة الأسكوريال 488 وموضوعها أقرب إلى الشوق منه إلى الحنين بل ربما زاحم عنصر التهنئة الشوق، لأنه بعث برسالته إلى أبي محمد عبد الله بن السيد البطليوسي يخبره بقرب وصوله إليه، ويهنئ نفسه على هذه المنة التي منت الأيام بها عليه، ويشتاق إلى مجلسه (... وسأوافيك فاهصر افنان تحفيك، والقط الدر النفيس من فيك...). ورغم أن طابع الرسالة يكتسي صبغة الأخبار. فإن الفتح حاول أن يجعل الرسالة بعيدة عن جو الأخبار الجاف بأن أعطاها من نفس الشوق واللهفة ما يصبغ عليها جوا من العاطفية والشفافية.

– التعازي: وهو من الأغراض الإخوانية التي ترددت في رسائله ووجودها دليل آخر على تفاعله مع المجتمع، وعلى عمق الاتصال الذي كان يربطه إلى بعض أعضائه. وإذا كانت المختارات التي رواها في القلائد والمطمح تكشف عن هذا وخاصة فيما عرفناه من

[1]- نفس المرجع 614/2.

القصائد التي رثى بها بعض الشعراء أمه. فإن رسائله في التعزية كانت عربونا على وضعه الاجتماعي السليم. ورغم أننا لا نعرف شيئا عن الذين وجه إليهم هذه التعازي. فإن هذا لا يمنعنا من تحديد أهمية وجود هذه الرسائل ضمن المختارات النثرية التي اختيرت للفتح، وأن من اختار هذا النوع من الرسائل كان يريد أن يتحسس مواطن الجمال والقوة في آثاره. كما كان يطلب هذه العناصر في نماذج فنية متعددة كالوصف والشوق والحنين والرثاء والتعازي.

وقد تخلفت لنا في هذا المضمار رسالتان:

الأولى: روتها الخريدة[1] وهي رسالة يعزي فيها في أحد الهلكة الذين لا نعرف عنهم شيئيا على وجه العموم، إلا ما يفصح عنه الجزاء الأول من الرسالة، من أنه كان صاحب حسب، وأنه كان أديبا ذكيا عالي المرتبة (... فوارحمة للحسب قبضت روحه، وللأدب ركدت ريحه، وللذكاء خبت شعله، وللعلاء تمزقت خلله،...) وما يفصح عنه الجزء الثاني من أنه كان متقدما في السن (... ومما كف اللوعة عن مجده، وخفف لذعة وجده، أنه اودى وقد استوفى طلقة، ولبس العمر حتى أخلقه، وسحب أذيال تمنيه وصحب الدهر حتى كاد يفنيه)، وهذه الصفات تصدق على كثير من معارفه ممن توفوا في حياته وقد بلغوا من العمر هذا المبلغ، كابن طاهر وابن الجد، وابن القصيرة، وابن السيد.

الثانية: روتها الخريدة أيضا ورواها النفح[2] وهي التي نعى فيها أحد الغرقى ولا يظهر في رسالة أنه وجهها لأحد بعينه، وإنما الذي يظهر أن الغريق كان صديقا للفتح، فلما بلغه نعيه كتب الرسالة يبكيه فيها ويرثيه. وقد اشتملت هذه الرسالة على كل ما هو معروف في أدب الرثاء من حديث عن أثر الفاجعة على نفس الراثي (البيتان اللذان استشهد بهما في صدر الرسالة)، ثم ذكر للهالك وتعداد لمناقبه وآثاره الحميدة (أغلب أجزاء الرسالة)، ثم استعبار وتذكر يبتدئ بالدعاء له وطلب الرحمة والمغفرة، وينتهي بأخذ العبرة من الحياة لأن الموت نهاية كل حي، لا تفرق بين هذا وذاك (لكنه الموت لا ترده الصوارم والأسل، ولا يفوته ذباب لفظ العسل، فقد فرقت بين مالك وعقيل وأشرقت بعدهما جذيمة بالحسام الصقيل).

---

[1]- الخريدة 621/2.

[2]- الخريدة 626/2. والنفح 246/2.

– الشكر: وهو غرض من الأغراض التي تناولتها إخوانياته، وقد بقيت لنا من آثاره في هذا الباب، رسالة موجهة إلى الكاتب أبي عبد الله بن أبي الخصال[1]، يشكره فيها على ما أولاه إياه من عناية، وما أفصح عنه من كرم تجلى فيها أهداه إليه. وقد ظهر في الرسالة تحرج الفتح من رفض الهدية، وتردده في اتخاذ موقف معين من سلوكه،

(... قد كان أعزك الله في الذي لاح من بشرك ما يقوم مقام القرى. ويحلني محل جميل بواد القرى، طربا بلقائك، وابتهاجا بما واجهني من تلقائك، فكيف أن تتبع البارق غماما، وتكلف خيالك الطارق مقاما، وتشق عن زهر المبرات اكماما. ولولا أن أتعرض لعقوقك، وأسلك غير طريقك، لانحرفت عن قبضها، ووقفت بمرقب من رفضها، اعترافا بالعجز عن الأولى، وانصرافا للقيام بنشر ما هو أولى، لكنني واضح في تردده في قبول الهدية، ذلك أنه كان يعتبر نفسه أسمى من أن يترل وجدناه في الرسالة يذكره بمركزه في بلاط ابن الحاج ويقول:

(... واقرأ على سيدي سلامي حفيلا زكيا ورحمة الله)، وكأني به يذكره بما له من صلة به، هذه الصلة التي تجعل مركزه عنده لا يقل عن مركز أبي عبد الله.

– الالتماس: وهو غرض إخواني يدخل في عمومه غرضُ الطلب والرجاء والاستعطاف. وفي الالتماس عند البلاغيين خطاب من أدنى إلى أعلى. لكن الأمر في رسائل الفتح أن الخطاب قد يكون موجها إلى من يستوى في المرتبة مع المخاطب، ورغم ذلك تجد صبغة الالتماس المقرون بالرجاء واضحة. وقد تخلفت لنا عن هذا الغرض ثلاث رسائل:

الأولى: روتها ريحانية الألباب ورواها النفح[2] وفيها تقديم يزكي جودتها (...قال بعضهم من أحسن ما رأيت له قوله) والكلام هنا للمواعيني نقله المقري ولم ينسبه إلى أصله. ويتناول موضوعها رجاء للفتح يطلب أن يحققه له مخاطبه في الرسالة (... معاليك أشهر رسوما، واعطر نسيما من أن يغرب شهاب مسعاها أو يجذب لرائد مرعاها، فإن نبهتك فإنما نبهت عمرا وأن استنرتك فإنما استنير قمرا، والأمير أيده الله تعالى أجل من اعتصم في ملكه وانتظم في سلكه فإنه حسام بيد الملك، طلاقته فرنده، وشهامته حده، وقضيب في دوحة الشرف وطيب، بشره زهره، وبره ثمره، وقد توسمت نارك لعلي أفوز منها بقبس، أو تكون كنار موسى بالوادي المقدس، وعسى الأمل أن تعلو بكم قداحة،

[1]- المخطوطة 488 أو 52.

[2]- ريحانة الألباب / الخزانة الملكية (6247) ص 100والنفح 38/7.

ويشف من أفقكم مصباحه، فجرد أيدك الله تعالى صارم عزل لا تفل غروبه، واطلع كوكب سعد لا يخاف غروبه). ولا ندري لمن وجه الرسالة، كما لا ندري تاريخها، حتى نستطيع ولو من باب التخمين أن نلحقها بمرحلة من مراحل حياته.

الثانية: روهما مخطوطة الأسكوريال[1] وتتناول طلبا وجهه الفتح إلى أبي عبد الله بن أبي الخصال يرجوه فيه أن يكرم وفادة حامل رسالته (الوزير الجليل أبي بكر) الذي ينتمي إلى (أوريواله) والذي بالغ في إكرام الفتح حين نزل به (... وانفدته من اوريواله) من مترل الوزير الجليل أبي بكر موديه، قارَضَ الله عارفتَي تَهَمه وتَحَفيه. فإنه أساالهما جداولا، وأحل منهما مترلا مخضرة ومناهلا. فلو شاهدتني وأنا أمرح بين نعماه مراحا، واقترح ما شئت على علياه اقتراحا، لرأيت عيشا هنيا، وأنسا من الوحشة عريا، وأبصرت منه أعزه الله علما للفضائل سنيا، وقد رجوتك لجزائه، وأمنتك لوفائه، وأنت إن شاء الله لندائي مجيب، ولفعل منيب).

أما عن ارتباط الرسالة بتاريخ معين من حياة الفتح، فلاشك أنها تنتمي إلى المرحلة الأولى منها، حين كان الفتح على اتصال وثيق بأبي عبد الله، وحين كان هذا الأخير وزيرا في بلاط أبي يحيى بن الحاج. بدليل التحلية التي حلى بها رسالته والتي يخاطبه فيها بما يشعر باتساع نفوذه (أطال الله بقاء عمادي الأعلى وكوكبي المجتلى، منتظما للرياسة في سلك، مبتسما من ذكائه وغنائه كل ملك. ما أحق أدام الله عزك دولةً أنت كوكب سمائها، والمستقل بأعبائها، أن تنتظم لوليها اشتات البلاد، وتشتمل عليه أهواء العباد، وتنفسح له متضيقات الآماد برائك السديد، الذي إذا اقتدح أورى، وإذا سرى إلى صحبه صار حميد السرى...) وقد سبق أن أوضحنا علاقة هذه الرسالة ومضمونها بالآفاق العامة لعلاقة الفتح بابن أبي الخصال.

الثالثة: روهما القلائد[2] وتتناول طلبا وجهه الفتح إلى أبي الفضل عياض، في شأن غفارة كان القاضي قد أخذها منه ليصلحها، وقد مر الحديث عن موضوع هذه الرسالة في فصل سابق. على أنها من ناحية الشكل تفتقد ما نعرفه في رسائل الفتح من عناية بشكل الرسالة العام. ولعل السبب يعود إلى سقوط الكلفة بينهما، أو اعتماد الفتح جانب

[1]- مخطوط (488) لو 51.
[2]- القلائد 258.

الاختصار في رواية الرسالة، خصوصا وقد قدم لها بما يمكن أن تفيده التحلية من اسم الموجه له أو لقبه أو الصبغة السياسية التي يخاطبه بها.

– التهاني: ولم يصلنا في هذا الموضوع عنه إلا رسالة واحدة وجهها إلى الأمير أبي بكر بن علي بن يوسف عند ولايته اشبيلية، وقد رواها المقري في النفح على صورتين: الأولى[1] وقال في تقديمها

(... وما أحسن رسالة له مختصرة كتبها مهنئا بعض ملوك الأندلس بما منحه الله تعالى من التمكين الذي أيده الله به ونصره. وقد جود أوصافه واستطرد منها إلى ذكر الناصر وولده الحكم اللذين عمر الزهراء والرصافة).

والثانية[2] لم يضع لها تقديما وإنما قال في معرض حديثه عن رسائله (وكتب إلى أبي بكر بن علي عند ولايته إشبيلية) وبين الرسالتين بعض اختلاف في بعض المفردات. ولعله السبب الذي جعل محقق النفح لا يتفطن إلى هذا التكرار.

وقد اعتمدنا النموذج الثاني المروي في الجزء السابع لكونه أقرب إلى الاستقامة والوضوح في المعنى والتركيب من سابقه في الجزء الأول. وقد سلك الفتح في هذه التهنئة خطوات واضحة حين اعتمد في مقدمة الرسالة على التهنئة المباشرة، لينطلق بعد ذلك إلى الربط بين هذه التولية وبين مميزات الأمير الشخصية وما يمكن أن يتحصل للأندلس من خير بسببها. وانتهى في الأخير إلى الدعاء له.

ويبدو أن هذه الرسالة ترجع إلى مرحلة التراجع التي أخذ الفتح يعيشها بعد رحيل الأمير إبراهيم بن يوسف، الشيء الذي دفعه إلى البحث عن حام جديد يتبناه، ويقدم إليه ما ينجزه من الآثار، لكن الذي يبدو أن هذا الأمير لم يستجب لهذه البادرة، وذلك لسبب أساسي هو وجود ابن زهر (أبي مروان ابن زهر) في بلاط الأمير بصفته مؤدبا له ومستشارا ووزيرا أيضا[3]. وقد سبق أن ذكر صاحب النفح ما قام بين الفتح وبين ابن زهر من تنافس انتهى بأن اشتكى الفتح أمره إلى أمير المسلمين نتيجة ما لقيه منه.

– التظلم والتشكي: وهو موضوع متردد بين الرسائل الإخوانية والديوانية، لأن مضمونه إخواني، وشكله ديواني، وقد تخلفت لنا عن هذا الغرض رسالة وجهها الفتح إلى

---

[1]- نفح الطيب 678/1.

[2]-نفح الطيب 37/7.

[3]- النفح 37/7 والبيان المغرب 67/4.

أمير المسلمين علي بن يوسف في شأن ابن زهر[1]، يتظلم فيها للأمير مما أوقعه به أبو مروان من ظلم وتعد ويقول: [2] (... أطال الله بقاء الأمير الأجل سامعا للنداء، دافعا للتطاول والاعتداء، لم ينظم الله تعالى بلبتك الملك عقدا، وجعل لك حلا للأمور وعقدا، وأوطأ لك عقبا، وأصار من الناس لعونك منتظرا ومرتقبا، إلا أن تكون للبرية حائطا، وللعدل فيهم باسطا، حتى لا يكون فيهم من يضام، ولا ينال أحدهم اهتضام، ولتقصر يد كل معتد في الظلام. وهذا ابن زهر الذي أجررته رسنا، وأوضحت له إلى الاستطالة سننا، لم يتعد من الأضرار إلا حيث انتهيته، ولا تمادي على غيبه إلا حين لم تنهه أو نهيته. ولما علم أنك لا تنكر عليه نكرا، ولا تغير له متى ما مكر في عباد الله مكرا، جرى في ميدان الأذية ملء عنانه. وسرى إلى ما شاء بعدوانه، ولم يراقب الذي خلقه، وأمد في الحظوة طلقه، وأنت بذلك مرتهن عند الله تعالى، لأنه مكنك ليلا يتمكن الجور، ولتسكن بك الفلاة والغور، فكيف أرسلت زمامه حتى جرى من الباطل في كل طريق، وأخفق به كل فريق. وقد علمت أن خالقك الباطش الغيور. يعلم خائنه الأعين وما تخفي الصدور، وما تخفي عليه نجواك، ولا يستتر عنه تقلبك ومثواك. وستقف بين يدي عدل حاكم يأخذ بيد كل مظلوم من ظالم، قد علم كل قضية قضاها، ولا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، فبم تحتج معي لديه، إذا وقفت أنا وأنت بين يديه، أترى ابن زهر ينجيك في ذلك المقام، أو يحميك من الانتقام، وقد أوضحت لك الحجة لتقوم عليك الحجة والله سبحانه النصير، وهو بكل خلق بصير لا رب غيره...).

وقد سبق أن عالجنا علاقته بابن زهر في فصل سابق وبينا آنذاك أن سبب هذا التظلم يعود في الغالب إلى تضييق الخناق على الفتح حين حل بمراكش، وأنه ربما كان التنافس بينهما قد خرج منظوره المادي الذي انتهى في بلاط إبراهيم بن يوسف وأبي بكر بن علي، انتهاء سلميا. إلى طور فيه من الكيد والحقد ما دفع بالفتح إلى الاستجارة بالأمير علي بن يوسف، بعد ان بلغ السيل الزبى وجاوز الحزام الظبيين، ولم يعد يستطيع صبرا على جنايات أبي مروان عليه. والدليل على أن ما بينهما قد بلغ حدا لا يحتمل التهاون أو السكوت، هو أن الفتح قد أشار بأصبع الاتهام إلى مساعدة الأمير علي بن يوسف له، لما ظهر من سكوته

---

[1]- انظر الذخيرة 81/2 و: المطرب 203 و: التكملة ر 1717 و: الذيل والتكملة 18/5. المغرب 270/1. و: المعجب 88. النفح 244/2.

[2]- النفح 245/2.

وتهاونه وإطلاق العنان له (... وهذا ابن زهر الذي أجررته رسنا وأوضحت له إلى الاستطالة سننا، لم يتعد من الأضرار إلا حيث انتهيته ولا تمادى على غيه إلا حين لم تنهه أو نهيته. ولما علم أنك لا تنكر عليه نكرا ولا تغير له متى ما مكر في عباد الله مكرا، جرى في ميدان الأذية ملء عنانه، وسرى إلى ما شاء بعدوانه...). ولعل هذه التهمة هي التي أوحت إلى بعض القدماء أن يشير بأصبع الاتهام إلى الأمير علي بن يوسف، ويجعله مسؤولا عن مقتل الفتح، وقد بينا تهافت ذلك وعضدنا رأينا بما أثبتناه من الحجج، ونضيف إلى أن ما بدا في الرسالة من تجروء الفتح على الأمير علي بن يوسف، سواء في صدرها أو في خاتمتها، ربما كان مما اعتاد الأمير سماعه من ضروب الوعظ. على أن في خاتمة الرسالة ما يشعر بأن الفتح قد ضاقت به السبل، و لم يجد نصيرا لقضيته فقال (... والله سبحانه النصير وهو بكل خلق بصير).

ويبدو أن الرسالة كانت موفقه في عرض ظروف الفتح وملابساته في ظلامته، كما استطاعت أن تختصر تظلمه وتقف على أبعاده الإنسانية، وإن لم توضح حقيقته المادية، وانتهت إلى التشبث بما يتشبث به المظلوم في العادة.

– الشكوى: وهي من المواضيع التي تناولها غرض الإخوانيات وشغلت من نتاج الفتح رسالة روتها الخريدة[1] تعكس في مضمونها الوضعية التي كان الفتح يعيشها خلال فترة من فترات حياته، لعلها الفترة المتأخرة التي لم يلق فيها أذنا صاغية ولا صدرا رحبا، والتي نتجت عنها رسالة التظلم السابقة التي أرسلها إلى الأمير علي بن يوسف، وقد خرج في هذه الرسالة، من الناحية الشكلية، عما اعتدناه في رسائله السابقة من تقديم لموضوعها وبسط لقضيتها الأساسية ثم اختتامها بخاتمة منسجمة مع جوها. حين دخل في الموضوع الأساسي مباشرة وهو عرض حاله ووصف صورة منه حين قال[2] (... أما أنا أدام الله عزك فجوي عاتم وأعيادي مآتم، وصبحي عشاء، ومالي إلا من الخطوب انتشاء، أبيت بين فؤاد قلق وطرف مسهد، نائي المحل عن مزار العود، حيران لا أدري الروض المنور، ولا أحس سهيلا إذا ما لاح ثم غور، قد بعدت إلى حبيبة ودنت مني حوادث بادناها تودي الشبيبة، وأي عيش لمن لزم المفاوز لا يريمها حتى ألفه ريمها، قد رمته النوائب فما أبقى، وارتقت إليه الجوائح في وعر المرتقى، يواصل النوى ولا يهجر سيرا، ولا يزجر في الإراحة طيرا، قد هام

[1]- الخريدة 612/2 وريحانة الألباب (الملكية) 2647 ص 100/ النفح 367/7. أزهار الرياض 104/5.
[2]- الخريدة 612/2.

بالوطن، هيام ابن طاب بالحوض والعطف، وحن إلى تلك البقاع، حنين أثلاث القاع، ولا سبيل إلى تشعب صدع ثبته شاعب، أو تكلمه للدار أحجار وملاعب، وليس له إلى أن يجنح، ولا يرى أمله يصلح، قد طوى البلاد، وتطرف الأرض وتوسطها، و لم يلف مقيلا، ولا وجد مقيلا، إلى الله الشكوى لما أقاسي، وبيده الأقدام والنواصي فإلى متى يعدوني السعد ولله الأمر من قبل ومن بعد).

- الاعتذار: روى له صاحب النفح[1] رسالة قصيرة لا ندري لمن وجهها، ولا نعرف شيئا عن تاريخها. ويظهر من مضمونها أنها تنتسب إلى نفس المرحلة التي تعكسها رسالة الشكوى السابقة، ذلك لأن الفتح يشكو عدم مساعدة الدهر له في إنجاز ما طلب منه مخاطبه ويقول (... لكن الزمان لا يجد، وصروفه لا تنجد،...).

والرسالة من الناحية الشكلية تسير على نفس النسق الذي سارت عليه الرسالة السابقة، من اعتمادها الصيغة المباشرة، وانصرافها من الأسلوب الرسمي المعروف. ولعل السبب يعود إلى أحد أمرين: إما أنها مبتورة في مقدمتها، ولذلك استعصى علينا الاتصال بالتحلية المعروفة في رسائله السابقة. وإما أنها موجهة إلى صديق أو شخص عاد لا يحتاج إلى مثل هذه التحليات، ويكفيه منها في مخاطبته استعمال صيغة (سيدي)

المنهج العام لرسائله

لعل من نافذة القول الحديث عن تطور فن الترسل في الشرق وارتباطه بأصول خاصة، ومجاراة الكتاب الأندلسيين له. ذلك لأن التقسيم الذي خضع له هذا الفن في الأندلس، يجعل من غير العسير على الدارس أن يجد تقاربا كليا بين الترسل هناك ونظيره هنا. وقد استمرت هذه التبعية في مواكبة مدارس النثر المشرقي وأنماطه الفنية، سواء في فن المقامات أو في الرسائل. وإذا كانت الكتابة في الشرق قد (بدئت بعبد الحميد وختمت بابن العميد) [2]، فإن الأندلسيين لم يقفوا عند حدود مدرسة ابن العميد، بل أنه لمن المؤكد أن شهرة الكتابة في الأندلس قد ابتدأت قبل مدرسة ابن العميد، حين وجدنا ذيول مدرسة ابن

1- النفح 37/7.

2- يتيمة الدهر 3/3.

مسعدة والجاحظ، متمثلة في نثر ابن برد، والقسطلي، وابن زيدون، ومن عاصرهم من طائفة الكتاب الوزراء.

ويشير المقري فيما نقله عن ابن سعيد أن الكتابة في الأندلس كانت على ضربين[1]. (... أعلاها كاتب الرسائل، وله حظ في القلوب والعيون عند أهل الأندلس، وأشرف أسمائه الكاتب وبهذه السمة يخططه من يعظمه في رسائله... والكاتب الآخر كاتب الزمام...).

وهو يريد بهذا التفصيل والتقسيم، التمييز النوعي قبل أن يعني التاريخ لظهور فن الترسل أو ما في عموم ذلك.

وإذا كانت مدرسة ابن العميد قد فرضت نفسها على أسلوب كتاب القرن الخامس، فإن أغلب كتاب القرن السادس، قد عملوا على الاستفادة من الأساليب السابقة واللاحقة، فترددت في آثارهم أصداء مدرسة ابن العميد ومدرسة المقامات وغيرهما.

وبالنسبة للفتح فإن الدارس لرسائله يجد أنه كان مخلصا إخلاصا كليا لمدرسة ابن العميد وآفاقها الفنية، مع بعض التغييرات التي يقتضيها الموقف وتدعو إليها المناسبة.

● فبالنسبة للرسائل الديوانية يبدو أن ما تبقى لنا من نماذج الفتح فيها لا يسمح بإصدار حكم جازم ودقيق حول طبيعتها، ولكننا نستطيع أن نقع من خلال النموذجين المتخلفين لنا على بعض الخصائص الهامة فيهما وهي:

1- استعمال المقاييس والأساليب المعروفة آنذاك في الرسائل الديوانية سواء في الافتتاح أو في الاختتام. وقد أشرنا إلى هذا أثناء تناولنا نموذجية الديوانيين:

2- الخبرة الكاملة بموضوع المراسلة مما يتبين واضحا في رسالتيه الديوانيتين السابقتين، وخاصة في ظهير تعيين أحد أصحاب الشرطة.

3- اعتماد الأسلوب المباشر في التعبير، القائم على السجع القصير المتأثر بالازدواجية، المعروف في أسلوب سهل بن هارون، وعمرو بن مسعدة، والجاحظ، وهذه الصفة هي إطار عام يندرج فيه مجموع نثره دون تحديد أو تخصيص.

1- النفح 217/1.

4- اقتباس الآيات القرآنية وتضمين الأمثال والأخبار والمرويات والأشعار داخل الرسائل، وهي خاصية يقوم عليها إنتاجه النثري بصورة عامة أيضا.

- أما بالنسبة للرسائل الإخوانية فإن عددها الكثير وأنواعها المختلفة يسمح لنا بأن نصدر حكما تقريبيا حول مفهوم الرسالة الإخوانية عنده، وهي أنها الرسالة التي تستجيب لظروفه الخاصة والعامة، وتعرض لأحواله المختلفة، وتترجم عن اتصالاته.

ورغم أننا لا نعرف أكثر الذين وجهت إليهم هذه الرسائل. إلا أننا حين ندرسها الدراسة الفنية المقارنة نجد أن الفتح قد استجاب فيها لمقومات الرسالة الإخوانية بكيفية عامة.

1- فاعتماد المقدمات المرتبطة بالصيغ الدعائية (لمن وجهت له الرسالة) يكاد يكون حقيقة مشتركة في جميع رسائله.

2- واعتماد صيغة الدعاء أيضا في ختام الرسائل صفة تتميز بها رسائله. وربما اشترك مع غيره في هذه الخاصية، إلا أن الواضح في رسائله هو أن أمر استجابة هذه الصيغ لموضوع الرسالة أمر محتوم في كل الرسائل.

3- وتنوع الرسائل الإخوانية ميزة خاصة تجعل هذه الرسائل لا تسقط في التكرار عند تناولها لموضوع واحد. فرسالته في صوف النزهة مثلا[1] تختلف في مقدمتها عن الرسالة التي رواها المقري[2] وإن تناولتا موضوعا واحدا هو وصف النزهة. لأن مقدمة الأولى تعرضت لفكرة القنص والانطلاق منها إلى وصف صورة منه، والثانية كان فيها ملحا في الإشادة بالأمير وذكر أثر تشجيعه على إنهاض الحركة الفنية. وموضوع الوصف الذي يجمع بين هاتين الرسالتين يجعلهما مختلفين عن مضمون الرسالة التي يصف فيها الهر[3]. وهذا التنوع لم يكن يمس المادة الموصوفة بقدر ما يمس الغرض من الرسالة أولا. فقد تناولت رسائله أغراض الوصف والتشوق والتعازي والشكر والالتماس والتهاني والتظلم، والشكوى والاعتذار. وهذا التنوع يجعل الفتح يستأثر بأهم الأنواع التي قسم القلقشندي الرسائل الإخوانية إليها.

1- الخريدة 610/2.

2- النفح 659/1.

3- الخريدة 616/2.

4- ثم إن أهم ما تميزت به هذه الرسائل هو جنوحها إلى الاختصار، فبعضها لا يتعدى أربعة أسطر (رسالته إلى القاضي عياض)[1]. وقد اعتذر عن طول رسالته الوصفية التي استودع فيها كتبا ووصف هرا[2].

وميزة الاختصار في رسائل الفتح، ترتبط في اعتقادنا بذوقه الأدبي المتأثر بمفهوم بلاغة الكلام عند القدماء، والمتصل بالإيجاز والوضوح (خير الكلام ما قل ودل)، وهذا الإيجاز لم يمس موضوعها فقط، بل مس أيضا لغتها وتعابيرها. فإذا هي لغة قاصدة مقتصدة، معتمدة الأسلوب المباشر، متأثرة بالسجع القصير الفقرات، وهي ميزة تميزت بها رسائله عموما.

5- ثم إن هناك جانبا ذاتيا يهيمن على كل الرسائل وتطل من خلاله شخصية الفتح في صورها التي جليناها سابقا. وهو الجانب الذي يبدو الفتح فيه أكثر اعتدادا بالذات، وأشد حرصا على الكرامة، وأكثر الناس إقبالا على المشاركة في تيارات الحياة العامة. والدليل على ذلك هو هذه الأغراض الكثيرة التي اشتملت عليها هذه البقية الباقية من رسائله.

6- ثم إن هناك جانبا شكليا يتعلق بعمليتي التصوير من جهة، والانسياب والطلاقة في التعبير من جهة أخرى. فعن التصور يبدو أن الفتح كان متمرسا بالوصف تمرسا جعله قادرا على التحكم في الصورة التي يتناولها صغيرة كانت أو كبيرة بسيطة كانت أو مركبة. وعن الانطلاق والسلاسة في التعبير فإن تعقيد الصورة، لم يمنع الأسلوب من أن يسير مناسبا بسيطا منطلقا من قيود التكلف والصنعة. تقرأه فلا تشعر بالتعثر أو التصنع بقدر ما تشعر بالانسياب، وكأن الرجل يغرف من بحر على حد تعبير القدماء.

7- ثم إن ظهور الاقتباس والتضمين، والابتعاد عن الحوشي والغريب، واستعمال الصيغ الدعائية، يكاد يكون صفة مشتركة بين رسائله الإخوانية والديوانية، بل في أسلوبه جملة سواء كان ذلك متصلا بالنثر التأليفي أم بالنثر الفني.

---

[1]- القلائد 258.

[2]- الخريدة 616/2.

الفصل السادس

المقامة:

نسبت إلى الفتح مقامة في إستاده أبي محمد عبد الله بن السيد البطليوسي، تتناول سلوكه بالتندر وتنعته بالانحراف، وقد ورد الحديث عن هذه المقامة في مخطوط الإسكوريال منسوبة إلى الفتح[1]، كما ورد ذكرها عند بروكلمان من المؤرخين المحدثين[2]. وتناول صاحب الذخيرة الإشارة إليها دون أن يذكر صاحبها، وإنما أشار إلى رسالة ابن أبي الخصال في التبروء منها[3]. وقد جعل هذا بعض الباحثين يذهب إلى تأكيد نسبتها إلى الفتح[4].

والحقيقة أن الأمر يحتاج إلى توضيح يتناول أولا تاريخ تأليف هذه المقامة، ويتناول ثانيا تحقيق من نسبت إليه، ويتناول ثالثا علاقة المهتمين بمن كتبت حوله المقامة. ويتناول رابعا الردود التي رد بها على هذه المقامة والأشخاص الذين كانوا وراء هذه الردود ويتناول خامسا الأطراف التي تستفيد من هذه المقامة وانتشارها.

_ أما النقطة الأولى والمتعلقة بتاريخ تأليف هذه المقامة فالمعتقد أنها من مواليد بداية القرن السادس، وبالتحديد، قبل سنة ثمان وخمسمائة وهي السنة التي توفي فيها أبو الحسين بن سراج. ومن المعلوم أن ابن أبي الخصال كان قد وجه رسالة إلى أبي الحسين[5] يتبرأ فيها مما نسب إليه من أمر هذه المقامة، فمن الضروري أن تكون هذه الرسالة قد وجهت إليه وهو ما زال على قيد الحياة.

_ أما النقطة الثانية والمتسائلة عن الأطراف التي نسبت إليها المقامة. فإن هناك شخصين أحدهما هو أبو عبد الله بن أبي الخصال، وثانيهما هو الفتح بن خاقان، و لم تنسب لغيرهما، فهل كان وراءها ابن أبي الخصال حقا.

---

[1]- مخطوطة الإسكوريال 7/538.

[2]- تاريخ الأدب العربي 108/6.

[3]- الذخيرة 801/3.

[4]- تاريخ الأدب الأندلسي (الطوائف والمرابطين 314).

[5]- الذخيرة 801/3.

+ لقد عرف عن ابن أبي الخصال أنه يكتب المقامات. وله مقامة مشهورة عارض بها مقامة للحريري. فتجربته في كتابه المقامة سابقة. خصوصا وفي هذه المقامة نفس وصفي يتناول وصف الحانات والمخمرين في جملة ما يصف، يقترب في عمومه من المقامة التي نسبت إليه.

+ ثم لماذا لم يراسل ابن أبي الخصال، ابن السيد متبرئا من هذه المقامة وفضل أن يكاتب أستاذه أبا الحسين بن سراج. لعل السبب يعود إلى ما شرحه في مقدمة رسالته مما يتعلق بالتهمة ومكانها ومجلسها[1].

أم كان وراءها الفتح ابن خاقان.

+ لقد عرضنا سابقا لتاريخ كتابة هذه المقامة وأشرنا إلى أنها ينبغي أن تكون من مواليد بداية القرن السادس لما استشهدنا به هناك. وخلال هذا التاريخ كان الفتح ما يزال في مرحلة الدرس لا يتعدى عمره العشرين إلا بقليل، وكان لا يزال في مرحلة فنية، أقل ما يقال عنها أننا نجهلها أولا، ونعتقد أنه لم يكن خلالها قد بلغ مرحلة من الخبرة تسمح له بأن يكتب مقامة في مستوى المقامة المعروفة.

+ ثم إن الشخصية المتخفية وراء هذه المقامة حسب ما هو واضح من خلال رد أبي جعفر بن أحمد في انتصاره[2]، شخصية لها مشاركة في مجالي الشعر والنثر (... كلامه زور ونظامه فجور، ونثاره كذب ومضماره لعب...).

+ وينضاف إلى هذا أن نسبة هذه المقامة إلى الفتح لم تكن في عصره، إذ لو نسبت إليه في عصره لتبرأ منها كما فعل ابن أبي الخصال، لاسيما وأن ما كان يربطه بابن السيد ربما كان أقوى مما كان يربطه بغيره.

_ أما النقطة الثالثة: فلو عدنا إلى علاقة ابن السيد بمن ألصقت بهما المقامة، لوجدنا أن علاقته بابن أبي الخصال غير واضحة في المصادر وضوحا كافيا، لأن الفاصل الزمني الذي يفصل بينهما يجعل من العسير أن يتدنى ابن السيد ليتعلق بابن أبي الخصال. لكن إذا حدث العكس، وكتب ابن أبي الخصال إليه، فمن المعقول أن يجيبه أبو محمد. وقد حدث هذا في

[1]- الذخيرة 801/3.

[2]- المخطوطة 538 ل و104.

نص رواه الفتح نفسه في رسالته التي كتبها حول ابن السيد[1]، حين أورد لأبي محمد شعرا يراجع به ابن أبي الخصال. والذي يبدو من رد أبي محمد أن العلاقة بينهما كانت علاقة توادد، تفضحها عبارات أبي محمد. فيما وصف به كتاب أبي عبد الله، وما حصل عليه من شرف بمكاتبته إياه.

أما علاقة الفتح بأبي محمد فقد فصلنا الحديث عنها في فصل سابق. ومن خلاله يبدو أنه من غير الممكن أن تقوم هذه العلاقة على إنقاض علاقة سابقة كالتي تصورها المقامة.

ـ أما النقطة الرابعة والتي تتناول الردود التي رد بها على المقامة، فهناك رد أبي جعفر بن أحمد وهو الرد الأساسي والوحيد حسب مما بلغنا، ثم هناك رسالة ابن أبي الخصال ولا تدخل في نظرنا في باب الردود، بل هي تنصل من التهمة وكفى.

ففي رد أبي جعفر استنكر في تحلية الرسالة العمل الذي قام به صاحب المقامة، واعتبره مجلبة للذنوب، ثم تخلص إلى وصف ما قام به صاحب المقامة، فإذا هو زور وبهتان يغضب في أصل الملة الرحمن ويرضي الشيطان. وانتقل إلى آثار صاحب القامة فإذا هو[2]

(... إن ذكر العلماء أفحش، أو وصف الفقهاء أوحش أو حلى الأخيار ثلب، أو تلى الأخبار قلب. فالقضاة عنده خدمة سدنة، والولاة ظلمة خونة، والسياسة حبالة، والرياسة أبالة، والخير رياء وشنعة، والبر حيلة وخدعة،...)

وينتقل بعد ذلك ليصف مكانته بين أهل فنه وما يشعر به أهل الأدب من جراء عمله (... له في كل مصر مقالة، وعلى أهله استطالة، في كل قوم قصيد، وفي كل يوم نشيد، قد طوق نفسه عارا، وألحق بأهل الأدب شنارا...) ثم ينحى عليه باللائمة في هذا الاختيار الذي اختاره، وقد كان عليه أن يتنبه إلى أخلاقه (... ويأخذ في تهذيب أطرافه... ويرغب عن هذه العوراء في الجماهير والأعيان، بل يصرف في نشر مفاخرهم لسانه ويصرف إلى ذكر مآثرهم عنانه،...)، ثم يدعوه في نهاية الأمر إلى أن (... يستر هناته عن هذه العورة وأن يقصر شباته عن هذه السورة).

1- أزهار الرياض 133/3.

2- المخطوط 538 ل و104.

ويبدو أن الجريرة التي يحاسب بها أبو جعفر صاحب المقامة هي أنه وقع في عرض أخيه، فاخجل بذلك الأدب والأدباء، وأغضب الله والعباد، وأنه كان عليه إذا وجد هنة إن يسترها أو عورة أن يقصر أو ينصرف عن ذكرها. وأن ينصرف إلى الإشادة بالمفاخر وإلى تحبير الكتب والدفاتر في أخبار رجال الزمان وأصحاب الإحسان.

كما يبدو أن أبا جعفر يعلم مكانة صاحب المقامة وقدرته على ذلك بما يملكه من الأداة وما يتوفر فيه من الصفات. فهل يعني بصاحب المقامة الفتح ؟. لا نستطيع أن نؤكد ذلك لجملة عوامل، منها ما سبق أن ذكرناه من الصفات التي وصف بها كاتب المقامة، ومنها ما كان يربط الفتح وأبا جعفر من صلات روت القلائد صورة منها، ولا يمكن أن تكون هذه الصلات مبنية على أنقاض هذه المقامة.

أما الرد الثاني فليس من جنس الرد الأول لأنه صادر عن شخص وجهت إليه التهمة ويريد نفيها عنه، على عكس الرد الأول الذي انطلق يثأر للمروءة والأخلاق، وينتصر للخير والمعروف. ثم أن مضمونه مختلف أيضا فيما قام عليه من نفي التهمة. فهو ينفيها محتجا بأنه لا يمكن أن يهجو قوما سبق أن مدحهم، وأنه غير مستطيع ذلك، لأن بضاعته مزجاة، وحاجته إلى ابن السيد تصرفه عن ذلك. ثم يصور ما ألحقت به هذه التهمة من الأثر، ويذكر أن هذه المقامة كانت[1] (...كالقيامة حشرت الكرام وجاشت لتخص وباحت لتقص) وينتهي في التنكر لها إلى الاعتقاد بأنها لا تمثل نمطه (... ولن يخفي على ذي بصر نمطها، ولا يغيب مستنبطها... فليصرف هذا اللجام إلى من علكه، ولينط هذا الذم بمن سفكه...) وقد بدا واضحا من خلال هذا الرد أن التهمة وجهت إلى أبي عبد الله بن أبي الخصال في مجلس أبي الحسين، وظهر من أبي الحسين ما يفيد أنه صدق الخبر، الأمر الذي دفع بأبي عبد الله إلى إنكار ارتباط هذا العمل به.

أما النقطة الخامسة: فتتعلق بالأطراف التي يمكن أن تستفيد من هذه المقامة ورواجها. وهذا الموضوع يفترض استعراضا عاما لعلاقات أبي محمد المختلفة برجال عصره، ومن هذا الاستعراض يمكن أن ننتهي إلى تحديد بعض أعدائه الذين يمكن أن يستفيدوا من مثل هذا العمل الذي أنجز في حقه.

[1]- الذخيرة 805/3.

واستعراض علاقته يحتوي أولا على اتصال بتراجمه وما تضمه من الإشارات، ويتصل ثانيا بالمختارات التي رويت منفصلة عن هذه التراجم.

فعن التراجم، يبدو أن الذين ترجموا له لم يذكروا عن عداواته شيئا، فلا صاحب الذخيرة، ولا صاحب القلائد من معاصريه تناولوا شيئا. ولكن المؤلفات والرسائل المختلفة التي حفظت لنا عنه تبديه رجلا مشاكسا ومشاركا في نفس الوقت. فبقدر ما يتحدث عن علمه[1] يتحدث عن خلافه مع أبي بكر بن العربي وما تخلف عنه من كتاب الانتصار الذي ألفه للرد على ملاحظات ابن العربي، ويتحدث عن خلافه مع ابن باجة وما تخلف عنه من رسائل روتها المخطوطة(488)[2].

لقد وضحت لنا آثاره ورسائله ورسائل بعض معاصريه صورة عن ارتباطاته، فذكرت من رجال عصره ابن تليد وابن الأخضر، وابن عباد، وأبا الحسن المجريطي، وأبا محمد بن سفيان، وأبا بكر بن جناح، وأبا محمد بن الأورشي، وأبا عامر بن الكناس، وأبا مروان بن مثنى، وابن الأندي، وابن أبي الخصال، وابن خاقان، وأشارت إلى ما قام بينه وبينهم من علاقات اتسمت في معظمها بالتودد والصداقة. وذكرت من أعدائه أبا الحسين المرسي الذي كتب مقامة رد فيها على ما جاء في رسالة سابقة لأبي محمد[3].

إن الذي يبدو من خلال ما سبق أن ابن السيد كان طويل اللسان، وكانت له علاقات مختلفة، منها ما كان فيها مسالما، ومنها ما كان غير ذلك. وأن أعداءه قد استغلوا فرصة مصافاته لبعض أصدقائه فأرادوا أن يوقعوا بينهم. وهكذا كتبت يد مجهولة المقامة ونسبتها إلى ابن أبي الخصال، لتورث بينهما عداوة تعود على ابن السيد بالشر، خصوصا وقد اشتهر بين الناس بوجه غير الذي تصفه المقامة، فلما أنكرها نسبت إلى معاصره الفتح. وكأن في الأمر هنا مزايدة على بعض الأشخاص، ولو فعل الفتح فعل ابن أبي الخصال بأن كتب رسالة يتبرأ فيها من المقامة لربما نسبت لغيره، وهكذا.

1- الصلة رقم 634.

2- المخطوط 488 لو 29 وما بعدها.

3- المخطوط 488 لو 116.

الفصل السابع

شعره:

أشارت بعض الأصول التي ترجمت للفتح إلى مجموعة من الاختيارات الشعرية المنسوبة إليه (المغرب معجم الأدباء، الإحاطة، النفح)، و لم تكن هذه الاختيارات كثيرة فهي لا تتعدى أربع مختارات روى منها صاحب المغرب[1] بعد قوله (وأحسن ما أنشده من شعره قوله:

سقى أرض حمص بالأصيل وبالضحى ... سحاب كدمعي يستهل ويسجم

ومدت بها للروض إبراد سندس ... تطرزها كف الغمام وترقم

وحيي الحيا أرض الغروس وروضها ... بحيث التوى فيه من النهر أرقم

وهي أبيات لاشك أنه نظمها وهو بعيد عن إشبيلية، إذ تعرض لحنينه إليها وشوقه إلى أرضها، وهو شوق ينعكس على ما يتمناه العرب عموما للمواطن التي يحبونها ويشتاقون لزيارتها، من السقيا المنهملة والاخضرار المستمر. وليس في هذه الأبيات ما يميزها عن شعر الحنين إلا اسم حمص (كنية إشبيلية) والإشارة إلى نهرها في البيت الأخير. وإذا كان هذا أحسن ما ينشده صاحب المغرب للفتح فلاشك أن شعره لم يكن على درجة كبيرة من الجودة، لأنه متأثر بأسلوب الكتاب الذي ينشد الزخرفة ويبحث عن الصيغ غير المباشرة. وروى صاحب الإحاطة، وصاحب النفح ـــ نقلا عن الإحاطة ـــ[2] مختارة إخوانية له وهي التي وجهها إلى أبي يحيي بن الحاج حين زاره في فاس[3]، وفيها يقول:

أكعبة علياء وهضبة سؤدد ... وروضة مجد بالمفاخر تمطر

هنيئا لملك زار أفقك نوره ... وفي صفحتيه من مضائك أسطر

وأني لخفاق الجناحين كلما ... سرى لك ذكر أو نسيم معطر

1- المغرب 260/1.

2- الإحاطة 249/4. ونفح الطيب 30/7.

3- القلائد ض 204/ المطوب 189.

وقـــد كـــان واش هاجنـــا لتـــهاجر فبـــت وأحشـــائي جـــوى تتفطـــر

فهـــل لـــك في ود ذوى لـــك ظـــاهرا وباطنـــه ينـــدى صـــفاء ويقطـــر

ولســـت بعلـــق بيـــع بخســـا وأنـــني لأرفـــع اعـــلاق الزمـــان وأخطـــر

وقد سبق أن أشرنا إلى المناسبة التي نظمت فيها هذه القطعة في الفصل الخاص بعلاقاته، واستنتجنا آنذاك ما استنتجتاه من التنافس الذي كان قائما بينه وبين ابن أبي الخصال ونتائجه. ونود هنا أن نشير إلى أن القطعة من باب الأدب الإخواني الذي عم الشعر والنثر، وأصبح الكتاب خلاله يراسلون غيرهم شعرا بهدف التنويع والتحدي، وأن الفتح عمد إلى خطاب أبي يحيي شعرا وهو يعلم أن مترلته عنده ليست مترلة الشعراء. ولذا كان جواب ابن أبي الخصال من جنس خطاب الفتح حتى يبرهن له ولولي نعمته أنه لا يقل عنه مكانة فنية.

وعن الأفكار التي تضمنتها القطعة فإن الذي يبدو أن الفتح ابتدأها بالمدح، فالممدوح كعبة علياء يحج إليها من يطلب المعالي ويقدرها قدرها، وهضبة سؤدد ارتفع بها مجده عن غيره، وروضة مجد تمطر بالمفاخر، والملك قد تنور حيث زاره لأنه كتب بمضائه أسطر المفاخر في صفحته، ثم أشار إلى ما يستفاد منه أنه مشتاق إليه وإن ما قام بينهما من تهاجر سببه الوشاة، وأخيرا دعاة إلى مبادلته الود، لأن ود الفتح ثابت وإن بدا أنه قد زال بفعل القطيعة، لأنه متمكن في قلبه. ونبهه إلى أهميته حتى لا يبيع وداده بأبخس الود فيفضل عليه غيره من الذين عملوا على الإيقاع به وأبعاده عن الأمير أبي يحيي.

فهذه الأفكار التي تتضمنها القطعة تلتقي التقاء كاملا مع ما نعرفه عن نفسية الفتح آنذاك من إذلال لا حد له بالعبقرية ومن شعور بتضخم الأنا، الشيء الذي يدفع إلى القول بأن هذه الأنا قد أفسدت صورة المدح التي عرضها في البيتين الأولين.

وروى صاحب النفح عن نسخة من المغرب أبياتا في المدح يقول فيها[1]:

إلى أين ترقى قـــد علـــوت علـــى البـــدر وقـــد نلـــت غايـــات الســـيادة والقـــدر

[1]- النفح 34/7.

وجــــدت إلى أن لـــيس يـــذكر حـــاتم   وأغنيت أهل الجذب عـــن ســـبل القطـــر
وكـــم رام أهـــل اللـــوم بـــاللوم وقفـــة   وبحـــرك مـــد لا يـــؤول إلى جـــزر
ولـــو لم يكـــن فيـــك الســـماح جبلـــة   لأثـــر ذاك اللـــوم فيـــك مـــع الـــدهر

ففي هذه القطعة التي لا نعرف لمن وجهت ولا مناسبتها، يبدو مدح الفتح شديد الالتصاق بالأقانيم المشهورة للمدح، ففي البيت الأول هناك رفعة الشأن المرتبطة بالسيادة والقدر العالي، لأن النسب كان آنذاك في مقدمة ما يتمدح به. ويلتقي المعنى العام للبيت مع معاني المديح المشهورة في هذا الباب.

وفي البيت الثاني يتناول معنى الكرم في صورتين: الأولى ارتباطه بكرم حاتم، وهو معنى متداول، والثانية ارتباط هذا الكرم بغاياته ونتائجه، فهو يغني عن المطر المنهمل، وهو معنى مطروق أيضا. وفي البيت الثالث والرابع يشير إلى أن الكرم جبلة فيه وطبيعة لا ينال منها لوم اللوام.

والذي يبدو أن القطعة منشاة لاستدرار كرم الممدوح، بدليل التركيز على خاصية الكرم في ثلاثة أبيات، وهذا هو الذي يدفع إلى الزعم بأن تاريخ كتابتها يرتبط بفترة زمنية عانى فيها الفتح من الحاجة ما عانى فاندفع إلى امتداح من يثق في كرمه ولا يتأثر بلوم ولا توجيه.

وأخيرا روى صاحب النفح نقلا عن ابن الإمام قطعة في الغزل يقول فيها[1]:

لله ظـــــبي مـــــن جنابـــــك زارني   يختـــــال زهـــــوا في مـــــلاء مـــــراح
ولي التماســـــك في هـــــواه كأنـــــه   مـــــروان خـــــاف كتائـــــب الســـــفاح
فخلعـــــت صـــــبري بـــــالعرا ونبذتـــــه   وركبـــــت وجـــــدي في عنـــــان جمـــــاح
أهـــــدى لي الـــــورد المضـــــعف خـــــده   فقطفتـــــــه بـــــــاللحظ دون جنـــــــاح
وأردت صـــبرا عـــن هـــواه فلـــم أطـــق   ورأيـــت جـــدا في خـــلال مـــزاح

[1]- النفح 34/7.

وتركت قلبي للصبابة طائرا تهفو به الأشواق دون جناح

فقد بنى هذه القطعة الغزلية على ما اشتهر من معاني الغزل المرتبطة بسلبية المحب وعدم قدرته على مواجهة دلال محبوبه، مكتفيا من حبه بما يتيسر للناس جميعا من النظر إليه، وراضيا بعد ذلك بأن يصعد الزفرات وأن يجد صبره منبوذا بالعراء، وقلبه طائرا تهفو به الأشواق دون أن يكون له جناح.

ولن ندخل هنا في عموم الأحكام التي تنظر الغزل عامة والأندلسي منه خاصة، ولن نحاول أن نوجد علاقة بين الغزل فيها والغزل عند الأندلسيين، لأنها نموذج منفرد لا يمكن أن يكون دعامة لحكم عام على ذوق الفتح أو ذوق عصره، لأن ذلك إنما يتم عن طريق استخلاص المعاني الغزلية المنتشرة في دواوين شعراء العصر كابن خفاجة، وابن وهبون، والأعمى التطليلي...، مع التحفظ في إصدار حكم نهائي وشامل لأن الطباع تختلف والمواقف تتباين.

على أن الذي يبدو من القطعة هو أن الفتح لم يكن يعتني فيها بجانب المضمون، بقدر ما كان يستهويه الشكل، ولذلك مال إلى استجداء التاريخ تارة، والمأثور أخرى، والمحسنات البيانية والبديعية ثالثة، ليضفي على القطعة هذه الجمالية الخاصة التي يتعشقها ندماء المجالس والتي تطرب العلماء والأدباء. وبعبارة فهو شعر كاتب يستوحي من أساليب الكتاب أسلوبه الشعري.

الفصل الثامن

الملامح النقدية في آثار الفتح

عرضنا في الفصول السابقة لآثار الفتح بالوصف والتحليل. وذكرنا أهم ما اشتملت عليه هذه الآثار من عناصر الترجمة وآفاق الاختيار. ولكن بعض الأحكام النقدية التي وجدناها مبعثرة في ثنايا التراجم حملتنا على وضع سؤال حول ما إذا كان الفتح صاحب مذهب نقدي متميز يعرف به ويتفرد به بين أصحاب التراجم الأندلسيين، وازدادت وجاهة هذا السؤال حين قارنا مجهوده في باب الترجمة بمن سبقه أو عاصره من رجال التراجم.

وقد انتهينا في آخر الأمر إلى الاقتناع بضرورة البحث في الأفق النقدي الذي جرى فيه الفتح، وتحديد أبعاده ومناحيه.

وهكذا فإن من يرجع إلى آثاره المتخلفة يجد أن الآفاق النقدية التي يمكن تلمسها تتحدد في صورتين: الأولى متعلقة بمنهجه في الترجمة. والثانية متعلقة بموقفه من الاختيارات التي ضمنها التراجم

1) أما الصورة الأولى فقد تعرضنا ونحن نتناول منهجه في التراجم سواء من خلال القلائد أو المطمح أو من خلال رسالته في ابن السيد، تعرضنا للمنهج العام الذي قامت عليه الترجمة، وفصلنا القول في عناصره الكلية التي تقوم على اختيار طبقي غير معروف عند من سبقه من كتاب التراجم وأصحاب المختارات. وقد زعمنا آنذاك أنه لم تكن هناك وفي تنويعه لهذه الطبقات من غاية إلا رصد هؤلاء الأعيان في أبعادهم الاجتماعية والسياسية وتحديد مكانتهم الأدبية. كما فصلنا القول في عناصرها الجزئية وما تضمه من أخبار عن مكانة المترجم له وعن حياته، والجانب المهم فيها بكيفية خاصة، ثم عن إنتاجه الأدبي وأهمية ما اختار منه.

وبهذا تبدو تقنية الترجمة عنده بالغة بعدا هاما في التنظيم والتقنين، تجمع بين أصول الترجمة عند علماء الحديث، وما تقوم عليه من دقة الأخبار والاهتمام بالأحداث البارزة، وبين أصول الترجمة في كتب الاختيارات وما تتميز به من سطحية وعفوية. وقد بدا لنا من خلال دراسة شكل الترجمة ومضمونها أنه كان يعي أهمية المعلومات التي يسوقها، ودورها في فهم نفسية الأديب وتذوق إنتاجه، وإنه لذلك كان يهتم بالجانب المهم في حياة المترجم

له، والذي كان له تأثير خاص على تطور حياته وتلونها باللون الذي اشتهرت به. وبهذا يوجد ترابطا بين الترجمة والاختيارات، فتصبح الاختيارات شاهدا على ما أوجز الحديث عنه في قسم الترجمة، وتصبح الأخبار التي تتصدر المختارات طريقا إلى فهم النصوص وتذوقها التذوق المطلوب، وكأنها أسباب نزول تفسر ما أشكل وتفصل ما أجمل.

2) أما الصورة الثانية والتي تتعلق بموقفه من الاختيارات. فهي التي تحدد لنا بصورة أو بأخرى البعد النقدي العملي الذي نبحث فيه هذا البعد الذي يمكن تجسيده في واجهات كثيرة هي:

أ ــ الاقتناع التام بالشخصية التي يترجم لها ويختارها لتجاري المنحى الذي قام عليه الكتاب[1]. (... ولما كان الفقيه الأجل... رأيت أن أفرد كتابا في أخباره، وأجرد ذبابا في أعظامه وأكباره، ليبين به فضل من ضممته تصنيفي، ويعلم بأخباره ما أودعت في تأليفي...).

والاقتناع بالشخصية عنده لا يقوم على أصول عاطفية يتحكم فيها الشعور الشخصي أو تتأثر بمواقف خاصة، بل هو اقتناع قائم على توخي الجودة والبحث عنها أينما كانت. وهذا هو الذي دفعه إلى أن يثبت ترجمة ابن عبد الغفور ويقول[2]: (... فقد علم الله أني انحرف عن التعليل واغفر الكثير للقليل وأتغافل عن الهنات لذوي الهيئات، وآخذ الحسنة من أثناء السيئات، وقد أثبت له ما شذ من إبداعه ولم أبخل بتضمينه في هذا التصنيف وإيداعه...) كما دفعه أيضا أن يقول عن ابن باجة[3] (... وله نظم أجاد فيه بعض أجادة، وشارف الإحسان أو كاده..) بعد أن بالغ في نعته خلال الترجمة بكل مرذول.

ب ــ الاقتناع الكامل بالمادة المختارة، هذا الاقتناع الذي يسعى إلى تبريره بوسائل كثيرة أهمها:

● الاحتجاج على جودة الأثر الأدبي باشتماله على عناصر الجودة الموضوعية. وتعتبر هذه الوسيلة من أهم ما يعتمد عليه الفتح في تقريض الأثر الأدبي. وبهذا فهو يجاري ما انطبع عند أغلب النقاد السابقين لعصره، حين كانوا يبحثون في عنصر الجودة في الأثر

---

[1]- أزهار الرياض 105/3.

[2]- القلائد 183.

[3]- القلائد 347.

الأدبي ويرون أن عياره[1] (...أن يورد على الفهم الثابت فما قبله واصطفاه فهو واف، وما مجد ونفاه فهو ناقص). ويعللون هذا الفهم الثابت بجملة عناصر (... فإذا كان الكلام الوارد على الفهم منظوما مصفى من كدر العي مقوما من أود الخطأ واللحن، سالما من جور التأليف موزونا بميزان الصواب لفظا ومعنى وتركيبا، اتسعت طرقه ولطفت مواجله، فقبله الفهم وارتاح له وأنس به...).

فالانطباع الطيب الذي يتركه الأثر الأدبي، لا يمكن أن يقوم على عناصر عفوية، بل لابد أن تكون هناك مقومات الجودة التي تزكي حكم الطبعي. ومن هذا الانطباع يمكن استنتاج الأصول العامة لعملية الاختيار عند الفتح:

- فهو يختار من الكلام الوارد على الفهم، المصفى من كدر العي، الذي لا تعقيد فيه. ولذلك هاجم في غير هوادة ابن عبد الغفور وأهمه بالتقعر والتوعر فقال:[2]. (لتهوره وكثرة تقعره فإنه بادي الهوج، واعر المنهج، له ألفاظ متعقدة، وأغراض غير متوقدة، لا يفك معماها، ولا يعلم مرماها)، وهاجم أبا مروان عبد الملك بن مثنى[3] وأهمه بنفس ما اهم به ابن عبد الغفور. وبهذا يلتقي مع الجرجاني[4] في ذمه للتعقيد وتعليله لذلك.
- كما يختار الكلام المنطقي السالم من جور التأليف واضطراب الجودة في الأقسام. لذلك امتدح ابن الجد وقال عنه (... آية الإعجاز في الصدور والأعجاز...) فهو يرى بهذا أن من مقاسات الجودة أن يسلك الشاعر في إنتاجه مسلكا معتدلا، فلا يجود في قسم على حساب قسم آخر. وقديما تنبه ابن قتيبة وهو يتحدث عن المناسبة بين أجزاء القصيدة قائلا[5]: (فالشاعر المجيد من سلك هذه الأساليب وعدل بين هذه الأقسام... ولم يطل فيمل السامعين ولم يقطع وبالنفوس ظمأ إلى المزيد...)
- ويختار الشعر المطبوع الذي يجري مع النفس جريان الهواء والماء، لذا امتدح الطبع واعتبره مقياسا أساسيا في الجودة وقال عن ابن عمار[6] (... وكان مع نقض إبرامه ورفض

[1]- عيار الشعر 27.
[2]- القلائد 183.
[3]- المطمح 30.
[4]- أسرار البلاغة 124.
[5]- الشعر والشعراء 75.
[6]- القلائد 94.

إمامه، شاعرا مطبوعا قد عمر للإحسان مترلا وربوعا...) وقال عن ابن البني[1] (...مطبوع النظام نبيله...) وقد عني بالطبع ما ذهب إليه النقاد من سلامة الشعر من التكلف[2].

- وليس معنى هذا أنه يرفض الصنعة أو يقلل من شأنها، لأنه يفضل أن يُجري الأديب على إنتاجه المراقبةَ التي تسمح له أن يزيل منه الزوائد والأوشاب. ولهذا قال عن ابن هانئ[3].

(... فإنه اعتمد التهذيب والتحرير...) وقال عن ابن اللمائي[4] (... إمام من أئمة الكتابة... والظاهر على مصنوعها بمطبوعها). ولعل المصنوع عنده لا يختلف عنه عند غيره من النقاد، بدليل أن رؤيته حول المصنوع القائم على التنقيح والترتيب، تلتقي مع ابن رشيق[5] وهو يتحدث عن مفهوم الطبع والصنعة حين قال: (... ومن الشعر مطبوع ومصنوع. فالمطبوع هو الأصل الذي وضع أولا... والمصنوع وإن وقع عليه هذا الاسم فليس متكلفا تكلف أشعار المولدين، لكن وقع فيه هذا الذي سموه صنعة من غير قصد ولا تعمل... فاستحسنوه ومالوا إليه بعض الميل بعد أن عرفوا وجه اختياره على غيره، حتى صنع زهير الحوليات على وجه التنقيح والتثقيف... والعرب لا تنظر في أعطاف شعرها بأن تجانس أو تطابق... ولكن نظرها في فصاحة الكلام وجزالته...)

ج ـــ الأثر الذي تخلفه الجودة في النفس. وقد لاحظنا في تقديمه لكثير من المختارات أنه يقدمها فيصف أثرها الذي تخلفه في النفس. ورغم أنه لا يصف بدقة وموضوعية هذا الأثر، إلا أنه يقدمه في صور ومفردات واصطلاحات تجعل الأمر مفهوما ومستساغا.

ولقد سعى إلى التعبير عن هذا الأثر بمشتقات عديدة لكلمات الحَسَن والبديع والمستعذب والمستطاب، كما اهتم بتشبيه الآثار الأدبية وجمالها بالزهور والرياحين والخمر والأشجار والفواكه والمياه والمرأة، والمحبوب وكل صور الطبيعة الجميلة. فانتهى في عملية التذوق إلى إقامة وحدة جمالية تختلف مادتها ويتفق تأثيرها، وكأني به يعتقد بأن من يسمع قصيدة كمن يشم أريج وردة، أو يبصر منظرا جميلا من مناظر الطبيعة أو يتذوق طعاما أو شرابا لذيذا. وهذا المقياس الحي ربما كان مختلفا عن المقياس الموضوعي الذي أشرنا إليه

1- القلائد 343.

2- العمدة 124/1.

3- المطمح 75.

4- المطمح 25.

5- العمدة 124/1.

سابقا بالنظر إلى أن الأذواق تختلف والطباع تتباين، ومن الصعب أن يستقطب تذوق المرء مظاهر الجمال المختلفة التي أشار إليها. وعلى كل فإن اتساع ذوق الفتح يحمل على الاعتقاد بأنه لم يكن يعبر عن إعجابه لعناصر الجمال، بل كان يعبر عن ذوق العصر بكيفية إجمالية.

د ـــ التنبيه إلى ما استبدعه بعض الشعراء وتفوقوا به على غيرهم. وهو في هذا الباب يزكي حكمه الذي انتهى به إلى وضع هذا الشعر أو الأديب ضمن طائفة الأعيان والفحول، بما يشير إليه من مستبدعاته ومبتكراته.

فهو يقول عن ابن اللبانة مثلا[1] (... وتقلد النظام حساما لا تنبوا مضاربه، وولد غرضا لا يدانيه أحد ولا يقاربه...) ويقصد بهذا التوليد والابتكار ما انتهى إليه ابن اللبانة من بكاء الدول والملوك مما لم يكن مشهورا عند الشعراء إلا في حدود ضيقة جدا.

ويقول عن ابن هانئ[2] (... وأما تشبيهاته فخرق فيها المعتاد وما شاء منها اقتاد...) ويعني ما انتهى إليه ابن هانئ في تشبيهاته واستعاراته. ويقول عن ابن وهبون[3] (.. أحد الفحول البرئ من المطروق والمنحول...) وبهذا اهتم كما لاحظنا في باب الابتكار والخلق بما يتعلق بالابتكار في الغرض وفي الصورة وفي المعنى. وهذه العناصر ربما تكون من أهم ما كان يلاحظه وهو يجري عملية الاختيار، بدليل أنه كان يتجاوز المعاني المستهلكة والمطروقة في القصائد المختارة، فلا يثبتها، لأنها ليست مجالا للافتخار.

هـــ ـــ موقفه النقدي من المختارات: وقد سعى إلى تحديد موقفه النقدي من المختارات التي يختارها عن طريق أشكال متعددة من النقد نجملها في الآتي:

أولا: النقد الوصفي: فقد اتجه في كثير من المختارات التي أوردها إلى تقديمها تقديما يترجم عن مضمونها ويحلل معانيها. ومثال ذلك ما جاء في رسالته في ابن السيد[4] (وما أبدع قوله في وصف الراح والحظ على النبذ للهموم والأطراح بمعاطات كؤوسها وموالاة تأنيسها ومعاقرة دنانها، واهتصار ثمار الفتوة وإفنائها، والأعراض عن الأيام وانكادها، والجري في ميدان الصبوة إلى أبعد آمادها...).

---

[1]- القلائد 282.

[2]- المطمح 75.

[3]- القلائد 278.

[4]- أزهار الرياض 109/3.

ثانيا: النقد الوصفي التقويمي: وهو الذي يصف فيه عمل الشاعر ويقومه التقويم النقدي الذي يراه ملائما للموضوع مثل قوله في وصف الفرس لابن السيد[1] (... وله يصف فرسا، هو مما أبدع في التمثيل له والتشبيه، ونبه خاطره فيه أحسن تنبيه، وخلع عليه سياق لاحق والوجيه، وعمه بالمحاسن وتوج، ونسبه إلى الخطار وأعوج...).

ثالثا: النقد التقويمي: وقد عرضنا لصوره المتعددة، وعرفنا منها ارتباط تقويمه للأثر الأدبي بما يخلفه في النفس، وباشتماله على مظاهر الجودة، وباتصاله بأسباب الابتكار والتوليد...

رابعا: النقد التاريخي: ويقوم على صور كثيرة:

1- تتمثل في الأثر الذي تتركه الأحداث التي عبرت عنها القصائد في نفسه، فينجرف للتعبير عن موقفه من هذه الأحداث كما حدث في تعليقه على نكبة المعتمد[2]، وكما حدث حين قال معلقا على أبيات لابن السيد في وصف الراح[3] (... ولله هو فقد ندب إلى المندوب، وذهب إلى مداواة القلوب من الندوب، وإبرائها من الآلام، وإهدائها كل تحية وسلام، وإبهاجها بآصال وبكر، وعلاجها من هموم وفكر، في زمن حلي عاطله، وجلي في أحسن الصور باطله، ونفقت محالاته وطبقت رضه وسماءه استحالاته، فلبيبه كأسد، وديبه مستأسده...)

2- تتمثل في تصحيح بعض الأخطاء التاريخية المتعلقة بإخبار بعض الشعراء: كالسبب الذي أخرج من أجله ابن هانئ من الأندلس[4] أو تصحيح ادعاء ملكية قصيدة[5].

3- تتمثل في تحديد تاريخ نظم قصيدة مع ذكر مناسبتها.

خامسا: النقد المقارن وهو على صورتين: صورة يعجب فيها باقتفاء الأديب أثر من سبقه في ميدان أو غرض من الأغراض، فيعتبر مجاراة الشاعر لغيره صورة من صور التحدي كما فعل مع إحدى غزليات ابن السيد[6] (... وقال يتغزل، وتصرف فيه تصرف غيلان مي، ووصف كل حواء وحي، وذكر العشق وارتاد الإبداع، حتى عدا به مصره فأجاد

1- أزهار الرياض 108/3.
2- القلائد 5.
3- أزهار الرياض 109/3.
4- المطمح 75.
5- أزهار الرياض 111/3.
6- أزهار الرياض 112/3.

معانيه، وأشاد مبانيه...)، وصورة يفضح فيها نوعا من أنواع السرقات الأدبية، لم يسمه باسمه، مثل ما فعل بأبي عامر بن عقال[1] حين ربط معنى بيتين له بأصلها في الشعر العربي، وكذا ما فعله مع ابن شهيد[2].

وهذه الألوان المختلفة من النقد الأدبي التي ظهرت في آثاره تدفعنا إلى القول بأنه لم يكن مخلصا لمدرسة نقدية معينة يسير على منوالها ويحترم قواعدها وأصولها، بل كان يتصرف بحرية منهجية كاملة في هذا الباب. ورغم أنه لم يلتزم بأفق من الآفاق السابقة في تراجم بعينها، فإن انصرافه عن هذا الالتزام هو الذي جعلنا نعتقد بأنه لم يتعامل مع كثير من النصوص إلا على ضوء معارفه وذوقه وما اشتهر في عصره وما نقله عن أساتذته، كالخصائص العامة للمدح في نقده لمدح الأسعد بن بلطية[3] أو خصائص الغزل[4].

وعلى العموم فلو حاولنا وضع تفسير لمصطلح المحاسن والملح التي وردت في عنواني القلائد والمطمح لوجدنا أن مثل هذه المصطلحات لا تخرج عن ما أشرنا إليه في حديثنا عن موقفه من الأعيان الذين ترجم لهم والمختارات التي اختارها لهم.

فالمحاسن ما اجتمعت فيها شروط الحسن الموضوعية التي تقوم على احترام الذوق العربي الأصيل، والابتعاد عن الزخرفة التي تنصرف إلى الغموض والتقعير. والمحاسن أيضا ما حسنها الذوق المهذب ورضيها.

والملح هي المختارات المرتبطة بالأخبار والأشعار التي تعطي فكرة عن ما بلغه الأندلسيون في ميدان الابتكار والتوليد، وما انتهوا إليه من فنون الأوصاف وأشكال المعاني وآفاق الأفكار.

1- المطمح 87.

2- المطمح 17.

3- المطمح 83.

4- أزهار الرياض 112/3.

الفصل التاسع

فنه النثري:

ينتمي الفتح ابن خاقان – باعتباره كاتبا ـــ إلى القرن السادس الهجري، لأن إنتاجه لم يظهر إلا في بداية هذا القرن، حين ألف القلائد والمطمح ومجموع رسائله وبعض كتبه المفقودة. ولما كان قد ولد في الربع الأخير من القرن الخامس، ونشا في ظلال ثقافته وعلى يد أعمدة علمه وفكره، فقد كان من الضروري أن تكون لهذا القرن امتداداته على صعيده الفكري والفني، وأن يتلمذ لطائفة من رجاله الذين أشارت تراجم الفتح إلى بعضهم كالصدفي، وابن العربي، وابن السيد، وأغفلت الآخرين، وأن يروي عن جماعة أخرى روايات لا ندري طبيعتها ومادتها إلا من باب التأويل والتخمين. وقد تجلى ارتباطه برجال القرن الخامس واضحا فيما قدمه في آثاره من أخبار ومختارات تركزت في مجملها حول هذا القرن ورجاله على اختلاف طبقاتهم، من أمراء ووزراء وكتاب وفقهاء وقضاة وشعراء. فكان لهذا الاستقطاب دوره في اطلاع الفتح على أهم ما أثر عن هذا القرن ورجاله والتأثر به.

إن ارتباط الفتح بعصره لم يكن ارتباطا عاطفيا أملته ظروف القضاء على دويلات الأندلس التي كان يتعاطف معها ومع رجالها، بقدر ما أملته ظروف أخرى تتصل بموقف الأندلسيين من أنفسهم ومن مجاراتهم لتيارات الشرق الفكرية والفنية. مما دفع بعضهم إلى التنطع عن هذه المجارة وبناء كيان جديد للأدب الأندلسي ولأقطابه، تفاخر الأندلس به الشرق، ويظهرها على حقيقتها. وقد تنبه إلى هذا ابن حزم قبل هذا القرن، فنعى على الأندلسيين تلفتهم نحو الشرق وانصرافهم عن أعلامهم وعلمائهم، وسار في خط التحدي هذا كل من الجياني والحميري، وبلغ الذروة مع ابن خاقان وابن بسام، ثم من جاء بعدهم.

لقد هدف الفتح من مؤلفاته أن ينسى الأندلسيين في محاسن العراق، وأن يجعلهم يضربون عن ما يرد من تلك الآفاق[1]. وكان فيما يرجوه تأكيد على الصبغة المحلية التي أراد أن يصبغها على إنتاجه بصورة عامة. وإذا كان قد حقق جانبا من هذا الهدف في

[1]- مطمح الأنفس (الملكية) ص 243.

مضمون مؤلفاته، فإن أسلوبه في التعبير قد استطاع أن يقدم نموذجا ناجحا في التحدي الفني الذي يقوم على أصول يمكن جعلها مميزات عامة تميز بها أسلوبه. وهذه الأصول هي:

1) التنوع والتلون فقد كان الفتح يعتقد أن لكل مقام مقال، ولكل خطاب لغة، وقد تجلى هذا بكيفية عملية في تنوع أسلوب مؤلفاته. فبقدر ما اعتنى بالمفردة والجملة والصورة في قلائده، فجعلها مختارة دقيقة موحية بليغة تنشد التعجيز والإعجاز، حتى قيل عنه إنه يتحدى فيها من ذكرهم من الشعراء والبلغاء[1]، بقدر ما مثل هذه الخصائص في القلائد، فقد بدا في مطمحه ميالا إلى التبسيط مع الزخرفة، ينشد أن يكون أسلوبه صورة لموضوع الكتاب، أي أن يكون ملحة من الملح.

وبدا في رسائله أيضا منوعا أسلوبه التنوع الذي يفرضه موضوع الرسالة. وللاستدلال على ذلك نذكر نبدا من آثاره.

– ففي ترجمة أبي الحسن بن اليسع[2] نجده يقول (عامر أندية النشوة وطلاع ثنايا الصبوة، كلف بالحميا كلف حارثه بن بدر، وهام بفتى سماط وفتاة خدر، فجعل للمجون موسما، وأثبتها في جبين أوانه ميسما، وكان قبل أن ترقيه الرياسة أعوادها، وتحله فؤادها لا يجد عمادا، ولا يرد إلا ثمادا، فلما أصبح عاقد كتائب، وقائد جنائب، وصاحب الويه، ومنفذ بديهة في الأمور وروية، جرى إلى لذاته ملء العنان، وغدا بها مجنون الجنان، وترك الملك مهملا، ومشى في طرق الاستهتار خببا ورملا...) فوجدناه يستخدم من أشكال التعبير ما أصبحت معه الترجمة قطعة فنية رائقة بما حوته من تلميحات وإشارات تاريخية وفنية، واقتباسات ناجحة ولغة مناسبة في تعابيرها لمضمون الترجمة وحياة صاحبها. وقد كان هذا ديدنه في تراجم القلائد كلها، يراعي الظرف ويلبس لكل حالة لبوسها.

– وفي ترجمة ابن الفرضي[3] يقول (... كان حافظا عالما كلفا بالرواية، رحل في طلبها، وتحبر في المعارف بسببها، مع حفظ من الأدب كثير، واختصاص بنظم منه ونثير، حج وبرع في الزهادة والورع، فتعلق بستار الكعبة يسأل الله الشهادة، ثم فكر في القتل ومرارته، والسيف وحرارته، فأراد أن يرجع ويستقيل الله فاستحيي ثم آثر نعيم الآخرة على شقاء الدنيا. فأصيب في تلك الفتن وقتل مظلوما. أخبرني من رآه في جملة القتلى وهو بآخر

[1]- شذرات الذهب 107/4.

[2]- القلائد 190.

[3]- المطمح 57.

رمق أنه سمعه يقول: بصوت ضعيف: في سبيل الله، والله يعلم من يكلم في سبيله، إلا جاء يوم القيامة وجرحه ينفت دما لونه لون الدم وريحه ريح مسك... كانه يعيد الحديث على نفسه ثم قضى...). فقد بدا أنه لم يتكلف في لغته و لم يتأنق، فالاسجاع قليلة، والمفردات مأنوسة، والزخرفة مقتصدة، وليس معنى هذا ان كل تراجمه في المطمح تسير على هذا المنوال، ولكن المقصود أنه لم يتأنق في كتابته إلا مع طائفة قليلة من معارفه ومعاصريه نذكر منهم ابن العربي[1]، وأبا الفضل يوسف بن الأعلم[2].

– وفي رسائله وجدناه ينحو هذا النحو فلغته في رسائل الوصف مثلا تختلف عنها في غيرها، وقد كان يشعر بهذا، ونبه إليه في ذيل الرسالة التي كتبها إلى أحد أصدقائه يستودع عنده كتبا ويصف هرا حين قال[3]: (... وقد أوردت أدام الله عزك في وصفه وصفا معربا، وهزلا مطربا، إخلاصا في الطوية واسترسالا، وتسريحا للسجية وإرسالا، على أنني إذا استعرت في لغته لسان أبي عبيد، وأظهرت في صفته شان أبي زيد، ما انتهيت في النطق إلى نصابك، ولا احتويت في السبق على قصادك...) فقد ذكر أنه استعار لغة أبي عبيد، العالم اللغوي (صاحب الغريب المصنف) وصفة أبي زيد الأنصاري البصري شيخ سيبويه، (وصاحب النوادر في اللغة) وأراد بهذا جميعا استعمال اللغة المهجورة التي لم يتعود استعمالها. وفي اعترافه هذا تصريح بأنه كان يميل إلى هذا التنوع في المقال تبعا لمقتضيات المصلحة وظروف الحال. بينما كانت رسائله الديوانية وظهائره أقرب إلى أسلوب الرسائل في إخلاصها لوحدة الموضوع وانصرافها إلى وضوح العبارة واقتصادها في الزخرفة. وقد وضحنا ذلك في فصل سابق خاص بمميزات الرسائل.

2) الاعتماد على الوضوح: فقد بدا من خلال مواقفه من بعض معاصريه أنه لم يكن مع أسلوب التقعير في الخطاب ولا الزخرفة التي تتجاوز الحد[4]، فإن اضطر إلى ذلك بفعل عامل من العوامل اعتذر عنه[5]. والوضوح بالنسبة لأسلوب الفتح لا يعني الخروج عن بدعه العصر القائم على استخدام الزخرفة بألوانها المختلفة، وإنما يعني استخدامها بنوع من الطلاقة

---

[1]- المطمح 62.

[2]- المطمح 64.

[3]- الخريدة 617/2.

[4]- القلائد 112.

[5]- الخريدة 617/2.

يجعلها مقبولة مستحبة. وللتدليل على ذلك فإنه في رسالته في وصف القنص[1] لم يستخدم لغة الطرديات المشهورة بل وضع تقريرا موجزا عن النزهة، لم يورد فيه لفظة غريبة ولا استعمالا حوشيا. وحتى في ترجماته كان أكثر ميلا إلى هذا الأسلوب وإن بدا استعماله الموسع لأفانين الزخرفة البيانية والبديعية فإنه لم يسمح لهذه الزخرفة أن تجعل أسلوبه أسيرا لها. ولعل هذا هو الذي عناه أبو محمد طلحة بن القبطورنة حين امتدح أدبه[2].

3) استعمال المحسنات. واستعمالها كما أشرنا كان بدعة العصر. وقد أفلح الفتح في أن يصبغ أسلوبه بألوانها المختلفة. فلم يهتم بنوع خاص منها. بل انصرف إلى تضمين آفاق المحسنات المختلفة، من محسنات بيانية تعتمد التشبيه والاستعارة والمجاز والكناية. ومحسنات بديعية تعتمد تجميل الأسلوب عن طريق الزخرفة اللفظية المتمثلة في فنون البديع المختلفة، كالجناس والطباق والسجع والتضمين والاقتباس والتورية.

● وهكذا فبالنسبة للمحسنات البيانية فإن الفتح كان مهتما فيها بالتشبيه والمجاز والاستعارة أكثر من اهتمامه بالكناية. ولعل السبب يعود إلى ارتباط الكناية باستعمالات مشهورة يعتبر مجال الإبداع فيها ضيقا. وقد ارتبط استعماله للتشبيه بأنواعه المختلفة فاستعمل منه مثلا التشبيه البليغ بما يراد به من التأكيد والمبالغة في ارتباط المشبه بالمشبه به. وأغلب ما يرد هذا التشبيه، في نثره التأليفي، وخاصة عند حديثه عن الآثار التي تخلفت للمترجم له من ثل قوله[3]: (وله أدب... أن نثر فالنجوم في أفلاكها، أو نظم فالجواهر في أسلاكها)، كما استعمل التشبيه التام[4] وهو الذي يرد غالبا في قطعة الوصفية وفي بعض رسائله كقوله من رسالة يصف فيها نزهة وقنصا[5] (... وأعلام الدولة قد حفوا بلوائه... كأنهم النجوم إشراقا، والدرر انتظاما واتساقا) واستعمل الأنواع الأخرى منه كالمرسل والتمثيل...، واهتمامه بالتشبيه أورث أسلوبه اتصالا بأوسع أبوابه وأقربها إليه وهو باب الاستعارة، إلا أنه لم يكن يتصنع فيها كثيرا بل كان يختار أقربها وأسلسها. واستعمل أيضا المجاز واهتم فيه خاصة بالمرسل. ولم يغفل الكناية ولكنها لم تكن ظاهرة ظهورا بارزا، للأسباب التي ذكرنا سابقا.

1- الخريدة 610/3.
2- القلائد 169.
3- القلائد 154.
4- خزانة الأدب (الحموي) 173.
5- الخريدة 612/2.

● أما المحسنات البديعية فقد اهتم فيها بالمحسنات اللفظية التي تشمل السجع والجناس... والمحسنات المعنوية التي تمس الطباق والتورية...

فعن السجع: كان الأسلوب العربي الأصيل منصرفا عن التعمل في اصطياد السجعات، بل نفر الإسلام منه كما روي في بعض الأحاديث[1] ولكن هذا لم يمنع الكتاب في القرون اللاحقة أن ينصرفوا إلى مجاراة الزخرفة القرآنية وأن يتكروا من الأساليب الجارية على مقتضاه ما ينتهي بهم إلى تجويد أداة التعبير، خاصة في العصر العباسي حين قام النقاش حول أهمية اللفظ والمعنى. وانتهى إلى الاعتقاد بان المعاني ملقاة في الشارع، وإنما يتفاوت الكتاب بجودة تعابيرهم وإشراقة مفرداتهم.

وفي ظل هذا التطور نشأت مدارس نثرية كبرى كان من أهمها مدرسة الجاحظ ومدرسة ابن العميد التي انتهت إلى قيام مدرسة المقامات. وسايرت الأندلس تطور فنون النثر الشرقي، فأشار دارسوا الأدب الأندلسي إلى المراحل التي قطعها النثر حتى عصر الفتح وحددوها في مرحلة النثر المتأثر بأسلوب الخطابة، ثم النثر المتأثر بمدرسة الجاحظ وسهل بن هارون، ثم النثر المتأثر بمدرسة ابن المعتز، والمقامات. وهذا الأخير هو الذي ارتضى أساليب في التعبير اهتمت بالزخرفة على صعيد الجملة وعلى صعيد المفردة.

أ ـــ فعلى صعيد الجملة كان السجع أول ظاهرة لاقته للنظر وقد كان على عهد الفتح قصير الفقرات، متأثرا بالازدواج في أبسط صوره. وقد اهتم هو ومن عاش في عصره بهذا النمط واستجابت مختاراته وآثاره لهذا الشكل الخاص. ورغم أن جمهور الكتاب أخذوا بعده ينصرفون إلى تطويل السجعة وتنويعها على نحو ما بسطه ابن عبد الغفور عند الحديث عن أنواع السجع، والمُغَصن منه خاصة[2] فقد تناولت سجعات الفتح ما عبر عنه ابن عبد الغفور بالمتساوي[3]. كما تناولت الأنواع الأخرى منه. ويمكن اعتبار مقدمة رسالة الفتح التي روتها الخريدة[4] صورة لذلك (... ما تزال الغرائب أيد الله الملك الأجل معرصة في منتزهاته، وتثور في ثنيات متوجهاته، فتزيد الأنس انفساحا وتورث النفس ارتياحا، فتنطلق

1- أحكام صنعة الكلام 231/ خزانة الأدب: 423.

2- أحكام صنعة الكلام 141 و235.

3- نفس المرجع 240.

4- الخريدة 610/2.

من عقالها، ويتدفق بحر مقالها). فقد أثبات في سجعاته الثلاث الأقسام الثلاثة التي ينقسم إليها السجع على العموم.

وعلى صعيد الجملة أيضا هناك ظاهرة الاقتباس، وهي من أكثر الظواهر بروزا في إنتاجه لاسيما في الرسائل الدوانية والإخوانية[1].

و لم يستعمل من الاقتباس إلا النوعين المشهورين (المقبول والمباح) [2] و لم يستعمل النوع الثالث لأنه لا يتناسب مع ما يريده لنفسه ولأثاره من الظهور والانتشار.

وعلى صعيد الجملة أيضا هناك ظاهرة التلميح وهي كما حددها ابن حجة[3] أن يشير ناظم هذا النوع في بيت أو قرينة سجع، إلى قصة معلومة، أو نكتة مشهورة، أو بيت شعر حفظ لتواتر، أو مثل سائر يجريه في كلامه على جهة التمثيل...) وقد أكثر الفتح من هذا اللون من التعبير إكثارا دل على سعة أفقه وكثرة اطلاعه وحفظه واستحضاره وقدرته على المقارنة الناجحة. وكان أكثر ما اهتم به في هذا المجال من التعبير مختصا بالقلائد والمطمح، إذ كان فيها أكثر حاجة إليه وهو يتناول الأخبار والرجال والمواقف. وليس معنى هذا أنه لم ينصرف إلى ذلك في رسائله فقد قدم لبعضها بأبيات شعرية مشهورة[4] وعرض في بعضها لما ذكرناه من نحو قوله[5] (... فإن نبهتك فإنما نبهت عمرا...) إشارة إلي عجز البيت الشعري (.... فنبه لها عمرا ثم نم).

ب ــ وعلى صعيد المفردات هناك ظاهرة الجناس، وهو يستعمل منه الكامل كما يستعمل الناقص، بما يعنيه النقص من اختلاف وتنوع. و لم يكن استعماله له مقصورا على نثره التأليفي بل كان ظاهرة واضحة في أسلوبه ومفرداته. ولعل الذي دفعه إلى هذا التجنيس، أنه كان يحافظ على السجعات ويجري وراءها، فينتهي به هذا إلى ضروب الجناس المختلفة. وقد كان على معرفة واسعة بأفانين الجناس بدليل أنه أثبت للقاضي عياض منه تجنيا غريبا يسمى بالمتشابه[6] تناوله القاضي عياض بالشرح في بغية الرائد وسماه بهذا الاسم

1- الإحاطة 251/4 والنفح 245/2.
2- خزانة الأدب (الحموي) 443.
3- نفس المرجع 184.
4- الخريدة 613/2 و623.
5- النفح 37/7.
6- القلائد 25.

وعده من المتكلف[1]. ولعل الفتح لم يجده كذلك، بدليل اختياره له نموذجا من النماذج الناجحة.

وهناك أيضا ظاهرة الطباق. وطباق الفتح لم يكن طباقا مركبا في الغالب، بل كان طباقا بسيطا يقوم على تقابل المفردات نحو قوله في ترجمة عبد الملك بن مثنى[2] (كثير القعاقع، قليل اليرامع...) أو قوله عن الرمادي[3] (فأجمع على تفضيله المختلف والمتفق. فتارة يحزن وأخرى يسهل...) وعلى العموم فاستعماله للمحسنات لا يقف عندما ذكرنا. وبحسبنا التدليل على اهتمامه بهذا الجانب.

4) فنية التصوير وقد تناول القدماء هذه الخاصية وهم يتحدثون عن قدرته على إظهار المثالب، وضربوا المثل على ذلك بموقفه من ابن باجة. والحق أن فنية التصوير عنده تتجاوز هذه الحدود الضيقة ذلك لأن مراجعة سريعة لآثاره تكشف لنا صورا متعددة لهذه الفنية.

– فهناك التنوع في الموصوفات فقد وصف الدول ومصائرها والنكبات التي هدت كيانها، ووصف المجالس على اختلاف أشكالها وخاصة مجالس اللهو. ووصف المنتزهات حتى أضحت أوصافه لها مرجعا للمؤرخين، ووصف النزهات وحفلات الصيد، ووصف الحيوانات، ووصف المشاعر الإنسانية، المتجلية في صور متعددة،... كالتظلم مما أصابه على يد ابن زهر، وتصوير شعور ابن عبد الغفور تجاه الآخرين، وتهتك ابن البني، وسلوك ابن باجة).

– وهناك الدقة في التصوير. فقد كان كالنحات يمسك بالإزميل وكومة الطين، لينحت ويُجمل ويقدم ويؤخر ويضيف، حتى ينتهي إلى أن تصبح صورته كاملة يرتضيها الذوق وتبتهج لها النفس.

– وهناك العناية بالتشخيص. فصوره المختلفة (الحية والجامدة) تستوحي مادتها من الحياة وأبعادها لتنتهي إلى صور قريبة من النفس لائطة بمظاهر الحياة المختلفة.

– وهناك أخيرا التوسل بالأساليب المختلفة في التعبير المباشر منها وغير المباشرة. وقد أسلفنا الحديث عن أساليبه في التعبير وأشكالها.

---

[1]- بغية الرائد 194.

[2]- المطمح 20.

[3]- المطمح 69.

وعلى العموم فقد استطاع الفتح من خلال هذه الصور أن يقدم لنا عناصر جديدة في التعبير تستمد مادهّا من شخصيته وبيئته وثقافته ونمطية تفكيره، لتجعله أمير النثر الأندلسي لو كان في دولة النثر أمراء.

الخاتمة:

فقد وجدت نفسي بعد أن أنهيت هذا البحث غيري في موقفي من الفتح أولا، ومن الأحكام العشوائية التي أطلقها بعض الذين كتبوا عنه قديما وحديثا، والتي انتهت إلى التنقيص من شأنه والتقليل من قيمه آثاره على صعيد فن الترجمة وعلى صعيد الاختيارات.

فعن الفتح. كنت أربط شخصيته بقلائد العقيان، التي كنت قد اتصلت بها اتصالا سطحيا في مرحلة من مراحل دراستي. وبدا لي يومذاك شخصا متصنعا يبحث عن الزخرفة، ويتجاوز بها ما هو مفروض ومطلوب في عملية التأريخ الأدبي، كما بدت لي مختاراته ضئيلة الأهمية إذا ما قورنت بغيرها من كتب المختارات.

وعن ترجمته. فقد كنت شبه مقتنع بما انتهت إليه رواية ابن دحية وابن سعيد حول مقتله. وكنت أرى أن ذلك الجزاء كان من جنس العمل.

وأما اليوم فقد أصبحت أومن بأشياء أخرى، ربما كانت هي النتيجة التي انتهى إليها بحثي في هذا المجال. سواء فيما يتعلق بشخصيته، أو فيما يتعلق بموقفه من عصره، أو موقف عصره منه، أو اتصالاته، أو سلوكه، أو نهايته، أو في موقف المترجمين منه ومن آثاره. وربما كان هذا الذي انتهيت إليه جديدا في بابه، لأنه قام على الاعتماد على النصوص الثابتة والاستشهادات التي تحمل كثيرا من الحقائق، واستنتاجات مبنية على أرضية صلبه، وعلى معاشرة آثاره معاشرة صوفية خلال حقبة طويلة. فقد انتهيت إلى فهم نفسيته فهما واضحا، وبدا لي نمط تفكيره نمطا سويا، وبدا لي ذوقه ذوقا راقيا متصلا بأصول الذوق العربي وبالقواعد النقدية التي انتهى إليها النقاد العرب قبله. وبدا لي منهجه في التراجم والاختيارات منهجا دقيقا مبنيا على فهم متشبع بتقنيات التراجم، وواع بحقيقة الاختيار وأهدافه.

ولم أجد نفسي في يوم من الأيام نادما، أكثر من ندمي على تصديق ما كتبه بعض المستشرقين حوله وما نقلوه عنه والذي يعتبر ماسا بالبحث العلمي ودوره في الكشف عن الحقائق.

على أن ما انتهت إليه دراستي ليس هو كل ما ينبغي أن يكتب حول الفتح. فإن هناك أبوابا جديرة بالبحث والاستقصاء انصرفت عنها لأنها لا تمس موضوعي مسا كليا، واكتفيت بالتنبيه عليها، كدراسة المصطلح النقدي والبلاغي في عصره من خلال آثاره،

وكالحديث عن الجانب التاريخي وآفاقه في آثاره، لعلمي أنها تشكل موضوع أبحاث مستقلة، ولاعتقادي أن نتناولها سيسئ إلى منهج البحث.

فعسى أن أكون عند حسن الظن، وأن أنال من اجتهادي نصابا كاملا. والله الموفق للصواب.

قائمة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم

- **المصادر المخطوطة:**

- تزيين قلائد العقيان بفرائد التبيان / ابن زاكور 1049 ج (خ العامة).
- تزيين قلائد العقيان بفرائد التبيان/ ابن زاكور 1548 (الملكية).
- تزيين قلائد العقيان بفرائد التبيان/ ابن زاكور 319(الملكية).
- ريحانة الألباب: المواعيني 3647 (الملكية).
- قلائد العقيان: ابن خاقان 475 (الملكية).
- قلائد العقيان: ابن خاقان 2863 (الملكية).
- قلائد العقيان: ابن خاقان 1061 (الملكية).
- قلائد العقيان: ابن خاقان 585 (الملكية).
- قلائد العقيان: ابن خاقان 5851 (الملكية).
- قلائد العقيان: ابن خاقان 2423 ك (خ العامة).
- قلائد العقيان: ابن خاقان 350 ك (خ العامة).
- قلائد العقيان: ابن خاقان 370 ج (خ العامة).
- قلائد العقيان: ابن خاقان 821 ج (خ العامة).
- قلائد العقيان: ابن خاقان 543 القرويين.
- قلائد العقيان: ابن خاقان 1249 القرويين.
- قلائد العقيان: ابن خاقان 200 الأميرية.
- مطمح الأنفس ابن خاقان: 805 (الملكية).
- فهرس الغزيري/ الأسكوريال 488 الأسكوريال
- فهرس الغزيري/ الأسكوريال 538 الأسكوريال.

- **المصادر المطبوعة:**

- الإحاطة: ابن الخطيب/ ت عنان الخانجي.
- أحكام صنعة الكلام: ابن عبد الغفور ت الداية دار الثقافة.
- أخبار وتراجم أندلسية: السلفي ت احسان عباس دار الثقافة.

- أزهار الرياض: المقري / ت جماعة / وزارة الأوقاف (المغرب).
- أسرار البلاغة: الجرجاني / ت ص رشيد رضا دار المعرفة.
- الاستقصا: الناصري/ دار الرشاد
- أعمال الأعلام: ابن الخطيب/ ت بروفنسال تر حسين مؤنس.
- الانتصار: ابن السيد/ ت حامد عبد المجيد / الأميرية
- البيان المغرب: ابن عذاري / ت إحسان عباس دار الثقافة
- بستان المحدثين: شاه عبد العزيز الدهلوي الهندي الحنفي
- بغية الرائد: عياض/ ت جماعة وزارة الأوقاف (المغرب).
- بغية الوعاة: السيوطي / ت محمد أبو الفضل إبراهيم دار الفكر المكتبة الأندلسية.
- بغية الملتمس: الضبي/ المكتبة الأندلسية.
- تذكرة الحفاظ: الذهبي.
- تدبير المتوحد: ابن باجة/ ت د معن زيادة.
- تهذيب تاريخ دمشق: ابن عسكر.
- التعريف: محمد بن عياض/ ت د محمد بنشريفه وزارة الأوقاف.
- جذوة الاقتباس: ابن القاضي المكناسي.
- الحلل الموشية: ت زكار/ زمامة دار الرشاد.
- الحلة السيراء: ابن الأبار/ ت حسين مؤنس.
- خريدة القصر: العماد الأصفهاني/ ت جماعة مصر دار نهضة مصر للطبع والنشر.
- خزانة الأدب: ابن حجة الحموي/ دار القاموس.
- ديوان الأعمى التطليلي: ت / إحسان عباس دار الثقافة.
- الديباج المذهب: ابن فرحون/ دار الكتب العلمية
- الذخيرة: ابن بسام/ ت إحسان عباس دار الثقافة.
- الذيل والتكملة: ابن عبد الملك/ ت عباس و: بنشريفة.
- رايات المبرزين: ابن سعيد المغربي/
- شذرات الذهب: ابن العماد الحنبلي / ذخائر التراث العربي.
- الشعروالشعراء: ابن قتيبة/ ت شاكر/ دار المعارف.
- شيوخ العصر في الأندلس: حسين مؤنس/ المكتبة الثقافية.

- صبح الأعمى: القلقشندي، دار الثقافة والإرشاد.
- الصلة: ابن بشكوال/ المكتبة الأندلسية.
- عيار الشعر: ابن طباطبا/ ت محمد زغلول سلام دار نشأة المعارف.
- العمدة: ابن رشيق/ ت محيي الدين عبد الحميد/ دار الجيل
- القرطاس: ابن أبي زرع الفاسي/ دار المنصور.
- قلائد العقيان: ابن خاقان/ العنابي/ المطبعة العتيقة.
- قلائد العقيان: ابن خاقان/ الطوبي / التقدم العلمية.
- كشف الظنون: حاجي خليفة/ دار المثنى.
- المرقبة العليا: النباهي/ المكتب التجاري.
- المطرب: ابن دحية/ ت جماعة / دار العلم للجميع.
- المطمح الأنفس: ابن خاقان/ مطبعة الجوانب
- المعجب: المراكشي/ ت العريان والعلمي / دار الاستقامة.
- معجم أصحاب الصدفي: ابن الأبار/ المكتبة الأندلسية.
- معجم الأدباء: ياقوت/ دار المامون.
- المغرب: بنو سعيد/ ت شوقي ضيق / دار المعارف
- مقدمة ابن خلدون: عبد الرحمان بن خلدون/ إحياء التراث.
- نفخ الطيب: المقري/ ت إحسان عباس / صادر.
- هدية العارفين: البغدادي/ المثنى.
- وفيات الأعيان: ابن خلكان/ ت إحسان عباس/ صادر.

- **المراجع:**

- تاريخ الأدب العربي: بروكلمان / تر النجار / دار المعارف.
- تاريخ الأدب الأندلسي: إحسان عباس/ الثقافة.
- تاريخ الفكر الأندلسي: بلانسيا/ ت مؤنس / النهضة المصرية.
- تكملة المعاجم العربية: دوزي (النسخة الأجنبية).
- فهرس الخزانة الملكية: عبد الله عنان/ المطبعة الملكية
- المرابطون: عبد الهادي شعيرة.
- المرشد إلى فهم أشعار العرب/ د. عبد الله الطيب/ دار الفكر.

- **المعاجم:**

– القاموس المحيط: الفيروز أبادي / دار الفكر.

– مختار الصحاح: الرازي/ المكتبة الأموية.

الفهرس العام للكتاب:

تقديــم 3

تصدير تاريخي 5

الـبـاب الأول 19

الفصل الأول: الترجمة – دراسة نقدية........................ 21

الفصل الثاني: الترجمة: محاولة متكاملة. 27

الفصل الثالث: علاقاته من خلال مؤلفاته........................ 61

الفصل الرابع: نهايته.. 127

الباب الثاني 141

الفصل الأول: أثاره.. 143

الفصل الثاني: قلائد العقيان في محاسن الأعيان........................ 153

الفصل الثالث:مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس. 235

الفصل الرابع: رسالة في ترجمة أبي محمد بن السيد البطليوسي.... 267

الفصل الخامس: رسائل الفتح.. 279

الفصل السادس: المقامة.. 301

الفصل السابع: شعره.. 307

الفصل الثامن: الملامح النقدية في آثار الفتح................................. 311

الفصل التاسع: فنه النثري... 319

الخاتمة.. 327

قائمة المصادر والمراجع... 329